د. علي محمد محمد الصلابي

نوح عليه السلام

والطوفان العظيم

ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية

دار ابن كثير



تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

إهداء

إلى إخوتي في الإنسانية :

الباحثون في قدوات لهم في هذه الحياة ؛ لكي يتأسوا بهم في حياتهم

- العقدية
- الروحية
- الأخلاقية
- السلوكية
- الفكرية

ويجدوا الأجوبة الشافية عن الأسئلة الوجودية الكبرى في حياة الإنسان

ويتعرفوا على فقه إدارة الصراع مع القوى الظلامية والشيطانية والإبليسية

فلم يجدوا أعظم من سِيَر أولي العزم من المصطفين الأخيار .

فهذه سيرة أول رسول من أولي العزم ، أهديها لبني الإنسانية أينما كانوا

لمعرفة جزء من تاريخ البشرية ، والاطلاع على الحضارة الإنسانية الأولى وزوالها ، وبداية الحضارة الإنسانية الثانية بسلامها وبركاتها .

فقد تم استخراج قصة نوح عليه السلام من كتاب الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وإنها لقصة مليئة بالدروس والعِبر والفوائد والسُّنن ونواميس الله في الإنسان وفي هذا الكون .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

[الكهف : ١١٠]



مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70- 71].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرِضى.

أما بعد هذا الكتاب امتدادٌ لمشروعٍ علمي جديد يتعلق بالدراسة المستفيضة عن أولي العزم وقصص الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم.

وهو جزء من موسوعة ﴿أولوا العزم من المرسلين﴾ التي أحلم بإتمامها، وأرجو من الله تعالى أن تكون لوجهه الكريم خالصة، ولعباده نافعة، فإن البشرية في أشد الحاجة لمعرفة سير

الأنبياء والمرســـلين من خلال كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وشـرح تراجمهم وأخلاقهم وأصـول دعوتهم من أحاديث الرسـول ﷺ الصـحيحة، وأقوال العلماء الراسخين بأسلوب عصري يلائم المرحلة التي تمرُّ بها الإنسانية الباحثة عن إجابات شــافية لتســاؤلها عن الله والكون والحياة، والجنة والنار، والقضــاء والقدر، والرســالات والنبوات والحضارات الإنسانية القديمة، ومتى نشأت؟ وما مصيرها؟ وسنن الله في خلقه، وأصول الأخلاق، والقيم الروحية...إلخ، وإدارة الصراع بين الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر والكفر والإيمان...إلخ.

إنني أحمد الله العلي الكبير أن وفقني للاهتمام بهذه المواضـيع، وأحمده وأشـكره على نعمه التي لا تحصـى ولا تعدّ، وأسـأله أن يمدني بتوفيقه وتسـديده وتأييده في الكتابة المنهجية النافعة لبني الإنســان، وأن يطرح لها القبول بين الناس، ويجعلها ســبباً في هداية الباحثين عن الحقائق الكبرى في الوجود للوصول إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصــديقين والشــهداء والصــالحين وحســن أولئك رفيقاً، وأن تســهم هذه الكتابات في تنوير العقول وتطهير النفوس وتزكية الأرواح البشــرية؛ لاســتشــراف الحق والتمسك به والذود عنه.

ويتحدث هذا الكتاب عن النبيِّ نوح عليه الســلام، وقد سميته {**نوح عليه الســلام والطوفان العظيم وميلاد الحضــارة الإنســانية الثانية**}، وقد قســمته إلى مجموعة من المباحث، وهي كالآتي:

في المبحث الأول:

تحدثت فيه عن فترة ما قبل نوح عليه السلام، وبيَّنت أنه ليس بين آدم ونوح رسول، وأن الأصل في الإنسان التوحيد، وشرحت فيه الآيات التي أكدت هذا الأمر:

كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **[البقرة: 213].**

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **[الروم:30]** .

وقال تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾**[الأعراف: 172].**

ووضحت من خلال القرآن الكريم أنَّ التوحيد هو أصل دعوة الرسل، وإليه دعوا أقوامهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ **[الشورى: 13]** .

وذكرت أقوال علماء الآثار والباحثين في الأديان في أصل التوحيد، وتطرقت إلى أول شرك وقع في بني آدم، واعتمدت على القرآن الكريم في المادة التاريخية، واعتبرته مصدراً لا يعلو عليه، ونسبة الحقيقة فيه مطلقة 100% غير قابلة للشك ولا الطعن؛ لأنه كتاب الله الذي " لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ "، فقد احتوى

على معلومات عظيمة متعلقة بسـير الأنبياء والمرسـلين وقصـصـهم، قال تعالى: ﴿وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُـلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود120].

في المبحث الثاني:

كان الحديث فيه عن دعوة نوح عليه السلام، ومعنى النبيّ والرسول في اللغة والاصطلاح وحقيقة النبوة، والحكمة من بعث الرسـل والأمور التي تفرد بها الأنبياء، كالوحي وعدم التوريث وأعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، والأرض لا تأكل أجسـادهم وعصـمتهم وأهمية الإيمان بالرسـل والأنبياء والمرسـلين، وكون نوح من أولي العزم، وكونه أول الرسـل إلى أهل الأرض، والأب الثاني للبشرية، وأبو الأنبياء والمرسلين، ووصف﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:2]، والمدة التي عاشها نوح عليه السلام على الأرض.

وتكلمت عن توحيد الله في رسـالة نوح عليه السـلام وقيامه بدعوة قومه إلى عبادة الله وتقواه وطاعته وإفراده بالعبادة، وأن الإسلام هو دين نوح عليه السلام والرسل جميعاً، وأن الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد.

في المبحث الثالث:

وضـحت فيه مواقف قوم نوح من دعوته من سـورة هود، وسـور الأعراف والمؤمنون والشـعراء، وكيف كان رد نوح على شـبهاتهم بالفعل والمنطق والحجة والبرهان، كقوله لقومه: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:28]، وكيف واجه قومه بالتحدي والشـجاعة والتوكل على الله لما آذوه واتهموه بالجنون والضـلال، وسـخروا منه وأسـاؤوا الأدب معه،

وتوعدوه بالرجم وغير ذلك، فتحداهم أكبر التحدي قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ **[يونس:71-73]** .

ووقفت على صفات قوم نوح عليه السلام متأملاً ومتدبراً الآيات القرآنية التي وضحت أنهم:

- ﴿كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ **[الأعراف: 64]** عمون
- ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود: 44]** ظالمون
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ **[الأنبياء: 77]** قوم سوء
- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ **[القمر: 9]** التكذيب
- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ **[الذاريات: 46]** فاسقون
- ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ **[النجم: 52]** الطغيان

وذكرت معوقات قبول دعوة نوح عليه السلام من قومه والتي منها:

- المعوق الأول: الكبر
- المعوق الثاني: العناد
- المعوق الثالث: التقليد الأعمى
- المعوق الرابع: الوثنية

- المعوق الخامس: الملأ، وقد تم شـــرحها في الكتاب مع تفعيل أعمال الملأ من المكر والترف.

في المبحث الرابع:

وتناولت فيه بيان نوح لربه تجاه قومه وشـكواه من معصـيتهم له، ودعاؤه عليهم في سـورة نوح حيث فسـرت الآيات التي جاءت في سـورة نوح بأسـلوب سـهل مع عمق وعلم واستفادة من علماء التفسير الكبار، وكانت هناك وقفات من خلال الآيات مع أساليبه في الدعوة في السـر والعلن والليل والنهار والحرص على هدايتهم، وترغيبه لقومه وحثهم على الاســتغفار، حتى ينالوا مغفرة الله، وتنهال عليهم الخيرات، قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِـلِ السَّـمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ جَنَّـاتٍ وَيَجْعَـلْ لَكُمْ أَنْهَـارًا ﴾ **[نوح 10-12]**، ودعوتهم إلى التفكر في عـالم الأنفس﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾**[نوح 13-14]**، ودعوتهم إلى التفكر في السموات والأرض وما فيهن، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّـمْسَ سِـرَاجًا﴾ **[نوح: 15-16]**، ودعوته إلى التفكر في البعث والنشـور﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ **[نوح:17-18]**، ودعوته لتذكر نعم الله في تسـهيل العيش على الأرض﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ **[نوح: 19-20]**، وعرضت الآيات التي بيَّنت شـكوى نوح عليه السـلام من معصـية قومه له، ودعاؤه عليهم، وتفسـير العلماء لهذه الآيات الكريمة إلى نهاية سورة نوح عليه السلام.

في المبحث الخامس:

كان الحديث فيه عن سفينة نوح عليه السلام والطوفان العظيم، وتفسير الآيات المتعلقة بهذه الأمور ابتداءً من:

قول الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ **[هود:36].**

وقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ **[هود:37].**

وقوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ **[هود:38-39].**

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **[هود:40-41].**

وكيف تم إغراق الأرض بالماء؟ وكيف حدث الطوفان؟ وبيَّنت ذلك الحدث الكوني العظيم من خلال الآيات الكريمة التي ذكرها الله في سورة القمر: قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ* فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ* فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ* وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ* وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ* تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ* وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ* فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ **[القمر:9-16].**

وتحدثت عن الحوار الذي ذكره الله بين الأب المؤمن بالله العظيم الحريص على سلامة ابنه في دينه ودنياه، وبين الابن العاق البعيد عن هداية الإيمان المنغمس في سجن الكفر والضلال في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ **[هود:42-43]**.

وفي غمرة الأحداث التي تصورها الآيات القرآنية، وبين صخب الأمواج التي تنحسر وتمتد في بحر هذه الأرض كلها، ينطوي هذا المشهد فجأة لنرى من ورائه مباشرة عودة الهدوء إلى الدنيا ورجوع كل شيء إلى نظامه السابق، فقد هدأت الزمجرة وسكتت العاصفة، وولدت الدنيا كما كانت من جديد، وتعال فلنتأمل في اللوحة الإلهية التي رسمت هذا المشهد[1]، قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ **[هود:44]** .

إن هذه الجمل القرآنية العجيبة تصور لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله، بل القابض عليه كله، تتصرف به كما تشاء في سمائه وأرضه، وبحاره وجباله وفي كل شيء، ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير أو لعظيم وحقير، ألا ترى كيف علقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كان عليه بعد أن التقت مياه السماء والأرض على طوفان هائل مخيف على كلمة صغيرة "وقيل"؛ لتصور لك سهولة الأمر وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدنيا وزوالها.

1محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن؛ تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1999 م، ص 574.

وقد وقفت مع سؤال نوح عليه السلام ربه في شأن ابنه وطلبه المغفرة والرحمة من عند الله متأملاً ومتدبراً ومسترشداً بأقوال علماء أهل التخصص من أئمة التفسير في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:45-46-47].

وذكرت زوجة نوح الكافرة وماذا قال الله فيها، مستخرجاً الدروس والعبر والفوائد من الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم:10].

إنَّ نوحاً عليه السلام جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى والتي بدأت من آدم عليه السلام، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد العبادة للخالق العظيم وتطورت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت وأخطأت السبيل في قيمها الروحية ومعرفتها بخالقها العظيم، فأرسل الله عز وجل نوحاً عليه السلام إلى قومه فأقام عليهم الحجة، ومضت سنة الله في زوالهم واستئصالهم وآمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطوفان العظيم.

إنَّ من أسباب ونهاية الحضارة الإنسانية الأولى عوامل عديدة من أهمها:

– الكفر بالله عزَّ وجل: وقد رفض قوم نوح دعوة التوحيد ورســـالات الله وكفروا بها وحاربوها، ووصفهم الله بالكفر كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَـــرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود:27].

– الشرك بالله: وقد سجل القرآن الكريم موقفهم النهائي من الشرك وعبادة الأصنام بعد المواعظ البليغة والنصــائح الغالية التي بذلها لهم نوح عليه الســلام، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:23].

– الظلم: يعتبر من أكبر عوامل سقوط الحضارات وزوال الأقوام:

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:14].

وقال تعالى: ﴿ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ [هود:37].

وقال تعالى: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود:44].

– تكذيب الرسـول الكريم (نوح عليه السـلام): وردت آيات كثيرة تدل على أن تكذيب الرسل كان سبباً في هلاك الأمم السابقة وهذه الآيات واضحة الدلالة وصريحة في العلاقة بين تكذيب الرسل وبين ما حاق بهم من الهلاك والدمار

قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝ وَأَصْـــحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَـــىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج:42-44].

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ [الفرقان:37].

- إيذاء نوح عليه السلام بأنواع الإيذاء ودعاؤه عليهم:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ **[القمر:9].**

وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ **[الشعراء:116].**

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ **[الصافات:75].**

وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ **[القمر:10].**

وقد استجاب الله لنبيه فأغرق الكافرين الظالمين عن آخرهم.

- استعجال العذاب: ومن أسباب العقاب الإلهي الذي نزل بقوم نوح، استعجالهم بالعذاب فقوم نوح عندما يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة أخذتهم العزة بالإثم واستكبروا وأبوا الإذعان للبرهان العقلي والفطري وإذا هم يتركون الجدال إلى التحدي، فقد كانوا قوماً عمين، قال تعالى: ﴿ قالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ **[هود:32]** .

الجدال بالباطل: قال تعالى: ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ *كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ **[غافر:4-5]** .

- الترف: ومن أسباب العقاب الإلهي الترف، قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ **[هود:116-117].**

وبيَّن نوح أن جماهير قومه اتبعوا رؤســـاءهم وأهل الثروة منهم الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [نوح:21].

- البطر: ومن الجرائم التي يعاقب عليها الأمم البطر، والبطر: هو الطغيان والإشراك وكفر النعم، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:58] .

ولقد قام نوح عليه الســـلام بتذكير قومه بنعم الله عليهم في الانفس والآفاق، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح:13-20]، لكن القوم اعتادوا البطر وكفران النعم، فمضت فيهم سنة الله عز وجل.

- الاستكبار: ومن أسباب هلاك قوم نوح الاستكبار، قال تعالى: ﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح:7].

- المكر: لقد تعرض نوح عليه الســـلام لأمر عظيم من مكر الكافرين، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ [نوح:22].

وقد كان المكر صفة بارزة في قوم نوح، واستخدم الملأ من قومه كافة وسائل وأساليب المكر لصد الناس عن دعوة التوحيد والاستجابة لعبادة الله، وآثروا الشبهات والاتهامات الباطلة ووضعوا العوائق والعراقيل أمام دعوته، لقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا بنوح عليه السلام فأبطلها الله وجعلها سبيلاً لهلاكهم، ومضت سنة الله في الماكرين، قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الانعام:123].

– الخطايا والذنوب: إن من أسباب سقوط وهلاك الحضارة الإنسانية الأولى ظهور المعاصي وارتكاب الخطايا والانغماس في الذنوب، قال تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾ [نوح:25].

– الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة: فقد اشتغل قوم نوح بأمور الدنيا وأصابهم الغرور بها، ونسوا الآخرة وفرحوا بالأموال والأولاد والمتاع الزائل وغاب عنهم الاستعداد ليوم الرحيل وتطاولوا على أهل الإيمان ووقعوا في سنة الاستدراج الرباني، فكثرت أموالهم وأولادهم وأبطرتهم هذه النعم الكثيرة وتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:44-45].

– سنة الاستبدال: قال تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد:38]، فقد مضت سنة الله في الاجتماع البشري على أنه ما أهلك قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين يقومون بعمارة الأرض، والحضارات كما أن لها سنن قيام وسقوط، لها سنن تجدد وانبعاث واستبدال، وقد تحدث القرآن الكريم عن الاستبدال الحضاري، وهذا ما حدث لقوم نوح عليه السلام حيث تجمعت فيهم أسباب الهلاك، فمضت سنة الله فيهم بالطوفان، ولكي تستأنف الإنسانية رسالتها استبدلها الله بنوح عليه السلام والذين آمنوا برسالته.

- ســـنة الله في الأجل الجماعي: قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:34]، كما جعل الله عز وجل لكل فرد أجلاً تنتهي به حياته الدنيا، جعل سبحانه وتعالى للأمم والحضارات آجالاً تنتهي إليها وتسقط في نهايتها ويسدل الستار عليها، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ [الحجر:4-5].

وبيَّنت الآية أن كل القرى الهالكة كان لها اجل مقدر في أســباب هلاكها، وذلك لما أقام الله الحجة على أهلها بتقديم النُّذُر وفرص الإمهال وسـنن الاستدراج[1]، الذي قدره الله لها مرتب على سـلوكها وأعمالها وعلى اعتقادها وصـورها، ومن خلال هذا تنفذ مشـيئة الله، فلا يغر المكذبين تخلف بأس الله عنهم فترة من الوقت، ومن عدل الله أن يذوق كل واحد جزاء عمله وتصــرفه، وســنة الله في طريقها المعلوم تمضــي رويداً رويداً نحو الأجل المقدر الذي يمنحه الله لتلك القرى، وحتى لا تبقى بقية خير، عند ذلك تبلغ الأمة أجلها وتنتهي إلى مصــــيرها[2]، وما من أمة عرفت الحياة ثم تمردت عن الحق وتولت عن العدل إلا والله مهلها قبل يوم القيامة أو معذبها، وهذا قدر مقدر في الكتاب المسـطور، قال تعالى: ﴿إِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: 85].

وهذا ما حدث لقوم نوح، حيث بعث الله لهم رســـولاً لهدايتهم فردوا دعوته كبراً وعناداً، وأعرضـــوا عنها جحوداً وطلبوا منه تعجيل العذاب وكذبوا وجحدوا وظلموا وبطروا وأترفوا ...إلخ فوقع عليهم العقاب الإلهي بســبب ذنوبهم مع تقدير الله لهم وفق ســنة " لكل أمة

1 محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1997م، ص 302.
2 المرجع نفسه، ص 303.

أجل " فعلم الله لا يتبدل وســـنته لا تتحول وهي جارية وحاكمة وفق مشـــيئته وإرادته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

– ســـنة الهلاك: قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء:17]، ويفهم من هذه الآية الكريمة أن الهلاك بدأ بقوم نوح، ثم استمر إلى الفترة ما قبل البعثة النبوية حيث كان هلاك أصحاب الفيل.

والهلاك في الاصـطلاح القرآني هو: هو ما ينزله الله تعالى بأعدائه من العذاب المسـتأصـل المبيد، وقد ورد هذا بكثرة في حديث الكتاب العزيز عن مصـــير الأمم الغابرة التي انحرفت عن جادة الصــراط المسـتقيم وجحدت أوامر الله عز وجل وآذت رســله. ومن أصــناف الهلاك الذي حل بقوم نوح الغرق، فكان عقاباً وهلاكاً عليهم.

– سـنة الخسـران: فقد تحققت سـنة الخسـران في قوم نوح، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الزمر: 63] من سـنة الله أن الكافرين لا يفلحون، وأنهم خاســرون، وهي ســـنة نافذة لا تتخلف، كما أن الفلاح للمؤمنين طرف من ســـنن الله الجارية، ولقد خســر قوم نوح الإدراك والبصـيرة فضـاعوا في صــحاري الشـبهات وبحار الشهوات ووديان الضلال، ومضت فيهم سنة الخسران.

– الغفلة عن أسباب الهلاك:ومن أسباب هلاك قوم نوح ومضـيّ سـنة الله فيهم، غفلتهم عن أسباب الهلاك، فلم ينتبهوا إلى خطورتها بل مارسوها على مستوى الأفراد والمجتمع.

إنَّ القرآن الكريم في قصة نوح عليه السلام وجه الأنظار إلى الاعتبار بأحوالهم، وهي مليئة بالدروس والعبر والفوائد والسنن وقوانين الله في حركة الشعوب وزوال الحضارات وازدهارها.

هذه بعض الأسباب التي وصلنا إليها من خلال البحث والدراسة في معرفة عوامل هلاك الحضارة الإنسانية الأولى، واللافت للنظر أن مقومات حضارة جديدة بزغت من خلال محنة نوح عليه السلام وساهمت في انطلاقها بعد هبوط السفينة على الجودي، وقد بدأت باسم الله والحمد لله على النجاة من القوم الظالمين، والدعاء لله بأن ينزلهم منزلاً مباركاً والله خير المنزلين.

وكانت بذور تلك الحضارة متوفرة في سفينة نوح عليه السلام من الإنسان والحيوان والطيور والنباتات، مع القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية، والتطورات الفكرية عن الله والحياة والكون والوجود والجنة والنار والرسالة والنبوة ...إلخ من خلال وحي الله عز وجل لنوح عليه السلام.

هذا وقد حذرت من خطورة الخرافات والأساطير والإسرائيليات والموضوعات التي ألصقت بقصة نوح عليه السلام، وقد لعبت الإسرائيليات دوراً عكر صفاء قصة نوح عليه السلام في كثير من الأحايين، وليس هناك باحث منصف يستطيع أن ينكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً، وإلى منافاتها العقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى، وإلى تعارض بعضها مع البعض الآخر في مناسبات كثيرة.

ومن الإسرائيليات – على سبيل المثال لا الحصر–: ما ذكره ابن كثير نقلاً عن التوراة فقال: وقد ذكر أن [حاماً] ـ ولد نوح ـ واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تتشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود، وهو [كنعان بن حام] جد السودان، وقيل: بل رأى أباه نائماً، وقد بدت عورته فلم يسترها، وسترها أخواه، فلهذا دعا عليه أن يغير نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته، وغير ذلك من الأخطاء والموضوعات والإسرائيليات

المخالفة للمعقول والمنقول، والتي للأسف تأثرت بها كتب التواريخ وأيام الناس وتسربت إلى التفاسير، فنسجت خرافات وأساطير شوهت كتب التراث، ولذلك يجب تنقية كتب التراث منها، والاعتماد أولاً وأخيراً على الرؤية الحضارية القرآنية التي قدمها القرآن الكريم وما ثبت عن رسول الله ﷺ في قصة نوح عليه السلام.

وفي هذا الكتاب تم الكشف عن الافتراءات التي نسبها بعض علماء بني إسرائيل إلى نوح عليه السلام، وتحدثت عن مسألة: هل عم طوفان نوح الكرة الأرضية؟ وبيَّنت أقوال العلماء في هذه القضية التي أخذت حيزاً من التفكير الإنساني، ووضحت اهتمام علماء الآثار وتاريخ الأديان بالطوفان العظيم، وكشفت بعض الروايات ضعيفة الإسناد التي نسبت للرسول ﷺ، وتكلمت عن رأي العلماء في مصير الأطفال من قوم نوح عليه السلام.

المبحث السادس:

كان الحديث فيه عن ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، وذكرت أقوال العلماء وأهل التفسير في قول الله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ **[هود: 48- 49]**.

وذكرت في هذا المبحث صفات نوح عليه السلام وأخلاقه التي تجسدت في شخصه الكريم، فقد كان من أولي العزم من الرسل الذين حققوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ودعوا إلى ذلك وآمن بعض الناس برسالته وربيَّ من اتبعه على أخلاق وصفات حميدة ساهمت في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية من أهمها:

الإخلاص، والصـــبر، والتقوى، والاســـتغفار، والدعاء، والعبودية: من شـــكرٍ لله وكثرة السجود وتوكل، وذكر ويقين وإحسان، والعلم والعفة والأمانة والثبات وبرّ الوالدين، وغير ذلك مما غرسه نوح عليه السلام في أتباعه مما ساهم في نهضة حضارة السلام والبركات، وبيّنت كيف تعامل نوح عليه السلام مع السنن الربانية والتي منها:

- سنة الله في التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي.
- سنة الله في الابتلاء.
- سنة الله في الأخذ بالأسباب.
- سنة الله في التدافع.
- سنة الله في النصر والتمكين.

ووضحت خصائص الحضارة الإنسانية الثانية حيث قامت على أساس الوحدانية المطلقة لله عز وجل،

ومن خصـائصـها أنها إنسـانية، وأنها أخلاقية، وتؤمن بالعلم، وقامت على حرية الاعتقاد وحرية الاختيار العقلي والفطري والمنطقي والوجداني، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ **[هود:28]**، فالدين والعقيدة والفكر المســـتنير بالإقناع والنظر والتدبر لا بالقهر والسلطان والإخضاع، فحرية الاختيار في المعتقد والتوحيد قامت عليها الحضارة الإنسانية الثانية.

ووضحت عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية والتي منها:

- العامل العقدي.

- العامل الصناعي والاقتصادي.
- عامل البيئة.
- العامل الاجتماعي.
- العامل الأخلاقي.
- العامل السياسي.
- عامل الجمال.

والتي استطاعت أن تحقق:

- الإخاء والمحبة.
- التعاطف والتراحم.
- التساند والتعاون.
- التكافل والتضامن.
- التواصي والتناصح.
- التطهر والترقي.
- العدالة والإنصاف.
- التقدم الفعلي والمنطقي والروحي والنفسي والمادي.

وقد حققت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية من أبرزها:

- العبادة لله: قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ **[الذاريات56]**.

- خلافة الله في الأرض: قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ **[يونس73]**.

– عمارة الأرض: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ [هود:61]، طلب عمارتكم لها.

لقد استطاع نوح عليه السلام أن يؤسس للحضارة الإنسانية الثانية بين الروائع المادية المقيدة بالفترة الزمانية التي عاش فيها، وبين المعاني الإيمانية والروحية والأخلاقية التي كانت هي الدوافع الحقيقية من وراء الإبداع الحضاري في مسيرة البشرية في روعة الإيمان والأخلاق والربانية.

وقمت بتفسير الآيات التي تحدثت عن الجارية والفلك المشحون وعلى ترك الثناء الحسن عليه على مرِّ الدهور، قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة:11- 12]، وقول الله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ [يس:41]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:78-79]، ثم كان الحديث عن وصيته ووفاته عليه السلام.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم السبت في 17 ذو القعدة 1440هـ/ الموافق لـ 20 يوليو 2019م في الساعة الثانية وعشرة دقائق ظهراً في مدينة استانبول، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي ملتجئاً إليه في كل حركاتي، وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلد مني العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفت العواطف، وتحجرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم بصرني بما يرضيك، واشرح صدري، وجنبني اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعله لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العظيم لبني الإنسان، ونرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه ودعائه، قال تعالى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ **[النمل: 19]**.

والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربِّه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمَّد محمَّد الصَّلَّابِيّ

غفر الله ولوالديه ولجميع المسلمين

المبحث الأول: ما قبل نوح عليه السلام

نطوي الزمان في وثبة هائلة لا ندري مداها، فنصل إلى ما قبل سيدنا نوح عليه السلام، إلى مجيء أبينا آدم عليه السلام.

ونسأل عن الزمن ما بين آدم ونوح عليهما السلام، وهل كان الناس على التوحيد؟ وهل بين آدم ونوح رسول؟ ومتى بدأ الشرك بين بني البشر؟

ومما لا شك فيه أن الله بعث آدم عليه السلام وهو على عقيدة سليمة من عالم الألوهية، وعالم الجنة، وعالم الملائكة، وكان مزوَّداً بالمبادئ الأخلاقية الصالحة، وبثَّ آدم ذلك في أبنائه، واستجاب له من هداه الله، وشذَّ عنه من أغواه الشيطان [1].

أولاً: المُدَّة بين آدم ونوح عليهما السلام:

روى ابن حِبَّان في صحيحه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: كم كان بينه "أي آدم عليه السلام وبين نوح"؟ قال :"عشرة قرون" [2].

وروى الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون". وفي رواية: "كلهم على الإسلام" [3].

---

1 عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، دار الرشاد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م، ص 63.

2 محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ت 354هـ)، صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الثانية، 1414هـ – 1993م ، رقم (6296).

3 أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت 405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ – 1990م، 255/9، وقال الحاكم: هذا صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه.

قال ابن جرير: وقد رُوي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بعث فيه نوح عليه السلام، وقالوا: إن أول نبي أرسله الله إلى قوم بالإنذار والدعاء إلى توحيده نوح عليه السلام[1].

وهذا كله يؤكِّد أنَّ المدَّة بين آدم ونوح عليهما السلام أكثر مما ذكره المؤرخون من أنها مائة وست وعشرون سنة، ليس لهم في ذلك من سند غير الاعتماد على كتب بني إسرائيل في هذا الشأن[2]. وقال ابن كثير: "وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وكان بينهم عشرة قرون"[3].

وعمود النسب بين آدم ونوح عليهما السلام – وهم عشرة آباء- يتناسب مع العشرة القرون المذكورة في الآثار السابقة، فيكون كلُّ أب يُمثل قرناً من الزمن، إذ كان الواحد منهم يُعمِّر بما يزيد على ألف سنة أو ينقص منها قليلاً، إلا أن تحديد المدة التي بين آدم ونوح عليهما السلام يتوقف على معرفة المراد بالقرن، فإن القرن في أصل اللغة رأس الجبل، يطلق عرفاً على وقت من الزمن، وعلى جيلٍ من الناس، وفي عرف المتأخرين على مائة سنة [4].

قال ابن كثير: "فإن كان المراد بالقرن مائة سنة – كما هو المتبادر عند كثير من الناس – فبينهما ألف سنة لا محالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر من ذلك باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أُخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام، وإن كان

1 الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، 1387هـ – 1967م، 65/1.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى2017م، ص 10.

3 أبي الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، قصص الأنبياء، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2000م، 74/1.

4 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 11.

المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإســراء: 17] ، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين، والله أعلم"[1].

وقد أيّد هذا القول عمر إيمان أبو بكر، فقال: "والذي يظهر لي أن الاحتمال الثاني من الاحتمالين اللَّذَين ذكرهما ابن كثير هو الأقرب إلى الصَّــواب لما عُلم أنَّ الأجيال التي بعد آدم كانوا أمة واحدة على شريعة من الله مدة من الزمن كما سيأتي بإذن الله، ثم انطمست عندهم معالم التوحيد، فاختلفوا فيما بينهم، فبقي بعضـــهم على التوحيد وانحرف آخرون عنه، عندها بعث الله النبيين مبشـرين ومنذرين، ومثل هذا التحوُّل لا يحدث عادة في مائة سنة من الزمن" [2].

ويقول الإمام الأكبر للأزهر الشـــريف الدكتور عبد الحليم محمود: "إن جميع ما يقال في ذلك إنما هو ضـرب من التخمين، وإنَّ الآثار التي رويت في ذلك يمكن تأويلها على أنحاء شتى، فتكون ألفاً وتكون الآلاف من السنين، ولا يقين في الموضوع" [3] .

إن المجتمع الأول على الكرة الأرضـــية ما بين آدم ونوح عليهما الســـلام كان مجرد مجتمع فرديٌّ تكوَّن من نبي الله آدم وزوجته حواء، ومنهما انبثقت أسرةٌ، فعشيرةٌ، فجماعة بشرية أخذت من التطور وتلقِ التعليم حتى وصـــلت إلى تعلُّم القراءة والكتابة والخياطة والطب،

1 ابن كثير، قصص الأنبياء، المرجع السابق، 1/ 75.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 11.

3 عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل ، ص 63.

أي المبادئ الأســاسـية لتعلُّم الفرد أسـلوب تطور حياته وخاصـته، لو علمنا بأنَّ أوَّل من عرف مهنة النجارة، ومن ثمَّ صناعة السفن كان نبيُّ الله نوح [1].

أي أنَّ أية حضـارة بشـرية كانت موجودة قبل الطوفان لم تكن تعلم أي شـيء عن أعمال بناء السفن، فالنشـاط البشري حتى هذه المرحلة لم يكن نشـاطاً بشـرياً لمجتمعات منفصلة، بل هو نشاط بشري لجماعة بشرية واحدة وهي ذرية نبي الله آدم فيما قبل الطوفان [2].

وتلقت العلم في بداية تكوينها من أبيها آدم لكي تســتطيع به مواجهة صــعوبات الحياة على الأرض، والذي طوَّره أبناؤه من بعده.

ومعلوم أنَّ أعمار الناس في بداية تاريخ البشــرية كانت طويلة حيث كان أحدهم يعمِّر مئات السـنين، فها هو نوح عليه السـلام —يعيش مع قومه نبياً رسـولاً قبل الطوفان تسـع مائة وخمسـين سـنة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ **[العنكبوت: 14]**. وهذا يعني أن نوحاً عليه السـلام عاش ألف سـنة أو أكثر، وهذا يعني أنه متوســط الأعمار بين آدم ونوح عليهما الســلام ألف ســنة، بينما أعمار الناس في زماننا ما بين السـتين والسـبعين، وقلَّ من يتجاوز الثمانين من عمره، فمتوسـط الأعمار في زماننا هو سبعون سنة، فمدة القرن لأبناء الجيل الواحد بين آدم ونوح عليهما السلام هي ألف سنة، بينما مدة القرن لأبناء جيلنا هي سبعون سنة. فالعشرة قرون بين

1 محمد رسمي الدكر، تأصيل التاريخ في معرفة أصول بني إسرائيل، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2019م، ص 84.

2 الدكر، المرجع السابق، ص 83.

آدم ونوح عليهما السـلام –كما قال ابن عباس رضـي الله عنهما– حوالي عشـرة آلاف سنة والله أعلم [1].

ثانياً: ليس بين آدم ونوح رسول:

ليس بين آدم ونوح رســول وقد أدخل بينهما إدريس عليه الســلام، كما فعله كثير من المؤرخين، وهذا لا دليل يعتمد عليه في صحته، بل إنَّ هناك جملة من الأدلة تدل على أنَّ نوحاً عليه السلام هو أول الرسل بعد آدم عليه السلام، ومن تلك الأدلة:

1. **قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَــلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾** **[الحديد: 26].**

إن هذه الآية صريحة في أنَّ جميع الأنبياء والرسل هم من ذرية نوح عليه السلام، وإبراهيم من ذرية نوح عليه الســلام، فإذا ثبت بالإجماع أنَّ إدريس من الأنبياء بنص قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِــدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ **[مريم: 56- 57]**، تعيَّن أن يكون إدريس من ذرية إبراهيم، ثم من ذرية نوح عليهم السلام [2].

وهذه الآية تبين وحدة الرسالة في رجالها، فهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، فهي شجرة واحدة باسقة متشابكة الفروع، فيها النبوة والكتاب، وممتدَّة من فجر البشرية منذ نوح، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم، تفرَّعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذي صار أصلاً باسقاً ممتداً إلى آخر الرسالات، فأما الذرية التي جاءتها النبوات والكتب

---

1 صــلاح الخالدي، القصــص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، دمشــق – الدار الشــامية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1998م ، 1/ 159.

2 عمر إيمان أبو بكر، المرجع السابق، ص 6.

فلم تكن على شـــاكلة واحدة، ﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِـــقُونَ ﴾ [الحديد: 26]، وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل [1].

2. **قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء: 163].**

وهذه الآية تفيد أن جميع النبيين هم من بعد نوح عليه السـلام، وبهذا تسـتقيم الآيتان في إثبات أن جميع الأنبياء هم من ذرية نوح عليه السلام [2].

وجاءت الآية هكذا: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 163- 165].

فهو إذن موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشـري الموصـول، ورسـالة واحدة بهدي واحد للإنذار والتبشـير، موكب واحد يضـمُّ هذه الصـفوة المختارة من البشـر، وقد ابتدأت الآية بنوح عليه الســـلام وبيَّنت أن النبيين جاؤوا من بعده، فنوح عليه الســـلام وإبراهيم وإسماعيل وإسـحاق ويعقوب والأسـباط وعيسـى وأيوب، ويونس وهارون وسـليمان وداود وموسـى ... وغيرهم ممن قصَّـهم الله على نبيه ﷺ في القرآن الكريم، وممن لم يقصـصـهم عليه.

---

1 سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق للطباعة والنشر، القاهرة، ط 38، 1430هـ ، 2009م ، 3495/6.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 6.

إنَّه موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضين في شتى الآونة والأزمان، لا يفرقهم نسب ولا جنس ولا أرض ولا وطن ولا زمن ولا بيئة، كلهم آتٍ من ذلك المصدر الكريم وكلهم يحمل ذلك النور الهادي، وكلهم يؤدي الإنذار والتبشـــير، وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور، سواء منهم؛ من جاء لعشيرة، ومن جاء لقوم، ومن جاء لمدينة، ومن جاء لقطر، ثم من جاء للناس أجمعين، محمد رســـول الله عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين.

فكل الرسل تلقوا الوحي من الله، وما جاء أحدهم بشيء من عنده، وإذا كان الله قد كلم موســـى تكليماً، فهو لون من الوحي لا يعرف أحد كيف كان يتمّ؛ لأن القرآن الكريم – وهو المصـدر الوحيد الصـحيح الذي لا يرقى الشـك إلى صـحته– لم يفصِّـل لنا في ذلك شـيئاً، فلا نعلم إلا أنه كان كلاماً ولكن ما طبيعته؟ وكيف تمَّ؟ وبأية حاسـة أو قوة كان موسى يتلقاه؟ فكل ذلك ضرب من الغيب لم يحدثنا عنه القرآن، وليس وراء القرآن – من هذا الباب– إلا أساطير لا تستند إلى برهان.

أولئك الرسل – من قصَّ الله على رسوله منهم ومن لم يقصص– اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشـــرونهم بما أعدَّه الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضـــوان، وينذرونهم بما أعدَّه الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، كل ذلك ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾.

ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق، وقد أعطى الله البشـــر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس الآفاق، ولكنه ســـبحانه وتعالى رحمة منه بعباده، وتقديراً لغلبة الشـــهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم – أداة العقل– اقتضـــت حكمته

ورحمته أن يرسل إليهم الرسل (مبشرين ومنذرين)، يذكّرونهم ويبصّرونهم ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

عزيزاً: قادراً على أخذ العباد بما كسبوا [1]، حكيماً: يدبر الأمر كله بالحكمة، ويضع كل أمر في نصابه، والقدرة والحكمة لهما عملهما فيما قدَّره الله في هذا الأمر وارتضاه [2].

3. **إن الله سرد قصص عدد من الرسل في سورة مريم، وذكر من بينهم إدريس عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: 56- 57]**، ثم عقَّب ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ **[مريم: 58]**.

وهذا من أقوى الأدلة على كون إدريس من ذرية نوح، ووجه دلالة الآية على ذلك أنَّ قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ إشارة إلى أولئك الرسل الذين ذكرت قصتهم قبل الآية، ومنهم إدريس السلام عليه الذي هو آخرهم في الذكر، فدلَّ ذلك على أنَّ كل من سبق ذكرهم من الأنبياء هم من ذرية نوح، بل ومن ذرية إبراهيم [3].

ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس، ولكن الأرجح أنه من ذرية نوح وإبراهيم – عليهما السلام – وليس من أنبياء بني إسرائيل، فلم يرد ذكره في كتبهم، والقرآن يصفه بأنه كان صديقاً نبياً، ويسجل له أن الله رفعه مكاناً علياً، فأعلى قدره ورفع ذكره وعلى أية حال

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، 806/2.

2 السيد قطب، المرجع السابق ، 2/ 806.

3 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 7.

فنحن نكتفي بما جاء في القرآن الكريم، ونرجِّح أنه سـابق على أنبياء بني إسـرائيل [1]، وأنه من ذرية نوح عليه السلام.

ويقف السـياق في هذا الاسـتعراض عند المعالم البارزة في صـفحة النبوة في تاريخ البشـرية "من ذرية آدم"، "وممن حملنا مع نوح"،" من ذرية إبراهيم وإسرائيل"، فآدم يشمل الجميع، ونوح يشـمل من بعده، وإبراهيم يشـمل فرعي النبوة الكبيرَين، ويعقوب يشـمل شـجرة بني إسرائيل، وإسماعيل وإليه ينتسب العرب ومنهم خاتم النبيين.

أولئك النبيون ومعهم من هدى الله واجتبى من الصـالحين من ذريتهم، فصـفتهم البارزة: "إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سـجداً وبكياً"، فهم أيضـاً شـديدو الحسـاسـية بالله ترتعش مشـاعرهم حين تتلى عليهم آياته، فلا تسـعفهم الكلمات للتعبير عما يخالج نفوسهم من تأثُّر، فتفيض عيونهم بالدموع ويخرُّون سجَّداً وبكياً [2].

هذا ويتأكد أن إدريس عليه السـلام من ذرية نوح – عليه السـلام – أنه كلما جاء ذكر نوح مع غيره من الرسـل – عليهم السـلام – يتمُّ التنبيه على أسـبقيته عليهم في معظم السور التي ذُكرت فيها قصة نوح مع غيره، ففي:

- سـورة الأنعام: ﴿ ووَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ **[الأنعام: 84]**.
- وفي سورة التوبة: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ **[التوبة: 70]** .
- ومثلها في سورة غافر: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ **[غافر: 5]**.

1 في ظلال القرآن، 4/ 2313.

2 المرجع نفسه ، 4/ 2314.

- وفي سورة الذاريات: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: 46].
- وفي سورة النجم: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ [النجم: 52].

في حين أنَّ إدريس عليه السلام لم يُذكر بالقبلية على غيره من الأنبياء ولو مرة واحدة، ولو كان ذلك واقعاً لوُصف بذلك كما هو الحال في شأن نوح عليه السلام[1].

4. **ما أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبيٌّ كان آدم؟ قال: "نعم، مُكلَّم"، قال: فكم بينه وبين نوحٍ؟ قال: "عشرة قرون"** [2]. وأخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين آدم ونوح عشرة قرون [3].

ووجه دلالة هذه الآثار أن إدريس عليه السلام لم يكن قبل نوح عليه السلام، وقد قرنت نوحاً بآدم عليهما السلام في تحديد المدة بينهما، وذلك دليل على أن ليس بينهما رسول آخر، ولو كان بينهما إدريس عليه السلام لذكر هو بدلاً من آدم عليه السلام، ولم يسكت عنه في جميع النصوص السابقة.

5. **قول أهل الموقف – يوم القيامة في الحديث الصحيح – "أنت أول الرسل إلى أهل الأرض"**. فهذا الحديث – وهو في الصحيحين– يفيد أن نوحاً لم يسبقه رسول بعد آدم عليه السلام.

---

1 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام ص 7.

2 صحيح ابن حبان ، 421/25.

3 المستدرك على الصحيحين، 8/ 324، حديث صحيح على شرط البخاري.

6. **إنَّ ابن كثير – وهو ممن قدَّم إدريس على نوح في البداية والنهاية اعتماداً على ما اشتهر عند المؤرخين تشكك في صحة تقديم إدريس على نوح،** فقال وهو يسرد نسب نوح هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خَنُوخ، وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون[1]، فقوله "فيما يزعمون": دليل على أنَّ تقديم إدريس على نوح عليهما السلام في نظره لا يعد أن يكون مجرد زعم، والزعم كما قالوا: هو مطية الكذب.

7. **إنَّ ابن كثير مع تقديمه إدريس في الترجمة على نوح إلا أنه عدل عن ذلك وصرح بخلافه في كتاب التفسير،** فقال في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ **[الشورى: 13]**. قال رحمه الله: فذكر أول الرسل بعد آدم، وهو نوح عليه السلام وآخرهم هو محمد ﷺ[2]. وهذا منه تصريح أنه يرى أن نوحاً هو أول الرسل بخلاف ما صنعه في التاريخ فإنه قد قلَّد المؤرخين في ذلك[3].

8. **في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ حين مرَّ بإدريس عليه السلام في السماء الرابعة، قال له إدريس: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح**[4]. ولم يقل له كما قال له آدم وإبراهيم عليهما السلام مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، فلو كان إدريس هو الخنوخ: الذي هو الجدُّ الأعلى لنوح عليه السلام،

---

1 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، دار الحديث، القاهرة، 1415هـ، 1994م، 3/ 431.

2 المرجع السابق، 194/7.

3 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 9.

4 محمد إسماعيل البخاري (ت: 256 هـ)، صحيح البخاري، بيت الأفكار الدولية، الرياض، رقم 3598.

لكان هو أيضـاً الجد الأعلى للنبي ﷺ، ويسـلِّم على النبي ﷺ بما سـلَّم عليه كلٌّ من آدم وإبراهيم عليهما السلام [1].

وبهذا يتضح خطأ من قال إنَّ إدريس بين نوح وآدم، وثبت أنَّ نوحاً عليه السلام هو أول الرســل [2]، كما أنَّ الاختلاف في تقديم نوح على إدريس، أو إدريس عليه لا يترتب عليه محذور شــرعي طالما أن الجميع متفقون على أنهما من الأنبياء والمرســلين، ولكن لا يليق بعالم أن لا يلتفت إلى كل تلك الأدلة من النصــوص الشــرعية في تقديم نوح على إدريس عليهما الســلام ثم يعتمد على ما ذكره المؤرخون الذين جُلُّ اعتمادهم في ترتيب الأنبياء على ما في كتب بني إسرائيل المحرفة [3].

ثالثاً: الأصل في الإنسان التوحيد:

إنَّ الأصل في الإنسان التوحيد، والشرك طارىء عليه، ويستدل عليه من عدة وجوه:

1. **إنَّ الإنســان الأول هو آدم عليه الســلام كان نبياً يعبد الله وحده لا يشــرك به، وعلم أبناءه التوحيد، حيث ســئل النبي ﷺ عن آدم: أنبي هو؟ قال: "نعم، نبي مكلَّم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه"** [4].

---

1 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام ص 9.

2 المرجع السابق، ص 9.

3 المرجع نفسه، ص 10.

4 أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2008م، 265/5- 266، إسناده صحيح.

ثم وقع بنو آدم في الشـــرك بعده بأزمان، وهذا يقر ويقول به كل من يؤمن بأن الله هو الخالق، وكل من يؤمن بالأديان السماوية الثلاث، الإسلامية والنصرانية واليهودية، إلا من تابع قول الملحدين منهم[1].

ولم يكن الشرك أصلاً في الآدميين، بل كان آدم ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله، لأتباعهم النبوة... فإن آدم أمرهم بما أمره الله به، حيث قال له: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ **[البقرة: 38- 39]**، فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم وغيره لما أهبطهم، قد تضمن أنه أوجب عليهم اتباع هداه المنزَّل[2].

2. بين الله سبحانه أن البشرية كانت في أول أمرها على التوحيد:

فالبشـــرية أول أمرها كانت على التوحيد، ولكن طرأ عليها الشـــرك وتعدُّدت الآلهة لقوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ **[البقرة: 213]**.

---

1 أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث، دار الرشد للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1423هـ. 2001م، 182/1.

2 ابن تيمية؛ تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي ت (728هـ)، الفتاوى الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1987م، 20/ 106- 107.

اتفق أهل العلم أنَّ المراد بالناس في هذه الآية هم الذين كانوا بين آدم ونوح – عليهما السلام – وكلهم كانوا في تلك الفترة أمة واحدة بنص الآية، وإنما اختلفوا في المبدأ الذي وحَّدهم، وكانوا عليه مجتمعين.

فذهب جمهور أهل العلم إلى أنَّ الناس في تلك الفترة كانوا على دين الحق من شريعة الله، لا يختلفون في ذلك، ثم بعد مرور الزمن حصل بينهم اختلاف في توحيد الله، فبعث الله النبيين لبيان ما اختلفوا فيه، وهو قول ابن عباس وأبيّ بن كعب واختاره ابن جرير وابن كثير، وعليه الكثير من المحققين من المفسرين [1].

روى الحاكم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، ثم قال الحاكم: "وكذلك في قراءة عبد الله: كان الناس أمة واحدة فاختلفوا"[2].

وهذا القول ثابت ومشهور عن ابن عباس، رواه عنه غير واحد، قال الشوكاني: "أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان الناس أمة واحدة، قال: على الإسلام كلهم" [3].

قال ابن جرير: فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم أنهم كانوا أمة واحدة، إنما كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به، وذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ **[يونس: 19]**، فتوعَّد جلَّ ذكره على الاختلاف لا

---

1 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 12.

2 المستدرك على الصحيحين، 9/ 25.

3 الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى 1414هـ، 285/1.

على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة، ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر، ثم كان الاختلاف بعد ذلك لم يكن إلا بانتقال بعضـــهم إلى الإيمان، ولو كان ذلك كذلك لكان الوعد أولى بحكمته جلَّ ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد؛ لأنها حال إنابة بعضـــهم إلى طاعته، ومحال أن يتوعَّد في حال التوبة والإنابة، ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك [1].

ويقصـــد ابن جرير بهذا أنَّ الله تعالى عابهم على اختلافهم بعد الاتفاق الذي كانوا عليه، فدلَّ ذلك أنَّ بعضـــاً منهم انتقل من حالة كانوا فيها مرضـــيين إلى حالة صـــاروا فيها مذمومين، ولا يكون ذلك إلا بانتقال بعضهم من الإيمان إلى الكفر، وهو الذي استدعى إرسال الرسل إليهم، لبيان المحقِّ من المبطِل من الفريقَين [2].

قال ابن كثير: "والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصـنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السـلام، فكان أول رسـول بعثه الله إلى أهل الأرض" [3]. ويقول: "ثم أخبر تعالى أن هذا الشـــرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام" [4].

3. أخبر الله سـبحانه وتعالى في كتابه أنَّ الفطرة التي فُطرت عليها البشـرية كلها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص [5].

1الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري ت (310هـــــ)، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 2000م، 280/4.

2 د. عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 15.

3 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، 569/1.

4 ابن كثير، المرجع السابق، 411/2.

5 أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث، 183/1.

أ- قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم:30] .

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: أي: فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التي لا تستند على حق، ولا تستند على علم، إنما تتبع الشهوات، والنزوات بغير ضابط ولا دليل، أقم وجهك للدين حنيفاً مائلاً عن كل ما عداه مستقيماً على نهجه دون سواه.

- ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾: وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين، فالنفس البشرية خالقها الله، ودين الإسلام الذي وعت له كل الرسالات السماوية من عند الله تعالى، وكلاهما موافق لناموس الوجود وكلاهما متناسق مع الآخر في طبيعته واتجاهه. والله الذي خلق القلب البشري هو الذي أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف. وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير. والفطرة ثابتة والدين ثابت: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة. فطرة البشر وفطرة الوجود.

- ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيتبعون أهواءهم بغير علم ويضلون عن الطريق الواصل المستقيم، والتوجيه بإقامة الوجه للدين القيم، ولو أنه موجه إلى الرسول ﷺ إلا أن المقصود به جميع المؤمنين.

لذلك يستمر التوجيه لهم مفصلاً معنى إقامة الوجه للدين: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: 31 - 32]؛ فهي الإنابة إلى الله والعودة في كل أمر إليه. وهي التقوى وحساسية الضمير ومراقبة الله في السر والعلانية والشعور به عند كل حركة وكل سكنة،

وهي إقامة الصـــلاة للعبادة الخالصـــة لله، وهي التوحيد الخالص الذي يميز المؤمنين من المشركين.

ويصف المشركين بأنهم "الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا"، والشرك ألوان وأنماط كثيرة، منهم من يشـــركون الجن، ومنهم من يشـــركون الملائكة، ومنهم من يشـــركون الأجداد والآباء، ومنهم من يشـركون الملوك والسـلاطين، ومنهم من يشـركون الكهان والأحبار، ومنهم من يشركون الأشجار والأحجار، ومنهم من يشركون الكواكب والنجوم، ومنهم من يشركون النار، ومنهم من يشـــركون الليل والنهار، ومنهم من يشـــركون القيم الزائفة والرغائب والأطماع، ولا تنتهي أنماط الشرك وأشكاله.

و"كل حزب بما لديهم فرحون" بينما الدين القيم واحد لا يتبدل ولا يتفرق، ولا يقود أهله إلا إلى الله الواحد، الذي تقوم الســـماوات والأرض بأمره، وله من في الســـماوات والأرض كل له قانتون [1].

ب- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْـــتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَـــهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ **[الأعراف: 172].**

هذه الآية تعرض قضـــية التوحيد من زاوية جديدة وزاوية عميقة، تعرض من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشـر وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسـهم، وذات تكوينهم وهم بعد في عالم الذر.

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2768/5.

إنَّ الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشـــري. فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشـهدت بها على نفسـها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، وأما الرســـالات فهي تذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى فيحتاجون إلى التذكير والتحذير.

إنَّ التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق- حتى لو لم يبعث إليهم بالرســـل يذكرونهم ويحذرونهم- ولكن رحمته وحدها اقتضـــت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل وأن يبعث إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل [1].

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضـها السياق القرآني في صـورة مشـهد- على طريقة القرآن الغالبة – وإنه لمشـهد فريد، مشـهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السـحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشـهود، تؤخذ في قبضـة الخالق المربي، فيسـألها: "ألسـت بربكم؟"، فتعترف له سـبحانه بالربوبية، وتقر له سـبحانه بالعبودية، وتشـهد له سبحانه بالوحدانية، وهي منثورة كالذر مجموعة في قبضـة الخالق العظيم، إنَّه مشـهد كوني رائع باهر، لا تعرف اللغة له نظيراً في تصـــوراتها المأثورة، وإنه لمشـــهد عجيب فريد حين يتملاه الخيال البشري جهد طاقته، وحينما يتصور تلك الخلايا التي لا تحصى، وهي تجمع وتقبض، وهي تخاطب خطاب العقلاء، فتعترف وتقرُّ وتشـــهد، ويؤخذ عليها الميثاق في الأصلاب.

1في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1391/3.

وإنَّ الكيان البشري ليرتعش من أعماقه، وهو يتملى هذا المشهد الرائع الباهر الفريد، وهو يتمثل الذر الســـابح، وفي كل خلية حياة، وفي كل خلية اســـتعداد كامن. وفي كل خلية كائن إنسـاني مكتمل الصـفات ينتظر الإذن له بالنماء والظهور في الصـورة المكنونة له في ضـــمير الوجود المجهول، ويقطع على نفســـه العهد والميثاق، قبل أن يبرز إلى حيز الوجود المعلوم [1].

لقد عرض القرآن الكريم هذا المشـــهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة العميقة المســـتكنة في أعماق الفطرة الإنســـانية وفي أعماق الوجود، عرض القرآن هذا المشـهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث لم يكن إنسـان يعلم عن طبيعة النشـأة الإنســـانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدي البشـــر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الحقائق وتلك الطبيعة. فإذا "العلم" يقرر أن الناســـلات، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل "الإنسان" وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب [2]، وصدق الله العظيم: ﴿سَـــنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِـــهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [3].

أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس قال: "مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ مواثيقهم، وأشـهدهم على أنفسـهم: "ألسـت بربكم؟ قالوا: بلى". وروي مرفوعاً وموقوفاً على ابن عباس، وقال ابن كثير: إن الموقوف أكثر وأثبت.

---

1 في ظلال القرآن ، 1392/3.

2 المرجع السابق، 1392/3.

3 المرجع نفسه، 1393/3.

فأما كيف كان هذا المشــهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشــهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم: "ألست بربكم"، وكيف أجابوا: "بلى شهدنا"؟. فالجواب عليه: أن كيفيات فعل الله- سـبحانه- غيب كذاته، ولا يملك الإدراك البشـري أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله، إذ إن تصــــور الكيفية فرع عن تصور الماهية.

- وهناك تفســـير لهذا النص بأن هذا العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة، فقد أنشـــأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده، أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه، حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها، ويميل بها عن فطرتها [1].

قال ابن كثير في التفسير: قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما تقدم في حديث أبي هريرة، وعياض بن حمار المجاشـــعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود ابن سريع، وقد فسر الحسن الآية بذلك، قالوا: ولهذا قـال: "وإذ أخـذ ربـك من بني آدم" ، ولم يقـل: من آدم.. "من ظهورهم"، ولم يقـل من ظهره.. "ذرياتهم" أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن.

- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ **[الأنعام: 165]**.
- وقال:﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ **[النمل: 62]**.
- وقال: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ **[الأنعام: 133]**.
- ثم قال:﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ **[الأعراف: 172]** أي: أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له - حالاً- وقالوا: والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿قَالُوا

---

1 في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1393/3.

شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ **[الأنعام: 130].**

- وتارة تكون حالاً كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ **[التوبة: 17]**، أي: حالهم شاهد عليهم بذلك، لا أنهم قائلون ذلك.
- وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ **[العاديات: 7].**
- كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال. كقوله: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ **[إبراهيم: 34]** . قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حُجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا، كما قال من قال، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه.

فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كافٍ في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد. ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾، أي: لئلا تقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، أي: التوحيد [1]، ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ **[الأعراف: 173]** .

أما الأحاديث التي أشار إليها في أول هذه الفقرة فهي:

- في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجِّسانه، كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسُّون فيها من جدعاء"؟[2] .

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1394/3.

2 صحيح البخاري، رقم 1358.

- وفي صـــحيح مســـلم: قال رســـول الله ﷺ: "يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم"[1] .

ونحن لا نســـتبعد أن يكون قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]، على وجهه لا على سبيل الحال؛ لأنه في تصورنا يقع كما أخبر عنه الله ســبحانه، وليس هناك ما يمنع أن يقع حين يشـــاؤه، ولكنا كذلك لا نستبعد هذا التأويل الذي اختاره ابن كثير، وذكره الحسن البصري واستشهد له بالآية،والله أعلم أي ذلك كان.

وفي أي من الحالين يخلص لنا أن هناك عهدا من الله على فطرة البشـــر أن توحده. وأن حقيقة التوحيد مركوزة في هذه الفطرة يخرج بها كل مولود إلى الوجود فلا يميل عنها إلا أن يفسـد فطرته عامل خارجي عنها! عامل يسـتغل الاسـتعداد البشـري للهدى وللضـلال، وهو استعداد كذلك كامن تخرجه إلى حيّز الوجود ملابسات وظروف[2].

إنَّ توحيد الله عز وجل ميثاق معقود بين الفطرة وخالقها، ميثاق مودع في كيانها، مودع في كل خلية حية منذ نشأتها، وهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات، وفيه تشهد كل خلية بربوبية الله الواحد، ذي المشيئة الواحدة، المنشئة للناموس الواحد الذي يحكمها ويصرفها، فلا سـبيل إلى الاحتجاج بعد ميثاق الفطرة وشـهادتها- سـواء أكان بلسـان الحال هذا أم بلســان المقال كما في بعض الآثار- لا سـبيل إلى أن يقول أحد: إنه غفل عن كتاب الله الهادي إلى التوحيد، وعن رسـالات الله التي دعت إلى هذا التوحيد أو يقول: إنني خرجت

---

1 في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1394/3. وفي: صحيح مسلم، رقم 2865.

2 في ظلال القرآن، 1394/3.

إلى هذا الوجود، فوجدت آبائي قد أشركوا فلم يكن أمامي سبيل لمعرفة التوحيد إنما ضل آبائي فضللت فهم المسؤولون وحدهم ولست بالمسؤول! ومن ثم جاء هذا التعقيب على تلك الشهادة:﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾؟.

ولكن الله- سبحانه- رحمة منه بعباده، لما يعلمه من أن في استعدادهم أن يضلوا إذا أضلوا، وأن فطرتهم هذه تتعرض لعوامل الانحراف- كما قال رسول الله- ﷺ- بفعل شياطين الجن والإنس الذين يعتمدون على ما في التكوين البشري من نقط الضعف!. رحمة من الله بعباده قدر ألا يحاسبهم على عهد الفطرة هذا كما أنه لا يحاسبهم على ما أعطاهم من عقل يميزون به حتى يرسل إليهم الرسل، ويفصل لهم الآيات، لاستنقاذ فطرتهم من الركام والتعطل والانحراف، واستنقاذ عقلهم من ضغط الهوى والضعف والشهوات.

ولو كان الله يعلم أن الفطرة والعقول تكفي وحدها للهدى دون رسل ولا رسالات ودون تذكير وتفصيل للآيات لأخذ الله عباده بها، ولكنه رحمهم بعلمه فجعل الحجة عليهم هي الرسالة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، يرجعون إلى فطرتهم وعهدها مع الله وإلى ما أودعه الله كينونتهم من قوى البصيرة والإدراك. فالرجعة إلى هذه المكنونات كفيلة بانتفاض حقيقة التوحيد في القلوب وردها إلى بارئها الوحيد، الذي فطرها على عقيدة التوحيد. ثم رحمها فأرسل إليها الرسل بالآيات للتذكير والتحذير[1].

4. بيَّن الله في كتابه أنَّ التوحيد هو أصل دعوة الرسل، وإليه دعوا أقوامهم

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 184/3.

- قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13] .

هذه الآية توضِّح حقيقة الأصل الواحد، والنشأة الضاربة في أصول الزمان، ويضيف إليها لمحة لطيفة الوقع في حسِّ المؤمن. وهو ينظر إلى سلفه في الطريق الممتدة من بعيد، فإذا هم على التتابع هؤلاء الكرام: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- ويستشعر أنه امتداد لهؤلاء الكرام، وأنه على دربهم يسير، إنه سيستروح السير في الطريق، مهما يجد فيه من شوك ونُصب، وحرمان من أعراض كثيرة، وهو برفقة هذا الموكب الكريم على الله، الكريم على الكون كله منذ فجر التاريخ.

ثم إنَّه السلام العميق بين المؤمنين بدين الله الواحد، السائرين على شرعه الثابت وانتفاء الخلاف والشقاق والشعور بالقربى الوثيقة، التي تدعو إلى التعاون والتفاهم، ووصل الحاضر بالماضي، والماضي بالحاضر، والسير جملة في الطريق، وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى.

- ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟
- وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى؟
- وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد؟
- وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين؟

والوصية الواحدة الصادرة للجميع "أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه". فيقيموا الدين، ويقوموا بتكاليفه، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به ويقفوا تحت رايته صفا، وهي راية واحدة،

رفعها على التوالي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى- صلوات الله عليهم- حتى انتهت إلى محمد- ﷺ- في العهد الأخير [1]، في الدعوة إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ، وإفراد العبادة له، وطاعته وتقواه.

- قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25] .
- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: 36] .
- قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: 45] .
- كل رسول افتتح دعوته لأمته بالدعوة إلى عبادة الله، فقال: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59] .

إنَّ الناس كانوا بعد آدم – عليه السلام – وقبل نوح – عليه السلام – على التوحيد والإخلاص كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر – عليه السلام – حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان – بدعة من تلقاء أنفسهم – لم ينزل الله بها كتاباً ولا أرسل بها رسولاً، بشبهات زينها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة، والفلسفة الحائدة، قوم منهم زعموا أن التماثيل طلاسم الكواكب السماوية، والدرجات الفلكية، والأرواح العلوية، وقوم جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن والشياطين، وقوم على مذاهب أخر، فابتعث الله نبيه نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، 3148/5.

سواه، وجاءت الرسل بعده تترى، إلى أن عمَّ الأرض دين الصابئة والمشركين، كما كانت النماردة والفراعنة، فبعث الله تعالى إمام الحنفاء وأساس الملة الخالصة والكلمة الباقية إبراهيم خليل الرحمن، فدعا الخلق من الشرك إلى الإخلاص، ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام، فجعل الله الأنبياء والمرسلين من أهل بيته وبعث الله بعده أنبياء من بني إسرائيل، ثم بعث الله عيسى المسيح ابن مريم[1].

رابعاً: علماء الآثار والباحثون في الأديان وأصل التوحيد:

إنَّ الأصل في الإنسان التوحيد وهو أول ديانة عرفتها البشرية، ثم بدأ الإنسان بالانحراف فتدرج أمره حتى وقع في الشرك، وذلك هو الحق الذي لا ريب فيه، ثم إنَّ هذا القول الموافق للقرآن والسنة والفطرة والعقل الصريح الموافق للنقل الصحيح قد اهتدى إليه بعض علماء الآثار والباحثون في الأديان، من الغربيين وغيرهم نذكر هنا نماذج من أقوالهم:

1. يقول الباحث (أدميسون هيوبيل) المختص في دراسة الملل البدائية: لقد مضى ذلك العهد الذي كان يتهم الرجل القديم بأنه غير قادر على التفكير فيما يتعلق بالذات المقدس، أو في الله العظيم، ولقد أخطأ (تايلور) حيث جعل التفكير الديني الموحِّد نتيجة للتقدم الحضاري، والسمو المعرفي، وجعل ذلك نتيجة لتطور بدأ من عبادة الأرواح والأشباح، ثم التعدد، ثم أخيراً العثور على فكرة التوحيد[2].

---

1 ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ت (751هـ)، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1996، 447/3، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 603/28، أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث، 185/1.

2 أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث ، 199/1.

2. ويقول الباحث (أندريلانج) من علماء القرن الماضـــي: إنَّ الناس في اســـتراليا وأفريقيا والهند لم ينشـأ اعتقادهم في الله العظيم على أسـاس من الاعتقاد المسـيحي، وقد أكد هذا الرأي العالم الاســـترالي (وليم سميث) حيث ذكر في كتابه (أســس فكرة التوحيد) مجموعة من البراهين والأدلة جمعها من عدة مناطق واتجاهات تؤكد أنَّ أول عبادة مارسها الإنسان كانت تجاه الله الواحد العظيم [1].

3. يقول الدكتور (حاج أورانج كاي) من علماء الملايو في إندونيســـيا: عندنا في بلاد "أرجبيل" الملايو دليل أكيد على أنَّ أهل ديارنا هذه كانوا يعبدون الله الواحد، وذلك قبل أن يدخل الإســلام إلى هذه الديار، وقبل أن تدخل النصـرانية، وفي عقيدة جزيرة "كلمنتان" بإندونيسيا لوثة من الهندوسية، ورائحة من الإسلام، مع أنَّ التوحيد كعبادة لأهل هذه الديار كان هو الأصل قبل وصول الهندوسية أو الإسلام إليها، وإذا رجعنا إلى اللغة الدارجة لأهل هذه الديار قبل اســتخدام اللغة الســنســكريتية أو قبل الهجرة الهندوسية أو دخول الإسلام تأكدنا من التصوُّر الاعتقادي لأجدادنا- حسب النطق والتعبيرات الموروثة- هو: أنَّ الله في عقيدتهم واحد لا شريك له [2].

إنَّ هؤلاء العلماء وغيرهم من أمثال: لانج، وفريزر شميدث، وبتاتزولي، وفوكارت، قد توصلوا من خلال أبحاثهم التي قاموا بها إلى أنَّ الأصل هو التوحيد وليس الشرك، وسموا نظريتهم: (نظرية فطرية التوحيد وأصالته)، وقد انتصر لهذه النظرية، فريق كبير من العلماء وأيدوها بما توصلوا إليه من اكتشافات وحفريات قديمة تدل على أنَّ هناك أمم عريقة لم

---

1 المرجع نفسه، 199/1.

2 أبو بكر محمد زكريا، الشـــرك في القديم والحديث ، 200/1، د. حاج أورانج كاى رحمات بن دانو، التفكير الديني في العالم قبل الإسلام، ترجمة: د. عبد الرؤوف شلبي، دار الثقافة، الدوحة. قطر، 1983م، ص. ص 28 – 30.

تكن تعرف تعدد الآلهة، وكانت تؤمن بالإله الواحد، وبنوا عليه أنَّ عقيدة الوحدانية هي أقدم ديانة عرفها البشر، وأنَّ التعدد والوثنية طارئة ومتطفلة على عقيدة التوحيد[1].

إنَّ الأصـل في الإنسـان التوحيد، وهذا يدحض افتراءات القائلين، بأن التديُّن من صـنع الإنسـان، وأول العبادة عند الإنسـان كانت الآلهة المتعددة، ثم ترقَّت إلى عبادة إلهين، كإله النور وإله الظلام، وإله الخير وإله الشر، ثم ترقى إلى عبادة إله واحد[2].

وإنَّ التوحيد هو الأصـل ومغروس في الفِطَر، وأيقنت به العقول الرشـيدة، وأثبتته التجارب التاريخية الصادقة التي كان زعماؤها سادة البشر من الأنبياء والمرسلين، فالإنسانية -إذن- بدأت بالتوحيد ثم انتهت شـيئاً فشـيئاً إلى الشـرك والتعدُّد، وهذه هي الحقيقة العلمية المؤيدة بالدليل العقلي والنقل والمنطقي والبحث العلمي، وهذه الحقائق الدامغة تقلب نظرية (أوغاسط كونت) رأساً على عقب فقد كان (أوغاسط كونت) يرى أن الإنسـانية بدأت بالتعدد والشرك ثم التوحيد خاتمة المطاف فيها، وهذه النظرية لم تقف أمام الأبحاث الحديثة، بحيث انهارت كما انهار غيرها من نظريات هذا المفكر الذي كان يحتلُّ يوماً مكان الصـــدارة بين المفكرين، والذي أصـــبحت آراؤه تدرَّس الآن على أنها أثر تاريخيٌّ فحسب.

ومهما يكن من شيء، فإنه حينما انحرفتِ الإنسانية في عقيدتها شاءت رحمة الله أن يرسل نوحاً عليه السـلام؛ مبشـراً بالحق فيما مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدالة في مجال التشريع[3].

---

1 أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث، المرجع السابق، 1/ 196.

2 محمد عبد القادر أبو فارس، مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان. الأردن، 2013، ص 28.

3 عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل ، ص 64.

خامساً: أول شرك وقع في بني آدم:

إنَّ أول شركٍ وقع في بني آدم هو في قوم نوح عليه السلام وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة المشهور، حيث ورد فيه: "يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض"[1] ، وكما جاءت الآية التي تكلمت عن الرسل بتصديره، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: 70].

وهكذا جاء ذكره في مواضع مدحه جلَّ وعلا النبيين والمرسلين، كما قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: 7]، وبذلك، فإن نوح عليه السلام، إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت، وشرع الناس في الضلال والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول [2].

بُعث إلى أهل الأرض – كما يقول أهل الموقف يوم القيامة – وقد وقع قوم نوح في الشرك والعمل بما يبغضه الله عز وجل من ركوب الفواحش، وشرب الخمور والاشتغال بالملاهي عن طاعة الله عز وجل[3].

ويستدل بكون أول شرك وقع في بني آدم هو في قوم نوح، فقد أحدثوا الشرك وعبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح: 21: 23].

---

1 صحيح البخاري، رقم 3340.

2 أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث ، 241/1.

3 أبو بكر محمد زكريا، المرجع السابق، 241/1.

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت".

قال ابن جرير الطبري في تفسيره:"كانوا قومًا صالحين - ودًّاً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً- بين آدم ونوح، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم" [1].

قال ابن قيم الجوزية: "قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم"[2] ، فثبت أنَّ أصل الشرك في بني آدم كان من الشرك بالبشر الصالحين المعظَّمين، فإنهم لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم ثم عبدوهم، فهذا أول شرك كان في بني آدم وكان في قوم نوح [3].

وفي حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري في صحيحه دروس وعبر كثيرة، من أهمها ما يلي:

1. زين الشيطان لقوم نوح وجوب تعظيم الرجال الصالحين بعد موتهم، وأوحى إليهم أن انصبوا إلى مجالسهم وسمُّوها بأسمائهم، وجاء آخرون من قوم نوح فأوحى إليهم الشيطان أنَّ من كان قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها.

---

1 الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، 12/ 62.

2 ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، تحقيق: محمد عزير شمس - مصطفى بن سعيد إيتيم، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، 1432هـ، 210/1.

3 ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان، المرجع السابق، 1/ 210.

2. لقد استخف الشيطان قوم نوح فأطاعوه، وأصبحوا جنوداً في جيشه، وأعضاء عاملين في حزبه، وكان من الواجب عليهم يحذروا منه لأنه عدو مبين لهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 168- 169] .

3. كان من الواجب عليهم أن يعلموا أنَّ عبادة الله تعني عصيان الشيطان ومخالفته في كل ما يوسوس به، وقد أخذ الله عهداً في ذلك على عباده الموحدين: قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: 60-62]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: 6].

4. جاء في حديث ابن عباس: .. فلم تعبد – أي الأصنام– حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبدت. و"تنسَّخ": من نسخ، أي: زال، وللكشميهني: "نسخ العلم" أي: درست آثاره بذهاب العلماء، وعمَّ الجهل حتى صاروا لا يميّزون بين التوحيد والشرك، فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله[1]. وإذن: لم يستطع الشيطان أن يحقق هدفاً واحداً من أهدافه خلال "عشرون قرناً ما بين آدم ونوح" عليهما السلام؛ لأن حيله لا تنطلي على العلماء، وبضاعته لا تجد رواجاً بينهم؛ لأنهم يعرضون كل جديد على شرع الله، والعبادة عندهم لا تكون إلا بما شرع الله. وعندما عمَّ الجهل ومات العلماء أصبحت أوامر الشيطان نافذة، وأقواله مسموعة، ومن أجل

---

1 محمد سرور بن نايف زين العابدين، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، 1988م، 43/1.

هذا كانت أول آية تتنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: 1-5] . وأخذ النبي ﷺ يعلم أصحابه، ويربيهم في مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم، وتخرَّج من هذه المدرسة العظيمة رجال علماء، عرفوا كيف يتصدوا للشيطان ووساوسه من خلال القرآن الكريم، وتعاليم النبي العظيم[1].

5. لم يطلب الشيطان من قوم نوح عبادة غير الله دفعة واحدة، ولو فعل ذلك لما استجاب له أحد، لكنه تدرج معهم فهو من جهةٍ زعم حبَّه للرجال الصالحين، وأوحى لقوم نوح بوجوب صنع تماثيل لهم تخليداً لذكراه، وبعد انقراض من تبقى من العلماء، أوحى لمن جاء بعدهم من الجاهلين أنَّ من سبقهم كانوا يعبدون هذه الأصنام، فاستجابوا له[2].

6. معبودات قوم نوح: تعرض القرآن الكريم لمعبودات قوم نوح في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: 23]. وهكذا يبين لنا القرآن الكريم أنَّ الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح: هي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهي من أقدم الأصنام التي عبدت قاطبة، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، وأنَّ ذلك يرجع إلى ما قبل طوفان نوح، وذلك حين صوَّر القوم بعض الصالحين منهم، ثم وضعوا لهم الصور والتماثيل لإحياء ذكراهم والاقتداء بهم، ثم بعد ذلك عبدوا هذه الصور وتلك التماثيل، فالذي لا شك فيه أنَّ هذه الأصنام إنما كان يعبدها قوم نوح عليه السلام، وروى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال:

---

1 المرجع نفسه ، 44/1.

2 محمد سرور بن نايف زين العابدين، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله ، 44/1.

" صـارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد: أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما ســواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجوف عند ســبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نســر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالســهم التي كانوا يجلســون أنصــاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عبدت"[1].

ويتبين لنا من هذا أنَّ عبادة الأوثان لم تتسرب إلى عقائد البشر بين عشيَّة وضحاها، بل استغرقت شـوطاً من الزمن منذ الانحراف الأول، وكان للطبيعة المادية وتسـلط الشـيطان على الإنسـان أثر في تنمية هذا الأمر واتساعه، ولا يظن أحد أنَّ تطور البشرية في العلوم وتقدمها في الميدان الحضـاري لن يعيد الإنسـانية إلى مرحلة الوثنية تلك، فإننا ما زلنا نرى صــوراً مختلفة في الوثنية الحديثة تلك، التي تذكرنا بالجاهلية الأولى، فكثير ما يطلق عليها "دور العبادة" المليئة بالأوثان والأصـنام، التي يقف أمامها بعض البشـر في عصـرنا سـائلاً ومتضرعاً بعيداً عن توحيد الله وإفراد العبادة له سبحانه وتعالى.

وهنا نجد عظمة الإســلام في تحصــين العقيدة عند المســلم وهو العامل الوحيد في منع الانحراف، ويظهر ذلك في التوحيد الخالص ومنع المظاهر التي تذهب بالإنســان عنه، فقد ثبت في الصــحيحين عن رســول الله ﷺ أنه لما ذكرت عنده أم ســلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأيناها بأرض الحبشة يقال لها مارية، فذكرنا من حسنها وتصاوير فيها، قال:

---

1 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ - 1988م ، 13/4.

"أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله"[1].

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، قالت: "فلولا ذاك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً"[2] .

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: "كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ:"إنَّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم فصلوا، وادعوا الله"[3] .

فمن كلام رسول الله ﷺ هذا نجد كيف عالج الإسلام مظاهر الانحراف العقائدي الذي يتسرب إلى البشر عن طريق العلاقة بالعظماء في الحياة أو بعد الموت [4].

وكيف أنَّ الإسلام سدَّ منافذ الشرك ودعا إلى التوحيد الخالص، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ **[الزمر: 2- 3]** .

---

1 صحيح البخاري، رقم (427)، وصحيح مسلم، رقم (528)، والنسائي في سننه، وأحمد في مسنده.

2 صحيح مسلم، كتاب المساجد، مواضع الصلاة، رقم (529)، صحيح البخاري، رقم (1390) .

3 صحيح البخاري، باب الصلاة في كسوف الشمس، رقم (996) ، نقلاً عن الشيخ القاضي محمد دالي بلطة، قصص الأنبياء، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، د. ت، ص 43.

4 محمد دالي بلطة، قصص الأنبياء، ص 43.

هذا وعندما نسي الناس عهد الله وخرجوا عن ملة التوحيد التي هي فطرت الله، ولم يبق في الأرض يومئذٍ من يعبد الله وحده لا يشـــرك به شـــيئاً، فأرســـل الله إليهم نبيه نوحاً عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وإن زعموا أنهم يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى ويتخذوهم شفعاء [1].

سادساً: القرآن الكريم مصدر تاريخي:

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 42]، وقد نزل على رسول الله ﷺ منجَّماً في ثلاث وعشرين سنة، حســـب الحوادث ومقتضـــى الحال، وكانت الآيات والســـور تدوَّن ســـاعة نزولها، إذ كان المصـطفى ﷺ إذا ما أنزلت عليه آية أو آيات قال:"ضعوها في مكان كذا ... من سـورة كذا".

فقد ورد أنَّ جبريل عليه الســـــلام كان ينزل بالآية أو الآيات على النبي ﷺ، فيقول له: يا محمد إنَّ الله يأمرك أن تضـعها على رأس كذا من سـورة كذا، ولهذا اتَّفق العلماء على أنَّ جمع القرآن "توفيقي"، بمعنى أنَّ ترتيبه بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصـاحف، إنما هي بأمرٍ ووحيٍ من الله [2].

وقد يســـر الله لهذه الأمة من عهد الرســـول ﷺ وأصـــحابه الكرام حفظ كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّـــرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾[القمر: 32]، فكتب الله له الخلود، وحماه من التحريف والتبديل، وصانه من تطرُّق الضياع إلى شيءٍ منه عن طريق حفظه في

---

1 أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث ، 233/1.

2 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، 19/1.

السطور، وحفظه في الصدور [1]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 41- 42]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 17: 19].

والقرآن الكريم كمصدر تاريخي لا ريب أنه أصدق المصادر وأصحها على الإطلاق، ولا سبيل إلى الشك في صحة نصِّه، بحال من الأحوال، لأنه ذو وثاقة تاريخية لا تقبل الجدل، فقد دون في البداية بإملاء الرسول ﷺ، وتلي فيما بعد، وحمل تصديقه النهائي قبل وفاته [2]؛ ولأن القصص القرآني إنما هو أنباء وأحداث تاريخية، لم تلتبس بشيء من الخيال، ولم يدخل عليها شيء غير الواقع، وأنه كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105].

ثم إنَّ الله عز وجل قد تعهَّد –كما أشرنا من قبل- بحفظه دون تحريف أو تبديل، ويرى الدكتور محمد عبد الله دراز أن تسمية القرآن الكريم بالقرآن وبالكتاب، إنما تعني الأولى كونه متلوٌّ بالألسن، بينما تعني الثانية كونه مدوَّناً بالأقلام، وإنَّ تسمية القرآن الكريم بهذين الاسمين، إشارة إلى أنَّ الله سوف يحفظه في موضعين، لا في موضع واحدن أعني حفظه في الصدور والسطور جميعاً [3].

---

1 محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض. السعودية، الطبعة الأولى، 1417هـ – 1997م، ص. ص 12- 14.

2 محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، ص 49.

3 المرجع السابق، ص. ص 12- 13.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة الإسلامية اقتداء بنبيها صلى الله عليه وسلم بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز، وإنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ **[الحجر: 9]**.

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس، فقال تعالى: ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ **[المائدة: 44]**، أي بما طلب إليهم حفظه، والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأنَّ هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة، زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان سادَّاً مسدَّها، ولم يكن شيء فيها يسدُّ مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه وهو الحكيم العليم[1].

ولم يُنزَّل القرآن الكريم بمثابة كتاب في التاريخ يتحدث عن أخبار الأمم، كما يتحدث عنها المؤرخون، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد بالتي هي أقوم، أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستوراً للمسلمين، ومنهاجاً يسيرون عليه في حياتهم، يدعوهم إلى التوحيد وإلى تهذيب النفوس، وإلى وضع مبادئ للأخلاق وميزان للعدالة في الحكم، واستنباط لبعض الأحكام، فإذا ما عرض لحادثة تاريخية فإنما للعبرة والعظة[2]، واستلهام سنن الله في قيام الدول وسقوطها، وازدهار الحضارات وزوالها، وصفات قادة التغيير الإنساني، ومناهجهم في إدارة الصراع مع قوى الظلام والشر والضلال، والبغي والإجرام... إلخ.

---

1 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم ، 39/1.

2 المرجع السابق، 40/1، أهداف القرآن ومقاصده؛ محمد رشيد رضا، (تفسير القرآن الكريم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، 1/ 286 – 293.

ويهتم القصــص القرآني بالعبر والدروس الفردية والأســرية والإنســانية، ومعالجة الأمراض النفسية، ودلالة الخلق على الصلة بالله وإفراد العبادة له، والتضرع بين يديه، وشدة الدعاء والانكســار، والتجارب المتنوعة لبني الإنســان، ومنها قصــة يوســف وإسماعيل – عليهما الســلام – فقصــة يوســف قصــة إنســان قد تمرَّس منذ طفولته بآفات الطبائع البشــرية من حسد الإخوة إلى غواية المرأة، إلى ظلم السجن إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشـــدة والمجاعة، وقصـــة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنســـانية، من عهد الطفولة كذلك، فيصاب بالغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء، وإن كان الأخطر من ذلك كله أن تكتب عليه التجارب الإنسانية ضريبة الفداء، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت – في معظم مجتمعات الشـــرق القديم– لا تتورع عن الذبائح البشـــرية، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان، ثم يكتب لهذا الغلام الوحيد بواد غير ذي زرع عن البيت المحرم أن تنتمي إليه أمة ذات شـــعوب وقبائل، تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام [1].

1. معلومات هامة عن عصور ما قبل الإسلام:

هكذا يقدم لنا كتاب الله العزيز معلومات مهمة عن طريق القصص القرآني عن عصور ما قبل الإسـلام، وأخبار دولها، أيدتها الكشوف الحديثة، كل التأييد، فيقدم لنا – عن طريق قصة موسى عليه السلام– كثيراً من المعلومات عن الملكية الإلهية في مصر الفرعونية، وعن

1 عباس محمود العقاد، الإسلام دعوة عالمية، المكتبة العصرية، بيروت. صيدا ، لبنان، 1999م، ص 218- 219.

الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها [1]. والأمر كذلك لقصة إبراهيم حيث تقدم لنا الكثير عن العراق القديم.

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى أنَّ أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم إنما هما قصتا إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهما قصتان مسهبتان في أجزائه، ربما لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعراق أمم الحضارة الإنسانية، وهما أمة وادي النهرين، وأمة وادي النيل، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم[2].

وأما عن بني إسرائيل فليس هناك من شكٍّ في أنه ليس هناك كتاب سماوي – حتى التوراة نفسها– قد فصل الحديث عن بني إسرائيل وأفاض في وصف اليهود وأحوالهم وأخلاقهم، وأبان مواقفهم من الأنبياء، كما فعل القرآن الكريم، وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ **[النمل: 76].**

وأما عن بلاد العرب، فإنك تجد في كتاب الله الكريم سورة تحمل اسم مملكة في جنوب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وأعني بها "سورة سبأ"، هذا إلا أنَّ القرآن الكريم قد انفرد دون غيره من الكتب المقدسة بذكر أقوام عربية بادت كقوم عاد وثمود، فضلاً عن قضية أصحاب الكهف، وسيل العرم، وقضية أصحاب الأخدود، إلى جانب قصة أصحاب الفيل، وهجرة الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام إلى الأرض الطاهرة في الحجاز، ثم إقامة إسماعيل هناك [3].

---

1 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، 41/1.

2 المرجع السابق، 41/1.

3 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم ، 42/1.

- وصـــــدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[هود: 49]** .

- ويقول: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ **[آل عمران: 44]**.

- ويقول: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَـــأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ **[القصص: 44- 46]** .

- ويقول: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[هود: 120]**.

- ويقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ **[الكهف: 13]**.

- ويقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَـــصِـــهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ **[يوسف: 111]**.

- صـدق رسـول الله ﷺ وهو يقول في وصـف القرآن: "كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصــــل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصــراط المســتقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألســنة، ولا تتشـعب معه الآراء، ولا يشـبع من العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا

قرآناً عجباً، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم"[1] .

2. هدف القرآن من قصصه ومصداقيته الفريدة:

إنَّ هدف القرآن من قصصه، ليس التأريخ فقط لهذا القصص، وإنما عبراً تفرض الاستفادة بما حل بالسابقين، وزجراً لخصوم الإسلام من قريش، ثم تثبيتاً لقلب النبي ﷺ أمام أذى الكافرين، حيث شاءت رحمة الله بالمصطفى المختار ﷺ، أن تخفف عنه الشدائد والآلام، عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين، حيث يذكره الله جل وعلا بما لاقاه أخوة كرام له من عنت الظالمين، وبغي الكافرين، فما وهنوا وما استكانوا، وما ضعفوا وما تخاذلوا، ولكنهم صبروا، وصابروا، ومن هنا يخاطب الله رسوله الكريم في كتابه العزيز: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[هود: 120]**، كما أن في هذا القصص بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرهم الغرور، والجبابرة الذين طغوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، والله من ورائهم محيط[2].

ومع ذلك يجب ألا يغيب عن بالنا – دائماً وأبداً– أنَّ هذا القصص إن هو إلا الحق الصراح، وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [3] **[النساء: 87]**، ويقول: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ **[آل عمران: 62]**، ويقول: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ **[البقرة: 252]**، ويقول: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾

---

1 جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، 1974م، 151/2؛ محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 15؛ تفسير القرطبي، 5/1.

2 محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى القرآن، ص 203.

3 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم ، 44/1.

[آل عمران: 3]، ويقول: ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ [فاطر: 31]، ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: 2]، ويقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: 6]، ويقول: ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [محمد: 2].

ولذلك إنك إذا قرأت ما ورد في القرآن الكريم من قصص، فإنك لن تجد شيئاً من المبالغات التي وصلت إلينا من كتب التاريخ، أو في توراة اليهود المتداولة اليوم، فضلاً عن أنَّ ما ذكره القرآن الكريم صحيحاً تؤيده الاكتشافات الحديثة [1].

كقصة عاد وثمود اللتين تبين أنهما مذكورتان في جغرافية بطليموس، وأن هناك الكثير من النصوص التاريخية التي تتحدث عن ثمود، فضلاً عن أنَّ الكتَّاب اليونان والرومان، إنما ذكروا اسم عاد مقروناً باسم إرم كما جاء في القرآن الكريم[2].

وصدق الله العظيم، حيث يقول: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 42]، وحيث يقول: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92]، وحيث يقول: ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [فاطر: 31].

وليس صحيحاً كذلك ما ذهب إليه البعض من أنه لا شك أنَّ إشارات القرآن الكريم إلى كثير من القصص، إنما هو دليل على أنها كانت من القصص الشعبي السائد الذي كان يتداوله الناس من بلاد العرب [3]؛ ذلك لأن العرب ما كانوا يعرفون شيئاً عن كثير من

1 المرجع نفسه، 45/1.

2 عباس محمود العقاد، مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية، دار نهضة مصر، القاهرة، 1955م، ص 61.

3 د. البوطي، من روائع القرآن، ص237.

قصص القرآن، وعلى سبيل المثال، فإنَّ القرآن الكريم يختم قصة نوح بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ﴾ **[هود: 49].**

فلو كان العرب يعرفون هذه القصة مثلاً، وأنها كانت من قصصهم الشعبي الذي يتداولونه في أسمارهم، أفكان العرب – وفيهم أشد أعداء النبي ﷺ– من يسكت على قوله تعالى: "مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ"، أليس من المنطق أنَّ أعداء المصطفى ﷺ وقد كانوا دائماً على يقظة يتمنون أقل ثغرة، ليوجهوا من خلالها ضرباتهم، ويحولوها إلى سخرية واستهزاء، سوف يجيبونه أنهم يعرفون القصة، بل إنها من أساطيرهم التي تفيض بها مجالسهم ونواديهم، ولكن التاريخ لم يحدثنا عمن أنكر على الرسول ﷺ هذه الآية الكريمة، مما يدل على أن ما جاء به القرآن الكريم من أخبار الأمم البائدة، كان شيئاً يكاد يجهله العرب جهلاً تاماً، وإن كان يعلم بعضاً منه أهل الكتاب الذين درسوا التوراة والإنجيل [1] .

1 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، 47/1.

المبحث الثاني: دعوة نوح عليه السلام

أولاً: النبي والرسول والنبوة والرسالة:

1. النبي لغة واصطلاحاً:

أ- النبي لغة:

النبأ – الخبر– والجمع أنباء، وإنَّ لفلان نبأً، أي خبراً. والنبيء: المخبر عن الله عز وجل لأنه أنبأ عنه. والنبيء: المشتق من النَّباوة، وهي الشيء المرتفع، أي إنه أشرف على سائر الخلق[1]. ويقول الفيروز آبادي في تعريف النبوة: سفارة بين الله وبين ذوي العقول، لإزاحة عللهم في أمر معادهم ومعاشهم[2].

ويقول الراغب الأصفهاني في سبب التسمية: ويسمَّى نبياً لرفعه محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 57][3].

ب- **النبي في الاصطلاح**: النبي من بُعث لتقرير شرع من قبله[4].

2. الرسول في اللغة والاصطلاح:

أ- الرسول في اللغة:

1 رجاء بنت صالح محمد البحر، تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي دراسة للأسلوب والموضوع، مكتبة المتنبي، 2016م، ص 244.

2 الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق – الدار الشامية، بيروت، الطبعة الرابعة، 1430 هـ- 2009 م، ص 790.

3 تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي، ص 244.

4 روح المعاني، الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ، 17/ 173.

أصل الرّسل: الانبعاث، ومنه الرسول المنبعث، ويراد به تارة الرِّفق، فقيل: على رسلك، إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول، والرسول يقال تارة المتحمِّل، وتارة المتحمِّل القول والرسالة [1].

والرسول يقال للواحد والجمع، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: 128]، وللجمع ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ **[الشعراء: 16].**

وجمع الرسول: رُسل، ورُسل الله تارة يراد بها الملائكة، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ **[التكوير: 19].**

وتارة يراد بها الأنبياء، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ **[المائدة: 67].**

والرسول: معناه في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه أخذاً من قولهم جاءت الإبل رسلاً أيّ: متتابعة. وقال أبو إسحاق النحوي في قوله عزَّ وجلَّ حكاية عن موسى وأخيه: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ **[الشعراء: 16]**، معناه إنا رسالة رب العالمين أي: ذوا رسالة رب العالمين.

وسمي الرسول رسولاً؛ لأنه ذو رسالة. والرسول: اسم من أرسلت، وكذلك الرسالة [2].

---

1 البحر، تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي، المرجع السابق، ص 244.

2 ابن منظور؛ محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي ت (711هـ)، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1414هـ، مادة (رسل).

ب- **الرسول في الاصطلاح:**

الرسول: هو من بُعث بشرعٍ جديد [1]، ويقول الإمام الشوكاني في تعريفهما الذي يبين فيه الفرق بين النبي والرسول: من بعث بشرع وأمر بتبليغه، والنبي: من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله، ولم ينزل عليه كتاب، ولا بد لهما جميعا من المعجزة الظاهرة [2].

إذن: هناك فرق بين النبي والرسول كما تبين في تعريفهما الاصطلاحي، فالنبي جاء لتقرير شريعة من قبله، وأما الرسول فهو من اختصَّ بشريعة جديدة، وكل نبي رسول، فالرسول أعمُّ من النبي [3].

وأما من استدل بالحديث المروي عن أبي ذر رضي الله عنه في ذكر عدد الأنبياء والرسل، ونصُّه كما يلي: عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال:"مائة ألف وعشرون ألفاً"، قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك؟، قال: "ثلاث مائة وثلاثة عشر جماً غفيراً"[4]. وهذا الاستدلال لا صحة له، لما فيه من الضعف في إسناده [5].

وهذا الحصر مخالف لقول الله تعالى: ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ﴾ **[غافر: 78].**

---

1 الآلوسي، المصدر السابق، 173/17.

2 الشوكاني، فتح القدير، 461/3.

3 تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي، ص 245.

4 صحيح ابن حبان، كتاب: السير، رقم (361).

5 في سنده إبراهيم في وحي الغساني: كذّاب.

3. حقيقة النبوة:

إنَّ النبوة واسطة بين الخالق والمخلوق، في تبليغ شرعه، وسفارة بين الملك وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم تبارك وتعالى لخلقه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، فهي نعمة مهداة من الله تبارك وتعالى إلى عبيده، وفضل إلهي يتفضل بها عليهم، وهذا في حق المرسَل إليهم.

وأما في حق المرسَل نفسه، فهي امتنان من الله يمنُّ بها عليه، واصطفاء من الربّ له من بين سائر الناس، وهبة ربانية يختصه الله بها من بين الخلق كلهم.

ولا تنال النبوة بعلم ولا رياضة، ولا تدرك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس أو إظمائها، كما يظن من في عقله بلادة، وإنما هي محض فضل إلهي، ومجرَّد اصطفاء رباني، وأمر اختياري، فهو جلَّ وعلا كما أخبر عن نفسه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ **[البقرة: 105]**.

فالنبوة إذن لا تأتي باختيار النبي، ولا تنال بطلبه، ولذلك لما قال المشركون: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ **[الزخرف: 31]**، فأجابهم الربُّ تبارك وتعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ **[الزخرف: 32]**، فالله تعالى هو الذي يقسم ذلك ويتفضل به على من يشاء من الناس، ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه، ما كانت الخيرة لأحد غيره، وما كان الاجتباء لأحد سواه [1].

1 ابن تيمية، كتاب النبوات، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1420هـ - 2000م، مقدمة المحقق ، 20/1.

وإنَّ الإيمان بالنبوة هو الطريق الموصل إلى معرفة الله ومحبّته، والمسلك المفضي إلى رضوان الله وجنّته، والسبيل المؤدي إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بمغفرته[1].

يقول ابن تيمية: والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يُحقّق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يُميّز بين الخطأ والصواب[2].

وإن حاجة العباد إلى الإقرار بالنبوّة أشدّ من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنسمونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه؛ إذ من فقد أحد هؤلاء خسر الدنيا، أما من عُدم الإقرار بالنبوة فخسارته أشدّ وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة – عياذاً بالله تعالى–، ولا شك أنّ معرفة الله، والإيمان به، وعبادته، ومعرفة رسوله، وطاعته، يحتاجها كلّ مخلوق مكلّف، ومن حكمة الله تعالى أنّه كلّما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنّه جلّ وعلا يجعله سهلاً ميسّراً غير ذي عِوَج[3].

ولحاجة الناس إلى معرفة النبوة، والإقرار بالرسول، فقد وضّحها المولى جلّ وعلا في كتابه توضيحاً أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ الشرح يطول.

يقول ابن تيمية: فتقرير النبوات من القرآن الكريم أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كلّ خير، وجماع كلّ هدى[4].

---

1 المرجع السابق، مقدمة المحقق، 20/1.

2 ابن تيمية، النبوات، المصدر السابق، ص 447.

3 ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، 1411 هـ - 1991 م ، 66/9، ، 129/10.

4 ابن تيمية، النبوات، المصدر السابق، 1/ 21.

ولابن تيمية كلام رائع نفيس يُجمل فيه ما قُدّم بيانه، يقول فيه: فإنّ الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده، في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرّهم، وتكميل ما يُصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه.

- فالأصل الأول يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم.
- والأصل الثاني يتضمن تفصيل الشرائع، والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يُحبّه الله وما يكرهه.
- والأصل الثالث يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب.

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإنّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يُدرك وجه الضرورة إليها، من حيث الجملة،كالمريض الذي يُدرك وجه الحاجة إلى الطبّ ومن يُداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه، وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبّ؛ فإنّ آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا تُرجى الحياة معه أبداً، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتباع الرسول[1].

---

1 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المرجع السابق، 19/96- 97.

ويقول أيضـــاً: النبوة مشـــتملة على علوم وأعمال، لا بدّ أن يتصـــف الرســـول بها، وهي أشرف العلوم، وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب [1].

4. الحكمة من بعث الرسل:

أ- الأنبياء والرسل هم صفوة الخلق، ومصطفو الحقّ، وحاجة الخلق إليهم ماسّة:

إنَّ الخلق بحاجة الرســل ليبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضـاه، وما يغضــب منه ويأباه، وكثير من العصــاة والمنحرفين ضــلّوا في متاهات الشــقاوة، هذا مع وجود الأنبياء عليهم الســلام، فكيف تكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رسلاً مبشرين ومنذرين.

فالرســـل بُعثوا يُهذّبون العباد، ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ويُحرّرونهم من رقّ عبودية المخلوق، إلى حرية عبادة رب الأرباب الذي أوجدهم من العدم، وسيفنيهم بعد الوجود، ويبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إما أشقياء، وإما سعداء.

ولو تُرك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشـــوا عيشـــة ضـــنكاً، في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمعُ غاب، القويّ فيهم يأكل الضعيف، والشريف فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا.. فاقتضت حكمته جلّ وعلا أن لا يخلق عباده سُـــدى، ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَـــبُ الْإِنْسَـــانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً﴾ **[القيامة: 36]**.

ومن رحمته جلّ وعلا بهم، أن منّ عليهم إذ بعث فيهم رســـلاً مبشـــرين ومنذرين يتلون عليهم آيات ربهم، ويُعلّمونهم ما يصــلحهم، ويُرشــدونهم إلى مصــدر ســعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

---

1 ابن تيمية، النبوات، المرجع السابق، 22/1.

ب- إنَّ الغاية العظمى التي أوجد الله الخلق لأجلها هي عبادته، وتوحيده، وفعل محابّه، واجتناب مساخطه:

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ **[الذاريات، 56]**، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف حقيقة العبادة؛ من فعل ما يُحبّه الله ويرضاه، وترك ما يكرهه الله ويأباه، إلا عن طريق الرسل الذين اصطفاهم الله من خلقه، وفضّلهم على العالمين، وجعلهم مبرّئين من كلّ عيب مشين، وكلّ خلق معيب، وأيّدهم بالمعجزات والحجج والبراهين، وأنزل عليهم البيّنات والهدى، وعرّفهم به، وأمرهم أن يدعوا الناس إلى عبادته وحده حقّ العبادة [1].

ج- إقامة الحجة على البشر بإرسال الرسل:

- كما قال تعالى: ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ **[النساء، 165]**.
- قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ **[الإسراء، 15]**.
- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ **[طه، 134]**.

فالله سبحانه وتعالى أرسل الرسل؛ ليقطع دابر الكافرين، فلا يعتذروا عن كفرهم بعدم مجيء النذير، وليعلم علم ظهور، وإلا فهو تعالى يعلم -بالعلم الأزلي- من يطيعه ممن يعصيه، وليقيم على عباده الحجة الدامغة، فيحيي من حيَّ عن بيّنة، ويهلك من هلك عن بيان وبرهان.

1ابن تيمية، النبوات، المرجع السابق، 23/1.

د- إنَّ الناس لا يدركون بعقولهم كثيراً من الغائبات، فهم بحاجة لمن يعلمهم ذلك:

لا يعرف الناس الغائبات ولا يدركونها، مثل معرفة أسماء الله وصـــفاته، ومعرفة الملائكة والجن والشياطين، ومعرفة ما أعدّ الله للطائعين في دار رضوانه وكرامته، وما أعدّ للعاصين في دار ســـخطه وإهانته، لذا فإنّ حاجتهم إلى من يعلّمهم هذه الحقائق، ويُطلعهم على هذه المغيّبات ضرورية.

وقد امتدح الله تعالى عباده الذين يؤمنون بالغيب، فقال تعالى: ﴿ الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ **[البقرة، 13]**، فلو لم يبعث الله الرســـل، لما عرف الناس هذه الأمور الغيبية، ولما آمنوا إلا بما يُدركونه بحواسّـــهم، فســـبحان الخلّاق العليم الذي منّ على عباده ببعثة الأنبياء والمرسلين.

هـ- الخلق بحاجة إلى القدوة الحسنة، ممن كمّلهم الله بالأخلاق الفاضلة، وعصمهم من الشبهات والشهوات النازلة:

إنّ الأنبياء هم نبراس الهدى، ومصابيح الدجى، يقتدي بهم الخلق، ويتخذون من سيرتهم وحياتهم قدوة يسيرون على منوالهم حتى يصلوا إلى دار السلام، ويحطّوا رحالهم في ساحة ربّ الأنام[1].

فالرسل هم قدوة الأتباع، والأسوة الحسنة لمن أطاع، في العبادات، والأخلاق، والمعاملات، والاستقامة على دين الله. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً ﴾ **[الأحزاب، 21]**.

---

1 الفتاوى، المرجع السابق، 19/ 93 – 94.

و- الرسل عليهم السلام جاءوا لإصلاح النفوس، وتزكيتها، وتطهيرها، وتحذيرها من كلّ ما يُرديها:

لقد بُعثوا لدلالة الخلق على الطريق المستقيم، وإرشادهم إلى المنهج القويم وتوجيههم نحو الأخلاق الحميدة، وتنفيرهم من المساوئ الذميمة. قال تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ **[الجمعة، 2]**.

وقد أوضح ابن تيمية حاجة العباد إلى بعثة المرسلين في مواضع شتى من كتبه. فمن ذلك قوله: والرسالة ضرورية للعباد، لا بدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كلّ شيء، والرسالة روح العالم، ونوره، وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة. وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات. قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ **[الأنعام، 122]**، فهذا وصف المؤمن، كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، وأما الكافر فميِّت القلب في الظلمات[1].

وقال ابن تيمية: "والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإنّ الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين، حركة يجلب بها ما ينفعه،

1 الفتاوى، المرجع السابق، 19/ 19 – 100.

وحركة يدفع بها ما يضرّه، والشرع هو النور الذي يُبيِّن ما ينفعه وما يضرّه، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً. وليس المراد بالشرع التمييز بين الضـارّ والنافع بالحسّ، فإن ذلك يحصـل للحيوانات العجم، فإن الحمار والجمل يميّز بين الشـعير والتراب، بل التمييز بين الأفعال التي تضـرّ فاعلها في معاشـه ومعاده، كنفع الإيمان والتوحيد والعدل والبر والتصـديق والإحسـان والأمانة والعفة والشـجاعة والحلم والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلة الأرحام، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى المماليك والجار، وأداء الحقوق، وإخلاص العمل لله، والتوكل عليه، والاستعانة به، والرضا بمواقع القدر به، والتسـليم لحكمه، والانقياد لأمره، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وخشـيته في الغيب والشـهادة، والتقرب إليه بأداء فرائضـه واجتناب محارمه واحتسـاب الثواب عنده، وتصديقه، وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعته في كل ما أمروا به، مما هو نفع وصـلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضـد ذلك شـقاوته ومضـرته في دنياه وآخرته.

ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضـار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشـرف منة عليهم أن أرسـل إليهم رسـله، وأنزل عليهم كتبه، وبيَّن لهم الصراط المستقيم، ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام والبهائم، بل أشرّ حالاً منها، فمن قبِل رسالة الله واستقام عليها، فهو من خير البرية، ومن ردَّها وخرج عنها فهو من شـرّ البرية، وأسوأ حالاً من الكلب والخنزير والحيوان البهيم [1].

---

1 ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، 100/19.

إن حاجة الناس إلى الرسـل لا تماثلها حاجة، واضـطرارهم إلى بعثتهم لا تفوقها ضـرورة، فهم في أشـد حاجة، وأعظم ضـرورة [1]، وهذا ما وضّـحه ابن تيمية بقوله: وليسـت حاجة أهل الأرض إلى الرسـول كحاجتهم إلى الشـمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشدّ حاجة من كلّ ما يقدّر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده [2].

فاضطرار العباد إلى المرسلين لا يُعادله اضطرار، وحاجتهم إلى المبشرين والمنذرين لا تماثلها حاجة [3].

وقال ابن قيم الجوزية: فإنه لا سـبيل إلى السـعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسـل، ولا سـبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصـيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضـى الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميّز أهل الهدى من أهل الضـلال، فالضـرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضـت فضـرورة العبد وحاجته إلى الرسـل فوقها بكثير، وما ظنّك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين، فسـد قلبك، وصـار كالحوت إذا فارق الماء ووضـع في

---

1 ابن تيمية، النبوات ، 27/1.

2 ابن تيمية، مجموع الفتاوى ، 101/19.

3 ابن تيمية، النبوات، المرجع السابق، 27/1.

المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسـل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسّ بهذا إلا قلب حيّ، "وما لجرحٍ بميتٍ إيلام" [1].

والرسل هم قادة للبشر يسيرون بهم على طريق الخير، ويهدونهم إلى سبيل الرشاد، ويجنبونهم سـبل الغواية والضـلال، وهم قدوة للناس في أخلاقهم وعباداتهم، وطريقة حياتهم، وقد أمر الله سـبحانه باتباعهم والسـير على طريقهم فقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ **[الأنعام:90]** [2].

5. وظائف الرسل:

إنّ للرسـل – عليهم الصـلاة والسـلام – غايات عظمى، ووظائف كبرى وكثيرة، وأهداف سامية، أُجمل بعضها في النقاط التالية:

أ- دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وخلق عبادة ما سواه.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ **[النحل: 36]**.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ **[الأنبياء: 25]**.

ب- تبليغ الشريعة الربانية إلى الناس:

قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَـالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ **[المائدة: 67]**.

---

1 ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، بيروت، الطبعة (27)، 1994م، ، 69/1.

2عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997م، 7/1.

ج- تبيين ما أنزل من الدين:

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: 44].

د- دلالة الأمة إلى الخير، وتبشيرهم بالثواب المعدّ إن فعلوه، وتحذيرهم من الشر وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه.

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165].

هـ- إصلاح الناس بالقدوة الطيبة، والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال.

قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: 90].وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].

و- إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه:

قال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 49].

ز- شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم البلاغ المبين:

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **[النحل: 89]**.

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ **[البقرة: 143]**.

فهذه بعض وظائف المرسلين، التي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنهم يبلغون عن رب العالمين، فسبحان من خصَّهم بهذا الرتبة العليَّة ومنحهم هذه الوظيفة السَّنية، واصطفاهم واختارهم من بين سائر عباده، ليقوموا بهذه الخدمة المرضية [1].

6. أمور تفرَّد بها الأنبياء:

أ- الوحي:

خصَّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ **[الكهف: 110]**، وهذا الوحي يقتضي عدة أمور، يفارقون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغيوب، يقول الله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ **[الجن: 26- 27]**، ومن ذلك الإسراء بالرسول ﷺ إلى بيت المقدس، والعروج به إلى السموات العُلى، ورؤيته للملائكة والأنبياء، وطلاعه على الجنة والنار، ومن ذلك رؤيته

1 ابن تيمية، النبوات ، 28/1 - 29.

للمعذبين في قبورهم، وسماعه تعذيبهم، وفي الحديث: "لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر"[1] .

ب- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

ومما اختصهم الله به، أنَّ أعينهم تنام، وقلوبهم لا تنام، فعن أنس رضي الله عنه في حديث الإسراء: والنبي نائمة عيناه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم[2].

وهذا وإن كان من قول أنس إلا أنَّ مثله لا يقال من قبل الرأي كما يقول ابن حجر[3] ، وقال صلى الله عليه وسلم عن نفسه: "تنام عيني ولا ينام قلبي"[4] .

ج- الأنبياء لا يورِّثون:

مما اختص الله به الأنبياء أنهم لا يورثون، بل ما تركوه من الأموال يكون صدقة من بعدهم، فعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال:"لا نورث، ما تركناه صدقة"[5] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: "إنا معاشر الأنبياء لا نورِّث، ما تركت بعد مئونة عاملي، ونفقة نسائي صدقة"[6] .

ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به – أي نبينا محمد ﷺ- في حياته إلى أحد من ورَّاثه الذين لولا هذا النص لصرف إليهم، هم ابنته فاطمة وأزواجه، وعمه العباس

---

1 صحيح مسلم، كتاب الجنة ، 200/4، رقم 2868.

2 صحيح البخاري، رقم 3570.

3 البخاري، الفتح ، 670/6.

4 البخاري، الفتح ، 670/6، رقم (3569).

5 صحيح البخاري، رقم (6730)، صحيح مسلم، رقم (1758).

6 مسند أحمد، 5/ 463. وانظر: مسلم، رقم 1760.

رضـي الله عنه، واحتج عليهم الصـديق في منعه إياهم بهذا الحديث، وقد افقه على روايته عن رســول الله ﷺ عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة والزبير، وأبو هريرة وآخرون رضـي الله عنهم[1].

والحكمة من ذلك: أنَّ الله تعالى صـان الأنبياء عن أن يورّثوا دنيا، لئلا يكون ذلك شـبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وخلفوها لورثتهم[2].

أما قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُـلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ [النمل: 16]، فالمراد بهذا الإرث: العلم والنبوة ونحو ذلك، لا إرث المال، يقول ابن كثير معلقاً على هذه الآية: ورثه في النبوة والملك. وليس المراد وراثة المال ؛ لأنه قد كان له بنون غيره، فما كان ليخص بالمال دونهم. ولأنه قد ثبت في "الصحاح" من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ ، قال: "لا نورث، ما تركنا فهو صدقة"، وفي لفظ: "إنا معاشر الأنبياء لا نورث"، فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصـون بها أقرباءهم ؛ لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضلهم[3].

---

1 ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، 1974م ، 45/2.

2ابن تيمية، منهاج السـنة النبوية في نقض كلام الشـيعة القدرية، تحقيق: محمد رشـاد سـالم، جامعة الإمام محمد بن سـعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، 1406هـ – 1986م، 195/4.

3 ابن كثير، البداية والنهاية، 17/2.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم: 6]، ليس المراد به إرث المال، وإنما إرث العلم والنبوة، وفي الحديث: "وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[1].

د- تخيير الإنسان عند الموت:

مما تفرد به الأنبياء أنهم يخيرون بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة"، وكان في شكواه الذي قبض فيه، أخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: 69]، فعلمت أنه خيراً"[2].

هـ- لا تأكل الأرض أجسادهم:

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله، أنَّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى. وفي الحديث: "إنَّ الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"[3].

و- العصمة:

العصمة من الأمور التي خصَّ الله تعالى أنبياءه ورسله عليهم السلام دون سائر البشر، وقد عرفها الراغب الأصفهاني في المفردات فقال: حفظه إياهم أولاً بما خصَّهم به من

1 منصور بن راشد التميمي، العصمة في عقيدة أهل السنة والجماعة، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، 1429هـ، ص 42.

2 صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم 4586.

3 سنن أبي داود، رقم 1047.

صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية، ثم بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم، ويحفظ قلوبهم وبالتوفيق [1].

وقد أخذ الحافظ بن حجر تعريف الراغب بشيء من التصرف فقال في الفتح: وعصمة الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، حفظهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة [2].

وقد عرفها الشيخ منصور بن راشد التميمي في رسالته العلمية: "العصمة هي: حفظ الله الرسل مما ينفر عن القبول قبل النبوة، وحفظهم من الكذب والكتمان في التبليغ بعد النبوة، وكذا من الكبائر، وتوفيقهم للتوبة والاستغفار من الصغائر وعدم إقرارهم عليها" [3].

7. الإيمان بالأنبياء والمرسلين:

الإيمان بأنبياء الله ورسله ركن من أركان الإيمان، فلا يتحقق إيمان العبد حتى يؤمن بجميع الأنبياء، ويصدق بأن الله تعالى أرسلهم لهداية البشر، وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنهم بلغوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلغوا الرسالة، وأدّوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده.

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ **[البقرة: 285]**، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

---

1 الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 337.

2 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1379هـ، 51/11.

3 منصور بن راشد التميمي، العصمة في عقيدة أهل السنة والجماعة، ص 51.

وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 189]، ومن السـنة قول النبي ﷺ:"الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث"[1] .

ولا بدَّ في الإيمان أن يؤمن العبد بالله وملائكته، وكتبه ورسـله واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله، وكل كتاب أنزله[2].

والإيمان بأنبياء الله تعالى لا يتم حتى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصـر، من قصَّـهم الله علينا ومن لم يقصصهم، فقد أخبرنا جل وعلا أنَّ هناك أنبياء لم يقصصهم علينا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

قال ابن تيمية: فنؤمن بما سمَّى الله في كتابه من رسـله ونؤمن بأنَّ الله سـوّاهم رسـلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلا الذي أرسـلهم، ونؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسـائر الرسـل، إيمانك بسـائر الرسـل: إقرارك بهم وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصـديقك إياه دائباً على ما جاء به، فإذا اتبعت ما جاء به أدَّيت الفرائض، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ووقفت عند الشبهات، وسارعت في الخيرات[3].

وقال أيضـاً: من أطاع رسـولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسـل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصـى واحداً منهم فقد عصـى الجميع، ومن كذب واحداً منهم فقد

---

1 صحيح البخاري، رقم (48).

2 ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشـيطان، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ، مكتبة دار البيان، دمشـق ، الطبعة الأولى، 1985، ص 117.

3ابن تيمية، مجموع الفتاوى، المرجع السابق، 313/7.

كذب الجميع؛ لأنَّ كل رسول يصدِّق الآخر ويقول: إنه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذب رسولاً فقد كذب الذي صدقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته[1].

8. نوح عليه السلام من أولي العزم:

إنَّ نوحاً عليه السلام مع كونه نبياً ورسولاً هو أيضاً أحد أولى العزم من الرسل، وهذه مرتبة عالية، لا ينالها إلا قلة من المرسلين، فالرسل وإن كانوا كلهم صفوة الخلق، وقد اختارهم الله من بين الخلائق على علم، لكن لما لم يكن لفضل الله حد ينتهي إليه تفاضلوا فيما بينهم، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: 253]، وقال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء: 55].

فيأتي في مقدمة قافلة الأنبياء والرسل أولوا العزم منهم، وهم نجباء الرسل، ذوو الحزم والصبر، القائم على تزكية نفوسهم بمراقبة أمر الله، الحريصون على إصلاح أمتهم، بدلالتهم على كل خير، وتحذيرهم من كل شر، مع الصبر على المكروه، في تحمل الأذى منهم، وأولوا العزم من الرسل، نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، وهم المذكورون في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: 7]، لقد خصَّ هؤلاء الخمسة بالذكر من بين النبيين؛ لأنهم أصحاب الكتب والشرائع، وأولوا العزم من الرسل[2].

---

1 المرجع نفسه، 180/19.

2أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: 516هـ)، تفسير البغوي؛ معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، الرياض، 1411هـ، 320/6.

ومهما يكن من أمر فإن لهؤلاء الخمسة مزيد فضل على غيرهم من الأنبياء والمرسلين، سواء قلنا إن جميع الأنبياء والمرسلين كلهم أولي العزم من الرسل، أو قلنا إن أولي العزم من الرسل هم هؤلاء الخمسة فقط، لأن الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ **[البقرة: 253]**.

وكون أولي العزم هم هؤلاء الخمسة هو الذي عليه أكثر أهل العلم من المفسرين وغيرهم، قال الشيخ السعدي في تفسير الآية السابقة: يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عمومًا، ومن أولي العزم -وهم هؤلاء الخمسة المذكورون- خصوصًا، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل، قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم، محمد ﷺ، وأمر الناس بالاقتداء بهم [1].

وقد تكرر ذكر هؤلاء الخمسة في آية الشورى في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ **[الشورى: 13]**.

وإفرادهم بالذكر في هذه الآية وتخصيصهم بهذه الوصية العظيمة من إقامة الدين، وعدم التفرق فيه خير دليل على حيازتهم لهذه الفضيلة التي أهّلتهم بتحمُّل تلك المسؤولية العظيمة على أكمل وجه[2].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: يقول لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ : فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح، عليه السلام وآخرهم

1 السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن الجوزي، الدمام، ط4، 1435هـ، 659/1.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام ص 28.

وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم– عليهم السلام – وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [الأحزاب: 7]، والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له [1].

9. نوح عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض:

جاء في حديث الشفاعة الطويل عند البخاري قول أهل الموقف لنوحٍ عليه السلام: "يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض". وظاهر الحديث يفيد: أنَّ آدم عليه السلام لم يكن رسولاً، والصحيح أنَّ آدم نبي ورسول، فنوح عليه السلام هو أول الرسل إلى أهل الأرض بعد أن وقع الاختلاف بين بني البشر في التوحيد، فكفر بعضهم، وبقي البعض الآخر على الإيمان، وإلى هذا تشير الآية الكريمة: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ [البقرة: 213]، إذن: فالأولوية المذكورة في حق نوح عليه السلام مقيَّدة بما بعد وقوع الاختلاف، فلا ينافي ذلك نبوة آدم عليه السلام، فإنه أرسل إلى أولاده فقط، ولم يكن بينهم خلاف في توحيد الله وعبادته وحده دون غيره [2].

وقولهم له: "يا نوح أنت أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض": يحتج به على أن نوحا أول الرسل وأن آدم نبي مكلم فقط، ولو صح أنه رسول فالمعنى أنه رسول إلى ذريته

---

1 ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، 194/7.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام ص 25.

بخلاف نوح فإنه أرسـل إلى قومه وهم أهل الأرض ذلك الوقت، أما آدم فإنه أرسـل إلى ذريته بشريعة خاصة قبل وقوع الشرك [1].

وفي قول أهل الموقف في شـأن نوح "أنت أول الرسـل إلى أهل الأرض" يفيد أن رسـالته كانت عامة للناس كافة، وهذا معارض بقوله ﷺ:"أعطيت خمسـاً لم يعطهن أحد قبلي: ... فذكر منها: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة[2].

فقد أجيب بأجوبة متعددة منها: كون نوح عليه السـلام أرسـل إلى أهل الأرض إنما هو باعتبار أن قومه هم وحدهم كانوا أهل الأرض، ولم يكن يومها على الأرض غير قومه، فلا ينافي خصوصية رسالته بقومه، وهو المدلول عليه بصريح قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ **[الأعراف: 59]**.

فنوح عليه السـلام أرسـل إلى قومه وهم في ذلك الوقت أهل الأرض جميعاً، بعد وقوع الشـرك في الأرض، وبذلك لا يبقى تعارض بين كون آدم رسـولاً وبين كون نوح هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض [3].

10. نوح عليه السلام الأب الثاني للبشر:

نوح عليه السـلام هو الأب الثاني للبشـرية بعد آدم عليه السـلام، وهذا محل اتفاقٍ بين العلماء من أهل الإسـلام لقوله سـبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ **[الصافات: 77]**. وإنّ الفصـل بين المفعولين بضـمير الفصـل يفيد الحصـر، أي لا باقي من البشـر في

---

1 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، تحقيق: محمد بن سعد الشويعر، دار القاسم للنشر، الرياض، السعودية، 1420هـ، 32/3.

2 صحيح البخاري، المرجع السابق، رقم 419.

3 عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، المرجع السابق، 32/3.

الأرض بعد نوح إلا ذريته، وهذا النص القطعي في ثبوته يدل بوضـــوح أن البشـــرية التي وُجدت بعد نوح عليه السـلام هي من ذريته، وهو شـرف اختُصَّ به نوح بعد آدم، فلنوح عليه السلام حق الأبوة على كل كائن بشري من بعده إلى يوم قيام الساعة.

وهناك إشـكال يرد على كون نوح أبا البشـر بعد آدم عليه السـلام، ويتمثل ذلك في المراد بقوله تعـالى: ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾، في قوله تعـالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ﴾ **[هود: 40].**

يُفهم منه أنه آمن به عدد من الناس من غير أهله لأن قوله: ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ عطف على أهله، والعطف في الأصـل يقتضـي المغايرة، كما أشـرنا إليه سـابقاً، ومعلوم أنه آمن بنوح عليه السلام من غير أهله عدد قليل، وغالبيتهم من الضعاف والطبقات الدنيا في المجتمع، وهم اللذين سماهم الملأ من قوم نوح بالأراذل، والله لا يختار نبياً ممن هو في نظر القوم من الأراذل، وإنما يختار الأنبياء ممن لا مطعن في نسـبهم، ولا في سـيرتهم، والآية تدل على أنه قد نجا من الغرق غير أهله، وبالضـرورة يكون منهم النسـل، فإذا كان ذلك، فكيف يصـير جميع الباقين من ذرية نوح عليه السلام؟

والجواب على هذا الإشكال يكون من وجهين:

الجواب الأول: إن قلنا إن جميع من كان معه في السـفينة هم من أولاده انتظم أن نوحاً عليه السـلام هو أب البشـر كلها، وسمي لذلك آدم الأصغر، وقد حكى الرازي عن بعض المفسرين، أنهم قالوا لم يكن في سفينة نوح إلا من كان من نسله وذريته، فعلى هذا القول،

فلا إشكال في أن البشر بعد نوح إنما توالدوا منه ومن أولاده، وعلى هذا قوله تعالى:"ومن آمن" المراد بهم أيضاً أهله، فيكون من إطلاق العام وإرادة الخاص[1].

وهذا القول ضعيف مخالف لظاهر القرآن الكريم؛ لأن قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ عطف على أهله، والعطف يقتضي المغايرة، وعليه فيكون الناجون من الغرق أهله ومن آمن به من غير أهله، وهو الذي عليه جمهور المفسرين.

والجواب الثاني: أن الناجين من الغرق هم أولاده منهم نسل، وإنما الذي بقي منهم نسل نوح عليه السلام، وبهذا صح أن نوحاً هو أبو البشر جميعاً بعد آدم[2].

قال ابن جرير: قالوا إنما الذي كانوا معه في الفلك قوم كانوا آمنوا به واتبعوه غير أنهم بادوا وهلكوا، فلم يبق لهم عقب، وإنما الذي هم اليوم في الدنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ **[الصافات: 77]**.

11. نوح عليه السلام أبو الأنبياء والمرسلين:

لئن تشرف نوح بالأبوّة بالبشر بعد آدم عليهما السلام، فلقد تشرف أيضاً كذلك بأبوّته لأنبياء والمرسلين، فهذه النقطة وإن كانت داخلة في التي قبلها في كون نوح عليه السلام أبا البشر لجميع من بعده عُلم منه ضرورة أنه أيضاً أبو الأنبياء والمرسلين بعده، لكن لما كان الأنبياء والمرسلون هم صفوة البشر وخلاصتهم نوّه الله نوحاً بهذه الخصلة، بقوله:

1عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 23.

2 أبو بكر، المرجع السابق، ص 23.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد: 26]، فأحببنا أن نفردها عما قبلها بالذكر ولو بإيجاز [1].

وتبين مما تقدّم أنَّ نوحاً عليه الســـلام هو الجد الأعلى لإبراهيم - خليل الرحمن - ومن بعده من الأنبياء، كما أنَّ إبراهيم هو أيضـــاً جد لجميع الأنبياء والمرســـلين بعده، فهؤلاء ذرية بعضــها من بعض، قال الرازي: فبين أنه تعالى شـرّف نوحاً وإبراهيم عليهما السـلام بالرســالة، ثم جعل في ذريتهما النبوّة والكتاب، فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا وكان من أولادهما، وإنما قدم النبوة على الكتاب؛ لأنَّ كمال حال النبي أن يصـــير معه الكتاب والشرع [2].

12. نوح عليه السلام، نسبه وسبب تسميته وأولاده:

لم يرد في الكتاب العزيز، ولا في الســنة الصــحيحة المباركة فيما وقفت عليه نســب نوح عليه الســـلام، ولم يرد لأبيه ذكر، وإن كان الحافظ ابن كثير قد ذكر في كتاب "قصـــص الأنبياء" نسـب نوح عليه السـلام، فقال: نوح بن لامك، بن متوشـلخ بن خنوخ، بن يرد بن مهلاييل بن قينين بن أنوش بن شيت بن آدم أبي البشر، والله أعلم بصحة ذلك [3].

وقيل سُمّي نوحاً - كما قال يزيد الرقاشي - لكثرة ما ناح على نفسه، أي في دعوة قومه إلى الله، وفيما قاله يزيد الرقاشي نظر، لما عُلم من أنَّ تسـمية بنوح سبقت نبوته، ودعوة قومه إلى الدين، والمسبب لا يتقدم على سببه، وإنما قلنا ذلك لأنه لم يكن أحد ممن سماه بنوح من والديه وأقاربه يعلم أنه سيكون رسولاً، وسيرفع صوته بالدعوة إلى الله، اللهم إلا

---

1 عمر إيمان أبو بكر، المرجع نفسه، ص 24.

2أبو بكر، المرجع السابق، ص 24.

3ابن كثير، قصص الأنبياء، 209/1.

إذا قلنا إن ذلك كان إلهاماً من الله ألهمهم بهذا الاســم، ثم إنَّ نوحاً هو وقومه من العجم باتفاق، وعليه فليس بالضرورة أن يكون معنى الكلمة في لغة قوم نوح في ذلك الوقت هو المعنى نفســـه في اللغة العربية، لتباين اللغات في دلالات الألفاظ، ولو كان كذلك لقيل نَوح بفتح النون، ولا معنى للكمة العربية بضم النون[1].

وإذا ثبت أن البشــر كلهم من ذرية نوح – عليه الســلام- كما بيَّنا، حَسُــن بنا أن نذكر أسماء أولاد نوح – عليه الســـلام- ممن كان معه في الســـفينة، وقد اتفقت الروايات عن النبي ﷺ أن أولاده ثلاثة، هم:

- (سام) أبو العرب.
- و(حام) أبو الحبش.
- و(يافث) أبو الروم.

فقد أخرجه الترمذي وحســنه، وابن ســعد، وأحمد وأبو يعلى وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، وصــححه عن سمرة بن جندب أنَّ النبي ﷺ قال: "ســام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم"[2] .

وقال ابن حجر العسقلاني: روى الحاكم وغيره من طريق أبي هريرة ورفعه: "وُلد لنوح سام وحام ويافث، فوُلد لســام، العرب وفارس والروم، وولد لحام، القبط، والبربر، والســودان، وولد ليافث، يأجوج ومأجوج، والترك والصقالبة"[3] .

---

1 د. عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 18.

2 الشوكاني، فتح القدير ، 212/6.

3 وفي سنده ضعف، قاله ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري، 47/20.

وما رفعه الحاكم أوقفه ابن جرير على ابن وهب بن منبه، فروى بســـنده عنه أنه قال: إنَّ سـام بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حام أبو السـودان، وإن يافث أبو الترك، وأبو يأجوج ومأجوج، وهو بنو عم الترك[1].

ولعل التفصـيل الوارد في حديث أبي هريرة الضـعيف مصـدره وهب بن منبه؛ لأنه معروف بالأخذ عن بني إسرائيل، والله أعلم[2].

13. نوح عليه السلام كثير الشكر لربه في نعمائه:

هذه صفة من الصفات التي اشتهر بها نوح عليه السلام، لكونه كان يكثر منها حتى صار معروفاً به من بين إخوانه من الأنبياء والمرسـلين، قال تعالى في حقّه: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ **[الإسراء: 2].**

فوصـفه الله أولاً بالعبودية التي هي أرقى المراتب في سُـلَّم درجات العبد عند الله، ثم أتبعها بصفة الشكر التي هي نتاج الأولى[3].

قال الشـوكاني: وصـفه الله بكثرة الشـكر وجعله كالعلة لما قبلها إيذاناً بكون الشـكر من أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات حثّاً لذريته على شكر الله سبحانه[4].

1الطبري، المصدر السابق، 74/1.

2عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 19.

3عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 28.

4 الشوكاني، فتح القدير، المرجع السابق، 282/4.

وحقيقة الشكر اعتراف القلب، بالنعمة للمنعم بها، وترديدها على اللسان ذكراً وثناء على الله بها، ثم إعمال الجوارح في طاعة الله إظهاراً لشكر النعمة، وبهذا ندرك أهمية الشكر في تحقيق العبودية لله تعالى.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: ففيه التنويه بالثناء على نوح عليه السلام بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم إذ أبقاهم واستخلفهم في الأرض وأغرق غيرهم[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: 3]، تذكير للأمم عموماً وبني إسرائيل خصوصاً بأن الله إنما نجّى نوحاً، ومن معه من الهلاك بسبب كثرة شكره على الله تحريضاً على الاقتداء به في ذلك.

وصحّ عن جمع من أئمة التابعين كقتادة السدوسي، وإبراهيم النخعي، وغيرهما، مع اختلاف بينهم في السياق أنَّ نوحاً عليه السلام كان إذا لبس ثوباً قال: بسم الله، وإذا نزعه قال: الحمد لله، وإذا أكل قال: بسم الله، فإذا فرغ من الأكل قال: الحمد لله، وإذا شرب حمد الله، وقال: الحمد لله الذي سقانيها على شهوة ولذة وصحة، ولهذا سمي شكوراً، وهذا الذي ذكر في هذه الآثار هو جزء يسير في تطبيقات الشكر في بعض معانيه، ونماذج قليلة كانت تظهر على لسان نوح عليه السلام عند تجدد النعمة لربه، وإلا فإن الشكر أعم مما ورد في الآثار، إذ يشمل الأعمال القلبية واللسان والجوارح.

وعلى كل حال فإن نوحاً عليه السلام قد حاز قصب السبق في هذا الميدان بثناء الله عليه بكثرة الشكر في كتابه الكريم، فكان له ذلك ذكراً حسناً في الأولين والآخرين، ولهذا فإن

1السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، 453/1.

أهل الموقف يوم القيامة يناشدون نوحاً عليه السلام بتلك الصفات التي اشتهر بها أن يشفع لهم عند الله لفصل القضاء بين العباد، فيقولون: "... وقد سماك الله عبداً شكوراً"[1].

ولكن يجب العلم بأن تميُّز نوح – عليه السلام – بهذه الصفة وغيرها لا يعني أنه أفضل من غيره من الأنبياء مطلقاً، فالمفضول قد يختصّ من الصفات بما يقتصر عنها الفاضل، والله يخصُّ بعض عباده بما يشاء من الفضائل[2].

14. عمر نوح الذي عاشه في الدنيا:

إنَّ الناس في زمن نوح ومن كان قبله إلى آدم عليهما السلام، كانوا يعمِّرون مُدداً طويلة من العمر، حتى كان عمر الواحد منهم يقترب من الألف أو يزيد، ثم إن الناس لم يزالوا في نقصان أعمارهم من ذلك الوقت إلى يومنا هذا[3].

ولعلَّ الحكمة من وراء زيادة أعمارهم في الفترات الأولى من تاريخ البشرية – والله أعلم– أن البشرية كانت في طور التنشئة والتأسيس، فاقتضى ذلك أن يُمدَّ في عُمرها ليتم التناسل، والتكاثر بينها على أكمل وجه، فعاش نوح عليه السلام في تلك الفترة، فكان عمر نوح عليه السلام من قبيل أعمارهم المديدة، كما أخبر الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ **[العنكبوت: 14]**.

1أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 30.

2 المرجع السابق، ص 30.

3 المرجع نفسه، ص 30.

وهذه المدة من عمر نوح – عليه السلام – التي هي ألف إلا خمسين عاماً محل اتفاق بين العلماء لدلالة القرآن الكريم عليها بصـــريح العبارة، ولكن الآية الكريمة لا تدل على أن هذه المدة جميع عمره، بل غاية ما فيها أن نوحاً عليه الســلام عاش هذه المدة بعد البعثة، وقبل الطوفان، وأما بعد الطوفان فإنه قد عاش بعده جزماً لظاهر قوله تعالى: ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ [العنكبوت: 14]، أي أنه بعد تلك المدة أخذهم الطوفان، ونحن نجزم بأن نوحاً عاش بعد الطوفان، ولكنه الله أعلم كم المدة التي عاشها بعد الطوفان.

ولهذا اختلف أهل العلم في المدة التي عاشـها قبل البعثة، كما اختلفوا في المدة التي عاشـها بعد الطوفان، وأقوى ما ورد في ذلك ما نقل عن ابن عباس رضـــي الله عنهما، فقد أخرج ابن أبي شـــيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشـــيخ، والحاكم وصـــححه، عن ابن عباس رضـــي الله عنهما قال: بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين ســـنة، ولبث فيهم ألف سـنة إلا خمسـين عاماً يدعوهم إلى الله، وعاش بعد الطوفان سـتين سـنة حتى كثر الناس وفشوا[1].

وبهذا يكون مجموع عمر نوح عليه الســلام على قول ابن عباس ألفاً وخمســين ســنة، وما نقل عن ابن عباس في مدة عمر نوح قبل البعثة وبعد الطوفان ليس محل اتفاق، بل قد خالفه في ذلك جمع من التابعين، ككعب الأحبار، وقتادة، ووهب بن منبه، وغيرهم، بل وخالف ابن عباس فيه تلميذه عكرمة، فقد أخرج عبد بن حميد بســنده عن عكرمة قال: "كان عمر نوح قبل أن يبعث إلى قومه، وبعدما بعث ألفاً وسبعمائة سنة".

1الشوكاني، فتح القدير، 437/5، السيوطي، الدر المنثور في التفسير المأثور، دار الفكر، بيروت،2011م، 31/8.

وأكثر ما وقفت عليه في طول عمر نوح ما رواه ابن جرير قال: "حدثنا نصــــر بن علي الجهضـــميّ قال: حدثنا نوح بن قيس، قال: حدثنا عوض بن أبي شـــداد، قال: إن الله أرسـل نوحا إلى قومه، وهو ابن خمسـين وثلاثمائة سـنة فلبث فيهم ألف سـنة إلا خمسـين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة سنة، فأخذهم الطوفان" [1].

فهذا يدل أن عُمر نوح عليه الســـلام قبل البعثة، وبعد الطوفان ليس محل اتفاق، لعدم وجود النقل عن المعصـــوم الذي لا ســـبيل إلى معرفة الغيبيات إلا من طريقه، وأقربها إلى الصواب إن شاء الله ما تقدم نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما [2].

والخلاصــة أنَّ نوحاً عليه الســلام قد مدَّ الله في عمره حتى عاش كل هذه المدة ومع ذلك فإن عمره كان في نظره قليلاً، قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عاصم، أخبرني نافع أبو هرمز، عن أنس بن مالك رضـــي الله عنه قال: جاء ملك الموت إلى نوح، فقال: يا أطول النبيين عمراً، كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل بيتاً له بابان، فقام وســـط البيت هنية، ثم خرج من الباب الآخر [3].

1الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، 17/20. وانظر: الطبري، تاريخ الطبري تاريخ الرســـل والملوك، المرجع الســـابق، 70/1.

2 أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 31.

3 ابن أبي الدنيا، كتاب الزهد، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 1999 م ، 360/1، رقم (363).

ثانياً: مضمون دعوة نوح عليه السلام:

إنَّ دعوة الأنبياء والرسل – عليهم السلام – هي دعوة واحدة في أصولها على مرّ الزمان والمكان، الكل منهم كان يبذل غاية جهده، وأقصى طاقاته لربط الناس بخالقهم، وتوجيههم الوجهة الصحيحة [1].

- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ **[النحل: 36]**.
- قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ **[الأنبياء: 25]**.
- في سياق القصص القرآني: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ **[الأعراف: 59]**.

فالآيات الكريمة المذكورة وغيرها تترى، كان يفتتح بها النبي أو الرسول رسالته إلى قومه بكل وسيلة يؤكد على توحيد الله عز وجل، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وحاكميته وعبادته، وتقواه وطاعة رسله.

فأساس دعوة الأنبياء والمرسلين تعبيد الناس لله تبارك وتعالى، وتحقيق التوحيد له عزَّ وجلَّ، فلا تعلو قضية أخرى مهما كانت أهميتها على قضية التوحيد.

---

1 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2010م، ص 116.

وكان الأنبياء مع دعوتهم للتوحيد، يدعون قومهم إلى ترك المنكرات: كالتطفيف في الميزان، والبغي على الناس، وهكذا الدعاة إلى الله تعالى، يجب أن يكون التوحيد أساس دعوتهم، ومنطلقها، ومع ذلك يعنون بعلاج المشكلات المتفشية في عصرهم [1].

- ومضمون دعوة نوح سبراً من النصوص القرآنية، التوحيد، وعبادة الله، وتقواه وطاعته.
- قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ **[الأعراف: 59].**
- وقال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ **[الشعراء: 106- 108].**
- وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ **[هود: 25 – 26].**
- وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ **[المؤمنون: 23].**
- وقال الله تعالى: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ **[نوح: 2- 4].**

وهذه الآيات وغيرها وضحت مضمون دعوة نوح عليه السلام لقومه التي ارتكزت على توحيد الله عز وجل، وتحقيق العبادة له وحده، وتقواه وطاعته.

1أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 117.

1. توحيد الله في رسالة نوح عليه السلام:

حينما انحرفت الإنسانية في عقيدتها، شاءت رحمة الله أن يرسل نوحاً عليه السلام مبشراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدل في مجال التشريع.

وتضعنا النصوص الصحيحة والأخبار أمام نوح – عليه السلام – وهو رجل ناضج، ومكتمل، أرسله الله لهداية قومه، وأما طفولته وشبابه وكل ما كان قبل الرسالة فليس لنا به علم، ولكن الله سبحانه وتعالى له سنن خاصة بمن بعثهم أنبياء ورسلاً ، وذلك أن الله سبحانه يختارهم من ناحية النسب من أشرف الأسر، ولقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب عن رسول الله ﷺ قائلاً: كيف هو فيكم؟ فردّ أبو سفيان قائلاً: هو فينا ذو حَسَب، فقال هرقل: وكذلك الرسل تُبعث في أحساب قومها.

ويعلل ابن خلدون سُنة الله في بعث الرسل في أحساب قومهم، بأن ذلك إنما هو لأجل أن يكون للرسول أسرة ذات شوكة ومنعة تحميه من أذى الكفار حتى يبلِّغ رسالة ربه، ويتم مراد الله في إكمال دينه وملته، ورسول الله ﷺ يقول في حديث صحيح: "ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه"[1]. ومن هذه السنة الإلهية نوقن – إن لن تكن لدينا نصوص صريحة– أن نوحاً كان من أسرة كريمة، هذا من ناحية الأسرة [2].

وأما من ناحية الإعداد التربوي، فإن الله سبحانه وتعالى يصطنعهم لنفسه: يقول الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ **[طه: 41]**، ويصنعهم على عينه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ **[طه:39]**، وأما سيدنا يحي عليه السلام فإنه كان تقياً وبراً بوالديه،

1عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، ص 65.

2 محمود، المرجع السابق، ص 65.

ولم يكن جباراً عصياً، وسيدنا عيسى عليه السلام، جعله مباركاً أينما كان، ورسولنا محمدﷺ يقول له الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4].

ومن هذا وغيره نؤكد أيضاً أن نوحاً عليه السلام لم يكن بدعاً من الرسل، وأنه كان خلق كريم، يقول ابن خلدون عن الأنبياء والرسل عامة: ومن علاماتهم أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير، والزكاة ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه مفطور على التنزّه عن المذمومات، والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرته، وكان نوح عليه السلام على خلق كريم، ما في ذلك شك، فلما انتهى إعداد الله له إلى غايته، فأجاه الوحي، وتلك أيضاً سنة الله في أنبيائه، فإنه حينما تصبح نفوسهم – بتربية الله وعنايته– أهلاً للتلقي عنه يفاجئها الوحي مثلاً وهي سائرة في الوادي المقدس وفي البقعة المباركة، كما حدث لسيدنا موسى، بينما هو سائر مع أهله رأى ناراً فقال لأهله: امكثوا هنا، وذهب نحو الضوء، فإذا به سمع النداء الإلهي ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه:14]، أو يفاجئ الوحي النبي وهو في الغار فيأتي الملك آمراً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: 1]، وفاجأ الوحي نوحاً عليه السلام على نحوٍ من هذه الأنحاء، لقد فاجأه بالأمر – ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: 1] – بماذا ينذرهم؟ [1] .

لقد بعث الله سيدنا نوحاً حينما عمّ الفساد؛ ليبشّر بالحق والخير والعدل، وبدأ سيدنا نوح عليه السلام بالتوحيد: ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59].

---

1 عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، ص 67.

وهذا الذي قاله سيدنا نوح لقومه هو التبشير بالتوحيد، والتوحيد هو جوهر الرسالات السماوية جميعاً، والله سبحانه وتعالى يؤكد لسيدنا محمد خاتم النبيين ذلك قائلاً:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ **[الأنبياء: 25]** .

والتوحيد هو ما نعبر عنه في الإسلام بـــ "أشهد أن لا إله إلا الله"، وهو العلامة الأصلية والطابع الحقيقي والجوهر الثابت لكل دين سماوي صادق [1].

والمعنى الحقيقي للتوحيد هو: علم العبد واعتقاده واعترافه بتفرد الرب بكل صفة كمال، واعتقاده أنه لا شريك له، ولا مثيل في كماله، وأنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وإفراده بالعبادة [2].

فالله لا يكون له شريك في ذاته ولا صفاته وكذا في عبادته ومعاملته سبحانه وتعالى، وهذا التعريف مستند على الدلالة الواضحة لمعنى "لا إله إلا الله": إذ إنها تدل بالمطابقة على التفرد في الألوهية فلا تصرف العبادة إلا له، وبالالتزام على تفرده في الربوبية، كما تدل على اتصافه عز وجل بكافة صفات الكمال والجلال بالتضمن [3]، فهي الكلمة المفسرة للتوحيد من ناحية العلم، ومن ناحية العمل [4].

---

1 عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل ، ص 67.

2 عبد الرحمن السعدي، طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول، دار البصيرة، الاسكندرية، 2000م، ص 11؛ فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ، السعودية، الطبعة 11، 1421هـ ص 103.

3 دلالة الشيء على تمام معناه يسمى مطابقة، ودلالته على تعض معناه يسمى تضمناً، ودلالته على معنى آخر خارج عن معناه يسمى لازم له عقلا أو عرفا يسمى التزاماً، للتوسع في معنى الدلالات، يُنظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، تحقيق: حسين مؤنس ، دار القلم، دمشق، 1414هـ – 1993م، ص 27.

4 فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، المرجع السابق، ص 104.

والمعنى الحقيقي للتوحيد: هو الاعتقاد اليقيني أن كل ما في الكون من خَلْق ورزق، وعطاء ومنع، وحياة وموت، وغنى وفقر، وقوة وضـعف، وعز وذل، مردّه إلى الله سـبحانه، فالله سـبحانه وتعالى متفرد بالخلق والرزق والإحياء والإماتة وسـائر أنواع التصـريف والتدبير لملكوت السـماوات والأرض، ويجب إفراده بالحكم، والتشـريع، فهو الذي أرسـل الرسـل وأنزل الكتب، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ **[الأعراف: 54]**.

والله سـبحانه وتعالى يجب إفراده وحده بالعبادة فلا يُعبد غيره، ولا يُدعى سـواه، ولا يسـتغاث ولا يُسـتعان إلا به، ولا يُنذر ولا يذبح إلا له، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ **[الأنعام:162- 163]**[1] .

كما أن العبد أعظم ما يحتاجه معرفة أسماء الله ليحمده ويمجده ويثني عليه ويسأله المغفرة، والرحمة ويتوب إليه، وهذا ما سنقف عنده في محله في قصة نوح عليه السلام.

وإذا آمن الإنسـان بالتوحيد لن ينظر إلى غير الله، فيكون خوفه منه، ورجاؤه إليه، وثقته به، واتكاله عليه، وإذا اعتقد التوحيد رأى أن كل ما سـوى الله مسـخر لله، وإذا اعتقد التوحيد تحرّر من ذل العبودية لمخلوق، لأن كل مخلوق مسـخر لله، وتتكاتف آيات الله وأحاديث الرسـول الكريم ﷺ على دعوة الإنسـانية إلى التوحيد حتى تتحرّر من رق العبودية[2].

---

1 فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص 107.

2 عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، ص 68.

ولقد بشر سيدنا نوح عليه السلام بالتوحيد، وبشر بالتوحيد جميع الرسل، وإذا فهم التوحيد على حقيقته واتخذته الإنسانية شعاراً لها يكون علاجاً لكثير من ألوان العنف في المجتمعات، فالإنسانية في مختلف أزمنتها وأمكنتها تخاف الموت وتخشاه، مما يقودها إلى استعباد الأقوياء، والذلة أمام الطغاة.

ولكن هذا الوضع لا يتماشى قط مع عقيدة التوحيد، فإن مالك الملك إنما هو وحده الذي يملك الموت والحياة، إنه يملك إماتة الطغاة أو تركهم لحكمة يعلمها سبحانه، وهو الذي قدّر الآجال وحدّدها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

والحرص على الحياة – أو الجبن– ليس من أسباب إطالة الأجل، والشجاعة والإقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل، وقد بيّن الله ذلك في كتابه الكريم الذي يعبر عن جميع الرسالات السابقة إبانة تامة، وكما أنه لكل أجل كتاب، فإنه لكل أمة أجل.

أما هؤلاء الذي قالوا:﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ **[آل عمران: 154]**.

فإن الله سبحانه يرد عليهم: ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ **[آل عمران: 154]**، ﴿ وهؤلاء الذين قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ **[آل عمران: 168]**.

فإن الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله ﷺ أن يرد عليهم قائلاً: ﴿ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ **[آل عمران: 168]**. وأما الذي يفرون أمام أعداء الله فهؤلاء ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ **[آل عمران: 155]**.

إذن فالمؤمن الصادق لا يعرف الجبن، ولا يستزله الشيطان موسوساً له بالخوف من غير الله تعالى.

وإذا كان خوف الموت هو الدعامة الأولى في ذلة الإنسان واسترقاقه، فإن الدعامة الثانية هي همُّ الرزق، والناس عادة ينتابهم القلق ويغمرهم الحرص على أقواتهم، ويلجأ بعضهم إلى وسائق لا تليق بالكرامة الإنسانية، بل يصل الأمر بالبعض إلى مستوى التملق والمداهنة والمراءاة، وبعضهم يصل به الأمر إلى الغش والرشوة والاختلاس، وتستعبد المادة والحصول عليها الإنسان فيصبح عبداً مسترقّاً.

ولكن الدين – وقد حرّر المجتمع من خوف الموت– فقد حرّره أيضاً من هم الرزق، فالرزق بيد الله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ **[هود: 6].**

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الرزق في السماء محدّد ومقسوم، وأقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع، لقد أقسم سبحانه لما يعلم من ضعف الطبيعة البشرية وإشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ **[الذاريات: 22 -23]**، على أن صاحب الثراء العريض الذي يعتمد على شرائه غير ناظر إلى الله تعالى واهب الرزق الثراء، فقد يخسف الله به وبداره الأرض، كما صنع بقارون، أو يطوف ببساتينه ومزارعه طائف منه سبحانه، فتصبح خاوية على عروشها، كما فعل سبحانه بأصحاب الجنة الذين قصَّ علينا أمرهم في القرآن الكريم في "سورة القلم".

وما من شك في أن السعي إلى الرزق مطلوب، وأن العمل الجاد الكادح إنما هو من سمات الإسلام، كل ذلك حق، وإذا كان الرزق بيد الله تعالى، وإذا كان العمل مطلوباً، فإن ما ينهى عنه الإسلام إنما هو هذه الصورة الجشعة القلقة التي تحاول اقتناص المال في السبل

غير المشـــروعة، أو التي ترى أن عبداً من عباد الله بيده الرزق، إعطاءً ومنعاً، وبيده الرزق زيادة ونقصـــاً، أو أخذاً وتركاً، فالتوحيد – إذن– علاج للجبن، وعلاج للقلق من أجل الرزق[1].

وقد أخذ سيدنا نوح – عليه السلام – يدعو إلى التوحيد في همة لا تفتر، وفي نشاط لا يتوانى، وأخذ يدعو ليلاً ونهاراً، وأخذ يدعو جهراً حينما تتيح له الظروف الدعوة الجهرية، ويدعو سراً حينما يستلزم الأمر الدعوة سراً، فلم يكن يدع فرصة تمرُّ إلا ويشرح فيها رسالة الله: مبشراً ونذيراً، مرغباً في ثواب الله وجنته، ومخوفاً من عقابه وعذابه.

لقد أخذ نوح يشـــرح لهم قدرة الله وشمول علمه، ودعاهم إلى التفكر في أنفســـهم قائلاً: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ **[نوح: 14]**، ألا ترون أنه خلقكم في بطون أماتكم خلقاً من بعد خلق؟

لقد كنتم تراباً ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم كنتم أجنة، وكنتم في جميع هذه الأطوار في رعاية الله، محفوظين بحفظه، محاطين بعنايته، وبعد ذلك كنتم أطفالاً فشـــبّاناً... وهكذا وستعودون إليه من جديد في أية لحظة شاء، فارجعوا إليه بالتوبة والإنابة، والطاعة قبل أن تواجهوه وهو غير راضٍ عنكم، ثم: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ **[نوح: 15- 16]**.

ثم: ألم تروا كيف جعل لكم الأرض بســـاطاً، وجعل لكم فيها مســـالك وســـبلاً للإقامة والانتفاع، وفي كل ذلك ما نرى في خلق الرحمن من تفاوت.

---

1 د. عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، ص 71.

وأخذ سيدنا نوح يعدد نعم الله: منها اليسير ومنها العظيم، الظاهر منها والباطن، ونعم الله كثيرة لا تحصى﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل: 18]، وأعلن لهم قانون "الاستغفار"، وسيدنا نوح أول من أعلن هذا القانون: ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10].

هذه هي مقدمة القانون أو قاعدته وأساسه، فإذا كان الاستغفار الخالص النصوح، وإذا كان الالتجاء إلى الله بطلب المغفرة في صدق كانت النتيجة: ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ [نوح: 11]، أي: يتنزل الغيث المحيي لأرضكم الجدباء، والذي يملأ أنهاركم الجارية بالخير والنماء، ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح: 12]، فإن الإمداد بالأموال والبنين – وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع مترتباً على الاستغفار، وإن هبة الجنات والأنهار – وقد أتى بهما القرآن بصيغة الجمع أيضاً– مترتبة على الاستغفار، هذا هو "قانون الاستغفار" الذي أعلنه نوح عليه السلام.

وهذا القانون عام لا يحدده زمان ولا يحدد مكان، فمن التجأ إلى الله في العصر الحاضر بالاستغفار الخالص النصوح الصادق فإن الله سبحانه يهيّئ له من الظروف ما يجعله يعيش في سعة من الرزق، وفي يسار من المال، إنه وعد الله الذي أوحاه إلى رسوله نوح ليعلنه للناس، ووعد الله لا يتخلف.

ولقد أوضح رسولنا ﷺ – فيما بعد– زاوية مهمة من زوايا قانون الاستغفار وهي عدم وقوع العذاب على المستغفر، يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: 33].

إنَّ سيدنا نوح عليه السلام كان ينبه قومه إلى الظروف والملابسات التي تشير إلى صدقه، إنه لا يسألهم عن دعوته أجراً ﴿ وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [هود: 29]، إنه – إذن– لا يطلب مالاً ولا يدعو بدعوته من أجل النقود.

وإذا سأله سائل عن السبب في قيامه بهذا الدعوة فإنه يقول:

- أُبلغكم رسالات ربي.
- أنصح لكم.
- أهديكم إلى ما أعلمه عن الله، وذلك لأني: أعلم من الله ما لا تعلمون.

وهل من العجب أن يأتيكم ذكر من ربكم فيه لكم هدى ونور على لسان رجل منكم من أجل أن ينذركم، ومن أن تتقوا، ومن أن يرحمكم الله؟

إنَّ الإنذار عادة يقود ذوي النفوس الخيّرة إلى التقوى، والتقوى سبب في رحمة الله، فهل من العجيب أن يرسل الله لكم – وهو أرحم الراحمين– من يقودكم بإنذاره إلى رحمة الله؟

كان هذا منطق نوح عليه السلام ولقد استجاب له بعض الأشخاص من قومه[1].

كانت دعوة نوح – عليه السلام – للتوحيد هي حجر الزاوية في تكوين وبناء الرؤية الكلية عن الله والكون والحياة والإنسان، وبيان حقيقة العالم، وحقيقة الخالق، والوصول إلى طبيعة العلاقة بينهما.

1 عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، ص. ص 71– 74.

وإنَّ توحيد الله عزَّ وجلَّ هو أســاس الإيمان وســر الســعادة في الدنيا والآخرة، والقلوب مفتقرة إلى معرفته ســبحانه والتعلق به ومحبته وخوفه ورجائه، أكثر من حاجتها إلى الطعام والشراب وسائر الضروريات[1]. وقد جاءت الآيات القرآنية تقرر هذا الأصل منها:

- قوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَــيْءٍ عِلْمًا﴾ **[الطلاق: 12].**
- وقوله تعالى: ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَــيْءٍ عَلِيمٌ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَــدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ **[المائدة: 97- 98]،** وغيرها من الآيات التي يأمر الله تعالى عباده أن يعرفوه، فيعبدوه ويعظموه[2].

2. قيام نوح عليه السلام بدعوة قومه إلى عبودية الله تعالى وتحقيق العبودية في نفسه:

إنَّ المتأمل لقصة نوح عليه السلام ودعوته لقومه يرى عظم هذا النبي في قيامه لأداء مهمة التبليغ لقومه ودعوته إليهم لعبادة الله تعالى وحده حيث مكث عليه الســـلام فيهم ألف ســنة إلا خمســين عاماً يدعوهم ليلاً ونهاراً، ســراً وعلانيةً، وكانت دعوة نوح عليه الســلام التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص، وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك الشــــرك الذي هم فيه من عبادة الأصنام[3].

1وليد خالد الربيع، أثر القرآن الكريم في بناء الشــخصــية الإســلامية، التراث الذهبي، الرياض؛ مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، 1439 هـ - 2018 م، ص 61.

2 الربيع، المرجع السابق، ص 62.

3 فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، مكتبة الضياء جدة، الطبعة الأولى، 1413 هـ، ص 168.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ **[هود: 25- 26]**. وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾:

- ﴿ وَلَقَدْ ﴾: الواو للاستئناف أرجح، وللعطف موضوعاً على موضوع تجوز، واللام للقسم أو الموطئة له والدالة عليه، وقد: للتحقيق.
- ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾: حملنا رسالتنا وأوحينا لعبدنا نوح إلى قومه وهم الذي عاش بينهم ويعرفونه ويعرفهم، وهم في فجر الحياة البشرية مع بدايات تشكل الجماعات والمجتمعات والأقوام.
- ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾: أي فحوى رسالته لهم قوله ما سجلته الآية، إني يا قوم لكم أنتم لا لغيركم، وأنتم من تعرفونني، نذير: منذر محذر من سوء عواقب ما أنتم فيه، مبين: واضح الإنذار لا لبس فيما أقول، ولا تعمية ولا تعقيد، بل كلام بسيط مفهوم، والتحذير واضح أن الكفر والشرك عواقبه في الدنيا والآخرة وخيمة وبيلة، وإن التظالم لا يؤدي إلا إلى سوء النتائج [1].

وفي قوله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ إن كلمة ﴿ إِنِّي لَكُمْ ﴾ نفقه منها درساً وحكماً رائعة، أن الداعية "الرسول وغيره" لا يعيش لنفسه ولا لشهواته ولا لأقاربه فحسب، وإنما يعيش للناس لإسعادهم، ويفني عمره في إنقاذهم من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

1 أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 109.

وحقاً إن الذي يعيش لنفسه وشهواته ولدنياه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، وإن الذي يعيش للناس يعيش كبيراً ويموت كبيراً، يبقى ذكره الحسن العاطر على كل لسان، وهكذا عاش نوح عليه السلام، وسائر الأنبياء والمرسلين من بعده [1].

ومن خلال الآيات الكريمة المذكورة يظهر الأدب الرفيع في الطريقة التي سلكها نوح – عليه السلام – في طرحه للموضوع من خلال:

- **التمهيد**: حيث مهّد نوح عليه السلام للموضوع الذي سيطرحه بطريقة عنيفة قوية، ليحدث في نفوسهم جلبة وقلقاً يُهيئها للاهتمام والترقب الشديد لما سيقوله لهم، وقد صاغ نوح هذا التمهيد بقوله: ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾، وكثيراً ما تكون البداية قوية، أسلوباً بالغ الأهمية في لفت الأنظار للموضوع المطروح.
- **صلب الموضوع**: من أدب الكلام أن تعرض المواضيع ذات الأهمية الكبرى بكلمات بسيطة واضحة لا لبس فيها ولا غموض، حتى يفهمها المخاطبون، على المستويات المختلفة، وهكذا فقد اختار نوح لموضوعه ألفاظاً واضحة المعنى والمراد، كي لا يصرف الذهن عن المعنى الأصلي المراد، ولا يترك أي مجال للتأويل، فلخص موضوع رسالته بقوله ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾[2]، وهذه الكلمة هي قاعدة الدين ومحوره وعموده وملخصه، التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والإنسان عابد بالفطرة، لا يملك إلا أن يعبد فهو إما أن يعبد الإله الحق وإما أن يعبد الشيطان أو الهوى أو الأوثان، والمال والشهوات ... إلى آخر المعبودات، والأنبياء مهمتهم أو يردوا الناس إلى عبادة

---

1 محمد عبد القادر أبو فارس، مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، المرجع السابق، ص 30.

2 عودة عبد عودة عبد الله، أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2004م، ص 308.

رب الناس وحده، وما أجمل كلمة الصـــحابي ربعي بن عامر لرســـتم قائد جيوش الفرس، إذ قـال لـه: "الله ابتعثنـا لنخرج العبـاد من عبـادة العبـاد إلى عبـادة الله رب العباد....".

ولاحظ لم يقل: أن تعبدوا الله، ولكن أتى بها بصيغة الحصر والقصر ﴿ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾، فكثير من الناس يؤمنون بالله ويعبدونه، ولكنهم يشـــركون في كل ذلك، كما قال تعالى في أكثر من موطن في قرآنه، ومن ذلك ما في الســورة التالية لهذه الســورة، ســورة يوسف إذا قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ **[يوسف: 106].**

وإنَّ العبادة مفهوم شـامل – كما لا يخفى – ينظم شؤون الحياة كلها، فكل ميادين الحياة ميادين عبادة، وكل نشـــاط في هذه الحياة إن ابتغي به وجه الله فهو عبادة، والعادات بالنيات تغدو عبادات، والعبادات بلا نيات عادات [1].

أ- وصفه بالعبودية:

إن من مضمون دعوة نوح عليه السلام دعوة الناس لعبادة الله، وإفراده وحده بذلك، وقد أثنى الله على دعوته وجهده في كتابه العزيز، فوصـــف الله عز وجل نوح عليه الســـلام بالعبودية، فقد استطاع أن يحققها في أعلى مستوياتها.

فوصــفه الله تعالى بأنه كان عبداً شــكوراً، قال تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ **[الإسراء: 3]**، وذِكر صـفة الشـكر بعد صـفة العبودية من باب ذكر الخاص بعد العام، فالشـكر من العبادة، وقد اختص نوح عليه السـلام بصـفة الشـكر فكان كثير الشـــكر في مجامع حالاته كلها، وجعله الله تعالى علة لما قبله من حمله في الســفينة ونجاته

1 أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 112.

من معه، فالشكر أعظم أسباب الخير، ومن أفضل الطاعات، وحثّاً لذريته على شكر الله تعالى، فكان نجاة نوح عليه السلام ومن معه ببركة شكره، وحث للذرية على الاقتداء به، وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفر [1].

وجاءت هذه الصفة - العبودية- لنوح عليه السلام في معرض الإشفاق عليه، لعناد قومه، وفضهم دعوته، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ **[القمر: 9]**، وإضافته لرب العزة في قوله: ﴿ عَبْدَنَا ﴾ هو تشريف لمنزلة نوح عليه السلام، فجمع بذلك بين تكريمين:

- **الأول**: ذكره عليه السلام بعنوان العبودية.
- **الثاني**: إضافته إلى نون العظمة، وهذا تعظيم له عليه السلام ورفع لمحله وقدره.

وجاءت هذه الصفة والإضافة لنوح - عليه السلام - على سبيل العموم لا الخصوص كما في الآية السابقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ **[الصافات: 80- 81]**، فوصفه عليه السلام بصفة الإحسان، وهي أعلى مراتب العبودية، ومعناها: أن يعبد المرء ربه سبحانه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، كما بين ذلك المعنى الرسول محمد ﷺ، ونوح عليه السلام من المحسنين بخلوص عبوديته، وكمال إيمانه، وهو من المصدقين الموحدين.

وقد وصف نوح عليه السلام بالعبودية مقروناً مع لوط عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

---

1 أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1425هـ، 310/3؛ الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، نقلاً عن فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، ص 163.

صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10]، فمع وصف الله تعالى لنوح عليه السلام بصفة العبودية التي استحقها، وصفه سبحانه بالصلاح أيضاً[1].

وقد شهدت السنة المطهرة بصفة العبودية لنوح عليه السلام، ففي حديث الشفاعة أن الناس يذهبون إلى نوح عليه السلام فيقولون:" يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا أما ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك فيقول ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي ائتوا النبي ﷺ فيأتوني فأسجد تحت العرش فيقال يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه قال محمد بن عبيد لا أحفظ سائره "[2].

ب- قيامه بالعبودية:

قام نوح - عليه السلام - بالدعوة إلى عبودية الله وتحقيقها في نفسه حق القيام، وأخلص له في أعماله كلها، فلم يصرف شيئاً من العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ، بل وجهها لخالقه سبحانه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

- **الأقوال:**

- **كان عليه السلام كثير الشكر في جميع أحواله** كلها حتى اختُصّ بهذه الصفة ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3] .

- **وكان عليه السلام لا يدعو إلا الله عز وجل ولا يسأل سواه سبحانه**، والآيات في هذا المعنى كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾ [القمر: 10].

1فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين ، ص 164.

2 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم (3162).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ **[الشعراء: 117- 118]** فكلها آيات شاهدة على أن نوحاً عليه السلام كان يدعو الله عز وجل ولا يسأل سواه سبحانه [1].

- **وكان عليه السلام يستعيذ بالله تعالى ويحرص على طلب المغفرة والرحمة منه سبحانه**، فقال تعالى مخبراً عنه عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ **[هود: 47]**، فهذا اعتراف من عبد ذلّ وخضع لله تعالى يطلب مغفرة الله ورحمته به، مع علو منزلته من درجة النبوة، فكلما ازداد العبد خضوعاً لله تعالى ارتفعت منزلته ودرجته [2]. فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية مما سواه [3].

- **وسمى الله تعالى واستفتح به عند ركوبه عليه السلام ومن معه السفينة**، فقال تعالى عنه: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْ رَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ **[هود: 41]**.

- **الأعمال القلبية:**

- **كان نوح عليه السلام متوكلاً على الله تعالى حق توكله**، فيقول الله تعالى عنه: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ **[يونس: 71]**.

1فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، المرجع السابق، ص 165.

2 التوني، المرجع نفسه، ص 165.

3 ابن تيمية، العبودية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السابعة ، 2005م ص 53.

- **ويقول مخبراً عن إيمان نوح عليه السلام بقضاء الله وقدره:**﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ **[هود: 34]** .والإيمان بالقدر من أعظم أركان الإيمان بالله تعالى.

- **وكان عليه السلام مؤمناً بوعد الله تعالى**، فيقول حاكياً قوله: ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ **[هود: 45]**.

- **وكان مؤمناً عليه السلام برزق الله تعالى له**، فيقول الله تعالى حاكياً قوله: ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ **[الشعراء: 109]**.

- **وكان مؤمناً بالبعث الحساب**، قال تعالى عنه عليه السلام: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ **[هود: 29]**.وقوله: ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ **[هود: 34]**. وقوله: ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ **[الشعراء: 113]**.

- **وكان مؤمناً بأسماء الله وصفاته**: فأسماء الله تعالى قد أمن بها نوح عليه السلام، منها: الغفور، الرحيم، فقال تعالى عنه: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ **[نوح: 10]**. وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ **[هود: 41]**. وصفات الله تعالى آمن بها نوح عليه السلام، منها:

- صفة الإرادة، لقوله تعالى حكاية عنه: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ **[هود: 34]**.
- وصفة العلم، لقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ **[هود: 31]**.
- وصفة الخلق، لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ **[نوح: 13: 16]**.

ومن الأعمال الباطنة القلبية الخاصـــة بعمل القلب وهي أوثق عرى الإيمان هي الحب في الله والبغض في الله، فهذا نوح عليه الســـلام يتبرأ من أقرب الناس إليه، وهما زوجته وابنه، فإنه لما علم أنهما كانا من الظالمين، كما أخبره تعالى بذلك تبرأ منهما، فكانت زوجته تفشـي سـره لقومه فاسـتحقت العذاب معهم كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَـيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ **[التحريم: 10]**. والآخر هو ابنه لم يســمع كلام أبيه بأن لا يكون مع الكافرين، قال تعالى حكاية عن نوح: ﴿ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ **[هود: 42]**، ورغم تحذير أبيه له الطوفان والغرق ولكنه قال: ﴿ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ **[هود: 43]**[1].

- **الأعمال الظاهرة:**

إنَّ من أوضـح الأعمال الظاهرة التي قام بها نوح عليه الســلام امتثالاً لأمر ربه هي بناء السفينة، والتي أوحى الله تعالى إليه ببنائها، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْـنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ **[هود: 36- 37]**.

وقام عليه الســلام ببناء الســفينة، ومن معه ممن آمن به، وكان قومه يســخرون منهم ويستهزئون، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ

1التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، المرجع السابق، ص 167.

تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۝ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: 38- 39][1] .

وهكذا حقق نوح – عليه السلام – عبودية القلب، وعبودية الجوارح، وعبودية اللسان، وعلّمها لأتباعه ومن آمن به، ودعا إليها على بصيرة وعلم من عند الله عز وجل.

3. أكمل العباد تحقيقاً للعبودية:

يرتقي عباد الله في درجات العبودية بحسب نصحهم فيها، وسعيهم في تحقيقها، وأهل الكمال في ذلك سبقت لهم من الله الحسنى يتبوّؤون منها أرفعها، بما يزدادونه من معرفة ربهم، وإقبالهم على مرضاته، تصديقاً لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: 17]، فيزيدهم محبة له، وتعظيماً لقدره جل وعلا، وأكمل الخلق وأفضلهم وأقربهم إلى الله وأقواهم وأهداهم وأتمهم عبودية لله من هذا الوجه [2].

إنّه وجه كمال المعرفة، وكمال المحبة، التي هي أصل تحقيق العبودية.والمكملون لهذا هم عباد الله حقاً، وهم أولياؤه المتقون، وعلى رأسهم أنبياء الله ورسله[3]، فعبوديتهم هي عبودية خاصة الخاصة التي لا يستطيع أحد أن يباريهم فيها [4].

1 فريد إسماعيل التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، 168.

2 ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 10/ 210.

3 فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص 83.

4 محمد بن صالح العثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي، السعودية ، الطبعة (2)، 1424هـ، 1/ 36.

إنَّ الأنبياء والمرســـلين عرفوا الله بالوحي، والفطرة الســـليمة والعقل الراجح حق المعرفة، وعبدوه حق العبادة، وهم أشـــد الناس اجتهاداً في العبادة، لما امتن عليهم به من معرفته، وهم دائبون على شكره، معترفون له –مع تمام اجتهادهم– بالتقصير على أداء حقه [1].

وقد وصفهم الله بالعبودية في مقام تكريم شأنهم، فقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَـكُورًا ﴾ [الإسراء: 3]، وقال عن محمدﷺ :﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [البقرة: 23]، وقال في آخرين من الرســـل: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـــحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: 45].

وهم – عليهم الســـلام – برغم عظيم قدرهم في تحقيق العبودية، متفاوتون في المراتب، متفاضلون في الدرجات، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَـهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: 253]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّـلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإســراء: 55]، فأعلاهم درجة أولو العزم من الرســـل، ثم باقي الرســـل فالأنبياء[2].

وأكمل أولي العزم نبينا محمد ﷺ الذي وصـــفه الله تعالى بالعبودية لله في مواطن كثيرة منها؛ كقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: 1]، وقوله تعالى: ﴿ سُـبْحَانَ الَّذِي أَسْـرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْـجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء: 1]، كما أنه صلى الله عليه وسلم كان ينهى

---

1 ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، 11/ 221.

2 فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص 85.

المسلمين عن إطرائه، ويحب أن يصفوه بالعبودية فيقول: "إنما أنا عبد الله، فقولوا عبد الله ورسوله"[1] .

وكان محمد ﷺ أعرف الخلق بربه جل جلاله، متعبداً له بجميع أسمائه وصفاته، وسيرته صلى الله عليه وسلم تترجم هذا، فقد كان يظهر ذله وافتقاره في كل شأن: كثير من الاستغفار والتوبة، حدّث عن ذلك بقوله: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"[2] .

ويكثر من الدعاء ويلح فيه ويتضرع لربه السميع المجيب، الجواد الكريم، حتى أن أبا بكر الصديق: أشفق عليه يوم بدر من كثرة ما بكى وتضرع، فأخذ بيده وقال: حسبك يا رسول الله [3].

وكان رسول الله محمد ﷺ كثير العبادة والتهجد في الليل، يقوم ليصلي حتى تَرم [4] قدماه أو ساقاه، فيقال له: فيقول: أفلا أكون عبداً شكوراً[5].

وكذا كان كثير الصيام، دائم الحمد والثناء على ربه بما هو أهله، وكان متواضعاً في تعامله، كريماً في أخلاقه، قيل في وصفه وقت دخوله مكة يوم الفتح: أن النبي ﷺ دخل مكة

---

1 صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، ص 741.

2 صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستغفار، ص 1213.

3 صحيح البخاري، كتاب المغازي، ص 752.

4 ترم: أي تنتفخ وتتشقق لطول قيامة وركوعه وسجوده.

5 صحيح البخاري، كتاب التهجد، ص 224.

وذقنه على راحلته متخشـــعاً، فحياته كلها دليل على كمال عبوديته، وكيف لا يكون كذلك وهو أعرف العباد بالله جل جلاله؟ [1].

4. دعوة نوح عليه السلام قومه إلى تقوى الله عز وجل:

اهتَّم نوح – عليه الســـلام – بدعوة قومه إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراد العبودية لله عز وجل والحث على تقواه، لأن تقوى الله عز وجل هي الضـــمانة الحقيقية لاســـتقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التفلّت عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه، كما أنها هي مبعث الخُلُق الفاضـــل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة [2]. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: 23]، وقد لخصـــت هذه الآية: عناصـــر رســـالته بجمل ثلاث هي:

- ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾.
- ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾.
- ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؛ أيّ: إذا لم تؤمنوا بالله وتعبدوه وحده لا شـريك له، نزل بكم عقابه وعذابه، فالرشـــد والعقل يقتضـــيان منكم أن تتقوا ذلك، ومن أجل هذا فإنني أعرض عليكم عرض حثَّ وحضَّ أن تتقوا الله وعذابه الذي أنذرتكم به في عاجل حياتكم وآجلها، ودلّ على كل هذا باللّزومي الذهني عبارة ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾؟ والاســتفهام في هذه العبارة يحمل معاني التعجّب، والاسـتغراب والاسـتنكار من كونهم لا يتقون، وهي تتضـمن معنى الحث والحض على أن يتقوا، والفاء عاطفة على ما سـبق في مقول قول

---

1 فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، ص 18.

2السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3711.

نوح عليه السلام المصرّح به أو الطويّ الذي يُفهم باللّزوم الذهني، وقدّم حرف الاستفهام عليها؛ لأن الاستفهام في العربية له الصدارة.

ونلاحظ أن هذه الجمل الثلاث قد لخصت كليات عناصر الدين:

- الإيمان بتوحيد الله عز وجل.
- طاعة الله وعبادته وحده في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والتقرب إليه بمراضيه ومحابّه.
- الحذر من عقابه العاجل والآجل، واتخاذ ما يقي منه، وهو يستلزم الطمع بثوابه، واتخاذ ما يظفر به، بالنسبة إلى من آمن وأسلم[1].

وقال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ **[الشعراء: 105: 110].**

وبعد أن عرض نوح عليه السلام على قومه مضمون دعوة الله الحق، من توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراده بالعبادة ودعاهم إلى ذلك قال لهم في ختامها: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾، وهذا أمكننا استنباطه واستخراجه من متفرقات القصة في القرآن الكريم.

وبيَّن لهم نوح – عليه السلام – أنه رسول بعثه الله تعالى إليهم ليبلغهم رسالاته، وأنه أمين في نقل ما يأمره الله بتبليغه، فلا يزيد فيه شيء، ولا ينقص منه شيء، دل على هذا آية: إني لكم رسول أمين، أيّ: إني لكم على وجه التخصيص رسول مبعوث من عند الله،

1عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، دار القلم، دمشق والدار الشامية، بيروت، 2006م، ص 64.

وأمين على رســـالات ربي، أبلغها لكم كما أتلقاها بالوحي عنه، لا أزيد فيها ولا أنقص منها، ويترتب على كونه رسول لله مبلغاً عن ربه رسالاته، أنه مأمورون من قبل الله بطاعته لهم.

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾؛ أيّ: فاتقوا عذاب الله وأطيعوني، فيما أدعوكم إليه، لأنكم إذا لم تطيعوني فيما أدعوكم إليه، وأنا رســـول مبلِّغ عن الله كنتم مســـتحقين لعقابه وعذابه، فليست قضيتي، وإنما قضية الله ربي وربكم.

ولما كان أول ما يتبادر الأذهان الأقوام المدعوين من قبل أيّ داع من الدعاة إلى مبدأ أو فكرة أو عمل أو جماعة، اتهامهم إياه بأن له مصـلحة شـخصـية منهم يحصـل عليها من جزاء اتباعهم له فيما يدعوهم إليه، كان من الحكمة في الدعوة أن يُعلن الرسـول تجرده من أية مصـلحة شـخصـية يحصـل عليها من قومه الذين يدعوهم إلى دين الله، ربه وربهم، ومعلوم أن أدنى المصـــالح وأخفها مطالبتهم بأجر على ما يقدمه لهم من تعليم ونصـــح وإرشـــاد ومجاهدة في ابتغاء الخير لهم، وتربية وتدريب على الإيمان ومشـــاعره وممارســـة الفضائل الخلقية والسلوكية وعبادة الله عز وجل، وفق أحكام شرائعه، وظاهر أن التبرُّء من أدنى المصالح وأخفها يستلزم بداهة التبرء مما هو أصعب على نفوس القوم وأشد[1].

وقد أبان لهم نوح – عليه السـلام – أنه ما يسـألهم على ما يبذل لهم من أجر، أيُّ أجر، مهما كان قليلاً وخفيفاً، دل على ذلك قوله: وما أســـألكم عليه من أجر، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يطلب أجراً مطلقاً، إنها مثالية خيالية بالنســـبة إلى البشـــر، وهو لا يدَّعيها، بل هو ضـــامن أجراً يظفر به عند رب العالمين، فقد تكفل الله عن المدعوين،

1 عبد الرحمن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 65.

بأجر الدعاة إلى دينه وعبادته، فقال نوح عليه السـلام: إن أجري إلا على رب العالمين، أي: ما أجري الذي أستحقُّه إلا على كفالة رب العالمين، فهو وحده الضامن، وهو وحده الذي تحمّله وتكفل به، وهو وحده الذي أثق بأنه سيمنحني إياه، وبما أن أجري على رب العالمين، ولا أسألكم منه شيئاً قليلاً أو كثيراً، فإني أعيد عليكم مقالتي لكم، وأنا متصف بكامل التجرد من أية مصلحة أطلبها لنفسي منكم فاتقوا الله وأطيعون[1].

وإن التقوى في مضـمونها: هي اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل الطاعات واجتناب المنهيات، ثم إن عطف الطاعة على التقوى في كثير من الآيات فيه إشـارة إلى أن التقوى المأمور بها لا تتحقق إلا بطاعة الرسول وابتاعه[2].

أ- مراحل التقوى:

إنَّ المتدبر لكتاب الله تبارك وتعالى يجد أن التقوى هي من أكثر الأمور التي وجه القرآن لها العناية، وحمل النفوس على الاهتمام بها، لا مزيد عليه. وأصل التقوى من الوقاية.

- أول مراحل التقوى: الوقاية من الشرك.
- المرحلة الثانية: اجتناب الكبائر.
- أما المرحلة الثالثة: التي تكمل بها التقوى فهي الابتعاد عن الصغائر.

ويدلُّ لذلك ما روي عن سـيدنا رسـول الله ﷺ أنه قال: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به البأس"[3].

1عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام في القرآن المجيد، ص 65.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 38.

3 سنن الترمذي، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم 2451.

وعلى هذا فالتقوى هي أرفع الدرجات التي يجب على المؤمن أن يرتفع إليها، مهما تحمّل في سبيل ذلك من صعاب ومشقات.

ب- تعريفات التقوى:

ولقد ذكروا للتقوى تعريفات كثيرة، وتعددت في ذلك كلماتهم وأقوالهم، وسأذكر لكم بعض التعريفات لكي تكون نبراساً نهتدي بنورها، ومنها:

- قيل: إن التقوى أن يطاع الله فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.
- قيل: التقوى: هي ترك الإصرار على المعصية وترك الاغترار بالطاعة، فالمتقي لا يصر على معصية وإن كانت صغيرة، ولا يغتر بطاعة وإن كانت عظيمة.
- قيل: إن التقوى أن لا تختار على الله سوى الله، وأن تعلم أن الأمور كلها بيد الله.
- من تعريفات التقوى: أن لا يراك مولاك حيث نهاك.

ويجمع هذه التعريفات جميعاً أمور ثلاثة:

- **أولاً**: أن تجتنب الذنوب صغيرها وكبيرها، فإن الإصرار على الصغائر قد يؤدي إلى الكبائر.
- **ثانياً**: أن تحذر من كل ما تقدُم عليه من قول وعمل، كالذي يسير في طريق مليء بالأشواك يكون حذراً في كل خطوة يخطوها، وهذا ما جعله علامة التقوى بعض الصحابة رضوان الله عليهم. فقد قيل: إن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى فقال له: أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ فقال بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

- **ثالثاً**: أن لا تحقر شيئاً من صغائر الأمور، فلقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ أن مرّ بتمرة مسقوطة فقال: "لولا أن تكون صدقة لأكلتها"[1] . وقد روي في الأثر: "من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق بما في يده"[2] .

ج- **الفرق بين العبادة والتقوى:**

مما تقدم نُدرك خطر التقوى، وعظيم شأنها، ورفيع منزلتها، وندرك أن التقوى ثمرة يانعة لا بدَّ لتحقيقها من خمسة أمور، وهي: الإيمان، والطاعة، وترك المعصية، والتوبة، والإخلاص، فإذا انتفى واحد من هذه الخمسة انتفت التقوى.

ومن هنا نعلم أن التقوى ليست العبادة -كما يظن كثير من الناس- فربّ عابد كثرت عبادته ولكن لا ترفعه عبادته لدرجة التقوى. وفي الكتاب والسنة أدلة كثيرة، وبراهين ساطعة على ما بينته لك.

- قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ **[العنكبوت:16].**
- قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ **[نوح: 1: 3].**
- قال سبحانه: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ **[البقرة: 21].**

---

1 صحيح البخاري، كتاب البيوع، رقم 950، 725/2.

2 فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، دار النفائس للنشر، عمان، الأردن، ط1 2011م، ص 28.

فانظروا أرشـــدكم الله كيف ميزت هذه الآيات الكريمة بين العبادة والتقوى، فنوح وإبراهيم – عليهما الســـلام –كل يأمر قومه بالعبادة والتقوى، وفي الآية الثالثة أمر للناس من الله أن يعبدوا الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، راجين أن ترتفع بهم عبادتهم وأن توصلهم إلى درجة التقوى [1].

وفي الســـنة المطهرة يقول الرســـول ﷺ:"إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يحقره ولا يظلمه لا يخذله، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، التقوى ههنا التقوى ههنا ويشير إلى صدره"[2].

ومن هذا الحديث الشريف ندرك أولا أن التقوى لا بدَّ لها من تجنب هذه الأعمال جميعاً، التي ذكرت في الحديث، وندرك ثانياً أن التقوى إنما هي ســـرّ بين العبد وبين ربه، ولهذا أشار النبي الكريم ﷺ إلى صدره.

ويؤيد هذا من كتاب الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَـــكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ **[النجم: 32]** .

ومن أجمع الآيات التي بينت حقيقة التقوى وبينت أن هذه التقوى لا ينعم المرء بدفئها وظلها ونورها، إلا بعد أن يتصف بأمهات الفضائل، ويوفق لأمهات العبادات وأصولها، أقول من أجمع الآيات هذه الآية الكريمة: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـــرِقِ

---

1 فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، المرجع السابق، ص 29.

2 صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، رقم 2564، 1986/4.

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ **[البقرة: 177].**

انظروا – أرشدني الله وإياكم– إلى الخصال الكريمة، والصفات الحميدة التي تحدثت عنها هذه الآية الكريمة، وكيف أنها ذكر فيها أصول الشريعة الثلاثة: العقائد، والعبادات، والأخلاق، وفصل فيها خمس عشرة خصلة، ولقد جعلت التقوى ثمرة ذلك كله، كما جاء في آخر الآية الكريمة: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ **[البقرة: 177].**

وبعدما تقدم ندرك السر، وندرك الحكمة التي من أجلها ذكر الله التقوى في أول كتابه الكريم ﴿ الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ **[البقرة: 1- 2].**

اللهم اجعلنا من المتقين الذين قلت فيهم ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ **[مريم: 63]**[1] .

د- كتاب الله يبين أوصاف المتقين:

هذه الآيات حرية بالعناية والتقدير والاهتمام؛ لأن فيها أوصافاً يجب على المسلم أن يتحراها محاولاً أن يتحلى بها، وبخاصة أنها أول آية في كتاب الله تبين أحوال المتقين، فورودها في أول القرآن دليل على أهمية شأنها وعظيم خطرها، ومن أهميتها كذلك أنها وصف لأولئك الذين انتفعوا بالقرآن العظيم، واهتدوا به فتلوه وتدبروه[2].

---

1 فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، ص 30.

2 عباس، المرجع نفسه، ص 25.

قال تعالى: ﴿الم۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ **[البقرة: 1: 5]**.

- **الصفة الأولى: "الذين يؤمنون بالغيب"**:

ولكن هؤلاء المتقين كان أول مدح لهم أنهم صدقوا بما أخبرهم الله به مما لا تتعلق به الحواس، فكان إيمانهم بما غاب عنهم لا يقل عن إيمانهم بما تشاهده حواسهم، بل يتفوق عليه، وسواء كان هذا الغيب يمكن أن يقام عليه دليل عقلي كالإيمان بالله وصفاته أم لا دليل عليه، كالإيمان بالقدر، وسواء كان هذا الغيب من الأمور التي كانت مشاهدة لبعض الناس، كالرسول ﷺ الذي شاهده الصحابة رضوان الله عليهم، وشرفوا بأنوار مشافهته، ورؤيته والقرب منه، ولم يشاهده من بعدهم هذه المشاهدة الحاضرة، سواء كان هذا أم ذاك فهو غيب يستحق المؤمنون به الثناء، ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره كما جاء في الحديث الصحيح[1]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ **[الملك: 12]**.

- **الصفة الثانية: "ويقيمون الصلاة"**:

إنّ إقامة الصلاة هي أول الأركان العملية التي يُختبر بها هؤلاء المتقون، وإقامة الصلاة تأديتها تامة بأركانها وآدابها والمداومة عليها والمحافظة عليهما وفي مقدماتها ونتائجها، والخشوع فيها والإقبال عليها بنشاط وجد رغبة من غير فتور ولا كسل، ومن شأن هذه

1 صحيح البخاري، كتاب التفسير، رقم 869.

الصلاة أنها تكسب صاحبها قوة في الحق وثباتاً على الخير وزيادة في اليقين، وتنفي عنه القلق والهلع، والاضطراب والجزع، وتجعله سوي التفكير مرهوب الجانب، مستقيم السير، لا تهزه الحوادث والصعاب، ولا تبطره النعم ولا تضعفه النقم.

ثم إن من شأن هذه الصلاة كذلك أنها تدخله زمرة المفلحين الفائزين، ولو لم يكن من ثمرتها سوى أنها تورثه الفردوس لكان في ذلك خير غنيمة، وأعظم فائدة، ودليل ذلك في كتاب ربنا تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا* إِلَّا الْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ **[المعارج: 19- 23].**

ويقول في آخر هذه الصفات: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ **[المعارج: 34- 35].** ويقول سبحانه في سورة المؤمنون:﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ **[المؤمنون: 1- 2].** ويقول في آخر هذه الصفات: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ **[المؤمنون: 9: 11].**

فانظروا – أرشدكم الله– إلى عظم شأن الصلاة في هذين الموضعين من كتاب الله؛ الموضع الأول في سورة المعارج: حيث بين الله سبحانه ما يخلّص الإنسان من سيء الصفات، وهي الجزع، والهلع، ومنع الخير، حيث ذكرت الصلاة مرتين، وفي السورة الثانية سورة المؤمنون: حيث بين الله الصفات التي يستحق صاحبها الفلاح والفوز، وفي هذه الحالة كذلك ذكرت الصلاة مرتين[1].

1فضل حسن عباس، المرجع السابق، ص 33.

ففي الموضــع الأول قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَــلَاتِهِمْ خَاشِــعُونَ﴾ **[المؤمنون: 1- 2]**، وفي الموضع الثاني: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ **[المؤمنون: 9]**.

- **الصفة الثالثة: "ومما رزقناهم ينفقون"**:

إنّ الله تبارك وتعالى – جلّت حكمته –لم يكلف الناس شططاً ورهقاً ولذا جاء نظم الآية الكريمة "ومما رزقناهم ينفقون" فنفقتهم لا تعدو أن تكون شــيئاً قليلاً مما أعطاهم الله حتى الزكاة المفروضة كانت قليلة النسبة، فهي تختلف باختلاف المال المزكّى، فقد تكون واحداً في الأربعين إذ كانت دراهم أو ذهباً وفضــــة، وكذلك بعض الأنعام كالغنم، وقد تكون عشراً كالزروع التي تسقى بماء السماء، وقد تكون نصف العشر"ومما رزقناهم ينفقون"، فلم يسأل الله الناس جميع أموالهم أو أكثرها، ولو سئلوا ذلك لشق عليهم وبخلوا، فأُخذوا، وهذه الحكمة العظيمة فيما طلب منهم هي في حقيقتها نعمة من الله: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ **[الإسراء: 100]**، ولذلك امتنَّ الله على المسلمين فلم يسألهم أن ينفقوا أموالهم جميعها، ولم يشق عليهم في السؤال[1].

- **الصفة الرابعة: "والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك"**:

تبين هذه الصفة وحدة الذي أرسل الله به أنبياءه ورسله عليهم السلام، مهما تباعدت أزمنتهم وأمكنتهم ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ **[المؤمنون: 52]**. فأساس دعوة الأنبياء عليهم الســلام توحيد الله تبارك وتعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ **[الشورى: 13]**.

1عباس، المرجع السابق، ص 35.

فالأنبياء إخوة والمؤمنون كذلك، وفي هذه الصفة مدح وثناء على من آمن من أهل الكتاب ولكنه مع ذلك مدح للمسلمين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، ولا يفرقون بين أحد من رسله، ويقولون سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

إن الإيمان بما أنزل على النبي ﷺ وعلى غيره من الأنبياء يستلزم الإيمان بالأنبياء أنفسهم ومن بدهيات عقيدة المسلم وجوب الإيمان بالرسل عليهم السلام، وأما الذين يقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، فيقول القرآن الكريم فيهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 151- 152].

- **الصفة الخامسة: "وبالآخرة هم يوقنون":**

إنّ اليقين هو إيقان العلم بالشيء ينفي الشك والشبهة عنه، وقد يكون بدهياً، وقد يكون بحاجة إلى نظر واستدلال، فيقينك بالشيء لا يكون تاماً إلا إذا اشترك في إثباته عقلك، ووجدانك، بحيث يصير من الأمور التي تملك عليك كل مشاعرك وأفكارك، فلا يتطرق له أدنى ريب، ولأجل هذا ذكرت هذه الصفة بعد قوله سبحانه يؤمنون بالغيب مع أن الآخرة من الغيب، ولكن خصت الآخرة باليقين، وذلك للعناية بشأنها، فإنَّ الإيقان بشيءٍ ما لا يترك مجالاً للتقصير أو الغفلة فنسأل الله أن يرزقنا اليقين. فإن من أيقن بالآخرة لا بد أن يعمل لها [1].

1 فضل حسن عباس، المرجع السابق، ص 36.

وبعد هذه الصـــــفات يذكر الله تبارك وتعالى جزاء أولئك المتقين "أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون"، فهم أولاً المتمكنون من الهدى الثابتون عليه، والهداية نعمة من نعم الله عظيمة ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ **[محمد: 17]**. وهذا القسـم الأول من الجزاء العظيم، أما القسـم الثاني فهو الفلاح، فهؤلاء المتقون كملت لهم السعادة وسيلة وغاية ومبدأ ونهاية [1].

وقد وضـــح القرآن الكريم قيمة التقوى وجعلها غاية منشـــودة، وكتب حولها الكثير من العلماء[2]، وبينوا حقيقتها وثمارها وآثارها وصفات المتقين التعبدية والسلوكية، وكل ما يتعلق بهذه القيمة الربانية السامية.

5. تفسير بعض الآيات من سورة نوح عليه السلام:

إنّ سـورة "نوح" عليه السـلام خاصـة بدعوة نوح لقومه، وفي الآيات الأولى منها إشـارات واضحة إلى تكليف الله لنوح عليه السلام بتبليغ الرسالة وقيامه بذلك وبيان مضمونها وما يترتب على قبولها من خير عميم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ **[نوح: 1: 4]**.

---

1 المرجع نفسه، ص 37.

2 من العلماء: أحمد فريد في كتابه التقوى الغاية المنشـودة والدرة المفقودة، وانظر: محمود أحمد سـعيد الأطرش في كتابه حقيقة التقوى وطرق الوصول إليها. وانظر: أحمد خليل جمعة وهيثم هلال حمزة في كتابهما "التقوى: مفهومها – أركانها – نفحاتها".

أ- تكليف نوح بتبليغ رسالته:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ : في هذه الآية يؤكد الله عزَّ وجلَّ في كتابه للناس أجمعين أن مصدر الرسالة ومنبعها الأول والأخير كان ولا يزال في جميع العهود وبالنسبة لجميع الرسل والأنبياء من عهد نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد ﷺ خاتم النبيين والمرسلين هو الله تبارك وتعالى خالق الخلق ومصدر الوجود، فهو الذي خلق الخلق وأرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى سواء السبيل، وهو الذي كلف رسله جميعاً بالدعوة إلى عبادة الله وتقواه، وإلى طاعة رسله فيما يبلغونه عن الله[1].

جاء البيان مؤكداً في ﴿إِنَّا﴾ ؛ لأن التأكيد مسلّط على كل ما جاء في السورة من دعوة نوح قومه وليس بجملة إرسال نوح فقط، فهذه قضية قد صارت مؤكدة من حديث القرآن الكريم عن نوح عليه السلام، واستعمل ضمير العظمة مراعاة لحال المقصودين الأولين من الخطاب في السورة، وهم الكافرون المكذبون برسالة محمد ﷺ، وهؤلاء تناسبهم عبارات العظمة والعزّة والسلطان، ونظير ذلك ما لو كان الموضوع فيه ما يقتضي الإشعار بسلطان الرب، وقدرته وعزته وجبروته، فيناسبه ضمير العظمة.

وفي هذه الجملة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ ما يلي:

- بيان الإرسال والمرسِل "أرسلنا".
- وبيان الرسول "نوح".
- وبيان المرسل إليهم "قومه".

1أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 127.

بقي بيان الرسالة، وقد جاء بيانها بقول الله عز وجل: "أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم". في قوله: "أن أنذر" أن: تفسيرية بمنزلة "أي" وما بعدها تفسير لما أرسل الله نوحاً به، والإنذار: هو الإعلام بأمر يُخاف منه للتحذير من وقوعه باتخاذ أسباب تفاديه.

عذاب أليم: عقاب مؤلم للمعذَّبين الذين لا يحققون المطلوب الرباني منهم[1].

ب- قيام نوح برسالته:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ **[نوح: 2]** مفصح عن نذارته، مبيّناً في حجته، لا يتمتم ولا يجمجم، ولا يتلعثم في دعوته، ولا يدع لبساً ولا غموضاً في حقيقة ما يدعو إليه، وفي حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته[2].

فالنذير هو في ذاته واضح مكشوف، ليس له باطن يخالف ظاهره، وهو أيضاً مبين لحقائق الدين وشرائعه، وموضح لها، ومبين للحق والباطل، والخير والشر، والحلال والحرام وغير ذلك مما جاء به الدين، وهذا مما امتازت به رسالات الله للناس، ومما امتاز به رسل الله أجمعون، بخلاف مبادئ الناس ومذاهبهم، فهي ذات مظاهر لخداع الجمهور، وذات بواطن تخفيها ولا تظهرها، لخدمة أصحاب المنافع والمصالح منها، المتواطئين على صنعتها وزخرفتها[3].

1 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد ، ص 167.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3711.

3 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص169.

وما يدعو إليه نوح عليه السلام بسيط وواضح ومستقيم: أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون" عبادة الله وحده بلا شريك، وتقوى الله تهيمن على الشعور والسلوك، وطاعة رسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك.

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق، ثم تفترق بعد ذلك في التفصيل والتفريع، وفي مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله، وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع.

وعبادة الله وحده: منهج كامل للحياة، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس.. ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور، فيقوم منهج للحياة خاص. منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية، وإلى القيم التي يقررها الله للأحياء والأشياء.

وتقوى الله: هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه. كما أنها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة.

وطاعة الرسول: هي الوسيلة للاستقامة على الطريق، وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية، وبقاء الاتصال بالسماء عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة [1].

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، 6/ 3711.

لقد ورد لفظ "العبادة" في سياق قصة نوح – عليه السلام – أربع مرات، وأما لفظ "الطاعة" فجاء في ثلاثة مواضع، اثنان منهما في سورة الشعراء، والأخرى في سورة نوح، وورد لفظ "التقوى" خمس مرات، ثلاث منها في سورة الشعراء [1].

وقد تفردت سورة نوح – عليه السلام – بالجمع بين العبادة والتقوى والطاعة: فهذه الكلمات الثلاثة لم ترد مجتمعة إلا في سورة نوح، فهي آخر السور الكريمة المتحدثة عنه من حيث ترتيب المصحف، فناسب أن يلخص دعوته بهذه الكلمات الثلاث التي لا تنفك إحداها عن الأخرى، وفيها سرّ بديع اختصت به السورة، إذ يظن الكثيرون أن العبادة والتقوى شيء واحد، ولكن شتان ما بينهما، فما أبعد الفرق بين العبادة والتقوى، فكم من عابد لا تصل به عبادته ولا ترتفع به إلى مرتبة التقوى [2].

وقد لاحظنا أن الأكثر وروداً في قصة نوح عليه السلام "التقوى" حيث وردت خمس مرات، ولا غرابة في ذلك، فهي وصية الله إلى عباده: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ **[النساء: 131]**.

وعَقب على هذه الآية الفيروز آبادي فقال: يفهم منها أنه لو كانت في العالم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم للأجر وأجل في العبودية، وأعظم في القدر وأولى في الحال وأنجح في المال من هذه الخصلة لكان الله سبحانه أمر بها عباده وأوصى خواصّه بذلك لكمال حكمته ورحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة جميع الأولين والآخرين، من عباده واقتصر عليها: علمنا أنها الغاية التي لا متجاوز عنها، ولا مقتصر دونها، وأنه عز وجل قد جمع كل محض نُصح، ودلالة وإرشاد وسنة وتأديب وتعليم وتهذيب في هذه

---

1 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 122.

2 الرقب، المرجع السابق، ص 26، حسن عباس، قصص القرآن الكريم، المرجع السابق، ص. ص 183- 184.

الوصـــية الواحدة، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ **[المائدة: 27]**، يُشـــعر بأن الأمر كله راجع إلى التقوى[1].

فهذه هي الخطوط العريضـة التي دعا نوح – عليه السـلام – إليها قومه في فجر البشـرية، هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده[2].

- "اعبدوا الله"
- "واتقوه"
- "وأطيعون"

فإن تفعلوا ذلك "يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مســمى، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون".

وجزاء الاســتجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رســوله هي المغفرة والتخليص من الذنوب التي ســلفت وتأخير الحســاب إلى الأجل المضــروب له في علم الله. وهو اليوم الآخر. وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصـال وسـيرد في الحسـاب الذي قدمه نوح لربه أنه وعدهم أشياء أخرى في أثناء الحياة.

ثم بين لهم أن ذلك الأجل المضـروب حتمي يجيء في موعده، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا.. وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى: "إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، لو كنتم تعلمون"، كما أن النص يحتمل أن يكون تقريراً لكل أجل يضـربه الله ليقر في قلوبهم

1أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 123.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3712.

هذه الحقيقة بوجه عام، بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم- لو أطاعوا وأنابوا- إلى يوم الحساب [1].

وأكدت الآيات الكريمة على كون نوح رسول الله ونذيراً لقومه، وأمرهم بعبادة الله وتقواه وطاعته، بوصفه رسولاً مبعوثاً من الله.

وهذه القضايا تكررت في القرآن الكريم في حديثه عن قصة نوح عليه السلام، ومضمون دعوته، وبينت الآيات الكريمة في سورة نوح بأنهم إذا راجعوا أنفسهم فآمنوا، وعبدوا الله وحده، واتقوه، واطاعوا الرسول، غفر لهم من ذنوبهم التي سبقت منهم، والتي كانت بسبب إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان[2].

6. الإسلام دين نوح عليه السلام والرسل جميعاً:

إنَّ الدين المشروع عند الله تعالى هو الإسلام، وأن ما سواه من الأديان غير مُعتد به، ولا صحيح، وهذا أمر لا شك فيه ولا غموض، حيث ما سِوى الإسلام من الأديان إنما هو من صنع البشر أصلاً كالوثنية بمختلف صورها، أو بعد التحريف مثل اليهودية والنصرانية.

وأما الدِينُ الذي أرسل الله جل وعلا به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو الإسلام الذي هو عبادة الله وحده [3]، ونبذ عبادة ما سواه، وكل واحد من الأنبياء والرسل عليهم السلام يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: 23]، فهم متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص، والنهي عن الشرك، فالغاية التي بُعثوا من أجلها، إفراد الله

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3712.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 179.

3 عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، دار الدعوة ودار عيون المعرفة، ط1، 2000م، ص 471.

تعالى بالعبادة، والنهي عن جميع الموبقات، من الكفر، والفسوق، والعصيان، والشرائع كلها تدعو إلى هذه الغاية العظيمة، إذ هي مهمة جميع الرسل، من لدن نوح عليه السلام إلى رسولنا محمدﷺ [1].

يقول ابن تيمية: فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمان ومكان، بطاعة رسله عليهم السلام، فلا يكون عابداً له من عبده بخلاف ما جاءت به رسله: كالذين قال فيهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ **[الشورى: 21]**، فلا يكون مؤمناً به إلا من عبده بطاعة رسله، ولا يكون مؤمنا به، ولا عابدا له إلا من آمن بجميع رسله، وأطاع من أرسل إليه، فيطاع كل رسول إلى أن يأتي الذي بعده، فتكون الطاعة للرسول الثاني [2]. فالرسل جميعاً متفقون في الدعوة إلى أصل الدين الذي هو الانقياد لله سبحانه وتعالى بالطاعة والعبادة.

- قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ **[يونس: 72]**.
- وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ **[آل عمران: 67]**.
- وقال تعالى عن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ

1ابن تيمية، النبوات، المرجع السابق، 1/ 39.

2 ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي بن حسن – عبد العزيز بن إبراهيم – حمدان بن محمد، دار العاصمة، السعودية، الطبعة الثانية، 1999م، 1/ 83- 84.

رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ **[البقرة: 130- 132].**

- وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ **[يوسف: 101].**
- وقال عن موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ **[يونس: 84].**
- وقال تعالى في أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ **[المائدة: 44].**
- وقال تعالى حكاية عن سحرة فرعون الذي آمنوا بموسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ **[الأعراف: 126].**

فقد فهموا أن الدين الذي دعا إليه موسى عليه السلام هو الإسلام، مما يدل على وضوح هذا الأمر[1].

- وقال تعالى عن سليمان عليه السلام في كتابه لبلقيس: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ **[النمل: 31].**
- وقال تعالى عن أمة عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ **[المائدة: 111].**

1عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، المرجع السابق، ص 482.

- وقال تعالى عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: 52- 53].

- وقال تعالى عن لوط عليه السـلام: ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: 36].

يعني أن المؤمنين منهم بدينهم حقاً يقولون إنا كنا من قبل نزول القرآن مسلمين، فلم يقولوا إنا كنا قبله يهوداً أو نصارى[1].

7. اتحاد الدين وتعدد الشرائع:

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: 13] .

فذَكَر الله سبحانه وتعالى أنه شرع لهذه الأمة من الدين ما شرعه للأمم السابقة، حيث أمر الله عز وجل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يقيموا ديناً واحداً، ونهاهم عن الفرقة والاختلاف، وهذا الدين هو الإسلام الذي بينته الآيات السابقة، الذي هو عبادة الله وحده، وخص بالذكر أولي العزم من الرسل ابتداءً بنوح عليه الصلاة والسلام، وانتهاء بمحمد ﷺ لفضلهم وإمامتهم، أما شرائع الأنبياء الفرعية فهي متعددة متنوعة على حسب ما تقتضيه حاجة أممهم، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: 48][2].

1عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، المرجع السابق، ص 482.

2 الحميدي، المرجع السابق، ص 482.

ومعنى هذه الآية:أي لك يا محمد وللرســـل قبلك شـــرعة ومنهاجاً، يجمعها الدين الذي اصـطفاه الله للناس ورضـيه لهم، ولكل حزب من أحزاب الكفر والشـرك شـرعة ومنهاج في حياتهم، همُا له الدين الذي افتراه قائده أو قادته ومشى عليه الأتباع.

وأما **الشريعة**: فهي المبادئ والأسس الاعتقادية، والقواعد العامة الأصول التي هي كمورد الشـــاربة، فهي التي تشـــرعها أمة ذات اتجاه واحد حق أو باطل، أي: يأتونها واردين، فيشربون منها مفاهيمهم ومبادئهم، وعقائدهم والقواعد العامة لدينهم الذي يدينون له.

وأما **المنهاج**: فهو من الدين ما يجمع الأحكام التفصـيلية لأعمال الحياة، وأنواع السـلوك فيها، وهذه الأحكام تستند إلى المبادئ والأسـس الاعتقادية، والقواعد العامة، التي لها في الدين عنوان الشريعة. فعلى هذا نستطيع أن نفهم أن قول الله تعالى:

- "شرع لكم من الدين": يدل على أنه قد أبان وأظهر وأوضح لنا من قسم الشريعة من الدين الذي اصـــطفاه لعباده: أي: من المبادئ والأســـس الاعتقادية والقواعد العامة الأصول، فحرف (من) للتبعيض.
- "ما وصَّى به نوحاً":أي: كل ما وصى به نوحاً، مما هو من قسم الشـريعة، كالتوحيد، والطاعة، والعبادة، والإيمان بيوم دين، وتقوى الله والإسلام له.
- "والذي أوحينا إليك": أي: والذي أوحينا إليك من الشـريعة زيادة على ما وصـينا به نوحاً.
- "وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى": أي: وكل ما وصينا به أيضاً إبراهيم وموسى وعيسى من الشريعة، ما أعلمناكم به فيما سبق من تنزيل قرآني، وما ستعلمهم به فيما ســـننزله في القرآن، فدلنا هذا على أن المبادئ والأســـس الاعتقادية، والقواعد العامة

الأصول – الشريعة في الاصطلاح القرآني– التي وصّى بها نوحاً، وأوحى بها لمحمد ﷺ ووصى بها إبراهيم وموسى وعيسى، جميعها قد شرعها الله لنا في عموم قضايا الدين [1].

فما يثبت لنا في كل ذلك هو شريعة لنا؛ لأنها عقائد وحقائق وأصول لا تقبل النسخ ولا التعديل، ولكنها قد تقبل إضافات بيانية وتفصيلية، واقتصر النص من الرسل السابقين على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى – عليهم السلام – ؛ لأن ما جاء من بيان تفصيلي عما أنزل عليهم "من شريعة" شامل لما أنزل من ذلك على جميع المرسلين[2].

- "أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه": إن المراد من إقامة الدين تأدية حقوقه دوماً، وملازمته مع الاستقامة في حمل أعبائه وواجباته، وقد نهى الله عن التفرق في الدين الذي شرعه، أي: نهى عن الاختلاف في مبادئه وعقائده، وقواعده العامة الأصول؛ لأن الاختلاف في ذلك يفضي إلى تفرق الأمة الربانية الواحدة، وانقسامها إلى أمم متعادية متباعدة، وربما يوصلها هذا الانقسام إلى أن يكفر بعضها بعضاً، ويقاتل بعضها بعضاً.

ولدى تتبع مضامين رسالات جميع المرسلين التي يمثلها في القديم نوح عليه السلام، ثم إبراهيم عليه السلام الذي هو من شيعته، ويمثلها في بني إسرائيل موسى وعيسى عليهما السلام، ويقدم صورتها المثلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، ونلاحظ أن مبادئها وعقائدها وقواعدها العامة الأصول، وأسسها الفكرية واحدة، فأتباع كل الرسل إذا لم

---

1 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص 160.

2 المرجع نفسه، ص 160.

يختلفوا عما جاء به رســـل ربهم، واتبعوه كما أنزله الله غير محرّف ولا مبدل ولا زائد ولا ناقص، هم أمة واحدة من لدن آدم – عليه السلام – حتى خاتم النبيين[1].

وبعد هذا انتقل النص في الآية إلى معالجة المشــركين المكذبين بالرســول محمد ﷺ فقال تعالى خطاباً له: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: 13]، أي: صعب عليهم أن يتحمَّلوا قبول ما تدعوهم إليه، إذ رأوه أكبر من قدرة نفوســهم على تحمّله، واســتعمل الكِبَر كناية عن الصعوبة على النفس؛ لأن الشيء إذا كبُر ثقل، وإذا ثقل شقَّ على المدعوّ إلى حمله أن يحمله[2].

واستعمال فعل (كبُر) يشعر بثقل ما يدعوهم إليه الرسول على نفوسهم، ولو كان مرفوضاً لديهم فكرياً وعلمياً لكان المناســب اســتعمال غير هذه الكناية، مما يدل على ارتيابهم أو عدم اقتناعهم أو شـــعورهم بأنه باطل، فيظهر أنهم في هذه المرحلة لم يكن دافعهم لعدم الاستجابة عدم الاقتناع بما يدعوهم إليه الرسل، وإنما كان دافعهم ثقله على نفوسهم[3].

وبالتأمل نلاحظ بواعث استثقال نفوسهم له، وهي ما يأتي:

- أنه يدعوهم إلى الإيمان بأنه رســول الله، ويدعوهم إلى اتباعه، وهما أمران كبيران ثقيلان على نفوس كبرائهم إذ يشعرون بأنهم أحق بأن يكونوا رسلاً متبعين لا تابعين.

1 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 162.

2 المرجع السابق، ص 162.

3 المرجع نفسه، ص 163.

- إنه يدعوهم إلى ترك ما هم عليه من شـرك وعادات، وهذا يتضـمّن أنهم ضـالّون، فإذا استجابوا لما يدعوهم الرسـول إليه كان اعترافاً منهم على أنفسـهم بأنهم كانوا ضـالين جاهلين، وذلك كبير وثقيل على نفوسهم.
- إنه يدعوهم إلى ترك كثير من ممارسات يمارسونها، مما يحرمه الدين، وهذا أمر ثقيل على نفوسهم، لتعلق شهواتهم وأهوائهم بها تعلقاً شديداً.
- إنه يدعوهم إلى القيام بتكاليف دينية لم يسـبق لهم أن قاموا بها، فالقيام بها كبير وثقيل على نفوسهم لما فيه من تحمّل ما يشق عليهم تحمّله[1].

وقد وجه الله لهم الاقناع بأمرين:

الأمر الأول: أن الرسالة النبوة اصطفاء من الله، وهو سبحانه يجتبي من يشاء بحكمته، إذ هو أعلم حيث يجعل رسـالته: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَـاءُ ﴾ **[الشـورى: 13]**، يجتبي: أيّ: يصطفي ويختار، ومن أسس الإيمان بالله أنه حكيم عليم، فإذا أراد أن يرسل رسولاً لم يتبع في ذلك أهواء عباده، ولم يسـتشـرهم في أمره، بل هو بحكمته وعلمه يجتبي إليه من يشـاء من عباده، ولا يكون مجتباه إلا أفضـلهم وخيرهم وأكملهم وأحسـنهم عقلاً وخلقاً ونفسـاً وتقى، وأبعدهم عن كل نقيصة. أيّ: فمن الخير لكم ومن مصلحتكم أن تتبعوا من اجتباه الله بحكمته، ولو كان كبيراً على نفوسكم.

الأمر الثاني: أن الناس ممتحنون في هذه الدنيا، والممتحن عليه أن يؤمن بالحق، وعليه أن يطيع الله في أوامره ونواهيه، حتى يحكم له بالهداية، ويجعله من المهديين المنعمين في دار النعيم يوم الـدين، ومن كـان على غير ذلـك فمن الخير لـه أن ينيب إلى ربـه ويرجع إليـه

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 164.

بصدق الإيمان وحسن الطاعة حتى يهديه الله إليه، ومن هداه الله فحكم له بالهداية رضي الله عنه وجعله من أهل دار النعيم، أي: فهذه الإنابة من مصـــلحتكم ولو كانت ثقيلة عليكم، قال الله عز وجل: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: 13]، أي: يحكم ويقضـي بأن من أناب إليه تائباً راجعاً بالإيمان والعمل الصـــالح قد اهتدى بالإنابة، فيزيده معونة حتى يتقرب إليه تعالى بالطاعات والصالحات، ويلزم من الحكم له بالهداية أن يرضى عنه، ويجعله من أهل الجنة المنعمين يوم الدين، ذلك هو الخير العظيم، والسعادة الأبدية[1].

8. الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شـــتى ودينهم واحد وشـــريعة الإســـلام خاتمة الرسالات:

قال رســـول الله ﷺ:"الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شـــتى ودينهم واحد"[2]، والعلات هي الضـــرائر، وأصـــله من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى، كأنه عل منها، والعلل الشـــرب بعد الشرب، وأولاد العلات الأخوة من الأب من أمهات متعددة[3].

وفي هذا الحديث دلالة واضـــحة على أن أصـــل دين الأنبياء واحد، وهو التوحيد، وأن شـــرائعهم متعددة، فيما يصـــلح للشـــرائع الســـابقة التي نزلت لأقوام معينين في رقعة من الأرض محدودة، قد لا يصـــلح كله للشـــريعة العامة التي أنزلت للناس جميعاً إلى أن تقوم الســـاعة، وقد يشـــدد الله على بعض الأمم فيحرم عليهم ما أحله لغيرهم لتعنّتهم كاليهود مثلاً، ثم يبيحه جل وعلا لمن يأتي بعدهم، وأما أصـــل الدين فإنه لا يتغير بتغيُّر الأمم والأمكنة والأزمنة، فكان الإسـلام دين الأنبياء عليهم الصـلاة والسـلام جميعاً، وإذا أُطلق

1 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص 163.

2 صحيح البخاري، رقم 3443، صحيح مسلم، رقم 2365.

3 الرسائل الشمولية، ص 483.

الإسلام دخل فيه الشرائع ضمناً؛ لأن التكاليف الشرعية هي القواعد التطبيقية للإسلام، حيث إنها من أمر الله تعالى ونهيه، ولا يتم الإســـلام إلا بطاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وإن اختلفت الشرائع في بعض التفاصيل فإنها جميعاً من أمر الله جل وعلا ونهيه [1].

وقد جاء إطلاق الدين في هذا الحديث على التوحيد؛ لأن الدين جاء في مقابلة الشريعة، والأصل أن الدين إذا أطلق، وكذلك الإسلام فإن ذلك يشمل الشريعة، فالقرائن هي التي تبين المقصـود، إذاً فليس هناك أديان سماوية، إنما الدين عند الله واحد هو الإسـلام، ولقد شـــرع الله جلَّ وعلا هذا الدين منذ أن أهبط آدم عليه الســـلام إلى هذه الأرض، وكلما انحرف أبناء آدم عن هذا الدين أرسل الله إليهم رسلاً يهدونهم إليه [2].

فكان أول رسول إلى البشرية بعد آدم عليه السلام نوح عليه السلام، وخاتمهم محمد ﷺ، وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصـــة حتى أذن الله جل وعلا بتكون الأمة الواحدة من البشرية جمعاء، فبعث محمد ﷺ إلى الناس كافة، وجعله خاتم المرسلين، فليس بعد القرآن كتاب منزل، ولا بعد محمد ﷺ رسـول مرسـل، فرسـالته ختمت السـماوية، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُـــولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ **[الأحزاب: 40]**، وبرسول الله ﷺ اكتمل بناء الدعوة الإسلامية، قال رسول الله ﷺ:"إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحســـنه وأجمله، إلا موضـــع لبنة من زاوية، فجعل الناس

1عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، المرجع السابق، ص 483.

2 الحميدي، المرجع السابق، ص 484.

يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضـــعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[1].

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قاموا بهداية أقوامهم نحو الرشاد، فأسهم كل واحد منهم بوضـع لبنة في بناء الدعوة إلى الله، حتى إذا توقّف نزول الوحي من السـماء بعد عيسـى عليه السلام وفشا الجهل وعمت الظلمات، وأصبحت البشرية جميعاً بحاجة إلى من يأخذ بيدها نحو النور والهداية، أكمل الله جل وعلا بمحمد ﷺ ذلك البناء، فبعثه إلى الناس كافة، ورســول الله ﷺ لم يبعث ببناء قصـر جديد بل أكمل الله به القصـر الذي شـيّد بالأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، لأنه لم يبعث بدين جديد، وإنما بعث إلى توحيد الله جل وعلا، الذي دعا إليه الأنبياء جميعاً من قبله، وهذا صـريح في الدلالة على اتحاد دين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[2].

ولقد أكمل الله جلَّ وعلا برســالة محمد ﷺ الدين للناس جميعاً، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـيتُ لَكُمُ الْإِسْـلَامَ دِينًا ﴾ **[المائدة: 3]**. وأصبحت شريعة الإسلام التي نزلت على محمد ﷺ وارثة مكملة لشرائع المرسلين، ابتداء من نوح عليه السلام، وهي ما شرعه الله لعباده من الدين في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وإنما سميت شريعة؛ لأنها تقصد ويُلجأ إليها، كما يلجأ إلى الماء عند العطش، أو أنها تكون معروفة المنبع والحد، ومنها قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَـرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ **[الجاثية: 18]**، وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ **[المائدة: 48]**.

---

1 صحيح البخاري، المرجع السابق، رقم 3535.

2 عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، ص 486.

وجوهرها سـياسـة الدنيا بالدين، حتى يكون المرء على وفق نظر الحق تعالى، ومراده من خلق الناس في قوله سـبحانه:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، إذ الإحسان، كما قال رسول الله ﷺ :"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، وهو: أن تكون حياتك، وعبادتك وعادتك، كلها وفق مراد الله تعالى ومحل مرضـاته، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ﴾ [الأنعام: 162- 163].

والشـريعة تنقسـم إلى شـقين: الوحي، والحياة العامة، ولسـياسـة الدنيا بالدين، يجب أن يتلاءم الدين مع الدنيا، وإلا لما كان صالحاً للعمل به، ولا صالحاً للاستمرار في كل زمان ومكان، فهو: مجموع والشرائع القواعد التي تجمع عباد الله في كل زمان ومكان [1].

ولما كان النبي محمد ﷺ رسـول الله وخاتم النبيين، بل نبي الأنبياء، ورسـول الرسـل، وفقاً للآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: 81] .

وأنزل الله تعالى على رسول الله ﷺ الوحي بشقّيه: القرآن الكريم والسنة النبوية، واقتضى ذلك أن يكون عالماً بالقرآن الكريم، وعالماً بالسـنة النبوية، وعارفاً لما تضـمنه الوحي من أخبار وعلوم، وشرائع وأسرار، ولذلك قالت السيدة عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خُلُق النبي ﷺ قالت: "كان خلقه القرآن" [2] .

1 محمد إبراهيم الكتاني، الدعوة إلى اسـتقلال الفكر في الإسـلام، تنسـيق وإعداد: محمد حمزة الكتاني، دار الحديث، ط1 2014م، ص 36.

2 مسند أحمد، رقم 25341، بإسناد على شرط الشيخان.

والخُلق: الجبلة والطبع والعادة، وفي القرآن الكريم:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **[القلم: 4]**، كما أنه اقتفاء بذلك فإنه لا يمكن أن يكون رسولاً ومشرعاً وحاكماً وهو لا يفهم الشق الآخر من الشـــريعة، وهو واقع الأمة وعادات الناس وتقاليدهم، وأيامهم وفلســـفات حياتهم...إلخ، وهو أمر ملزوم، إذ لولاه لأصبحت الشريعة أمراً شكلياً، أو رسالة نظرية لا تجد من يطبقها على أرض الواقع، وإذا أســـاء المطبّق تطبيقها في الواقع، جهلاً منه في الواقع نفســه، فإنها تفقد حجيتها، وتنعى صـــلاحيتها لكل زمان ومكان، وهو أمر ممنوع شرعاً وعقلاً[1].

فهو ممنوع شرعاً لتضافر الآيات على صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان، وأمر الله تعالى بها بقوله ســـبحانه: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُـــولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ **[الحشــر: 7]**، وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ **[آل عمران: 31]**، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ **[النساء: 65]**، وممنوع عقلاً، لما يترتب عليه من فســاد النتيجة الجامعة بين شــريعة صــالحة، ومثال أعلى غير صالح لتطبيقها على الواقع[2].

1الكتاني، الدعوة إلى استقلال الفكر في الإسلام، المرجع السابق، ص 37.

2 المرجع السابق، ص 37.

المبحث الثالث: مواقف قوم نوح عليه السلام من دعوته

ورد اسم نوح – عليه السلام – في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة، وذكر نوح في القرآن على حالتين:

الحالة الأولى: ذكر اسمه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه ضمن الحديث عن قصته، وذلك في إحدى عشرة مرة.

الحالة الثانية: ذكر اسمه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه، ولكن ليس ضمن الحديث عن قصته، وإنما في إشارة سريعة إليه، أو إلى رسالته، أو إلى شريعته، أو إلى كفر قومه وتكذيبهم، وذلك بما يتفق مع موضوع السورة، أو الوحدة التي وردت فيه الإشارة، وذلك في اثنتين وعشرين مرة.

والسور التي ورد اسم نوح عليه السلام فيها مجرداً أو مضافاً إلى قومه، لكن ليس ضمن قصته، هي سورة: آل عمران، النساء، الأنعام، الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، الحج، الفرقان، الأحزاب، ص، غافر، الشورى، ق، الذاريات، النجم، الحديد، التحريم.

والسور التي وردت فيها مشاهد ولقطات من قصة نوح عليه السلام هي: الأعراف، يونس، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، العنكبوت، الصافات، القمر، نوح، ويتفاوت المقدار المعروض من قصته في هذه السور طولاً وقصراً، وتُعرض المشاهد واللقطات من القصة بالمقدار الذي يتفق مع موضوع السورة وسياقها، وشخصيتها والعبرة المقصودة منها، فسورة "نوح" كلها في الحديث عن قصته مع قومه، وسورة "هود" عرضت مشاهد ولقطات طويلة من قصته، وسورة يونس والشعراء عرضت لقطات أقصر، بينما وردت

الإشـارة إلى القصـة في سـورة العنكبوت في آيتين اثنتين، تضـمنتا معلومة هامة لم ترد في السور الأخرى[1].

واللافت للنظر أن السـور العشـر السـابقة التي تحدثت عن قصته هي سـورة مكية، وهذا يتفق مع طبيعة القرآن المكي، الذي يوظف "القصـص" لإثبات نبوة محمد ﷺ، وبيان أن القرآن الكريم كلام الله، وتقديم الدروس والعظات للمؤمنين المستضعفين في مكة[2].

إنّ قصـــة كفاح نوح الرســـول مع قومه قصّـــها الله في مكة على نبيه، لكي يثبت فؤاده ويوضـــح أن ما يلقاه من عناد وتكذيب، وإعراض وتعذيب، قد تعرض له من كانوا قبله من الرســل، كما كان ذكر القصــة مهماً بالنســبة للمؤمنين حتى يزدادوا إيماناً مع إيمانهم، وكذا – وهو مهم- أيضــاً للكافرين حتى يعتبروا ويرجعوا عن ضــلالهم إذا عرفوا عاقبة من قبلهم من المكذبين الضالين[3].

ونظراً لأن معظم عناصـر سـيرة نوح قد وردت بالتفصـيل في سـورة "العهد المكي" في أثناء وجود الرســـول ﷺ في مكـة المكرمـة قبـل الهجرة إلى المـدينـة المنورة، فلم يكن ثمـة داعٍ للحديث عنها مرة أخرى في السور المدنية التي أنزلت على الرسول في أثناء إقامته بالمدينة، وما ورد من ذكر نوح كان مجرد إشــارة عابرة، لذلك نجد ذكره في كل ســورة من الســور المدنية لا يزيد عن "آية" واحدة، وعلى هذا فقد تحولت القصــة المفصــلة في ســور العهد المكي إلى مجرد "مثل عابر" في آيات العهد المدني.

1 صلاح الخالدي، القصص القرآني، المرجع السابق، 1/ 152.

2 صلاح الخالدي، المرجع نفسه، 152/1.

3 طه وادي، أولوا العزم من الرسل، دار النشر للجامعات، القاهرة، 1998م، ص 22.

ومن هنا وجدنا أن ذكر نوح عليه السلام، قد ورد في العهد المدني في سبعة مواضع، وكل موضع يتكون من آية واحدة في الغالب[1].

وقد بين الدكتور طه وادي في كتابه (أولو العزم من الرسل) أن:

- 94،54 % من الآيات في قصة نوح عليه السلام في العهد المكي.
- 5،46 % من الآيات في قصة نوح عليه السلام في العهد المدني[2].

إن عناية الذكر الحكيم بقصة نوح عليه السلام بهذا الشكل المفصل في مواضع عدة، يوضح مدى الجهد والجهاد اللذين بذلهما هذا الرسول الكريم على المستويين: النفسي والمادي، من أجل إعلاء كلمة الله ونشر عبادته بين قوم مشركين خاصة أنه أول رسول من ذرية آدم عليه السلام[3].

أولاً: مواقف قوم نوح من دعوته في سورة هود:

وردت قصة نوح في خمس وعشرين آية من الآية (25) إلى الآية (49) في سورة هود، والمشاهد واللقطات المعروضة من القصة في هذه من أطول المشاهد، وتكاد تكون أطول من المشاهد المعروضة في سورة نوح نفسها، التي تخصصت بالحديث عن قصته.

وتحدثت آيات سورة هود عن إرسال نوح إلى قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، ورد الملأ الكفار من قومه عليه، وإثارة شبهات لهم حوله وحول دعوته، وحول أتباعه، ونقض

1 طه وادي، أولوا العزم من الرسل، المرجع السابق، ص 22.

2 وادي، المرجع السابق، ص 22.

3 المرجع نفسه، ص 23.

نوح عليه السلام لتلك الشبهات، ورفض العرض الذي قدمه له كفار قومه بطرد أتباعه المؤمنين، وطلب قومه إيقاع العذاب بهم، وردّه على طلبهم.

كما تحدثت الآيات عن أخبار الله له بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، أمره له بصنع السفينة، وتعرض الآيات بعض ما جرى بينه وبين قومه الكفار أثناء صنعه للسفينة، وتعرض مشهد بدء الطوفان، وفوران التنور بالماء، وتحميل نوح في سفينته زوجين من كل حيّ، والمؤمنين معه، وجريان السفينة في أمواج الطوفان باسم الله، وتصور الآيات ما جرى بين نوح وبين ابنه الكافر، وهلاك ذلك الكافر غرقاً، كما تصور انتهاء الطوفان وزوال الماء، واستقرار السفينة بركابها على جبل "الجودي".

وتسجل الآيات سؤال نوح لربه عن غرق ابنه، وعتاب الله وبيانه أنه ليس من أهله، لأنه عمل غير صالح، وتأدُّب نوح مع ربه وطلبه منه العفو والرحمة، وتختم الآيات القصة بمنظر نزول نوح وأتباعه المؤمنين من السفينة إلى الأرض، واستئناف الحياة من جديد على وجه الأرض، وتوظف قصة نوح الآياتُ قصةَ نوح في القرآن دليلاً على نبوة محمد ﷺ[1] .

وفي هذه الفقرة سنهتم بإذن الله بالحوار والجدال الذي حدث بين نوح عليه السلام والملأ من قومه حتى صناعة السفينة.

وأما ما يتعلق بركوب السفينة وما بعدها سيأتي الحديث عنه بإذن الله في المبحث الرابع المتعلق بالطوفان العظيم:

1. شبهات الملأ من قوم نوح على ردهم لدعوته:

1الخالدي، القصص القرآني، المرجع السابق، 1/ 154.

قال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ **[هود: 27]**. وهذا جواب قادة قوم نوح على دعوته لقومه بعبادة الله، وشرح الآية:

- ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾:

جاء الفاء حرف عطف يفيد التعقيب والمسارعة في الجواب، أي أنهم لم ينظروا فيما قال ولم يتدبروا ولم يتعقّلوا ولم يتمعّنوا ولم يتفكروا، بل أجابوا على الفور حتى يقطعوا الطريق على باقي القوم.

والملأ هم أصحاب المراكز والقيادات، والممتلئون بالثروة والمالئون المقاعد القيادية والمهمة في البلد، وهي كلمة تلفت النظر بقوة، فإن تظهر هذه الفئة منذ فجر التاريخ، هذا أمر ينبغي أن يلفت أصحاب الدراسات الاجتماعية والنفسية والسيكولوجية والانثرويولوجية والسياسية فهو أمر ملفت، فهذه الكلمة في هذا المشهد في هذه القصة في هذا الوقت المبكر من تاريخ البشرية وفجر تاريخها تلفتنا بقوة، فأخطر الظواهر اليوم نشأت منذ أول يوم كأنه لا جديد على البشرية إلا مقدار الهيمنة وأدواتها وصورها، والملأ واحد، والهيمنة واحدة، لكن صور النفوذ والسيطرة والأدوات قد تختلف، والمبدأ واحد[1].

ولتسميتهم باسم "الملأ" ملحظ ذو دلالة: قال الإمام الراغب في معنى "الملأ": الملأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيملئون العيون رواء ومنظراً، والنفوس بهاء وجلالاً، يقال: فلان ملء العيون، أي: معظم عند من رآه، كأنه ملأ عينه من رؤيته[2].

1أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 114.

2 صلاح الخالدي، القصص القرآني، المرجع السابق، 170/1. وانظر: الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 776.

وكان لقوم نوح الكفار ملأ، وكل كفار لهم ملأ، يقودونهم في مواجهة الحق، وهؤلاء "الملأ" كانوا يجتمعون على كفرهم ويلتقون في جلساتهم على التآمر والمكر ضد نوح عليه السلام ورسالته، ويتفقون على أساليب حربه ومواجهته، ويضعون خطة إعلامية، ينفذونها في أتباعهم وجنودهم وأعوانهم.

وسمي هؤلاء "الملأ"؛ لأنهم كانوا يملؤون عيون جماهيرهم وأتباعهم مهابة وخوفاً، ويملؤون نفوس جنودهم رهبة وإجلالاً، أي: كانوا ملء عيون ونفوس وقلوب وعقول أتباعهم وجنودهم، ولهذا كانوا يخافون منهم، ويرهبونهم، ومن ثم كانوا يتبعونهم وينفذون ما يطلبونه منهم، ويجندون لهم أعواناً في رفض الحق ومواجهة نوح عليه السلام.

هذه هي الآثار الخطيرة لظاهرة الملأ التي نلحظها في قصص الأنبياء في القرآن، والتي كانت تمثل القيادة الشيطانية الجاهلية لحزب الشيطان في مواجهة الحق وجنوده، وتخبرنا آيات القرآن في قصة نوح عليه السلام، أن هؤلاء "الملأ" هم الذين قادوا قومهم في مواجهته، وهم الذين أثاروا الشبهات ضدّه، وضد أتباعه، وقدموا طلباتهم له، ووجهوا تهديداتهم إليه، وقد واجه نوح عليه السلام هؤلاء الملأ وفند شبهاتهم ولم يستجب لطلباتهم، ولم يرضخ لتهديداتهم، وإنما تحدّاهم، وحاربهم، واستعلى عليهم بإيمانه، متوكلاً على الله ربه[1].

- ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾:

يؤتى بالاسم الموصول دائماً لاستحضار ما في حيّزه من الصلة، إذ لا يتم تشخيصه، أي الموصول إلا بصلته، والصلة هنا "كفروا"، ويبدو أن القوم كلهم على هذه الصفة، لكن

1الخالدي، القصص القرآني، المرجع السابق، 1/ 171.

يبدو أن هؤلاء هم منظّروا الكفر ميزيّنوه ومروّجوه، والمستفيدون منه، وهم مستثمروه وقادته وطليعته وحراسه[1]،و"من قومه"؛ أيّ من قوم نوح.

- ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾:

جاءت بصيغة الحصر والقصر أجابوا نوحاً بأنا لا نراك إلا بشراً تام البشرية مثلنا، فكيف نتبعك وكيف تقودنا؟ ونسوا هم أنهم يقودون المجتمع وهم بشر، بل من أرذل البشر[2].

إنها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر: أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله، فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر، وهي شبهة جاهلية مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة ضخمة، لا بد أن يكون الخالق قد أودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بنبيه أفراد مهيؤون لحمل الرسالة، باختيار الله لهم، وهو أعلم بما أودع في كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومه.

وشبهة أخرى جاهلية كذلك، هي: أنه إذا كان الله يختار رسولاً، فلم لا يكون من بين هؤلاء، الملأ الكبراء في قومهم، المتسلطين العالين.

وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا الخلوق الإنساني، والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته في المختارين من صفوفه، وهذه القيم لا علاقة لها بمال أو جاه أو استطالة في الأرض، إنما هي في صميم النفس، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى، بما فيها من صفاء وتفتح، وقدرة على التلقي، واحتمال للأمانة،

1أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 114.

2 المرجع نفسه، ص 114.

وصبر على أدائها، ومقدرة على إبلاغها ... إلى آخر صفات النبوة الكريمة، وهي صفات لا علاقة لها بمال أو جاه أو اســـتعلاء، ولكن الملأ من قوم نوح، كالملأ من قوم كل نبي تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصـائص العلوية، فلا يدركون مبرراً لاختصـاص الرســل بالرســالة، وهي في زعمهم لا تكون لبشــر، فإن كانت فهي لأمثالهم من الوجهاء العالين في الأرض "وما نراك إلا بشراً مثلنا"، هذه واحدة، وأما الأخرى فأدهى[1].

- ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾:

جاءت صـيغة الحصـر والقصـر للمرة الثانية في هذه الآية، هي صـيغة، مقصـودهم منها: الاعتراض والرفض والاسـتخفاف والرؤية بصـيرية وبصـرية معاً، بمعنى أننا نتفكر في أمركم فنجدكم الأفقر، أو نراكم بعيوننا أنكم فقراء المجتمع، فكيف ندخل في دينٍ، هؤلاء هم مادته، وهؤلاء هم رجاله وأتباعه.

ويبدو أن التفكير الطبقي مبكر في المجتمعات، وأن هذه النظرة العنصـــرية عميقة عتيقة قديمة، والنظر إلى الناس بفوقية الذات ودونية الآخر قد نحتت في صخر الواقع الاجتماعي منذ عصور سحيقة، فنحن الآن في تفسير هذه الآية نتحدث عن فجر البشرية وبواكرها، والأراذل في نظرهم طبقياً لا أخلاقياً، فحتى وإن كان ابن الطبقة الثرية منحطاً في النظرة الأخلاقية فهو من العرق المقدس أو المنزّه أو الأعلى في النظرة الطبقية، والمهم في نظرهم مقياسهم لا مقياس الحق والواقع، والدين والرسالات[2].

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 4/ 1872.

2أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 115.

إن نسبة كلمة "أرذلنا" لأتباع نوح عليه السلام تظهر مدى الحقد والاحتقار الذي حمله الملأ أو الأشراف من القوم للضعفاء منهم، فهؤلاء الضعفاء لا مكانة لهم ولا قيمة لتحركاتهم أو لتوجهاتهم الروحية، فتوجهاتهم تلك نابعة من رأي الملأ عن عدم تثبُّت أو تفكُّر في رسالة نوح[1].

ومعنى "بادئ الرأي": يعيبون عليهم، أي: على المؤمنين سرعة استجابتهم لدعوة نوح، واعتبروها سذاجة، وفجاجة وتسرّعاً وسطحية، وقلة تعمّق في المسألة، وهذا رأي خطير، غير نضيج ولا خمير،لم تنضجه تقليبات الأنظار فيه ولا الأفكار، وكأنهم هم عقلاء ذلك الزمان، وراشدوه، وما هم إلا حمقى فارغة عقولهم وقلوبهم، ملأى كروشهم وجيوبهم، وهم قد مارسوا ما عابوه بأن ردوا الدعوة بادئ الرأي فتأمل [2].

- ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾:

هذه هي المرة الثالثة التي يستخدم فيها الملأ فعل الرؤية فقالوا أولاً: "وما نراك إلا بشراً" ، ثم قالوا: "وما نراك اتبعك إلا"، والآن: "وما نرى لكم علينا من فضل"، فالمهم هو ذواتهم ونظرتهم ورؤاهم وعبقريتهم الفائقة، وموازينهم الدقيقة .. لا يهم الحقيقة ما تكون، المهم أننا بموازيننا نرى أن لا فضل لكم، ولا ميّزة ولا شرفاً ولا تقدّماً علينا في شأن، طبعاً هم قد أسقطوا سلفاً القيمة الدينية والاعتبارات الأخلاقية.. فما بقي إلا القيمة المادية، والنظرة الاجتماعية، والمقاييس الطبقية.

1زاهية الدجاني، أحسن القصص بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، الطبعة الثالثة، 2001م، ص 31.

2 أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 115.

وقدموا "لكم" على "علينا" لتأكيد تجرد المؤمنين – بزعمهم – من الامتيازات عليهم، وكل كلمة تعبر عن مكنون نفسـي، ومخزون فكري وثقافي، والقرآن بكلماته التي تنقل كلماتهم ينقل لنا الشحنة الشعورية والعاطفية والفكرية التي ترافقت مع الكلمات، وما عليك إلا التدقيق والنظر التحديق والتحقيق، وتتجلّ تلك السطوح والأعماق في نفوس هؤلاء ويا عجباً لا ينتهي ممن لا ينهل كل المعاني من كلمات القرآن والسبع المثاني[1].

- ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾:

جاء حرف بل: للاضطراب الانتقالي، كأنهم يقولون: لم تسترسل في الكلام، فلنختصره ولندلف إلى النتيجة في التوّ والحال، فتقول ما يحسم المسألة من أصلها، أنتم في نظرنا وظننا من الكاذبين، فلم إطالة الرد والسؤال والكلام.

ومن منهجية القرآن العجيبة أن الملأ في كل قصص القرآن لم يجزموا بكذب المؤمنين، وحاشا بطبيعة الحال، فالأنبياء أول مزاياهم الصدق البشري المطلق، أعني: ضمن طاقة البشر، فكانوا يعبرون دواماً بالظن، وهنا مؤشر على شيء من فطنة، فحتى لا ترد دعواهم فوراً عبروا بالظن، لكن هذه التهمة وجهت منذ وقت مبكر للأنبياء، وحاشاهم، لكن بصيغة الظن لا اليقين[2].

ومن اللوازم الفكرية لهذا الاتهام الإشعار بأنهم سيكونون سفهاء محرومين من العقل والبصيرة لو آمنوا بنوح وأسلموا له واتبعوه، ومن لوازمه الفكرية أيضاً الاتهام بالمصلحة الشخصية[3].

1نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 116.

2 المرجع نفسه، ص 116.

3 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 91.

وهذه التهمة الأخيرة التي جاءت في سياق سورة هود يقذفون بها في وجه الرسول وأتباعه، ولكنهم على طريقة طبقتهم "الأرستقراطية" يلقونها في أسلوب التحفظ اللائق "بالأرستقراط" "بل نظنكم"؛ لأن اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة- بادي الرأي- التي يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون، إنه النموذج المتكرر من عهد نوح، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب، المتعاظمة المدعية المنتفخة الأوداج والأمخاخ[1]. ونلاحظ في الحديث القرآني أن:

- في القصص القرآني من الدلالات النفسية والاجتماعية ما لا يحصى.
- ليت من شغلوا بنقل تفاهات الإسرائيليات اشتغلوا باستخراج الدلالات المستفادة من القصص، إذن لأتوا بشيء ذي قيمة.
- التفكير الطبقي والتمييز على أساسه قديم في البشرية، ومتجدد.
- هذا التفكير يخدم نظرية التسلط.
- الدين ثورة على القيم الفاسدة بالإضافة –بالطبع- إلى نسفه للشرك.
- لم يُكذَّب الرسل ومن آمن معهم بصيغة القطع، وإنما دائماً وبمنهجية قرآنية عجيبة كان الملأ يواجهون الرسل بتهمة الكذب بصيغة الظن لاشتهارهم المطلق بالصدق المعلق.
- يزعم الفاسدون والذين يقاومون دعوات الإصلاح والتغيير الذي هو سنة الكون أنهم ينطلقون من فكر نضيج، ولا يتعسفون الآراء، ويعتنقونها فجة.
- رسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر، في كل طور وفي كل مكان[2].

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1873/4.

2أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 118.

2. جواب نوح عليه السلام على اعتراضات الملأ من قومه:

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ* وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ* وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود: 28: 31]**.

تضمنت الآيات السابقة ردُّ قوم نوح أو الملأ منهم على دعوة نوح لهم بعبادة الله وحده، وفي هذه الآيات رد نوح – عليه السلام – عليهم، وعلى اعراضهم واستكبارهم في سماحة النبي وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله، وفي وضوح طريقه واستقامة منهاجه في شعوره، فلا يشتم كما شتمو، ولا يتهم كما اتهمو، ولا يدّع كما ادّعو، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهراً غير حقيقة، ولا على رسالته شيئاً غير طبيعتها.

- ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾:

"قال يا قوم": في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه ونسبة نفسه إليهم[1]، "أرأيتم": أي: أفكرتم في احتمال أن أكون على بينة من ربي تشهد لي بأني صادق فيما أبلغ عنه،

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1873/4.

أفتصدقوني؟ فكّروا وأخبروني [1]. والهمزة للاستفهام، ومعناها: التعجب، والرؤية بصرية، أو بصيرية، والثانية أرجح [2].

"إن كنت على بينة من ربي": أي: كنت متمكناً من بينة تدل على أنني على الحق والوضوح والحجة القاطعة، وهذه الحجة مقطوع أنها من الله بدلالتها الناصعة القاطعة، وعجز البشر عن مثلها [3]، فنوح عليه السلام يقدّم في هذا استعداده لتقديم بينة خارقة يشهد الله له من خلالها بأنه رسول صادق حقاً، يبلغ عن ربه، وفي هذا دفع اتهامه بالتوهم أو الكذب، فالمعجزة حجة قاطعة وآية دامغة [4].

- ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾:

"وآتاني رحمة من عنده"؛ وأعطاني ووهبني رحمة واسعة كائنة من عنده، ولعل الرحمة هنا هي النبوة أو النبوة وسائر عطاء الله له، فقد جاءت "رحمة" نكرة للتكثير والتعظيم[5].

وقال الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني: وآتاني رحمة لكم من عنده: هي الدين وما فيه من تعاليم ووصايا، تتضمن سعادتكم ونجاتكم، وفي ذلك رحمة عظمى لكم، أي: أفكرتم في مضمون هذه الرسالة التي جئتكم بها والتي هي رحمة عظيمة لكم، فكّروا وأخبروني[6].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 91.

2نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 119.

3 المرجع نفسه، ص 119.

4 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 91.

5نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 119.

6الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع نفسه، ص 90.

﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ فأخفيت عليكم ولبُست عليكم، ويحصل هذا بالنسبة إلى الأتباع لتأثير قادتهم المضلين لهم[1].

وبالنسبة للقادة المضلين وغيرهم بسبب صوارف نفسية، كالكبر ورغبات الفجور، واتباع الأهواء، وحب العجلة، مع وساوس شياطين الإنس والجن، وتسويلاتهم، وفي هذا ردّ نوح عليه السلام على اتهامهم المؤمنين، بأنهم اتبعوه وأسلموا عند بادئ الرأي، إذ دعاهم إلى التفكير ووصفهم بعد التبصر في رسالته[2]. أي: خفيت عليكم البينة والرحمة، فلم تروا أنها من عند الله.

وفي هذه الصيغة "وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم"؛ ما يشير إلى وضوح الرسالة التي جاء بها نوح، ومن شأن كل العقول أن تدركها، ولولا أن هناك حائلاً حال دون عقولهم لأدركوها، وهذا يمثل غاية الرفق بمشاعرهم، والحرص على ألفتهم، فكأنه يقول لهم: أنا لا أتهمكم بعدم إدراك نبوتي، وإنما أتهم الذي حال بينكم وبينها، فلم تدركوها، وهذا يدفعهم تلقائيا إلى التفكير والبحث عن هذا الحائل[3].

وفي قوله: ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾؛ من بديع هذه الاستعارة – هنا– أن فيها تطابقاً لمقابلة قولهم في مجادلتهم "ما نراك إلا بشراً"، "وما نراك اتبعك"، "وما نرى لكم علينا من فضل"، فقابل نوح عليه السلام كلامهم مقابلة بالمعنى واللفظ، إذ جعل عدم رؤيتهم من قبيل العمى[4].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ، ص 92.

2 الميداني، المرجع نفسه، ص 92.

3 عودة عبد عودة عبد الله، أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم ، ص 311.

4 نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 120.

- ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾:

تعـد كلمـة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَـا﴾ من أطول الكلمـات في القرآن الكريم، وهي تتكون من اســتفهام وفعل وفاعل ومفعول به، بل مفعولين، فكأنه خمس في واحد فتأمل هذه اللغة، وتأمل تاج اللغة القرآن الذي جاء شمس البلاغة فيه، وفي "وأنتم لها كارهون": الواو حالية على الأرجح، والجملـة تتكون من مبتـدأ وخبر، أي وأنتم لهـذه الحجـة والبينـة كـارهون مفارقون، فكيف يكون هذا والذين اختيار وليس إجبار [1].

فدلَّ هذا البيان على أن قاعدة (لا إكراه في الدين)، قاعدة ثابتة في الرســـالات الربانية كلها[2].

إنّ لفظ ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَـا﴾: مكونـة من الهمزة، ونلزم هي الفعـل، ومن الـذي نلزمـه؟ هو المخاطب، ونلزمه بماذا؟ بالإيمان بمنهج الله تعالى. إذن، فهناك اســـتفهام وفعل وفاعل مطمور في الفعل، ومفعول أول ومفعول ثان، المفعول الأول هو كاف المخاطبة في قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أي أنفرضـــها عليكم بالقهر وأنتم لا تريدونها وتكرهونها؟ طبعاً لا؛ لأن الإيمان بالنسبة للإنسان لا بد أن يكون طواعية وعن اختيار، ولو أن الله سبحانه أراد كل خلقه مكرهين لكانوا كذلك، ولكن الله تعالى يريد أن يأتيه الإنســـان عن حب واختيار وليس عن قهر، لأن الإكراه هو إخضـــاع القوالب، والله يريد قلوباً تخشـــع وليس قلوبا تخضـع، ولو أن الحق يريد الإخضـاع بالإكراه لأخضـعنا كما أخضـع كل الكون وجعلهم مقهورين لأمره[3].

1نوفل، تفسير سورة هود، ص 119.

2الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 92.

3 الميداني، المرجع نفسه، ص 92.

إذن: فالدين لم يأت للإكراه ولكنه جاء لنؤمن به طواعية واختياراً[1]. والله يقول: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـــدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ **[البقرة: 256]**، وهذا مبدأ عظيم وقويم، مبدأ الاختيار في العقيدة والاقتناع بالنظر والتدبر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء[2].

ومن هذا يتبين أن:

- الدين إقناع وليس بالإخضاع.
- الأنبياء يستخدمون الحجة لإلزام الناس المحجة وليس الإكراه.
- الحجاج فن يحتاج إلى ملكة وتدريب، والأنبياء هم أساتذة هذا الفن.
- البينة حجة عقلية وبرهان قد تخفى على المادي في تفكيره، والمحبوس في قوقعة مألوفاته.
- ﴿وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾:

"ويا قوم": تلطف نوح إلى قومه في توجيه أنظارهم لمس وجدانهم، وهذا يرشدنا إلى ضرورة التلطف[3].

وتواصل الآية مرافعة النبي الكريم نوح عليه السلام في تفنيد موقف قومه، ففي السابقة بين ما آتاه الله من بينة ورحمة، وفي هذه يبين أنه لا يسـأل على دعوته شـيئاً فهما متكاملتان متدرجتان، وهناك افتتحت الآية بـ "يَاقَوْمِ"، وهنا كذلك "يَاقَوْمِ" ويا قوم: الواو: عاطفة،

1محمد متولي الشعراوي، قصص الأنبياء، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2011م ، 45/1.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1874/4.

3 نوفل، تفسير سورة هود، ص 121.

ويا: للنداء، وقوم: منادى. وفي قوله: "لا أسألكم عليه مالاً": لا أطلب منكم على دعوتي لكم وإرشادي مالاً ولا أجراً تدفعونه لي، ونكّر ليفيد العموم، أي: مالاً، أي مال.

"إن أجري إلا على الله": أنه لما نفى سؤالهم استخدم في النفي "مالا" ،"لا أسألكم عليه مالاً"،لاولما أثبت استخدام كلمة "الأجر"، فقال: "إن أجري إلا على الله"؛ لأن أجر الله عز وجل أعم وأعظم، وأهم من المال، فما المال الذي يعظمه الناس إلا باب واحد من أبواب العطاء الإلهي، ولعله آخر ما يشغل بال المؤمن. وقد استخدام النص الكريم حرف الجر "على" ولم يقل "من الله"؛ ليفيد أن الله كتب على نفسه وما يلزمه أحد أنه يأجر من عمل له ولدينه[1].

وهذا رد من نوح عليه السلام ما يشعر به قولهم "بل نظنكم كاذبين" من اتهامه بالمصلحة الشخصية لديهم، فيبين لهم أنه لا يسألهم على ما يجاهدهم به، أي أجر مالي، حتى يظنوا به الكذب، ويصدّهم ذلك عن الإيمان بما جاءهم به من عند الله، ولكن ليس معنى ذلك أنه لا يطلب أي أجر من أحد، ولا يحصل على أي أجر من أحد، بل أجره على الله الذي أرسله، إن عدم طلب الأجر مطلقاً مثالية خيالية، لا تتناسب مع طبيعة الإنسان وحاجاته.

- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾:

دلَّ هذا القول على أن قوم نوح عليه السلام طلبوا منه أن يطرد عن مجالسه أو عن جماعته من سموهم أراذلهم حتى يستجيبوا له، أو تكون هذه الاستجابة مرجوة، ليس أمامها عقبة وجود طبقة من الناس هم أراذل قومهم، فرد على طلبهم هذا بهذا القول: فرفض أن

1نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 122.

يطردهم وذكرهم بوصف الذين آمنوا، لا بالوصف الذي وصفهم به قومهم لإرادة التعميم ولبيان الداعي الذي يوجب عليه ألا يطردهم، وهو وصف الإيمان.

ويظهر أن الداعي إلى إعادة قوله لقومه في هذا النص "وما أنا بطارد الذين آمنوا" أمران:

- الأول: أنهم كرروا مطالبته بطرد من سموهم أراذلهم.
- الثاني: اقناعهم بأن هؤلاء بشر مثلهم، وأنهم في الحياة الدنيا ممتحنون مثلهم، ومسؤولون عن الإيمان والطاعة والإسلام والعمل الصالح مثلهم، وأنهم مبعوثون للحساب والجزاء، وأنهم ملاقو ربهم يوم الدين مثلهم، فيحاسبهم ويجازيهم، وهذا الاقناع لم يأت بالنص السابق.

أيّ: فكيف أطردهم وأنا مسؤولي عن دعوتهم إلى دين الله، وعن تبليغهم شريعته، وتكليفهم اتّباعي، كل هذه المعاني دلت عليها جملة: "إنهم ملاقو ربهم"، وذلك عن طريق اللوازم الفكرية، وهي كما يلي:

- لماذا يلاقون ربهم؟
- ليحاسبهم ويجازيهم.
- عماذا يحاسبهم؟
- عمّا كلفوا أن يؤمنوا به، ويعملوه في الحياة الدنيا.
- وهكذا تتسلسل اللوازم حتى سائر عناصر موضوع امتحان الناس في الدنيا[1].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 94.

- ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾:

هو استدراك على ما تضمّنته أقوال قومه له، من أنهم أهل رأي وفكر وعقل وتبصّر ببواطن الأمور وحقائقها. أيّ: أنتم تزعمون أنكم كذلك، وتتّهمون من اتّبعني بأنهم اتّبعوني عند بادي الرأي، دون تعمق في التفكير ولا تبصّر "ولكني أراكم قوماً تجهلون"، أي تتابعون خطوات تفكيركم إلى مواطن الجهل، لا إلى مواطن المعرفة والعلم، فكلّما وصلوا إلى رأي جديد طرحوه، كان ذلك بادي الرأي الجديد، والقول المعبر عنه جهلاً جديداً.

لقد دلّ على هذا التفسير قوله لهم: "تجهلون" بصيغة الفعل المضارع التي تدل على التكرار والتجدّد، ولو كان المراد مجرّد وصفهم بالجهل لكان المناسب أن يكون التعبير: ولكني أراكم قوماً جاهلين، فاسم الفاعل يدل بصيغته على الوصف الموجود دون ملاحظة ماضٍ أو مستقبل أو تجدّد، والأصل فيه الحال.

- يجهلون في ماذا؟
- إنهم يجهلون في أمور كثيرة طرحوها رفض الاستجابة لدعوة نوح:
- يجهلون خصائص الربوبية والإلهية.
- ويجهلون قدرة الله على الوحي لبشر مثلهم، وبعثه رسولاً للناس.
- ويجهلون وظيفتهم في الحياة، وأنهم ممتحنون فيها.
- ويجهلون مسؤوليتهم أمام الله خالقهم وبارئهم.
- ويجهلون أن الرسول مكلّف مثلهم، فهو يبلغ عن ربه ما يأمره بتبليغه ومطالب بالإيمان والعمل الصالح كما هم مطالبون.
- ويجهلون أن هؤلاء الذين يرونهم سفهاء هم مثلهم في الإنسانية.

- ويجهلون أن كل ذي إرادة وفكر ممتحن في الحياة الدنيا ومسؤول أمام ربه.
- ويجهلون أن الرســـول لا يملك أن ينتقي أتباعه انتقاء إلى غير ذلك من عناصـــر جاهليتهم وجهالاتهم[1]. ومن خلال الآية السابقة تتضح الأمور التالية:
- أساس الدين تسوية بين العباد، فلا يتفاوتون إلا بمقدار تقواهم وتقربهم إلى الله.
- لا يقاس الناس بدخولهم واستهلاكهم ونمط معيشتهم، وإنما بقيمهم وأخلاقهم.
- طلب طرد المؤمنين تكرر مع الأنبياء منذ نوح إلى خاتم الأنبياء عليهم الســـلام، ومن هنا قال الله لخاتم المرسلين:
- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ **[الكهف: 28].**
- جميع الخلق حسابهم على الله وليس حساب أحد على أحد.
- الجهل أخطر أعداء الإنسان[2].
- ﴿وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾:

هذه الآية مواصـــلة لمرافعة نوح، وهنا يرتب الكلام على طلبهم بطرد المؤمنين بقوله: "من يرحمني من الله إن طردتهم"، والمعنى: "ويا قوم": الواو عاطفة، ويا للنداء، وقوم منادى. وفي قوله"من ينصرني من الله": من يدفع عني غضب الله إن طردت عباده، والنصر هنا بمعنى الحماية ورفع العذاب، إشارة إلى أن طرد المؤمنين يستحق تعذيب فاعله، ولست مستعداً لذلك ولا أحد يمنعني من وقوع العذاب عليّ إن فعلته.

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 95.

2نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 124.

"إن طردتهم": من يحميني إن طردت المؤمنين، أي: ويا قوم من ينصـــرني فيحميني وينجيني من عقاب الله إن طردت هؤلاء الذين تروهم أراذل، وأنا مسـؤول عند الله عن دعوتهم إلى دينهم، وعن تبليغهم مطالب هذا الدين، وعن ضـــمهم ضـــمن أتباعه في الدين، وهم مسـؤولين عن الإيمان والطاعة والإسـلام والعمل الصـالح؟ وجواب هذا السـؤال: لا أحد ينصر فيحمي ويقي من عذاب الله إذا شاء الله أن يعذب أحداً [1].

وخُتمت الآية بالاســـتفهام "أفلا تذكرون"، وتقال هذه الكلمة "تذكرون" للبديهيات العقلية، التي لا تحتاج إلى إعمال عقل كثير، فنوح عليه الســـلام ينكر على قومه عدم تذكرهم الحقائق التي ســـبق أن بينها لهم في مناظراته الســـابقة لهم، مع أنه كان عليهم أن يضعوها في ذاكرتهم دوماً، ولا ينسوها حتى تكون مانعة لهم من اجترار الأفكار التي سبق دفعها بالحجج الســـاطعة والبراهين القاطعة، وحتى تكون مانعة لهم من رفض اتباع الحق بدافع الكبر الطبقي، أو بأي دافع آخر، وحتى تكون دافعة لهم إلى حماية أنفســـهم من عذاب الله[2].

وفي استنكاره عدم تذكُّرهم ما سبق بيانه لهم، مع إلزامهم أو إفحامهم بانقطاع حججهم وتَعِلاتهم، معنى الحضّ والحثّ لهم أن يتذكروا دوماً، فالتذكر دافع للتبصـــر بالأمور، ثم للاتعاظ بالنصائح والوصايا، والأحداث الواعظات، لذلك يغلب في أقوال المفسرين مثل: "أفلا تتذكرون" بنحو "أفلا تعقلون"، نظراً إلى الهدف من الدعوة إلى التذكر وهو الاتعاظ، والاتعاظ هو التأثر بالنُّصح والأمر النهي والعمل بمقتضاه [3].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 96.

2 الميداني، المرجع نفسه، ص 96.

3 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع نفسه، ص 97.

ويتضح من الآية الكريمة:

- أن العقل والشرع تطابقا على تعظيم المؤمن التقي وإهانة الفاجر.
- أن تعظيم الكافر وطرد المؤمن وإهانته ضد دين الله. ويستوجب ذلك غضب الله وعقابه وعذابه.
- أن الأنبياء حريصون على هداية كل البشر الفقير والغني، الشريف والوضيع، وأن المقاييس عند الله بالتقوى[1].

قال تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود: 31]**، مواصلة لكلام نوح عليه السلام في الرد على قومه، وقد بين هنا أنه لا يدعي ملك خزائن الله، وأنه لا يعلم الغيب، أي أنه يؤكد بشريته ويواصل رده على ازدراء المؤمنين البسطاء [2].

- ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾:

لم أزعم يوماً ولم أقل لكم أني أملك خزائن الله، أو أنها عندي في متناولي، هذا لم أدعه يوماً، وخزائن الله: إما خزائن رزقه أو خزائن غيبه[3].

1نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 126.

2 المرجع نفسه، ص 126.

3 المرجع نفسه، ص 127.

ويفهم من قوله هذا أنه لا يملك خزائن الله حتى يتصـــرف بها على ما يشـــتهي هو، أو يشتهي قومه، ويظهر أن قومه حاولوا استدراجه بالأسئلة ليقول لهم: عندي خزائن الله فأنا أجري الخوارق والآيات بالتصرف الذاتي.

فردّ عليهم بصدق النبوة وحدود صلاحياتها فقال لهم: ولا أقول لكم عندي خزائن الله.

وهذه الجملة معطوفة على الجمل السابقة التي لخصت ردوده على قومه المبدوءة بقوله: يا قوم. وكذلك حاولوا استدراجه لأن يدّعي لهم أنه يعلم الغيب كله، ليستغلوا ذلك في أمور تجاراتهم أو زراعاتهم أو غير ذلك من أمور دنياهم، فردّ عليهم بقوله:

- ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾:

ولا أعلم كل الغيب، إنما أعلم منه ما يعلمني الله عز وجل، فهو في هذا يقطع تشـــهياتهم حتى لا يسألوه عن مسائل الغيب، لا يعلمها، مثل: متى تقوم الساعة؟

أو عن مســـائل من أمور دنياهم المتعلقة في بالأرزاق أو الأولاد أو غير ذلك، رغبة في أن يستكثروا من الخير ولا يمسهم السوء مما يكرهون من أمور الدنيا، وإذا كان من اعتراضاتهم عليه اعتراضهم على بشريته أبان أنه كان بإمكانه أن يقول لهم: إنه ملك على صورة بشر، ويلبس الأمر عليهم، لكن صدق النبوة والرسالة يمنعه من ذلك، لأنه ليس من شأن النبي أن يكذب في صغيرة أو كبيرة.

- ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾:

أيّ: ولو قلت لكم إنني ملك، لأمكنني أن ألبس عليكم الأمر، وأخادعكم بذلك، لكني رسول من عند الله، وليس من شأن الرسول أن يستخدم الكذب ولو لتأييد دين الله، فأنا لا أقول لكم: إني ملك، بل بشـــر مثلكم ولكن يوحى إلي، وعرفنا أنهم طالبوه بأن يطرد

عن متابعته من سموهم أراذلهم، ويظهر أنهم حاولوا استدراجه لأن يقول عنهم: هؤلاء طبقة منبوذة خارجة عن دائرة البشرية الراقية المكلّفة، وإنما خلقوا ليكونوا خداماً وعبيداً للبشر، وهم على صورة البشر، وأنهم لا يستطيعون أن يكونوا أفضل من ذلك عند الله[1].

هذه النظرة الطبقية المقيتة قد تكررت في المجتمعات البشرية وتظهر بين كل حين وآخر في كل الناس لذلك رد نوح عليه السلام على قومه بقوله:

- ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾:

أي: لا أقول للذين تحتقرونهم وتعيبونهم وتنتقصهم أعينكم ومقاييسكم، وتستخف بها موازينكم الفاسدة لن أقول إن الله لن يعطيهم خيراً كما تزعمون.

- ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾:

أيّ: كيف أقول لهم ذلك القول، وأتجنّى عليهم، والصدق في الإيمان والطاعة والعمل هو من أعمال القلوب والنفوس، وما في القلوب والنفوس موكولُ علمه إلى الله "الله أعلم بما في أنفسهم": وهو الذي يحاسبهم ويجازيهم على ما في أنفسهم من خير أو غير ذلك.

كيف أحكم بأن الله لن يؤتيهم خيراً، وهذا أمر من خصائص الله عز وجل، الذي يعلم ما في النفوس من خير أو شر، ويجازي على مقادير ما فيها من ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر[2]. وليس لي أن ظاهرهم وظاهرهم يدعو إلى التكريم، وإلى الرجاء في أن يؤتيهم الله خيراً[3].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 99.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 100.

3 الميداني، المرجع نفسه، 1875/4.

- ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾: أيّ:

- إذا طردت هؤلاء الذين وصفتموهم بأنهم أراذلكم استجابة لطلبكم.
- أو قلت: عندي خزائن الله.
- أو قلت: إني أعلم الغيب.
- أو قلت: إني ملك.
- أو قلت: للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً.

وفي تفصـــيل هذه الجملة "إني إذا لمن الظالمين"، نجدها مؤكدة بعدة مؤكدات، هي: إن، والجملة الإسمية، واللام المزحلقة. أي: إني إذن لواحد من الظالمين الذين يستحقون عقاب الله، إذا دعيت أي دعوى من هذه الدعاوي: الظالمين للحق وقد جئت أبلغه. الظالمين لنفسي، فأعرضها لغضب الله. الظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزل الله لهم [1].

وهكذا ينفي نوح عليه السلام عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة، وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرســـول والرســـالة، ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لا تحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض الســـطحية، ويردّهم في نصـــاعة الحق وقوته، مع سماحة القول وردّه إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها، ويتخذوا لأنفسـهم خطة على هداها، بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضـاء على حسـاب الرسـالة وحقيقتها البسـيطة، فيعطي أصـــحاب الدعوة الدعوة في أجيالها جميعاً، نموذجاً للدعاية ودرســـاً في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد، دون استرضاء لتصوراتهم، ودون ممالاة لهم، مع المودة التي لا تنحني معها الرؤوس.

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 4/ 1875.

وعند هذا الحد، كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة، فإذا هم – على طبقاتهم- قد أخذتهم الغزة بالإثم، واستكبروا أن تغلبهم الحجة، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري، وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي[1].

ولم يكن أمامهم بعد أن ألزمهم وأفحمهم بحججه وبياناته، وهم مصرّون على كفرهم إلى أن يقولوا له إنك إنسان كثير الجدال، وأن يشعروه بأنهم غير مستعدين للاقتناع بأدلته وحُججه مهما كان شأنها، وأن يتهربوا من المناظرة الفكرية، فتحدَّوه بأن سيأتيهم بما كان توعّدهم به من عقاب الله، إن كان من الصادقين[2].

3. عجز قوم نوح على الردود العقلية والمنطقية التي احتجَّ بها نوح عليه السلام:

كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة، ورفضوا أن يذعنوا للبرهان العقلي، ولما أعياهم ذلك آثروا أن يتركوا الجدال إلى التحدي.

أ- قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ **[هود: 32]**.

إنه العجز بلبس ثوب القدرة، والضعف يرتدي رداء القوة، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي، "فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين"، وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به، فلسنا نصدقك ولسنا نبالي وعيدك.

أما نوح فلا يخرجه التكذيب والتحدي عن سمة النبي والكريم، ولا يقعده عن بيان الحق لهم، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم،

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 4/ 1875.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 101.

وردّهم إلى هذه الحقيقة، وهي أنه ليس سوى رسول، وليس عليه إلا البلاغ، أما العذاب فمن أمر الله، وهو الذي يدبر الأمر كلّه، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله، وسنته هي التي تنفذ، وما يملك هو أن يردّها أو يحولها، إنه رسول وعليه أن يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة، فلا يقعده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدونه [1].

ب- ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ **[هود: 33]**:

أي: لست أنا الذي آتيكم بما أنذرتكم به، إنما يأتيكم به الله، إن شاء هو، لا إن شئت أنا، ولا إن شئتم أنتم، وأنا ذو وظيفة من الله محدودة، أنا رسول مبلِّغ عن الله، وجواباً عما يجول في نفوسهم من تكذيب وتحدي مشعر بأنه عاجز عن أن يحقق ما توعّدهم به، قال لهم عليه السلام: "وما أنتم بمعجزين": أي: وما أنتم بقادرين على حماية أنفسكم من عذاب الله إن شاء أن ينزله بكم، فتنفروا منه، وتعجزوا جنوده عن طلبكم وإدراككم بالعقاب، وحين يقضي الله تعالى عليهم بالعذاب، هل يستطيع نوح أن يدفع عنهم عذاب الله، وهل ينفعهم حينئذ نصح نوح لهم بأنه وسيلة من وسائل النصح بعد أن انتهت مدة امتحانهم، وجاء وقت عقابهم.؟ الجواب: لا ينفعهم ذلك، أي نصح، وهذا ما أبانه نوح عليه السلام لهم بقوله:

ج- ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ **[هود: 34]**.

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1875/4.

أي إن إرادة الله غالبة، فإنه إذا أراد أن يغويكم لِردِّكم الحق، فلو حرصـــتُ غاية مجهودي ونصحت لكم أتمّ النصح –وهو قد فعل عليه السلام- فليس ذلك بنافع لكم شيئاً [1].

"هو ربكم وإليه ترجعون": "هو ربكم" أيّ: هو الذي خلقكم ضـــمن نظام التربية، وهو الممتحن لكم في الحياة الدنيا، وهو الذي رزقكم، وهو الذي أحياكم، وهو يميتكم، وهو الذي يحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم إلى سائر صفات الربوبية، فهو سيدكم ومالككم وإليه جميع أمركم، أما أنا فلست إلا رسولاً مبلِّغاً.

"وإليه ترجعون":أي: وإلى ربكم ترجعون يوم الدين لمحاســبتكم ومجازاتكم على أعمالكم. هذه أهم المراجعات الجدلية بين نوح وقومه في سورة هود عليه السلام [2].

د- ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ **[هود: 35].**

"أم يقولون افتراه": هذا الضـمير محتمل أن يعود إلى نوح، كما كان السياق في قصـته مع قومه، وأن المعنى: أن قومه يقولون، افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول:﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ" أي: كلٌّ عليه وزره "وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ وتكون هذه الآية معترضة، في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شـرع الله في قصـها على رسـوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام فقال: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ" أيّ: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفســـه، أي: فهذا من

1السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المرجع السابق، 749/2.

2الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 103.

أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا – مع هذا – أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال، الإعراض عنهم، ولهذا قال: "قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي" أيّ: ذنبي وكذبي، "وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ" أي: فلم تستلجُّون في تكذيبي[1].

وهذا في أصول البلاغة اسمه الالتفات، فبينما في نشوة قصة سيدنا نوح، إذ يلتفت الله سبحانه وتعالى إلى النبي محمد ﷺ لتسليته والتخفيف عنه، حينما شعر بالضيق من جراء تكذيب قومه له[2]، لكي يخفف عنه، ويثبت عزيمته، ويذكره بأن هؤلاء الذي يتهمونه بالكذب إنما هم مجرمون في حقه، وأنه بريء من هذه الجريمة[3].

وعند هذا المقطع من قصة نوح، يلتفت السياق لفتة عجيبة، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة، التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسولﷺ ودعواهم أن محمداً يفتري هذا القصص، فيرد هذا القول قبل أن يمضي في استكمال قصة نوح: أم يقولون افتراه"؟ قل: إن افتريته فعلي إجرامي، "وأنا بريء مما تجرمون". وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن، لأنها إنما جاءت لتأدية غرض من هذا السياق[4]. ويتبين لنا من الآية السابقة أمور من أهمها:

1السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 749/2.

2 محمد راتب النابلسي، تفسير النابلسي (تدبر آيات الله في النفس والكون والحياة)، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م، 51/6.

3 النابلسي، المرجع السابق، 51/6.

4 السيد قطب، المرجع السابق، 1876/4.

- الإنصاف بين الداعي والمدعوين مدعاة لتخفيف غلواء المدعوين في الصد عن الدعوة.
- الرسل الكرام رمز الحكمة في الدعوة والحجة والإقناع.
- بساطة المنطق مع عمقه وصدقه مؤثران في المدعوين، وسبب في كسب القضية.
- تنظيم تفكير المدعوين يساعدنا في تحديد موقفهم، بل كسبهم إن أحسنا ذلك.
- مهم جداً إيقاظ عقول من ندعوهم ليفهموا عنا ويستجيبوا لنا.
- إهمال العقل وتعطله خسارة للداعي والمدعو والدعوة[1].

ثانياً: موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الأعراف:

تحدثت سورة الأعراف عن إرسال الله عز وجل نوح إلى قومه ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، واتهام الملأ من قومه له بأنه ضال، وردّه لذلك الاتهام، وتقديمه نفسه ودعوته لهم، وإزالة عجبهم من جعل رسول من البشر، وتكذيبهم له، وتدميرهم ونجاة الذين آمنوا معه[2].

وقد أوجز الله عزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف) قصص دعوات المرسلين لأقوامهم، وبدأها بقصة دعوة نوح - عليه السلام - قومه إلى دين الله، وتبليغه إياهم رسالات ربه، فقال تعالى فيها: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ* أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ

1أحمد نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 141.

2 الخالدي، القصص القرآني، المرجع السابق، 153/1.

وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 59: 64].

1. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾:

هذه سنة الله في إرسال كل رسول من قومه، وبلسانهم، تأليفاً لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم، وتيسيراً على البشر في التفاهم والتعارف، وإن كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السُّنة، ولا يستجيبون، ويستكبرون أن يؤمنوا لبشر مثلهم، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة، وما كانوا ليستجيبوا إلى الهدى، مهما جاءهم من أي طريق، لقد أرسلنا نوحا إلى قومه، فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التي جاء بها كل رسول[1].

2. ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾:

إن العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية، والذي يستحق العبادة الذي خلقنا وصورنا وأبدعنا، الذي يستحق العبادة، الرازق، المحيي، المميت، سبحانه وتعالى، فلا رافع ولا خافض ولا معز ولا مذل ولا معطي ولا مانع، ولا رازق ولا جبار، إلا الله، وما تعلم الناس أفضل من التوحيد[2].

فهي الكلمة التي لا تتبدل، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها، وهي عماد الحياة الإنسانية التي لا تقوم على غيره، وهي ضمان وحدة الوجهة، ووحدة الهدف،

1السيد قطب، المرجع السابق، 1308/3.

2 النابلسي، المرجع السابق، 554/4.

ووحدة الرباط، وهي الكفيل بتحرر البشـــر من العبودية للهوى، والعبودية لأمثالهم من العبيد، وبالاستعلاء على الشهوات كلها[1].

والتوحيد هو أن توحد الله وتتوكل عليه، ترضـيه بطاعته، وأن تتقي سـخط الله، فليس في الكون معبود بحق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله... وحينما تعلم أن كل شيء بيد الله تتجه إلى الله وحده، ولا تتجه إلى أحد سواه[2].

ولقد دعا نوح عليه السلام قومه إلى توحيد الله عز وجل، وإفراد العبادة له، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها في إشفاق الأخ الناصح لإخوانه، وفي صدق الرائد الناصح لأهله[3].

3. ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾:

نرى هنا أن ديانة نوح عليه الســـلام، أقدم الديانات، كانت فيها عقيدة الآخرة، عقيدة الحساب والجزاء يوم القيامة، ودلت هذه العبارة على أن نوحاً عليه السلام قد أخبرهم بنبأ البعث إلى يوم الدين، وبما في ذلك اليوم من حساب وقضاء وحكم وجزاء وعذاب في دار العذاب المعدة للكافرين المكذبين الظالمين، ونعيم للمؤمنين المتقين في جنات نعيم، وذلك لأنه لا يخاف عليهم عذاب يوم إلا إذا كان قد أنبأهم به، وبأنهم مدينون، ومحاســـبون ومجازون على أعمـالهم، ويلزم عقلاً أن يكون مع الجزاء بالعقـاب جزاء بالثواب، فـدلـت اللوازم الفكرية على أنه أخبرهم بدار العذاب، وبدار النعيم، وقد أشعرهم نوح عليه السلام

1السيد قطب، المرجع السابق، 1308/3.

2النابلسي، المرجع السابق، 555/4.

3 السيد قطب، المرجع نفسه، 1308/3.

برحمته لهم وشـــفقته عليهم إذ قال لهم: "إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم"، فمن أجل ذلك يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وعبادته وحده لا شريك له[1].

4. ﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾:

كما قال مشـركو العرب لمحمد ﷺ إنه صـبأ ورجع عن دين إبراهيم، وهكذا يبلغ الضـلال من الضــلال أن يحسـب من يدعوه إلى الهدى هو الضــال، بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعدما يبلغ المسـح في الفطر، وهكذا تنقلب الموازين، وتبطل الضـوابط، ويحكم الهوى، ما دام أن الميزان ليس ميزان الله الذي لا ينحرف ولا يميل.

وماذا يقول المنحرفون عن هدايات الســـماء، وعن المهتدين بهدى الله؟ إنهم تســـميهم الضالين.ماذا يقول المنحرفون عن الفتاة التي لا تكشف لحمها؟ وعن الفتى الذي يستقذر اللحم الرخيص؟ إنهم يســـمون ترفعها هذا، ونظافتها، وتطهرها، رجعية وتخلفاً وجموداً ريفية، وكذلك الفتى العفيف[2]، وغير ذلك من الأمور المنحرفة عن منهج الله الرباني.

- "إنا لنراك في ضــلال مبين": أي: ليعتقد اعتقاداً جازماً مســتنداً إلى رؤية فكرية قلبية أنك في ضـلال عن الحق وضـياع، وضـياعك هذا مبين واضـح، لا يحتاج إلى إقامة دليل. لقد ردّوا عليه بادعاء أنه في ضــلال مبين، دون تقديم أية حجة، وأكدوا ادّعاءهم هذا بمؤكدات دل عليها حرف "إن" في الجملة، ودل عليها أيضاً مضمون الرؤية الجماعية »إنا لنراك".

- "في ضلال": أي: في داخل ضلال أنت محاط به.

1الميداني، المرجع السابق، ص 45.

2 السيد قطب، المرجع السابق، 3/ 1309.

- "مبين": أي: واضح جلي لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه، ولا يحتاج إلى كشف الأستار عنه، وظاهر أن هذا الادعاء منهم ليس فيه إلا الشتيمة، ومعلوم أن كل ادعاء فيه تجريح واتهام بنقيصة دون حجة أو برهان، هو من السباب والشتائم، لقد قابلوا دعوته الرفيقة لهم وقابلوا رحمته بهم، وشفقته عليهم بالطعن والشتيمة[1].

5. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾:

أي ليس بي أية ضلالة، لقد شتمتموني، بأني كالغريق في الضلالة، وأقول لكم في الدفاع عن نفسي: ليس بي أية ضلالة قليلة أو كثيرة، صغيرة أو كبيرة، فأنا خال من أية ضلالة.

جواب مشبع بالتهذيب الذي يتحلى به الدعاة إلى الله المحاطون بعناية الله، الملتزمون بمقتضيات الحكمة في الدعوة[2].

وقد جاء النفي القاطع في القرآن الكريم في قوله: "قال يا قوم ليس بي ضلالة"؛ لأن منهج الله لم يأت به نوح من عنده، فنقول: إنه غلبه الهوى، ولو في ضلالة واحدة، أو أن هناك شيئاً غاب عنه، ولكن المنهج جاء من عند الله عز وجل، وما دام نوح هو الرسول المبلِّغ والله هو صاحب المنهج، وما دام المنهج من عند الله، فلا يمكن أن تكون فيه ضلالة واحدة، ولا شبهة ضلالة[3].

لقد دفع نوح عليه السلام الاتهام بالنفي فقط ولم يرد على الشتيمة بمثلها، وخاطبهم بقوله: "يا قوم" فنسبهم إلى نفسه، وأضافهم إلى ذاته، وبعد أن نفى عن نفسه ما اتهموه

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص 46.

2 المرجع السابق، ص 46.

3 المرجع نفسه، ص 46.

به، أبان لهم أنه لم يدعهم إلى ما دعاهم إليه من تلقاء نفســـه، ولكنه مبعوث مرســـل من رب العالمين، مكلف بتبليغ رسالاته، ومأمور بأن ينصح لقومه [1]. فقال لهم:

6. ﴿وَلَكِنِّي رَسُـولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَـالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَـحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

فهو مبعوث مرسل من رب العالمين، وهو مسؤول عن القيام بوظائف تتعلق بمهمته:

- **الوظيفة الأولى**: أنه يبلغهم تباعاً رسالات ربّه.

قال:"أبلغكم رســالات ربي"، ويفهم من صــيغة الجمع في "رســالات" أن تنزيل البيانات الربانية عليه قد كان على وفق سنة الله في التدرج في تنزيل بياناته، فما كان ينزل به الوحي على نوح عليه الســـلام ليبلغه لقومه، قد كان بيانات منجمة في أزمان متعددة كل بيان منها بمثابة رسالة، وبعد أن تجتمع الرسالات كلها، ويُكمل الله الدين لعباده تكون جميعها منضـــمة في رســـالة واحدة، فالتعدد باعتبار تنجيم التنزيل في أزمان، والإفراد هو باعتبار جمع النجوم المنزلة في رســالات مفرقة وضــمّها متكاملة في كتاب واحد هو الرســالة التي بعث الله بها رســوله[2]. فتبليغ رســالات الله هي الوظيفة الأولى لنوح عليه الســلام، وهي الوظيفة الأولى لكل المرسلين عليهم السلام.

- **الوظيفة الثانية**: هي النصح للقوم.

يشـمل هذا اسـتخدام كل الوسـائل الإقناعية والتربوية على اختلاف صـورها، وأشـكالها، والنصـــح مظهر من مظاهر الإخلاص لله في الدعوة، ومظهر من مظاهر الرحمة والشـــفقة

1الشعراوي، قصص الأنبياء، المرجع السابق، 20/1.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص 49.

وحرص الناصح على خير المنصوح دون ملاحظة ثواب منه، فقال نوح لقومه: "وأنصح لكم"، والمرسلون كلهم نصحة لأقومهم، وكذلك يجب أن يكون الدعاة إلى الله. والمؤمنون بعضهم لبعض نصحة وادّون، والدين الحق الصادق هو النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم.

وبعد أن أبان نوح عليه السلام لقومه هاتين الوظيفتين من وظائفه التي حمّله الله مسؤولياتها، ذكر لهم أن ما يبلغهم إياه وما ينصحهم به مستند إلى علم، والعلم مباين للضلال الذي يولده ويدفع إليه الجهل، فقال لهم: "وأعلم من الله ما لا تعلمون".

إنه عليه السلام يرد على قومه اتهامهم له بأنه في ضلال مبين، بإثبات أنه يعلم حقائق من الله لا يعلمونها، وفي هذا غاية الرد المهذب مع توجيههم للانتفاع بما يعلمهم من علم لا شك فيه ولا شائبة تشوبه، لأنه وحي من الله: "وأعلم من الله"، أي: لا من نفسي ونظراتي الخاصة وتأمّلاتي، بل من الله، أي: بوحي من الله. "ما لا تعلمون": أيّ: ممّا هو منن أمور الغيب التي لا تُعلم إلا عن طريق الوحي، أو ممّا لم تُوجِّهوا همتكم للتفكير فيه حتى تعلموه.

- **الوظيفة الثالثة**: المجادلة الإقناعية بالتي هي أحسن:

دلّ على هذه الوظيفة حكاية النصّ مجادلته لهم، لإقامة الحجة عليهم، فقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **[الأعراف: 63]**، أي: أكرهتم ترك ما أنتم عليه، واتباع ما جئتكم به، وعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم، أما المتعجب منه فقضيتان:

- القضية الأولى: أن يأتيهم ذكر من ربهم.

- القضية الثانية: أن ينزل هذا الذكر على بشر منهم، ويكون هذا الرجل رسولاً لله، يبلغ قومه الذكر الذي أنزله الله عليه ليبلغه لقومه.

ولم يطرح نوح عليه السلام قضية نبوّته ورسالته، قبل طرح قضية الذكر الذي جاءهم به من ربهم، بل بدأ يطرح قضية هذا الذكر، ليكون ساحة فكريّة معروضة للمناظرة والمجادلة حول عناصرها.

ولما كان الذكر الذي يبعث الله به رسله مشتملاً على قضايا حتى تقام عليها الأدلة البرهانية، والأدلة الإقناعية، كان البدء بطرحه هو الأسلوب الأجدى للإقناع أو للإلزام والإفحام، فالربوبية وتوحيدها، والإلهية وتوحيدها، وصفات الله التي منها علمه وحكمته وقضاءه وقدره، وقدرته على كل شيء، وخلقه لكل شيء، وعنايته بعباده، وعدله، كلها أمور معها أدلتها العقلية البرهانية، وتشهد لها ظواهر الكون، ومجريات الأحداث [1].

ومتى ظهر لهم أن ما يدعوهم إليه حق لا ريب فيه، ولا شائبة تشوبه، كان أمر إثبات نبوته ورسالته، وإثبات أنه يبلغ هذا الذكر عن ربه، وإثبات أن الله يوحي به إليه، أمراً ممهداً سهلاً، ونستفيد من هذا أن البدء بالإقناع حول مضمون الرسالة بالنسبة إلى قوم ليس لهم عهد قريب بالأنبياء والمرسلين، هو الأمر الحكيم، وهو ما اتّخذه نوح عليه السلام في مجادلته قومه.

وقد جاءت تسمية مضمون الرسالة ذكراً لأمرين:

- الأمر الأول: أن بعض عناصر رسالات المرسلين هي من الحقائق المغروزة في عقول الناس ونفوسهم وضمائرهم فهي لا تحتاج أكثر من كشف لها وتذكير بها.

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص 52.

- الأمر الثاني: إن كل عناصر رسالات المرسلين حقائق وتعاليم ربانية، ينبغي تعلمها وتفهمها أولاً، ثم تعهدها بالتذكير حيناً بعد حين، على مدى الأيام والسنين، وعند كل عمل يقتضي شيئاً منها، وعند كل عارضة لتكوّن عناصرها الإيمانية حاضرة في الذاكرة، فتدفع المؤمنين بها إلى طاعة الله والتزام شريعته، ولتكون أحكامها ووصاياها برامج مذكورة، ونوراً مبيناً، ويهتدي به السالكون في ظلمات الأهواء والشهوات، ووساوس الشياطين، وتسويلاتهم، وتضليلات المضلين، ويسترشد بها مقتحمون عقبات النفوس والأهواء، ومصاعب الحياة، وما فيها من صنوف ابتلاء بالشر والخير، والنفع والضر، وكل ما فيه فتنة لاختيار الصبر واختيار الشكر.

وطول البيان في هذا النص عناصر المجادلة الإقناعية والإلزامية والإفحامية حول القضيتين المتعجَّب منهما "أو عجبتم أن جاءكم"، وهما:

- "ذكر من ربكم": أي: موحى به من ربكم.
- "على رجل منكم": أي: منزل على رجل منكم.

فالعنصر الأول: "لينذركم": أي: لينذركم بعقاب الله المعجّل والمؤجّل، إذا لم تؤمنوا، ولا يكون الإنذار إلا بعد البيان التعليمي واتخاذ الوسائل الإقناعية، ولا يكون أيضاً إلا مصحوباً بالبشرى لمن آمن وأطاع، وهذا الغاية لوحظ فيها المذكّر.

والعنصر الثاني: "ولتتقوا": أي: ولتدركوا خطر عقاب الله، فتجدوا في أنفسكم دافعاً لأن تتقوه بالإيمان والعمل الصالح الرشيد، الناشئين عن اختياركم الحر [1].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 53.

والعنصر الثالث: "ولعلكم ترحمون": أيّ: ولترجو رحمة الله بأن يدخلكم جنات النعيم، إذا اتّقيتم فآمنتم وأطعتم، وهذه الغاية لوحظ فيها المتلقون بعد التأثُّر بمضمون الذكر[1].

لقد كشـف لهم نوح عليه السـلام هدف الرسـالة:(**لينذركم، ولتتقوا، ولعلكم ترحمون**)، فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى، ليظفروا في النهاية برحمة الله، ولا شيء وراء ذلك لنوح، ولا مصلحة ولا هدف إلا هذا الهدف السامي النبيل[2].

وفي هذا تلخيص عام لمهمات الذكر المنزل على نوح عليه السلام، ولوظيفة نوح في قومه:

- الإنذار والبشارة في الذكر المنزل، وفي بيانات الرسول المبلغ عن ربه.
- وجاء التأثر باتّقاء العقاب، وطلب الثواب من قبل القوم، ببيانات الذكر ووسـائل تربية الرسول.
- رجاء الظفر برحمة الله في جنات النعيم، وبالعيش السعيد في الحياة الدنيا، من قبل من استجاب لله ورسوله[3].

ولكن الفطرة حين تبلغ حداً معيناً من الفسـاد، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر، ولا ينفع معها الإنذار ولا التذكير[4].

7. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾:

---

1 المرجع نفسه، ص 53.

2 في ظلال القرآن، 1309/3.

3 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد ، ص 54.

4 السيد قطب، المرجع السابق، 1309/3.

– "فكذبوه": وفي هذا إيجاز لكل ما كان منهم، إن قوماً قد كذبوا رسـولهم، وهم ذوو قوة ومنعة، واســتمروا على تكذيبهم أحقاباً عديدة، ولا بد أن يكون منهم أمور كثيرة، من إيذاء الرســول ومن آمن به، ومقاومةً لدعوته، وإصــراراً على الظلم والطغيان، والفســق والفجور والعدوان.

– وكانت العاقبة: "فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا".

وفي هذا إيجاز للحدث الأخير في قصـة نوح مع قومه تضـمّن إلماحاً للطوفان العام، الذي أغرق الله به المكذبين، وإلماحاً للأحداث التي تنج عنها ركوب نوح ومن معه وما معه في الفلك وجريها بعناية الله وحفظه حتى مستقر النجاة.

– "إنهم كانوا قوماً عمين": وأخيراً: آيات الله عز وجل الصــفة الدائمة التي ســببت لقوم نوح التكذيب والعناد والإصــرار على الكفر، والظلم والطغيان، حتى الإهلاك الشـــامل بالطوفان، فقال عز وجل في آخر النص:"إنهم كانوا قوما عمين"، "عمين": جمع "عم" بمعنى: أعمى، أي: هم عمون عن رؤية الحق، والاهتداء بآياته ودلائله، وعن رؤية أنوارها البيانية والفكرية والوجدانية، والعمى أنواع، فمنها ما هو في البصــر الظاهر، ومنها ما هو في القلوب والبصـــائر[1]. ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصـــح المخلص والنذير، فبعماهم هذا كذبوا، وبعماهم لاقوا هذا المصير[2].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص 55.

2 السيد قطب، المرجع السابق، 1310/3.

ثالثاً: موقف الملأ في "سورة المؤمنون":

جاء في سـورة (المؤمنون) عرض لقطات من حديث الملأ من قوم نوح عليه السـلام لقومه لصــد الناس عن دعوة التوحيد وإفراد العبادة لله وتقواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّـلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُــوا بِهِ حَتَّى حِينٍ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: 23- 26].

1. ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾:

كلمة الحق التي لا تتبدل، يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الوجود "أفلا تتقون"؟ وتخافون عاقبة الإنكار للحقيقة الأولى التي تقوم عليها الحقائق جميعاً؟ وتستشـعرون ما في إنكارها من تجنّ على الحق الباهر، وما يعقب التجني من استحقاق للعذاب الأليم؟

ولكن كبراء قومه من الكفار لا يناقشــون هذه الكلمة، ولا يتدبرون شــواهدها، ولا يسـتطيعون التخلص من النظرة الضـيقة المتعلقة بأشـخاصـهم، وبشـخص الرجل الذي يدعوهم، ولا يرتفعون إلى الأفق الطليق الذي ينظرون منه إلى تلك الحقيقة الضـخمة مجردة من الأشــخاص والذوات، فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرى، التي يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الوجود، ليتحدثوا عن شخص نوح[1].

1السيد قطب، المرجع السابق، 2464/4.

2. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

أي: إذا لم تؤمنوا بالله وتعبدوه وحده لا شريك له، نزل بكم عقابه وعذابه، فالرشد والعقل يقتضـــيان منكم أن تتقوا ذلك، ومن أجل هذا، فإنني أعرض عليكم عرض حث وحض أن تتقوا عقاب الله وعذابه، الذي أنذرتكم به في عاجل حياتكم وآجلها.

دلَّ على كل هذا اللزوم الذهني عبارة: "أفلا تتقون"، والاســـتفهام في هذه العبارة يحمل معاني التعجب، والاستغراب والاستنكار من كونهم لا يتقون، وهي تتضـمن معنى الحث والحض على أن يتقوا. والفاء: عاطفة على ما ســـبق في مقول قول نوح عليه الســـلام المصـــرح به أو المطوي الذي يفهم باللزوم الذهني، وقدم حرف الاســـتفهام عليها لأن الاستفهام في العربية له الصّدارة[1].

ونلاحظ في بداية حديث ســـورة المؤمنون عن نوح – عليه الســـلام – لخصـــت كليات عناصر الدين، وهي:

- الإيمان بتوحيد الله عزَّ وجلَّ.
- طاعة الله وعبادته وحده في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، والتقرب إليه بمراضيه ومحابه.
- الحذر من عقابه العاجل والآجل، واتخاذ ما يقي منه، وهو يستلزم الطمع بثوابه واتخاذ ما يظفر به بالنسبة إلى من آمن وأسلم[2].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 252.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 252.

3. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾:

يُعنى بـ"الملأ": هم سادة القوم وكبراؤهم وأعيانهم ووجهاؤهم الذين يملؤون العيون. وقد جاء بيان قولهم معطوفاً عطف تعقيب على قول نوح الذي تضمن بيان دعوته وتبليغ رسالته التي أرسله الله بها إلى قومه.

ونلاحظ أن هذا النص في سورة "المؤمنون" قد جاء فيه وصف ملأ قوم نوح بأنهم كفروا، وجاء فيه بيان ما قاموا به من إقناع لجماهيرهم بأن نوحاً ليس رسولاً من عند الله.

وأما ما نزل في سورة الأعراف قبل النصين السابقين فلم يصفهم الله فيه بالكفر، إذ جاء فيه خطاباً لنوح:﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ **[الأعراف: 60]**.

وكذلك نلاحظ النص الذي جاء في سورة "هود" لكن جاء فيه بيان ما واجهوا به نوحاً عليه السلام إذ جاء فيه:﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ **[هود: 27]**.

وهذا يدلنا على أن مقالتهم هذه كانت في بداية الدعوة، وأنهم كانوا في طريق إقامة البراهين والحجج لهم، فهم والحالة هذه لا يوصفون بأنهم كفروا، إذ الذين يوصفون بالكفر هم من دمغتهم الحجة ووضحت لهم الأدلة، وصفهم الله بالكفر فقال في نص "هود" و"المؤمنون"، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ **[هود: 27]**. ونلاحظ أيضاً التكامل في المقالات الثلاث من هذه النصوص:

- فالأولى جاءت خطاباً لنوح: "إنا لنراك في ضلال مبين": أي: أنت تائه ضائع ضال، لكن هذا القول لا يتضـــمن اتهامه بالافتراء والكذب على الله بصـــورة جازمة، إذ فيه احتمال أن يكون ضلاله ناشئاً عن تهيُّؤات تهيأت له.

- الثانية: جاءت خطاباً لنوح أيضاً: "ما نراك إلا بشراً مثلنا".

- الثالثة: جاءت خطاباً لجماهير قومهم، بغية صـــدهم عن الإيمان بنوح وعن اتباعه،"ما هذا إلا بشر مثلكم" إلى آخر مقولاتهم لهم.

ونلاحظ أن هذه الفقرة الثالثة قد تضـــمنت ســـت مقولات قالها ملأ قوم نوح لجماهيرهم لصدّهم عن الإيمان بنوح واتباعه[1].

- **المقولة الأولى**: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾:

إن ملأ قوم نوح حاولوا إقناع جماهيرهم لصـــــدهم عن الإيمان به واتباعه، بأن البشــــر لا يصـلحون لأن يكونوا رسـلاً يرسـلهم الله عز وجل، زاعمين وموهمين بأن البشـرية يمنع من الاتصـــال برب العالمين لتلقي رســـالة منه، وتمنع من الاتصـــال برســـول رب العالمين من الملائكة لتلقي رسالة الله عنه.

وأشاروا إلى نوح عليه السلام في مقولتهم باسم الإشارة "هذا" إشعاراً بأنه رجل لا يستحق أن ينظر إليه باحترام وإكبار، وقصدوا تحقيره، وأمام جماهيرهم ليصرفوهم عن احترامه كلياً، أو ليثيروا نفوس صغار العقول منهم لازدرائه والسـخرية منه، باعتباره بشـراً مثلهم، ويدّعي الاتصـــال بالله، وأنه رســـول مبعوث من قبله، ومثل هذا الادّعاء لا يدعيه إلا من بعقله اختلال، أو نوع من أنواع الجنون.

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 254.

ومن سبر النصوص القرآنية ظهر لنا أن تعلّل مكذّبي الرسل في تكذيبهم بعلّة بشريتهم ظاهرة تكررت في الأمم، وكان في مقدمة من أخبرنا الله عنهم قوم نوح، وكان آخرهم الذين كذبوا برسول الله محمداً ﷺ من العرب، ثم تبعهم وخاض خوضهم[1].

- **المقولة الثانية**: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾:

يتفضل: التفضيل تكلّف الفضل، والفضل في اللغة الزيادة، وشاع في زيادة الشرف والرفعة والمكانة الاجتماعية، وفي كمال الخلق والسلوك. وقد زعم ملأ قوم نوح لجماهيرهم أن نوحاً يريد بادعاء أنه رسول الله أن يكون ذا فضل عليهم بصفة لا يملكون نظيرها، وهذه الصفة تجعله سيداً عليهم، وقائداً وآمراً ناهياً مطاعاً، يستمد سلطانه عليهم من الله، ويفرض بذلك عليهم ما يريد، وهو غير صادق في رسالته، إذ هو كاذب في ادعائه[2].

- **المقولة الثالثة**: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾:

أي: ولو شاء الله أن يرسل رسُلاً إلى الناس يبلغون عنه دينه لأنزل ملائكة، ولم يرسل رسُلاً بشراً، زاعمين وموهمين أن هذا هو ما تقضي به الحكمة الربانية أو هو هذا الأمر الممكن الذي تقبله العقول، أما أن يرسل الله رسولاً بشراً فهذا غير معقول ولا مقبول، ومدعي الرسالة من البشر هو في ضلال مبين، تتهيأ له أمور يزعم بها أنه رسول، أو هو كذّاب يفتري على الله[3].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص 255.

2 المرجع السابق، ص 255.

3 المرجع نفسه، ص 255.

لقد قام في توهمهم الزائغ عن الحق أن البشـر لا يصـلحون لتلقّي الوحي عن الله عز وجل ولدى تحليل هذا التوهم يتبين لنا أن أصـــحابه ما قدروا الله حق قدره، إذ هو لا يقوم إلا على الشك في قدرة الله عز وجل، على اتخاذ وسيلة أو خلق سبب يجعل به المخلوق من البشـــر قادر على تلقي الوحي عن ربه دون حجاب، أو من وراء حجاب، أو عن طريق إرسال رسول من الملائكة إليه يبلغه رسالة ربه.

وهم يتناقضـون مع أنفسـهم في قبول هذا التوهم، إذ قبلوا أن يتلقى الملائكة عن الله، مع أن الملائكة خلق من خلق الله، فالله القادر على أن يخلق ملائكة لديهم الاستعداد للتلقي عنه، كيف لا يكون قادراً على أن يخلق مثل هذا الاسـتعداد في بعض خلقه من البشـــر الذين يصطفيهم بالنبوة، ثم يكلفهم أن يكونوا رسلاً إلى أقوامهم.

وهذا إذا كان الأمر مبنياً على توهم قائم في تصـوراتهم، أما إن كان من قبيل التعلل الجدلي الكاذب، فهم جاحدون للنبوة مع علمهم بصـــحتها، وعلمهم بصـــدق الرســـول، لأنه مستكبرون، ويتبعون أهواءهم وشـهواتهم، ويؤثرون الحياة الدينا، ويذرون الآخرة، ويشكّون في العقاب العاجل، وقد يكون بعضـــهم هكذا، وبعضـــهم هكذا، ويخادعون الجماهير بمقولاتهم الباطلات[1].

- **المقولة الرابعة:** ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾:

- "في آياتنا الأولين": أي: في أجدادنا الذين كانوا رؤوس قبائلنا وأصول.

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 256.

- "ما سمعنا بهذا": أي: ما بلغت أسماعنا أخبار وأنباء تخبرنا بأنه سبق في تاريخ أجدادنا أن جاءهم رسل من البشر يبلغون عن الله ما جاء به نوح.

إنهم يحاولون بهذه المقولة إضافة دليل تاريخي يشهد لادّعائهم بأن البشر لا يصلحون لأن يكونوا رسلاً لله، وأن الله لم يشأ إرسال رسل إلى الناس.

وتحليل هذا الدليل كما يلي:

- لو شاء الله أن يرسل رسلاً يبلغون عنه ديناً لأرسل رسلاً إلى آبائنا منذ عهود آبائنا الأولين مع عبادة الأوثان من الموروثات التي ورثناها عن آبائنا.
- لكنه لم يرسل في سابق تاريخ آبائنا رسلاً مطلقاً.
- بدليل أنه ما بلغت أسماعنا أخباراً بذلك.
- إذن فلم يشأ الله أن يرسل رسلاً أصلاً، فادّعاء نوح أنه رسول الله ادّعاء كاذب.

وهذا الدليل ساقط، لأنه قائم على ادّعائهم أنهم لم يسمعوا بإرسال رسل سابقين، وادّعائهم أن الأوثان من معبودات أجدادهم الأولين.

وأما عدم السماع لمثل هذه الأخبار، فإنهم لو صدقوا لما كان دليلاً على عدم [1] إرسال رسل قبل نوح، فكم من أخبار ضاعت في التاريخ، لا سيما في القرون الأولى التي لم تكن الأخبار فيها تدون في الكتب.

وقد أبان الله في القرآن أنه ما من أمة انحرفت عن دين الله إلا بعث الله فيها رسولاً منذراً، استكمالاً لحكمة الابتلاء في ظروف الحياة الدنيا، ولا أقل من أن يكون فيها نبي أو مبلغون يبلغون رسالة رسول سابق أو تعاليم ربانية، تلقتها البشرية عن آدم عليه السلام،

1الميداني، المرجع السابق، ص 256.

أبي البشــر الذي تلقى الدين عن ربه، وكان آباؤهم الأولون على التوحيد الذي بينه ودعا إليه آدم عليه السلام، ثم دخلت الوثنية بعد ذلك فاقتضى حالهم إرسال رسول إليهم.

إنّ عدم سماع الأخبار لا يقتضي أن الشيء أو الأمر الذي لم يسمع خبره هو غير موجود في الواقع والحقيقة، إن احتجاجهم في هذه النقطة قائم على هذا الدليل السـاقط الذي لا يقبل به عاقل، لكن ملأ قوم نوح حاولوا به إقناع جماهيرهم تضـــليلاً وإيهاماً وتمويهاً، ويغلب في الاتباع قبول أحكام ســاداتهم وكبرائهم دون أن يعرضــوها على مقاييس الفكر الصحيح، وموازين المنطق السليم[1].

- **المقولة الخامسة:** ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾:

أي: ما هو إلا رجل به نوع جنون، دل على أنهم لم يقصـدوا أن يقولوا: هو مجنون مطبق، بل ما فيه هو نوح من أنواع الجنون، عبارة "به جنة" بصيغة المصدر المنكر.

لقد تنازل ملأ قومه في هذه المرحلة التي يعبر عنها هذا النص عن اتهامه بأنه مجنون، كما اتهموه في المراحل الأولى التي جاء بيانها في سورة القمر:﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ **[القمر: 9]**؛ لأنه أثبت بصـبره الطويل ومناظراته ومجادلاته لهم، أنه عاقل غير مجنون، وظهر هذا لجماهير قومه، فما كان باسـتطاعة كبرائهم وسـاداتهم أن يصروا على اتهامه بأنه مجنون، لا سيما بعد أن اتهموه بأنه يريد أن يتفضل عليهم ليسودهم ويقودهم، وهذه الإرادة لا تكون من مجنون مطبق الجنون، لكنها قد تكون ممن لديه نوع من أنواع الجنون، كجنون العظمة، وحب الســـلطان، والاســـتعلاء على الناس، وكجنون العشق، وجنون حب المال الذي يختل به توازن الإنسان، وتضطرب معه تصرفاته.

1الميداني، المرجع السابق، ص 258.

وجاءت مقولة ملأ قوم نوح لجماهيرهم تعليلاً لظاهرة إلحاحه على دعوته وصـــبره الطويل فيها، وقوته في مجادلة قومه لإثبات حقائقها، وبيان فســاد ما هم عليه من شــرك وعبادة للأوثان، وظلم وطغيان، وإفساد في الأرض وأعمال سيئة.

فكأن جماهيرهم سألوا ساداتهم، فما سبب هذه الظاهرة في نوح إذا لم يكن رسولاً حقاً، وكان كاذباً في ادعاء أنه رســـول كما تقولون؟ فقالوا لهم: ما هو إلا رجل به نوع جنون، فهو طالب زعامة وسيادة، مفتون بحبها، اتخذ للوصول إليها وسيلة ادعاء أنه رسول الله، فهو يصر على ذلك، ولن يصل إلى ما يحب، فإصراره على موقفه إصرار مدفوع بدافع من نوع من أنوع الجنون.

والقصر في مقولتهم: "إن هو إلا رجل به جنة"، هو من قصر الموصوف على الصفة، وهو نوع من أنواع القصر الإضافي، أي: لا صفة له بالإضافة إلى إصراره على ادّعاء أنه رسول الله إلا أنه رجل به جنة ما[1].

- **المقولة السادسة:** ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾:

فتربصــوا: تريثوا وانتظروا، التربص: الانتظار، أي إلى أن يأخذكم الموت ويريحكم منه، ومن دعوته، ومن إلحاحه عليكم بالقول الجديد[2].

وهذه المقولات الســت التي وجهها ملأ قوم نوح لجماهيرهم بغية صــدهم عن الإيمان بنوح وأتباعه، تدبرناها على قدرنا.

1الميداني، المرجع السابق، ص 259.

2 السيد قطب، المرجع السابق، 2465/4.

ويُلاحظ أنه لم يأتِ في هذا النص بيان الرد عليها، وكشف زيغها، والسبب في هذا أنها مقولات لم تكن موجهة لنوح عليه السلام، وإنما كانت موجهة لجماهير قومهم، ولإقناعهم بأن نوحاً ليس مرسلاً من الله، وإنما هو دعي كاذب، طالب زعامة وسلطان في قومه، بخلاف مقالاتهم التي وجهوها لنوح عليه السلام، فقد جاء في النصوص بيان الردود الحاسمة عليها، كالنصوص التي جاءت في الأعراف، وهود، والشعراء، جاء فيها بيان بعض مقولاتهم الموجهة لنوح عليه السلام [1].

4. ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾:

دعا نوح – عليه السلام – ربه وطلب منه النصر على أعدائه عندما لم يجد عليه السلام منفذاً إلى تلك القلوب الجامدة المتحجرة، ولم يجد له موئلاً من السخرية والأذى، إلا أن يتوجه إلى ربه وحده، يشكو إليه ما لقيه من تكذيب، ويطلب منه النصر بسبب هذا التكذيب، قال:"رب انصرني بما كذبون"، وعند ما يتجمد الأحياء على هذا النحو، وتهم الحياة بالحركة إلى الأمام، في طريق الكمال المرسوم، فتجدهم عقبة في الطريق، عندئذ إما إن تتحطم هذه المتحجرات وإما أن تدعها الحياة في مكانها وتمضي، والأمر الأول هو الذي حدث لقوم نوح، ذلك أنهم كانوا في فجر البشرية وفي أول الطريق فشاءت إرادة الله أن تطيح بهم من الطريق[2]. وسيأتي تفصيل ذلك في محله بإذن الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرِ ﴾ [القمر: 10]؛ ففي هذا الدعاء ما يدل على أنه قد وصل إلى مرحلة غلبة ذوي السلطان في قومه له، ولا يمكن أن تكون هذه الغلبة فكرية معنوية، فقد انتصر نوح عليه السلام عليهم في مجال الفكر والحجة والبرهان،

1الميداني، المرجع السابق، ص 261.

2السيد قطب، المرجع السابق، 2465/4.

فلا بد أن تكون غلبة مادية جسدية، إذ علم ما يدبرون ضده من كيد للتخلص منه وممن معه، وهو لا يملك قوة مادية تكافئ قواهم، ومع أن حاله مع قومه تستدعي أن يدعو بأن ينصـــره عليهم نصـــر تخليص أو انتقام، فإنه فوض إلى ربه تحديد الوجه الذي ينتصـــر به ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾، وأطلق وسلم أمره لله.

– وأما في ســـورة الأنبياء، فقد جاء فيها أن نوحاً نادى ربه أي: دعا دعاء ملحاً جعله يرفع صوته به إلى حد النداء، وذلك من شدة ما وصل إليه وأهله من كرب عظيم، أشرفوا معه على قيام قومهم بتنفيذ ما توعدوهم به، ويظهر أن شـــدة البلاء قد كانت موجهة له ولأهله فقط، دون سائر من آمن به[1].

قـال تعـالى: ﴿وَنُوحًـا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْـلُ فَـاسْـــتَجَبْنَـا لَـهُ فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَـهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ*وَنَصَـــرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَـــوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ **[الأنبياء: 76- 77]**، فاستجاب الله له بأمرين:

الأول: أنجاه وأهله من الكرب العظيم قبل الطوفان، بوسائل لم يكشف النص عنها، وكان ذلك بتعويق تنفيذ ما دبروه حتى جاء الطوفان.

الثاني: نصـره نصـر انتقام من قومه الذين كفروا فأغرقناهم أجمعين، ونصـره نصـر إنقاذ في الفلك حتى استقرارها على الجودي، وهبوطه على اليابسة، الترتيب المنطقي يدلنا على أن الدعاء الذي جاء بيانه في ســورة (المؤمنون) قد كان أولاً، وأن الدعاء الذي جاء بيانه في سورة (القمر) قد كان بعده بمدة طويلة، وأن النداء الذي جاء بيانه في سورة (الأنبياء) قد كان في المراحل الأخيرة عند اشتداد الكرب، فتكاملت النصوص الثلاثة عن بيان الواقع،

1الميداني، المرجع السابق، ص 271.

وجاء تنزيل كل نص منها مناسباً لحالة القوم، الذين كانت نجوم التنزيل القرآني في أوقاتها لمعالجتهم [1].

رابعاً: موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الشعراء:

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ* قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ* إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ* قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ* قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ **[الشعراء: 105: 122]**.

1. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾:

تلك هي النهاية – نهاية القصة– يبدأ بها لإبرازها منذ البداية، ثم يأخذ في التفصيل، وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحاً، ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين، فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين.

والقرآن يؤكد هذا المعنى ويقرره في مواضع كثيرة، بصيغ متعددة، لأنه كلية من كليات العقيدة الإسلامية، تحتضن بها الدعوات جميعاً وتقسم بها البشرية كلها إلى صفين: صف

1 الميداني، المرجع السابق، ص 272.

المؤمنين وصف الكافرين، على مدار الرسالات ومدار القرون، وينظر المسلم فإذا الأمة المؤمنة لكل دين وكل عقيدة من عند الله هي أمته، منذ فجر التاريخ إلى مشرق الإسلام دين التوحيد الأخير، وإذا الصف الآخر هم الكفار في كل ملة وفي كل دين، وإذا المؤمن يؤمن بالرسل جميعاً، ويحترم الرسل جميعاً، لأنهم جميعهم حملة رسالة واحدة هي رسالة التوحيد[1]، وأيُّ أمة تكفر برسولها، فكأنما كفرت بجميع المرسلين.

2. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾:

- "إذ قال لهم أخوهم نوح": صرح القرآن الكريم في شرعة نوح أنه الأخ لقومه الكافرين، باعتبار أخوة الإنسانية، وقال المفسرون: أي: ابن أبيهم وهي إخوة نسب لا إخوة دين، وقيل: هي إخوة المجانسة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: 4]. وقيل: هو من قول العرب: يا أخا بني تميم، يريدون: أي واحد منهم، فالأخ يستعمل في معنى القريب من القبيلة، ومنه قول الحماسة[2]:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهان

والأخوة لغة وشرعاً على درجات، وطبقات وأولها الأخوة الإنسانية التي وصف بها الأنبياء مع قومهم وقبائلهم.

- قال تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: 65].
- وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: 73].

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2607/5.

2 تفسير القرطبي، 50/16. وانظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، دون تاريخ، 158/19.

- وقال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85].
- وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 124].
- وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 142].
- وقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 161].

وتكرر ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، وجاء في حديث الإسراء أن الأنبياء إخوة، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ :"مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح"[1].

وأعلى درجات الأخوة، إخوة الإيمان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وقال رسول الله ﷺ:"المؤمن أخ المؤمن"[2].

وهي التي تستحق كامل الحقوق وأعلى الدرجات، ولكن ذلك دفع بعض المتعصبين والمتشددين بحصر الأخوة في هذه الدرجة، وأنكر استعمالها في الدرجات الأخرى، مخالفاً بذلك القرآن والسنة، واستعمال الأخ حسب النسب والدرجات والقبائل والأعراف والأديان، وهو ما يجري عادة في جميع المناسبات وأحقاب التاريخ والمجاملة في لقاء الآخرين مهما كانت صفاتهم وأحوالهم.

وثبت في السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال لأحدهم: "يا أخا العرب"، وهو من الكلمات اللطيفة والمحببة في الآداب والأخلاق والمعاملات، طوال الدهر[3].

---

1 محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، 2018م، ص 94.

2 سنن أبي داود، 576/2. وفي: محمد مصطفى الزحيلي، شرعة الله للأنبياء، المرجع السابق، ص 94.

3 الزحيلي، شرعة الله للأنبياء، المرجع نفسه، ص 94.

- "ألا تتقون"؟ وتخافون عاقبة ما أنتم فيه؟ وتستشعر قلوبكم خوف الله وخشيته؟ وهذا التوجيه إلى التقوى مطرد في هذه السورة[1].

والاستفهام "ألا تتقون" فيه معنى العرض مع الحض "ألا تتقون الله" في توحيده وإفراده في العبادة وطاعته والاستجابة لرسوله.

3. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾:

لا يخون ولا يخدع ولا يغش، ولا يزيد شيئاً أو ينقص شيئا مما كلفه من التبليغ[2]، إني لكم رسول مبعوث من عند الله، وأمين على رسالات ربي، أبلغها لكم كما أتلقاها بالوحي عنه، لا أزيد فيها ولا أنقص منها، ويترتب على كونه رسولاً لله مبلغاً عن ربه رسالاته، أنهم مأمورون من قبل الله بطاعته فقال لهم:

4. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

أيّ: فاتقوا عذاب الله، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه، لأنكم إذا لم تطيعوني فيما أدعوكم إليه وأنا رسول مبلغ عن الله، كنتم مستحقين لعقابه وعذابه، فليست القضية قضيتي، وإنما هي قضية الله ربي وربكم[3].

5. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾:

لما كان أول ما كان يتبادر لأذهان الأقوام المدعوين من قبل أي داع من الدعاة إلى مبدأ أو فكرة أو علم أو جماعة اتهامهم إياه بأنه له مصلحة شخصية منهم، يحصل عليها من

---

1 السيد قطب، المرجع السابق، 2607/5.

2 السيد قطب، المرجع نفسه، 2607/5.

3 الميداني، المرجع السابق، ص 64.

جراء اتباعهم له فيما يدعوهم إليه، كان من الحكمة في الدعوة أن يعلن الرسول تجرده من أية مصلحة شخصية، يحصل عليها من قومه الذين يدعوهم إلى دين الله ربه وربهم، ومعلوم أن أدنى المصالح وأخفها مطالبتهم بأجر على ما يقدمه لهم من تعليم ونصح وإرشاد ومجاهدة في ابتغاء الخير لهم، وتربية وتدريب على الإيمان ومشاعره، وممارسة الفضائل الخلقية والسلوكية وعبادة الله عز وجل وفق أحكام شرائعه، والظاهر أن التبرؤ من أدنى المصاح وأخفها يستلزم بداهة التبرؤ مما هو أصعب على نفوس القوم وأشد. فأبان لهم نوح عليه السلام، أنه ما يسألهم على ما يبذل لهم من أجر، أي أجر، مهما كان قليلاً وخفيفاً، دل على ذلك قوله: "وما أسألكم عليه من أجر"[1].

6. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

ليس معنى ذلك أنه لا يطلب أجراً مطلقاً، إنها مثالية خيالية بالنسبة إلى البشر، وهو لا يدّعيها، بل هو ضامن أجراً يظفر به عند رب العالمين، فقد تكفل الله عنالمدعوين، بأجر الدعاة إلى دينه وعبادته، فقال نوح عليه السلام: "إن أجري إلا على رب العالمين" أي: ما أجري الذي أستحقُّه إلا على كفالة رب العالمين، فهو وحده الضامن، وهو وحده الذي تحمّله وتكفل به، وهو وحده الذي أثق بأنه سيمنحني إياه، وبما أن أجري على رب العالمين، ولا أسألكم منه شيئاً قليلاً أو كثيراً، فإني أعيد عليكم مقالتي لكم، وأنا متصف بكامل التجرد من أية مصلحة أطلبها لنفسي منكم[2].

7. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾:

---

1 الميداني، المرجع السابق، ص 65.

2 الميداني، المرجع نفسه، ص 65.

وهنا يكرر عليهم طلب التقوى والطاعة، بعد اطمئنانهم من ناحية الأجر والاستغلال: "فاتقوا الله وأطيعون"، ولكن القوم يطلعون عليه باعتراض عجيب، وهو اعتراض مكرور في البشرية مع كل رسول[1].

8. ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾:

لقد استكبر قوم نوح عن اتّباعه، وتعلّلوا بأنه قد اتبعه الأرذلون فيمن اتبعه، فهم لا يستجيبون لدعوة يكثر في أتباعها الأرذلون، ولما كانت كلمة الأرذلين قد تعني: متهمين بفعل القبائح الرذائل، وأهل الطبقة الدنيا والمهن الحقيرة[2].

إنَّ الفقراء هم السابقون إلى الرسل والرسالات، وإلى الإيمان والاستسلام، لا يصدهم عن الهدى كبرياء فارغة، ولا خوف على مصلحة أو وضع أو مكانة، ومن ثم فهم الملبُّون السابقون، فإما الملأ من الكبراء فتقعد بهم كبرياؤهم، وتقعد بهم مصالحهم القائمة على الأوضاع المزيفة، المستمدة من الأوهام والأساطير التي تلبس ثوب الدين، ثم هم في النهاية يأنفون أن يسويهم التوحيد الخالص بالجماهير من الناس، حيث تسقط القيم الزائفة كلها، وترتفع قيمة واحدة قيمة الإيمان والعمل الصالح، قيمة واحدة ترفع قوماً وتخفض آخرين، بميزان واحد هو ميزان العقيدة والسلوك القويم، ثم يجيبهم نوح الجواب الذي يقرر القيم الثابتة، ويحدد اختصاص الرسول، ويدع أمر الناس وحسابهم لله على ما يعملون[3].

---

1 السيد قطب، المرجع السابق، 2607/5.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 66.

3 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2608/5.

9. ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ* وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾:

"وما علمي بما كانوا يعملون" على أنهم قالوا له: أنؤمن بك وننقاد لك والحال أنه اتبعك الأرذلون، وأنت تعلم أنهم أرذلون، ليسوا أخفياء عليك، فأجابهم بقوله: "وما علمي بما كانوا يعملون" أي: وما تأثير علمي بما كانوا يعملون في دعوة ربانية أمرني الله بأن أبلغها لجميع قومي دون استثناء، أليسوا بشر مطالبين بالإيمان والعمل الصالح، مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية في نظركم طبقة خسيسة، ألا يستحقون مثل غيرهم ثواب الله والجنة إذا آمنوا وعملوا صالحاً؟ ألا يستحقون مثل غيرهم عقاب الله والنار إذا كفروا وعملوا سيئاً؟ أليسوا بشراً قابلين للتوبة والإصلاح مهما كانت أعمالهم رذيلة سيئة قبل الإيمان واتّباع الرسول؟

وإذا كنت أعلم بما كانوا يعملون من سيئات، فهل من وظيفتي أن أحاسبهم عليها؟ إنما رسول مبلِّغ رسالة ربي، وأما حسابهم على أعمالهم فعلى ربي، وهو الذي سيحاسبهم يوم الدين "إن حسابهم إلا على ربي" أي: ما حسابهم إلا على ربي، فعلمي بما كانوا يعملون، لا يجعلني اترك دعوتهم وهم بشر من عباد الله، مسؤولون كسائر البشر عن الإيمان والعمل الصالح، وهم في الحياة الدنيا ممتحنون كغيرهم، وسيُحاسبون يوم الدين، وسيجازون على أعمالهم كغيرهم.

وبيَّن لهم نوح عليه السلام أن هؤلاء الذين يروهم الأرذلين هم بشر مثلهم، ومسؤولون تجاه ربهم عن الإيمان والعمل الصالح، وأنه مرسل من ربه لدعوتهم ودعوة غيرهم من قومه، وليس مبعوثاً لطبقة اجتماعية خاصة دون طبقة.

وبعد أن أبان نوح عليه السلام ذلك، أعلن لهم برفق تمنّيه أن يشعروا بهذه الحقائق، فقال لهم: "لو تشعرون":أي: أتمنى لو تشعروا بهذه الحقائق، والشعور بالشيء هو أول مراحل إدراكه، لعله مأخوذ في اللغة من الشيء يُلامس الشيء فيحسّ به الإنسان إحساساً خفيفاً، ثم انتقل توسّعاً إلى الإدراكات الفكرية الأولى الخفيفة، ثم تأتي بعد الشعور إدراكات أقوى قد توصل إلى العلم فاليقين.

ومع هذا التمني يلمح عليه السلام أنهم ما زالوا في جهالة مطبقة، إذ لم يصلوا بعد إلى مرحلة الشعور بأولى الحقائق التي يدعوهم إلى الإيمان بها[1].

وطالبوه بأن يطرد هؤلاء الذين اتّبعوه مؤمنين به وبما جاء به، وهم الذين وصفوهم بأنهم الأرذلون واعتبروا طرده لهم شرطاً لقبول اتباعه، والإسلام له.

دلّ على ذلك ردّه عليهم[2]بقوله: "وما أنا بطارد المؤمنين"، وما أنا بطارد أي فرد أو جماعة دخلوا في سلك جماعة المؤمنين، فالإيمان يجعلهم من الأمة الربانية، مهما كان وضعهم الاجتماعي قبل ذلك، ومهما كان سلوكهم من قبل، فالإسلام يجب ما قبله.

وأخيراً أبان نوح عليه السلام لقومه وظيفته التي أمره الله أن يقوم بها تجاه المكذبين الجاحدين فقال لهم: "إن أنا إلا نذير مبين"، أيّ: ما أنا بالنسبة إلى غير المستجيبين لدعوتي، الرافضين لها بعد البيان إلا نذير مبين.

فهو عليه السلام ينذرهم بعذاب الله إذا أصروا على كفرهم وعنادهم وكبرهم، وهو عليه السلام واضح في رسالته كل الوضوح، يدعو كل طبقات المجتمع، وكل أفراده المؤهلين

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 68.

2الميداني، المرجع السابق، ص 68.

لإدراك الدعوة، أن يؤمنوا ويسلموا، وليس صاحب تنظيم سري يخفي فيه بعض مبادئه وغاياته، ويجمع على ما يخفي فيه بعض الناس دون بعض.

إنه عليه السلام "مبين" واضح كل الوضوح، من فعل "أبان" بمعنى: ظهر واتّضح، فهو "مبين" أي: ظاهر واضح، وهو أيضاً مبين لكل عناصر دعوته لا يخفي منها شيئاً، من فعل "أبان" الشيء إذا أظهره ووضّحه.

وهكذا كل المرسلين المبعوثين من رب العالمين، وهكذا كل رسالات الله للناس، إنها ذوات بيانات واضحات معروضات للجميع على السواء.

وجاء تخصيص وصف "نذير" بالذكر هنا؛ لأن المخاطب من قومه لم يستجيبوا له، ولم يؤمنوا به وبما جاء به، فهو لهم – وهم على هذا الوصف– "نذير"[1].

فلما واجههم نوح عليه السلام بحجته الواضحة ومنطقه المستقيم، وعجزوا عن المضي في الجدل بالحجة والبرهان، لجأوا إلى ما يلجأ إليه الطغيان كلما أعوزته الحجة، وخذله البرهان، لجأوا إلى التهديد بالقوة المادية الغليظة التي يعتمد عليها الطغاة في كل زمان ومكان، عندما تعزهم الحجة، ويعجزهم البرهان[2].

10. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ* قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

إنَّ قوم نوح عليه السلام، عجزوا عن الدفاع عن باطلهم أمام البراهين الحجج التي أقامها عليهم نوح عليه السلام، وأفلست عقولهم حتى عن التفكير في الحصول على شبهة

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 69.

2السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1/ 2608.

يتمسكون بها للثبات على باطلهم، فاضمحل باطلهم أمام سطوع الحق، وتضاءلت جهودهم أمام ثبات نوح، وفترت عزائمهم أمام صبره، وخارت قواهم أمام قوة الحق، فما كان منهم إلا أن طلبوا منه أن يكف عن دعوتهم إلى دينه، وعن بيان ما هم عليه من الضلال من عبادة الأصنام التي هي دين آبائهم وأجدادهم، ومن طبيعة الحال أن لا يوافقهم على هذه المطالب، إذ كيف يصح لنوح عليه السلام أن يكف عن دعوتهم وقد أرسله الله إليهم، أيرضيهم في سخط الله؟، وذلك أمر يستحيل وقوعه من نبي اختاره الله لحمل رسالته مهما اشتد الخطب عليه، وعظمت التضحية، ولما لم يُجْدهم نفعاً كل تلك التوسلات في الكف عن تجهيلهم، وما هم عليه من الضلال لجأوا إلى استعمال القوة والتهديد بالقتل ظناً منهم أن هذه الوسيلة تريحهم من الإزعاج، وتنجيهم من الهزائم المتكررة، وفي ذلك قالوا فيما حكى القرآن عنهم: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾، والرجم هو القتل بالحجارة، وهو من أشد أنواع القتل فتكاً، وذلك يدل على المدى الذي بلغ بهم الحقد على نوح عليه السلام[1].

وهكذا الطغاة يلجأون إلى القوة والتهديد والوعيد، عندما يجدون أنفسهم وقد حاصرهم أصحاب الحق من كل جوانبهم بالحجة الواضحة، وبالرأي السديد[2].

وهكذا أسفر الطغيان عن وجهه الكالح، وكشف الضلال عن وسيلته الغليظة، وعرف نوح عليه السلام أن القلوب القاسية لن تلين.

1عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 56.

2 محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م، 1/ 3172.

هنا توجه نوح إلى السميع العليم، إلى الولي الناصر الذي لا ملجأ سواه للمؤمنين: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[الشعراء: 117- 118]** ، وربه يعلم أن قومه كذبوه ولكنه البث والشكوى إلى الولي الناصر، ورد الأمر إلى صاحب الأمر﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فاقض واحكم بيني وبين قومي منتصراً لأوليائك على أعدائك، فقد وصل قومي إلى مرحلة مطمع بعدها في استجابتهم إلى دعوة الحق، ولم يبق إلا أن تفصل الحكم والقضاء المعجل يا رب بحكمتك بيني وبينهم[1]،"فافتح بيني وبينهم فتحا" يضع الحد الأخير للبغي والتكذيب، "ونجني ومن معي من المؤمنين"، واستجاب الله لنبيه الذي يتهدده الطغيان بالرجم؛ لأنه يدعو الناس إلى تقوى الله، وطاعة رسوله، لا يطلب على ذلك أجراً، ولا يبتغي جاهاً ولا مالاً[2].

11. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾:

أي: فاستجبنا له دعاءه مباشرة، فحكمنا بإغراق الأرض بالماء، وبنجاة نوح ومن آمن معه في الفلك المشحون، وأمرنا بصنعها، وقام بأعمال الصنع حتى كملت، وجاء الموعد المقرر، وأمر الله نوحاً بركوبه السفينة، وأن يحمل معه فيها من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول، ومن آمن، وركبوا، ورفعها الماء بارتفاعه، وجرت بهم، وأنجيناه ومن معه مما توعّده به قومه."وفي الفلك المشحون": أيّ: المملوء. فالشحن هو ملء السفينة وإتمام جهازها كله.

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 71.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2608/5.

12. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾:

أي: وبعد مدّة متراخية عن نجاة نوح والذين آمنوا معه، من وعيد قومه لهم، أغرقنا الباقين كلَّهم، فدلَّت هذه الآية بنصّها وبفحواها ولوازم دلالاتها على أن القوم أخذوا يتسارعون إلى الجبال وكل مرتفع من الأرض فراراً من تكاثر المياه المنصبة من السماء والمتفجرة من الأرض، فكان أكثرهم قوة في الصعود إلى أعالي الجبال والاحتماء بها أكثرهم في تأخير ساعة الغرق عن نفسه، لكن الماء كان يلاحقه صعوداً شيئاً فشيئاً، حتى أغرقت المياه أعالي رؤوس الجبال الشامخة، عندئذ تم إغراق جميع الباقين في الأرض من قوم نوح، وهم الذين لم يركبوا معه في الفلك، واستعمال كلمة "الباقين" يدلُّ على أن الغرق عمَّ كل قوم نوح، باستثناء الذين حملتهم الفلك[1].

وهكذا في إجمال سريع، يصور النهاية الأخيرة للمعركة بين الإيمان والطغيان في فجر البشرية، ويقرر مصير كل معركة تالية في تاريخ البشرية الطويل، ثم يجيء التعقيب ببيان العظة من هذه القصة، ويربطها بما يلائمها من صفات الله عز وجل[2].

13. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾:

- "إن في ذلك لآية": أي: إن في ذلك الذي جرى من عقاب رباني شامل لقوم نوح لآية يتعظ بها من تفكّر وتدبر، ولم يطغه هواه، ولم تُعْمِ بصيرته شهواته، ونزغات الشياطين.

- "وما كان أكثرهم مؤمنين": أي: وما كان أكثر الذين شملهم الغرق مؤمنين بأن الله سينزل بهم عقابه، وبأن إنذارات نوح عليه السلام نازلة بهم.

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 73.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2608/5.

إنَّ عبارة "وما كان أكثرهم مؤمنين" تدلُّ على أن بعضهم – وهم قلة – كانوا يخشون هذه العاقبة نوع خشـــية، إلا أن تبعيتهم العمياء لقومهم جعلتهم يســـيرون مع قومهم، رغم تخوفهم من تحقق ما أنذرهم به نوح عليه السلام.

ونســـتدل من هذا أن من الظواهر الاجتماعية في المجتمع البشـــري موافقة بعض القوم بالنســبة للغالبة منهم، متنازلين عن مفاهيمهم الخاصــة بتأثير التبعية الجماعية. ولما كانت القصة تشتمل على ظاهرتين متضادتين:

- **الظاهرة الأولى**: إغراق قوم نوح بطوفان شامل، وهو أثر من آثار عزة الله وقوّته الغالبة.

- **الظاهرة الثانية**: إنجاء نوح ومن معه في الفلك المشـــحون، محفوظين بالحفظ الرعاية والعناية البالغة، وذلك من آثار رحمة الله.

قال الله عزَّ وجل في آخر بيان القصـــة: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ **[الشـعراء: 122]**، فذكر في هذا الختام اسمه "العزيز" أي: القوي الغالب، واسمه "الرحيم"، فما أكمل الدقة البيانية في كلام الله عز وجل وما أبدعها؟ [1].

خامساً: نوح التحدي الأكبر:

كان نوح عليه الســلام لما واجهه قومه بالأذى واتهموه بالجنون والضــلال وســخروا منه، وأســاؤوا الأدب معه وتوعّدوه بالرجم وغير ذلك، تحدّاهم أكبر التحدي، حتى قال بعض

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 76.

أهل العلم: إن معجزة نوح – صلوات الله وسلامه عليه – تتمثل في ذلك التحدي الذي تحدى به قومه[1].

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ* فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ **[يونس: 71- 73]**.

ويظهر من النصِّ القرآني توجيه الله عز وجل للرسول محمد ﷺ بأن يتلو على كفار مكة في أواسط العهد المكي هذه القصة؛ تعريضاً بأنهم قاربوا بأفاعيلهم ضدّ الرسول والذين آمنوا معه المرحلة التي يلائمهم فيها أن يوجه لهم مثل هذا التحدي الذي وجهه نوح – عليه السلام – لقومه، فإن لم يكفهم هذا التعريض تحداهم الرسول محمد ﷺ بمثله صراحة، وهذا من بدائع أساليب التربية والتوجيه غير المباشر، فلنتابع فقرات النص بالتدبر.

1. ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ﴾:

أي: بعد طرح المناظرات التي اشتملت عليها سورة "يونس" قبل هذا النص، اتل عليهم يا محمد نبأ نوح، زمن قوله لقومه: يا قوم: "إذ" ظرفية، وهي بدل اشتمال من "نبأ" كذا

[1] عثمان محمد الخميس، فبهداهم اقتده قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، دار إيلاف الدولية للنشر، الكويت، ط1 2010م، ص 65.

قالوا، وأرى أن "إذ" ظرف عامله محذوف تقديره كما يلي: واتل عليهم نبأ نوح الكائن إذ قال لقومه: يا قوم[1].

2. ﴿ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾:

أمر الله نبينا أن يتلو على قومه المعاندين الذين يشـــبه حالهم حال قوم نوح في العناد والإصرار والاستكبار، وأن يتلو من نبأ نوح هذا المشهد وهذا القول منه، لقومه يقول لهم: إن كان ثقل عليكم وشق على نفوسكم مقامي فيكم مذكراً واعظاً زاجراً ناهياً، وتذكيري إياكم بآيات الله ســـواء ما نزل في كتابه من تعاليم ووصـــايا أو آياته الكونية المذكرة به، والمحذرة من عقابه[2].

3. ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

أي: فأقول لكم على الله وحده لا غيره توكلت في أن يُحبط ما تكيدون وتدبّرون وينجيني منكم، ينزل بكم عقابه، ويُلقي عليكم عذابه، دلّ على الحصـــر تقديم المعمول "على الله" على عامله "توكلت"، وإذ توكلت على الله وحده لا شريك له:

4. ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾:

أي: فأحكموا كلّ أمركم الذي تســـتطيعون تدبيره وإحكامه، باتفاق عام تُجمعون عليه متّحدين، وادعوا كل شركائكم من دون الله، ليجمعوا أمرهم ويشدّوا أزركم، ويمدوكم بقوى من عندهم من الجن والإنس والأصنام التي تدعونها من دون الله تبارك وتعالى[3].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 77.

2 تفسير سورة يونس، ص 246.

3 عثمان محمد الخميس، المرجع السابق، ص 65.

5. ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾:

أي: ولا يكن أمركم الـذي تُجمعون عليـه للتخلّص مني تـدبيراً مبهمـاً لا تعرفون كيف تنفذونه، ولا يكن أمركم تجاهي كرباً ضـاغطاً على صـدوركم، لا تعرفون كيف تنفسـون، فإني أعلن لكم هذا التحدي لتواجهوني بما تدبرون من كيد ضـدي صـراحة وعلانية، وبذلك تخرجون من غمة الحيرة والتردد [1].

6. ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾:

أي: وبعد أن تجمعوا أمركم وتدبروا كل مكايدكم وتتريثوا حتى تتأكدوا من أنكم قادرون على التخلص مني دون أن تتعرضـوا لآية مشـكلات، اقضـوا وامضـوا ما دبرتم من أمر [2]، سواء إعدامي أو رجمي، افعلوا ما تشاؤون [3].

7. ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾:

أيّ: ولا تمهلوني لحظة واحدة، مهما ظهرت لكم دواع لإمهالي، وهذا غاية في التحدي، لكن من كان مثل نوح عليه السـلام، وقد توكل على الله وحده لا شـريك له ضـامن من ربه بتوكّله عليه وتحدّيه لقومه، أن ينصـره ولا يخذله، وأن يردّ كيد أعدائه في نحورهم، وأن يعيذه من شرورهم [4].

إنَّه الإيمان بالله وحده الذي يصل صاحبه بالله القوي العزيز، فليس هذا التحدي تمرداً ولا تهوراً، بل هو تحدي بالله وثقة في حفظه ونصـره وعونه المسـيطر على هذا الكون بما فيه

---

1 الميداني، المرجع السابق، ص 78.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 79.

3 عثمان محمد الخميس، المرجع السابق، ص 65.

4 الميداني، المرجع نفسه، ص 79.

وبمن فيه، فأين القوى الهزيلة الفانية أمام قوة الله وجبروته وعزته التي يعتصـــم بها نوح عليه السلام.

8. ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَـــأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾:

أيّ: فإن توليتم على الاسـتجابة لما دعوتكم إليه، فأدبرتم وأدرتم لبلاغاتي ظهوركم، وتوليتم أيضـــاً عن إجماع أمركم على التخلص مني بالقتل، فاعلموا أني ما ســـألتكم على الخير العظيم الذي حملته لكم من أجر، حتى يكون توليكم ونفوركم مني اتهاماً لي بالمصـــلحة الشـخصـية عندكم، وتخلصـاً من بذل الأجر لي، واعلموا أنه ما أجري الذي هو مقرر لي إلا على الله الذي أرسـلني إليكم لأبلغكم رسـالاته، واعلموا أني مثلكم مأمور من قبل ربي أن أكون واحداً من المسلمين[1].

وبعد عرض هذا التحدي الذي تحدى به نوح عليه السـلام قومه، إذ اقتضـت المرحلة التي نزلت فيها سـورة "يونس" ذكر هذا التحدي على طريقة التعريض لمشـركي مكة، أبان الله عز وجل عاقبة قوم نوح ليكون التذكير بها موعظة وعبرة للمشركين[2].

9. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾:

أي: فكذّبوه وتوعّدوه بالرجم هو ومن آمن معه، إن لم ينته عن متابعة دعوته كما جاء في سـورة الشـعراء السـابقة نزولاً، فحكمنا عليهم بالإغراق، وأمرنا نوحاً بصـنع الفلك، وأنجز

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 79.

2 المرجع نفسه، ص 80.

نوح عمله، وبدأت بوادر الطوفان، وأمرناه بأن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين، وأهله ومن آمن معه، وركبوا وجرت بهم الفلك ونجيناه ومن معه.

10. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾:

وجعلناهم خلفاء ورثوا الأرض، وخلفوا من أهلكوا، فكانوا خير خلف لشر سلف [1].

11. ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾:

وماذا كانت نتيجة الكافرين؟ بيَّنت هذه الكلمات الكريمة ما حلَّ بالمكذبين، بأن الله أغرقهم وعبَّر عن إغراقهم بنون العظمة، وعبر عن المكذبين بالاسم الموصول "الذين" وصلته "كذبوا بآياتنا"؛ ليسجل حيثية حكم الإغراق واستحضار جريمتهم، وأضاف الآيات العظيمة إلى نون العظمة ليدلل على عظمتها، وعظمة من ساق الآيات وأوقع على الكافرين الغرق والهلاك [2].

وفي هذه الآية يتبيَّن التنبيه على عظة تحدّي الرسل، فمن اعتبر بها اتعظ وخاف مغبة التعرض لهم بسوء، ويكتشف متدبر هذه الآية أنها ترمي إلى عدة أهداف: ففيها تحذير للكافرين من أن يتعرضوا لمثل ما تعرض له قوم نوح، وفيها توجيه للرسول محمد ﷺ بأن باستطاعته إن شاء أن يتحدى المشركين مثل ما تحدى نوح وقومه، وأن يتوكل على الله فإن الله سينصره كما نصر نوحاً عليه السلام والذي آمنوا معه، وفيها تطمين لقلوب المؤمنين مع الرسول ﷺ بأن عاقبة أمرهم أن ينصرهم الله وينتقم من مضطهديهم [3].

---

1 أحمد نوفل، تفسير سورة يونس، ص 251.

2نوفل، تفسير سورة يونس، ص 251.

3 الميداني، المرجع السابق، ص 81.

سادساً: صفات قوم نوح عليه السلام:

ذكر القرآن الكريم صفات قوم نوح عليه السلام والتي من أهمها:

1. ﴿كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

لم ترد "عمين" في القرآن إلا في موضعين، جاء هنا بالنصب في قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64]، وفي الآخر بالرفع: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: 66]."عمين": عمى القلوب غير مستبصرين [1].

وجاء ابن عاشور وفصل إجمال من سبقه، فقال: عمين جمع عم، صفة على وزن فعل مثل أشر، مشتق من العمى، وأصله فقدان البصر، ويطلق مجازاً على فقدان الرأي النافع، وقد غلب في الكلام تخصيص الموصوف بالمعنى المجازي بالصفة المشبهة لدلالتها على ثبوت الصفة، وتمكنها بأن تكون سجية [2].

والعَمى عمى البصر، والعِمى عمى البصيرة، وعمين جمع عم، وهو جمع مذكر سالم [3].

وقد أكد الله ضلالهم، فهم ضالون قد أعمى الله تعالى بصائرهم، وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى الأفئدة التي في الصدور [4].

2. الظلم:

1الزمخشري، الكشاف، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ، 1407 هـ، 2/ 109.

2 محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (8/ 198).

3 أحمد عبد السلام، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن، دار المدار الإسلامي للطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2011م، (4/ 355).

4 أبو زهرة، زهرة التفاسير، 6/ 2882.

اللافت أن وصف الظلم بحق قوم نوح تكرر سبع مرات في القرآن الكريم منها:

– قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: 70]. في هذه الآية بدأ الله عزَّ وجل بالتذكير بقوم نوح – عليه السلام – وما جرى لهم، بعد ذلك ذكّر بقوم عاد فقوم ثمود فقوم إبراهيم، فأصحاب مدين والمؤتفكات[1].

والمؤتفكات: هي قريات قوم لوط المنقلبات عليهم لدى إهلاكهم، يقال لغة: ائتفكت الأرض إذا انقلبت بمن عليه،﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، الفاء: هي الفاء الفصيحة، تفصح عن محاذيف. أي: كفروا وكذبوا رسلهم وظلموا وطغوا وبغوا فقضى الله بعقابهم، فعاقبهم عقاباً معجلاً في الدنيا ليكونوا عبرة لمن يَعتبر، وعظة لمن يتعظ، وما ظلمهم الله بما أنزل بهم من عقاب، وما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. وجاء الفعل المضارع؛ ليفيد استمرار ظلمهم لأنفسهم حتى هلاكهم، وليفيد استحضار تلك الصورة البشعة القبيحة لظلمهم حتى تنفر منهم الطباع السليمة، ويذمهم أهل الحق من بعد[2].

– وفي سورة الفرقان قال الله عزَّ وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: 37]. في قوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾: أي: للمشركين من قوم نوح، ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: في الآخرة، وقيل: أي: وهذه سبيلي في

---

1 الميداني، المرجع السابق، ص 313.

2 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 188.

كل ظالم [1].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ **[النجم: 52]**.

- وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود: 44]**.

- وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ **[العنكبوت: 14]**.

لقد أمسى الظلم عند قوم نوح ظاهرة لا على مستوى الآحاد والأفراد، وإنما على مستوى المجتمع كله، والظلم يجوز أن يراد به الشـــرك: ﴿ إِنَّ الشِّــرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ **[لقمان: 13]** من جهة، أو الاعتداء على أهل الحق؛ لأن الكافرين كانوا يؤذون نوحاً عليه الســـلام بشـــتى الأساليب من جهة أخرى، أو أنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب، وترك شكره تعالى، وصرفهم نعمه إلى غير ما أعطاهم إياها لأجله، فاستحقوا ذلك العذاب[2].

وها هنا وقفة براقة للراغب كعادته يقول: الظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصـــــان أو زيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز [3].

ويفهم من كلام الراغب أن الظلم لفظ عام يدخل فيه - إضـــافة إلى ما ســـبق- الكثير الكثير من المعاني كالجحود والإضـــرار بالنفس والســـرعة والكذب والخيانة والغيبة والنميمة وغير ذلك من مرذول الأخلاق [4]، ولهذا يســـتعمل الظلم في الذنب الكبير وفي الذنب

1 مصطفى العدوي، التسهيل لتأويل التنزيل تفسير الفرقان، المرجع السابق، ص 123.

2 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 189.

3 المفردات في غريب القرآن، المرجع السابق، ص 326.

4 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 190.

الصغير [1].

وقوم نوح ارتكبوا الظلم بأنواعه ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: 37]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: 27].

وجاء الفعل الماضي في الآيتين السابقتين في هود والمؤمنون مرتبطاً بالاسم الموصول مرتين إشارة إلى توغل الظلم فيهم، خاصة أن كلا الآيتين ذكرت العقوبة بعد الظلم مباشرة ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ والتعبير بالفعل الماضي يدل على استفحال الظلم فيهم وتحققهم به، والارتباط بالاسم الموصول يُشير إلى اتساع دائرة ظلمهم كل الاتساع[2].

3. قوم سوء:

وهذا الوصف لم يرد في قصص الأنبياء إلا لقومين:

– قوم نوح عليه السلام، وقد ورد في حقهم مرة واحدة في سورة الأنبياء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: 76- 77].

– وقوم لوط، وردت في شأنهم في سورة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: 74].

---

1 المفردات في غريب القرآن، المرجع السابق، ص 327.

2 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح، ص 188.

والملاحظ أن الوصفين قد جاءا في سياق قوم لوط وقوم نوح - عليهما السلام- متتالين وفي السورة نفسها. والتعبير بـ"قوم سوء" دلالة على انهاكهم في الشر [1]، وأنهم فعلوا القبيح المكروه [2]، وإضـــافة القوم إلى الســـوء إشـــارة إلى أنهم عُرفوا به، والمراد به الكفر والعناد والاستسخار برسولهم عليه السلام [3].

4. الكفر والكذب:

هم قوم كذبوا الرسول مراراً وتكراراً بقولهم أو فعلهم على انغماس هذا التكذيب في حبات قلوبهم، فكفى بهذا التكذيب كفراً وعناداً وانحداراً عن الفطرة وخصائص الرجولة[4].

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ **[القمر: 9]**.

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ **[الشعراء: 105]**.

وقال تعالى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ **[المؤمنون: 24]**.

5. فاسقون:

وردت مرتين في سياق قصة نوح عليه السلام، ومعناها أنهم تجاوزوا الحدود فيما كانوا فيه من الكفر والمعاصـــي[5]، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِـــقِينَ﴾ **[الذاريات: 46]**.

---

1 الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 17/ 109.

2 محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 17/ 112.

3 ابن عاشور، المرجع نفسه، 114/17.

4 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 191.

5 المرجع السابق، ص 191.

وفسق قوم نوح كان من كل أنواع الفسق، فهم فاسقون بالكفر والشرك، وفاسقون بالظلم العدوان، وفاسقون بالبغي والطغيان، بارتكاب الكبائر من القبائح، وبارتكاب الفواحش، فأضاف هذا النص وصف قوم نوح بأنهم فاسقون[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ **[الحديد: 26].**

وعقب الزمخشري على قوله تعالى في سياق قوم نوح وإبراهيم عليهما السلام، فقال: إن الغلبة كانت للفساق، وهذا له دلالة واضحة على اقتراف المنكرات وكثرة الفساد وانتشار الرذائل والخروج عن طاعة الله من كل وجه [2].

6. الطغيان:

وردت مرة واحدة في القرآن الكريم بهذه الصيغة "افعل" في حق قوم نوح على الراجح مقترنة بالظلم ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ **[النجم: 52].**

والطاغي: المجاوز للحد، والظالم: واضع الشيء في غير موضعه، فالطغيان أشد من الظلم، وجاء التعبير بصيغة التفضيل: "افعل" لأنهم سمعوا المواعظ وطال عليهم الأمد ولم يرتدعوا حتى دعا عليهم إلا بعد الإصرار العظيم [3].

فهم بلغوا الغاية من الطغيان وكانوا أشد تمرداً من الذين بعدهم، فكان جزاؤهم من جنس عملهم ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ **[الحاقة: 11].**

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 164.

2أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح، ص 191.

3 تفسير الرازي، 29/ 24، بتصرف يسير.

وهكذا بعد تتبُّع صفات قوم نوح عليه السلام في الآيات السابقة يظهر أمامنا مجتمع أسوأ ما يكون التزاماً وأخلاقاً ونسيجاً، طغى فيه كل شيء حتى بلغ الذروة في السوء والفسق والظلم والطغيان والكذب والكفر، وهذه المنظومة من الرذائل تشير إلى غيرها من المصائب والدواهي، كالكبر والمكر والترف والعناد والانهماك في المعاصي والتبعية العمياء، والطبقة المقيتة – فإن المعصية ولود حقود– وغيرها من العلل والأمراض التي جعلت منهم بيئة كريهة تكاد رائحتها تزكم الأنوف.

إنه يبدو مجتمعاً مريضاً، تتحكم فيه شرذمة من الأغنياء والكبراء يدور حولهم أقوام عطلوا عقولهم من رعاع الناس، وسفهائهم، ومجموعة غارقون في وحّلِ الرذيلة حتى آذانهم، وقد انتكست فطرتهم، وجمدت مشاعرهم، وتوقفت أجهزة الاستقبال والإرسال عندهم، فلا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فكان تطهير الأرض منهم واستئصال شأفتهم أمراً إلهياً عادلاً، أباد خضراءهم، وقطع دابرهم، والحمد لله رب العالمين[1].

سابعاً: معوقات قبول دعوة نوح عليه السلام:

تحدث القرآن الكريم عن سيرة قوم نوح – عليه السلام – وأبرز أمراضهم وآفاتهم وصفاتهم، كما تحدث عن المعوقات التي منعتهم للاستجابة لدعوة التوحيد وإفراد العبادة لله عز وجل التي نادى بها نوح عليه السلام، ومن أهم المعوقات التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الكريم:

1. المعوّق الأول: الكِبر

1 أحمد سليمان الرقب، المرجع السابق، ص 192.

- معنى الكِبر: أكثر تعريف جامع له في قوله ﷺ: "الكِبر بطر الحق وغمط الناس"[1] ، وغمط الناس هو الازدراء بهم واحتقارهم[2]، وهو خلق باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعني يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.

ويظهر الكبر في قوم نوح في آيات عديدة من قصته منها: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ **[الأعراف: 63]**. وحينما جهر في دعوتهم قالوا له: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ **[الشعراء: 111]**. وقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود: 31]**.

وجاء التصريح في سورة نوح عليه السلام بمنتهى الوضح ﴿ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ **[نوح: 7]**، دلالة على رسوخ هذه الصفة القبيحة فيهم، وهذا الاستكبار تبرز من ثناياه ملامح الطفولة البشرية العنيدة، فيحاولوا كل جهدهم إغلاق آذانهم حتى لا يتسرب إليها صوت الحق بتاتاً، وهي صورة غليظة للإصرار والعناد، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار[3].

وهذا الاستكبار دليل على وجود الحجاب الكثيف، والغطرسة النفسية عن سماع دعوة الحق، وتلك مبالغة تتفق مع أوضاعهم، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم مع ذلك صار المانع من السماع أقوى، وكما قيل: من شر أنواع الكبر ما يمنع من

---

1 صحيح مسلم، رقم 108.

2 الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، المرجع السابق، 19/ 518.

3السيد قطب، المرجع السابق، 6/ 3712.

اســتفادة العلم، وقبول الحق والانقياد له، وقوم نوح عليه الســلام فعلوا ذلك كله للعلة الكامنة في نفوســهم، فهم "قوم نوح" اســتكبروا على ما جاء به نوح عليه الســلام من الدعوة إلى الله تعالى، من حيث تعزّز النفس وترفّعها عن الانقياد، وهم يظنون أنهم محقون في ذلك، وتارة يمتنعون مع المعرفة، ولكن لا تطاوعهم أنفســهم للانقياد للحق والتواضع للرسول الكريم[1].

وقال الله عز وجل في كتابه: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ **[النحل: 23]**، وقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ **[الإسـراء: 37]**. ووردت أحاديث كثيرة في ذم الكبر منها: عن عبد الله بن مســعود رضــي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"[2].

2. المعوّق الثاني: العناد:

العناد من صـور الكبر والاسـتكبار، والمعاندون: هم الذين يتحاملون على الدعوة الدعاة، ويتهمونهم، ويسيئون بهم الظن، ويتصدّون لهم ولما يدعونهم إليه من حق[3].

وجاءت صــيغة "عنيد" في القرآن الكريم أربع مرات، كلها في ســياق الذم- كما يلي - مع ملاحظة أنه لم يرد من مشتقاتها غيرها:

- قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ **[هود: 59]**.

---

1 أحمد سليمان الرقب، المرجع السابق، ص 196.

2 صحيح مسلم، رقم 91.

3 الرقب، المرجع نفسه، ص 197.

- وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15].

- وقال تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: 24].

- وقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ [المدثر: 16].

وقد اشتهر قوم نوح بالعناد، وكان من معوقات عدم الاستجابة لدعوة نوح عليه السلام، فلم يزدهم دعاء نوح لهم إلا الابتعاد والفرار من الدعوة ومضمونها ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ [نوح: 6].

فالعناد والإصرار، هما صفتان من أظلم قلبه وعقله عن النور الإلهي، فظن أن النور الباهر قد يذهب بصره؛ لأنه ألف العيش في مستنقعات الرذيلة وفي دياجير الظلمة، كالخفافيش، فنشأت من ظلمة بصره ظلمة بصرية، التي لا يعود بعدها قادراً على الانتفاع بالوحي الإلهي، وهذا ما حدث لقوم نوح عليه السلام فأساؤوا الظن به وبنواياه عناداً واستكباراً، فمنعهم العناد من الاستفادة من النور والهدى الذي جاء به من عند الله عز وجل.

3. المعوّق الثالث: التقليد الأعمى:

إنَّ تقليد الآباء والجمود على العادات، كان - في كثير من الأقوام - سبباً في وقوفهم أمام دعوات الرسل والأنبياء عليهم السلام، ويُلحظ أن معظم الآيات التي تحدثت عن اتباع الآباء جاءت في معرض الذم، وإن كنا لا نعدم موضع قد زكّت اتباعهم القائم على البرهان الدليل: كما ورد على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38].

وتقليد الآباء والتعصــــب لهم بدأ في مرحلة مبكرة من تاريخ البشـــرية من خلال قوم نوح عليه الســـلام الذين ركبوا متن الغواية، فســـاروا خلف آبائهم الأولين دون تدبر وتمحيص، فاتجهوا إلى أشد أنواع التقليد عماً وجهالة، وهو التقليد المتجه إلى العقيدة، والعبادة [1].

ويظهر هذا الدّاء الوبيل عند قوم نوح عليه الســــلام في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ **[نوح: 21].**

فاتبعوا أغنياءهم ورؤســـاءهم الذين أبطرتهم الأموال والأولاد، فهكلوا وخســـروا ســـعادة الدارين، فصاروا أسوة لهم في الخسارة، والمقصود أنهم استمروا على عصيانهم لنوح عليه الســلام، واتباعهم لذوي الجاه والمال، لا أنهم أحدثوا عصــياناً جديداً، ولا اتباعاً جديداً، وفي ذلك إشـارة إلى أن الرعاع من قوم نوح عليه السـلام مؤاخذون بعصـيانهم، وليس لهم عذر في أنهم تابعون لسادتهم، فما الإيمان إلا تحرير للنفس والعقل.

كما أن قوم نوح عليه السـلام لم يهتدوا إلى معرفة الحق من الباطل، والصـدق من الكذب بأنفسـهم، بل رجعوا إلى الآباء، شـأنهم شـأن الضـعيف الذي لا يثق بنفسـه، ويعيش على حســاب غيره، فإذا جاء الدليل وأحاط به البرهان، ولزمته الحجة رجع إلى الآباء يتمســح بهم، وإلى الأولين يحتكم إليهم [2]، فكان الرجل من قوم نوح عليه الســــلام إذا بلغ له ولد وعَقلَ الكلام، وصاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح ما عاش أبداً.

إنه مشـهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول، هذا الاسـتعباد الذي يسـلب الإنســـان خصـــائص الإنســـان الأصـيلة: حرية التدبر والنظر، وحرية التفكير والاعتقاد،

1 عباس العقاد، التفكير ضرورة إسلامية، المكتبة العصرية، بيروت. صيدا، لبنان، 2008م، ص 20.

2أحمد سليمان الرقب، المرجع السابق، ص 200.

ويدعه عبداً للعادة والتقليد، وعبداً للعرف والمألوف، وعبدا لما تفرضـــه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور، وهكذا اســـتعجل القوم العذاب فراراً من مواجهة الحق، بل فراراً من تدبر تفاهة الباطل الذي هم له عُبَّد[1].

ولقد جهد نوح وســـعه في صـــرف قلوب قومه عن التعلق بموروث الآباء، ونبه على أن الســـبق في الزمان ليس آية من آيات العرفان، وإنما للســـابق واللاحق في التمييز والفطرة سيّان، فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما يُقيّده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورد إلى مملكته فيه بحكمه وحكمته مع الخضـــوع في ذلك لله تعالى وحده والوقوف عند شريعته[2].

إنَّ التقليد الأعمى خطر داهم، أصاب البشرية بالويلات لا على مستوى العقيدة والعبادة فقط، بل على جميع المستويات، وما يشهده العالم الإسلامي اليوم من وضع بائس، ومن تبعية قاتلة وتقليد شـــامل يؤكد خطر هذا الجرثوم وآثاره المدمرة، فليس تقليد اليوم تقليد آحاد أو عشـرات، أفراد أو جماعات، وإنما تقليد وتبعية دول كاملة بقضـها وقضـيضـها، لدول قوية مستعمرة أو مستغرِبة حتى اختلط الحابل بالنابل، وأمسى المسلمون في حيص وبيص تبعية أخلاقية واجتماعية وسـياسـية واقتصـادية في كل شـيء، حتى دخلنا وراءهم جُحر الضـب الكريه، حذو القذة بالقذة، وصـدق فينا قول رسـول الله ﷺ:"لتتبعن سُـنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه"[3]

1السيد قطب، المرجع السابق، 1311/3.

2 محمد عبده، رسالة التوحيد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2009م، ص 160.

3 أحمد سليمان الرقب، المرجع السابق، ص 201.

ومن هنا أزرى القرآن بالتقليد والمقلدين في الباطل، وحقّر من شـأنهم فقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ* وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ **[البقرة: 170- 171].**

"قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا" فأصـروا على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم عصـبية، وكيف يؤثرون العرف الموروث على هدى الله المشـروع، أذلك إذا لم يكن لآبائهم عقل ينضبط بتوحيد الله، ولا هدي مستقيم بتنزيل الله[1].

وازدراء لشأنهم وتحقيراً من أمرهم فوصفهم في تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم بالراعي للبهائم السائمة ينعق ويصيح بها في سوقها إلى المرعى، ودعوتها إلى الماء، وزجرها عن الحمى، فتجيب دعوته وتنزجر بزجره بما ألفت من نعاقه بالتكرار، شـبه حالهم بحال الغنم مع الراعي يدعوها فتقبل، ويزجرها فتنزجر، وهي لا تعقل مما يقول شـيئاً، ولا تفهم له معنى، وإنما تسـمع أصـواتاً تُقبل لبعضـها، وتُدبر للآخر بالتعويد، ولا تعقل سـبباً للإقبال والإدبار[2].

فما أعظم التقليد – في الباطل- والقول المتقبل بغير برهان، وما أعظم كيد الشـيطان للمقلّدين حين استـدرجهم إلى أن قلّدوا آباءهم في عبادة التماثيل، وعفّروا لها جباههم، وهم معتقدون أنهم على شـيء، وجادّون في نصـرة مذهبهم، ومجادلون لأهل الحق عن

1حسن الترابي، التفسير التوحيدي، دار الساقي، بيروت، لبنان، 2004م، 137/1.

2 محمد رشيد رضا، تفسير المنار: تفسير القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، 93/2- 94.

باطلهم، وكفى أهل التقليد سُبّة أن عبد الأصنام منهم[1].

4. المعوّق الرابع: الوثنية:

الوثن: واحد الأوثان، وهو حجارة كانت تعبد من دون الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ [العنكبوت: 25]، والوثنية: هي مذهب عبدة الأوثان. وجاء ذكر الأوثان ذمّاً لها في ثلاثة مواطن من القرآن الكريم، وفي سياقين:

- **الأول**: الأمر باجتنابها موصوفة بالرجس مقرونة بقول الزور، وفيه إشارة لا تخفى في الحط من شأنها، والتقبيح من أمرها: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: 30].

- **الثاني**: الذم لها وعدم نفعها البتة لا في الدنيا ولا في الآخرة: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ [العنكبوت: 17]. ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ [العنكبوت: 25].

واللافت للنظر أن كلا الموضعين الأخيرين وردا في سورة العنكبوت التي شبهت عبادتهم للأصنام من دون الله ببيت العنكبوت لا يغني عنها في حرّ، ولا في برد، ولا في مطر، ولا أذى[2].

---

1 الزمخشري، الكشاف، 240/1. وانظر: الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح ، ص 202.

2تفسير القرطبي، المرجع السابق، 229/13.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 41]، أي: وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت لتفاهته وحقارته، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوهم[1].

وتظهر وثنية قوم نوح في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]، فكان قوم نوح هم أول من عبد الأصنام في الأرض، وقد بينت كيف بدأ هذا الشرك الكبير في صفحات سابقة.

وتجدر الإشارة أن الأصنام المذكورة في الآية السابقة هي أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخصوها بالذكر في قلوب العامة المضللين للحيمة والاعتزاز، وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهلية بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية، وقد حرض الملأ من قوم نوح على تعبئة الجماهير للتمسك بعبادتها وعدم الاستجابة لدعوة نوح عليه السلام وقد أضلوا كثيراً ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام.

5. المعوق الخامس: الملأ:

إنَّ الحديث عن الملأ في القرآن -كما سيظهر - جاء في أكثر من سياق، وذلك لخطورة ذلك الأمر على جميع المستويات، وفي مختلف العصور؛ لأن نشوء الحضارات أو كُبوّها منوط بطبيعة وأخلاقيات القمة المؤثرة، وليست المشكلة في طغيان هؤلاء القادة فحسب، ولكن المشكلة تزداد تعقيداً عندما تجمد الأمة وتصبح قطعاناً تؤجر عقولها وطاقاتها وإمكاناتها لأولئك القادة الوهميين، والذين سيجرّونها طوعاً أو كرهاً إلى الهاوية والجحيم[2].

1 محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، 2/ 461.

2 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح، ص 207.

والملأ: الرؤســـــاء والوجهاء الذين يرجع إلى قولهم. وترددت كلمة الملأ في القرآن الكريم ثلاثين مرة منها:

- مرتان في مقام التشريف حين ذكر الله الملأ الأعلى بقوله: ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ص: 69]، وفي سورة الصافات: ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ [الصافات: 8].

- وخمس مرات على معناها الظاهري وهم كبار القوم وأصـــحاب الرأي والمعرفة، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ [يوسف: 43].

- وثلاث وعشرون مرة في مواطن الاستعلاء والكفر والتمالؤ ضد الأنبياء عليهم السلام مثل: ﴿ قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص: 20] وغيرها.

وكذلك جاء وصفهم في القرآن الكريم نحو: الأحبار والرهبان، أكابر القوم، المترفين، أئمة الكفر، الملوك، المجرمين، الظالمين، شياطين الإنس [1].

وقد تحدثنا في الجدال الذي حدث بين الملأ ونوح عليه الســـلام، واتهاماتهم لنوح بأنه في ضـــلال مبين، وأنه بشــر مثلهم، وأنه يريد أن يتفضـــل عليهم، وأن أتباعه من الفقراء والضعفاء، وكيف رد نوح على كل تهمة وجهت إليه.

وبيَّنت سورة نوح مكر الملأ الكبّار، وجمودهم على الوثنية، وتقاليد الآباء والتحريض على نوح، وإيذائه ومن معه من المؤمنين ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ

1الرقب، المرجع السابق، ص 208.

وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا* وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾

[نوح: 22- 24].

- **أسباب عداوة الملأ للدعوة والدعاة عديدة**، من أهمها:

– **الكِبر**: هم يتصورون أن الدعوة إلى الله تعالى وإلى طريق الحق ستُقلص نفوذهم، وتُذهب رواءهم، وربّما قضت على مكانتهم نهائياً، وهو تصور لا يكون صحيحاً، إلى إذا كانوا من الظالمين الذين يعيشون على غمط الحق، ويبنون حياتهم على هدم حياة الآخرين، وأما إذا كانوا أهل حق وعدل ومساواة فإن الدعوة إلى الله تعالى تكون أكبر حصن لهم، وأحسن أمان [1].

– **حب الرياسة والجاه**: يقول الشيخ محمد الغزالي في هذا الصدد: إننا نلحظ في أحوال الأمم المكذبة أنها لا تبحث قضايا الألوهية والبعث والاستقامة بحثاً موضوعياً تُعمل فيه ما وُهب لها من عقل، وتمنحه ما يستحق من عناية، إنها تهتم بشيء آخر يجب أن نكشفه، فإن جرثومته لا تزال تفسد الأمم حتى عصرنا الحاضر. ماذا طلب نوح من قومه؟ قال لهم: "أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون"، ثم وصف لهم الإله الذى يدعوهم إلى عبادته ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً لكن قوم نوح لم يفكروا في هذا الإله وعظمته وحقوقه، بل فكروا في أنفسهم ومكانتهم ومالهم وجاههم، وحسبوا أن الدعوة الجديدة ستجعل نوحاً فوقهم درجة، وتجعل قمت سبق إلى اتباعه أعلى قدراً، والغبي يرى في الذكاء تحدياً له، ويخاصم كل شيء يتوجس منه[2].

1الرقب، المرجع السابق، ص 209.

2 محمد الغزالي، المحاور الخمسة للقرآن، دار الشروق، القاهرة، ط1 2000م، ص 108.

– **الجهالة والسفاهة**: الجهل: هو على ثلاثة أضراب: الأول: هو خلو النفس من العلم، وهو الأصل. والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه. والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً. والسّفه: خفة في البدن، واستعمل في خفّة النفس لنقصان العقل[1].

- **من أعمال الملأ:**

– **المكر**: قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ **[نوح: 22]**.

وهنا وقفة ثاقبة لأبي السعود قال: وأما المقصود بالمكر إما أن يكون صرف نوحاً عليه السلام من إنفاذ دعوته، وإما صرف العامة عن اتباعه، فإن القصد الاحتمال الأوّل، فهو تحريض العامة على إيذاء نوح عليه السلام وقتله، وإن كان الاحتمال الثاني هو المراد، كان قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ **[نوح: 23]**، تفسيراً له وأيضاً لهذا المكر[2].

وكلا الأمرين عظيم، سواء صدّ الناس عن الحق، أو التآمر التحريض على قتل نبي الله نوح عليه السلام، ولهذا وصف المكر بأنه "كبّار" أيّ: عظيم وكبير، ولكن التآمر على القتل أشدّ؛ لأنه صد عن سبيل الله وغاية في المبارزة بالعداوة[3].

ومن مكرهم قَولهم: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضالين كافرين، وعلى آبائكم بأنهم كانوا

1المفردات في غريب القرآن، المرجع السابق، ص 100.

2 الرقب، المرجع السابق، ص 212.

3 تفسير أبو السعود، المرجع السابق، 40/9.

كذلك، ولما كان اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقاً شديداً، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ "آلهتكم"، وقالوا "لا تذرن آلهتكم" صارفاً لهم عن الدين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمى الله كلامهم مكراً[1].

ومن خلال ما تقدم يتضح أن المكر: ضرب من الاحتيال، وأنه كان صفة بارزة في قوم نوح عليه السلام، بل في كل واحد منهم، وهم يلجؤون إلى المكر والحيلة لتدبير الشر نحو من يتصورون أنهم أعداء لهم، وعندما يفشل المكر يلجؤون إلى البطش والتنكيل.

– **الترف**: يظهر الترف في قوم نوح في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ **[نوح: 21]**.

والمعنى هنا أن الأصاغر منهم اتّبعوا رؤساءهم وأهل الثروة منهم، الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدينا وعقوبة في الآخرة[2]، ومجتمع قوم نوح عليه السلام كان مكوّناً من طبقات عدة: الرؤساء والمرؤوسين، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء.

والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال، ويجدون الخدم والراحة، فينعمون وبالراحة والسيادة، حتى تترهّل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجون، وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوا

---

1 التفسير الكبير، 142/30.

2 الشوكاني، فتح القدير، 5/ 300.

وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها[1].

وللترف أضرار كثيرة فهو: يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسد المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب، ومن هنا حارب الإسلام الترف، وأقام نظمه الاجتماعية على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة؛ لأنهم كالعفن يفسد ما حوله، حتى ينخر في السوس، ويسبح فيه الدود، ويؤدي الترف إلى الكبر الغطرسة على عباد الله، والكذب والنفاق، وأكبر الأضرار وأشدها خطراً الوقوف في وجه دعوة الحق، ومنع وصول أنوارها وأشعتها إلى تلك العقول المظلمة الغارقة في سبات عميق[2]. وهذه أهم المعوّقات التي واجهت دعوة نوح عليه السلام.

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 4/ 2217.

2الرقب، المرجع السابق، ص 216.

المبحث الرابع: بيان نوح لربه تجاه قومه وشكواه من معصيتهم له ودعاءه عليهم في سورة نوح

أولاً: بيان نوح لربّه وما قام به تجاه قومه:

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا* ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ **[نوح: 5- 9]**.

1. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا* فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾:

أي: جعل نوح عليه السلام دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم، وأنه يترصّد الوقت الذي يتوسّم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره من أوقات النشاط، وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال وهي أوقات الليل[1]. ويفهم من الآيات الكريمة أنه كان قريباً منهم، يتحيّن أيَّ فرصة للتأثير عليهم من ليل أو نهار، من غير فتور ولا تعطيل، في وقت دون وقت[2].

كان نوح عليه السلام يغشى قومه جماعات وأفراداً، بالليل والنهار، بلا كلل ولا ملل، فيدعوهم إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويعرض عليهم رسالته، ويبلغهم ما أمره الله بتبليغه إياه من قضايا الدين، والوعد والوعيد، ويذكّرهم بآيات فيتلو عليهم، وصبر عليهم صبراً عظيماً[3].

1محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 174.

2الرقب، المرجع السابق، ص 174.

3الميداني، المرجع السابق، ص 179.

لكنّ دأبه الطويل في دعائه لقومه لم يؤثر فيهم، وكلما زادهم دعاء زادهم ذلك منه فراراً.

وجاء التعبير بالفرار كناية عن أشد صور عدم الاستجابة للدعوة، حتى كأن الداعي أسد يريد أن يفترسهم وهم يفرون منه خوفاً وذعراً فلا يحاولوا تفهّم أي شيء يعرضه نوح عليهم.

وأشد من هذا التعبير في التوبيخ ما ذكر الله بشأن بعض قادة كفار قريش، الذين فروا من دعوة رسول الله محمد ﷺ فقال عز وجل في سورة المدثر: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ* كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ* فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ **[المدثر: 49 -51].**

"حُمُر": أيّ: حمر وحش. "مستنفرة": أي: نافرة. "فرت من قسورة": أيّ؛ فرت من أسد مفترس، أو من جماعة من الصيّادين، فكلمة: "قسورة" تُطلق في اللغة على الأسد، وتطلق على جماعة الصيادين[1].

2. ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾:

أي: فكان دأبهم المتكرر، وعاداتهم التي لا يتخلون عنها، كلما دعاهم نوح عليه السلام إلى الإيمان والإسلام والطاعة، مُطمعا إياهم أن يغفر لهم من ذنوبهم التي سلفت منهم، أن يقابلوا دعوته لهم بعملَين جسدين وعملَين نفسيين:

فالعملان الجسديان هما:

1الميداني، المرجع السابق، ص 180.

الأول: أن يضعوا أصابعهم في آذانهم، لئلا يَسمعوا كلامه، ويشعروه بأن أقواله في الهواء لغير سامع، فالأولى له أن لا يُتعب نفسه بالتحدث لمن لا يسمع كلامه شيئاً، ويشعروه بأن أقواله قد صارت محفوظة لديهم مكررة، فنفوسهم تشمئز منها وتتقزّز من سماعها، وعليه أن ينصرف عنهم[1]. وهذه الحركة تشير إلى سوء أدبهم وتصرفهم مع نبي الله نوح، واستهزائهم به، وهذه الحركة تدل على ضلالهم واقتراب هلاكهم[2].

الثاني: أن يستغشوا ثيابهم، أي: أن يجعلوا ثيابهم أغشية وأغطية على وجوههم لئلا يروه، ويشعروه بالإدبار عنه وبأنهم عنه في حجاب، وبأنه صار ثقيل الظل كريهاً لديهم، فهم ينفرون من رؤية وجهه، وفي هذا مع وضع أصابعهم في آذانهم غاية الازدراء والامتهان، وإشعاره بأن عليه أن ينصرف عنهم، وظل نوح عليه السلام يدعوهم صابراً محتسباً أجره عند الله غير مكترث بما يقابلونه به من ذلك.

والعملان النفسيان:

الأول: إصرارهم على الكفر وعنادهم، ورفضهم أن يستجيبوا له، دلّ عليه "وأصروا".

أصرّ على الأمر، إذا ثبت عليه ولزمه، وأكثر ما يستعمل في الآثام والقبائح[3].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 181.

2عقيد خالد العزاوي، التصوير القرآني وسياقاته الدلالية، دار العصماء للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2016م، ص 34.

3الميداني، المرجع السابق، ص 181.

الثاني: استكبارهم المسرف الشنيع المؤذي، عن طاعة الله واتباع رسوله، دلّ عليه "واستكبروا استكبارا": أي: استكباراً مسرفاً قبيحاً مؤذياً، فحركة وضع الأصابع وتغطية وجوههم عنه بثيابهم تدل على استكبارٍ شنيع مؤذٍ، بلؤم وخسّة [1].

وهذا يدلُّ دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهيتهم لدعوة نوح عليه السلام، وكان بإمكان هؤلاء أن يبتعدوا عن الدعوة، وأن ينصرفوا عنها دون الحاجة إلى مثل هذا التصرف، لكنه إمعان في الضلال وزيادة في العناد[2].

3. ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾:

أي: ثم بعد اليأس من دعوتهم جهاراً، اتخذت أسلوب الإعلان والإسرار، بحسب اختلاف أحوال الناس، وبحسب ملاءمة الظروف.

"أعلنت لهم": دعوت أفرادهم وجماعتهم علانية، وذلك بأسلوب التحدّث العلني من الناس، وهو أسلوب غير أسلوب الخطابة، إنه أسلوب هادي يتحمّل السؤال والجواب، والمناقشة والمجادلة، والأخذ والردّ، والمراجعات، وأما عنوان الخطابة والخطبة فهو ما جاء التعبير عنه في النص بعبارة "جهاراً". ويدخل في "أعلنت لهم" ما نعرفه في مصطلحاتنا اليوم بالدّرس والمحاضرة والمحادثة، والحوار والمجادلة ونحو ذلك.

"وأسررت لهم إسراراً": أي: دعوت أفراداً منهم بأسلوب الحديث السرّي، وذلك لأن بعض الناس يكرهون أن يوجّه إليهم النصح أو التعليم مع الناس بطريقة علنية، ويتقبلون ذلك إذا كان بطريقة سرّية.

1الميداني، المرجع نفسه، ص 181.

2عبد الرزاق أدهم الجميلي، العقيدة في القرآن أولو العزم من الرسل نموذجاً، ص 164.

وقد اتخذ نوح عليه السلام هذا الأسلوب مع من يرى أنهم يكرهون أن يُوجّهوا أو يُعلّموا أو يُنصحوا أو يُدّعوا بطريقة علنية، فهم لا يستجيبون بطريقة الأسلوب العلني؛ لأنه في تصورهم ينقص من مكانتهم لدى الجماهير التي تكبر من شأنهم، وتراهم عظماء في أفكارهم وآراءهم ومفاهيمهم وتصرفاتهم، فكيف يستجيبون لداع يدعوهم إلى ترك ما هم عليه من عقائد وأنواع سلوك في الحياة[1].

وجاء تأكيد فعل "وأسررت" بالمفعول المطلق "إسراراً" للدّلالة على أنه ظل كاتماً حديثه الذي أسرّ به إليهم، لم ينشره ولم يتحدث به للناس ليكون ذلك أدعى للتأثير فيهم، أو المراد: إسراراً شديداً مبالغاً فيه، فهو مفعول مطلق لبيان النوع[2].

ودلَّ النصّ ببياناته على أن أساليب الدعوة التي قام بها نوح عليه السلام كانت كما يلي:

- المرحلة الأولى: كانت دعوته لقومه بأسلوب البث العام، في كل الأوقات التي يحسن انتهازها لدعوة القوم من ليل أو نهار، إذ كان يغشى الأفراد فيدعوهم، ويغشى الجماعات فيدعوهم، فيبين ويشرح، ويقيم الحجج، وينصح ويرغّب، ويرهّب، واستمرّ على ذلك حقبة من الزمن.

- المرحلة الثانية: صار يتصدّى للخطابة بالصوت الجهير في المجامع والمحافل التي يتيسر له أن يخطب فيها، ومعلوم أنّ الخطابة يدخل فيها – مع الإقناع الفكري – أسلوب الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، وأسلوب استخدام القصص والأمثال وفنون القول المحرّك للعواطف، والمثير للانفعالات التي تُهيء المناخ النفسي للاستجابة، ويدخل في الخطابة

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 183.

2 المرجع نفسه، ص 183.

تنويع أســاليب الأداء والعرض للأفكار التي يُراد عرضــها، وتصــريف لهجات الصــوت ونغماته بما يُلائم المضــــامين الفكرية، ما بين ترقيق وتحزين، وإثارة وتهييج، ودغدغة طيبة لمختلف انفعالات النفس.

وفي الخطابة كم يجود بخيل، ويشــجّع جبان، ويبكي ضــاحك، ويضــحك باك، ويفرح حزين، ويحزن فرحان، ويتســلى مهموم، ويهتم ســالٍ، وفي لســان الخطيب المفوّه الحكيم أدوات التســخين والتبريد للنفوس والقلوب والأفكار وقيادتها بامتلاك المشــاعر، واســتمر على ذلك حقبة من الزمن.

- المرحلة الثالثة: أخذ يمارس دعوته بأســـلوبين: فالذين يرى أن الإعلان لهم لا يُنفرهم، يُعلن لهم أفراداً أو جماعات. والذين يرى أنهم يســـتكبرون عن الإعلان لهم بالدعوة، ويجعلهم ينفرون ابتداءً عن الاســـتماع له، يزورهم في بيوتهم أو متاجرهم، أو معاملهم، أو مزارعهم، أو أماكنهم الخاصة، فيحدثهم سراً، ويدعوهم إلى دين الله [1].

لقد اختار نوح عليه الســـلام الأســـاليب المناســـبة، وتدرج بها في مجال الدعوة إلى الله وتوحيده، وإفراده بالعبادة، وبين نوح عليه الســـلام أن الســـرية والعلنية ليســـتا منهجين وأســـلوبين ثابتين في العمل الدعوي، وإنما ذلك يتحدد حســـب الظروف والإمكانات المتوافرة، ومصلحة العمل وحجم القوى المضادة، والأهداف القريبة والبعيدة المتوخّاة.

ولقد مارس نوح عليه السلام دعوته ابتداءً علانية وجهاراً، ولما اشتد الضغط والعنت عليه التجأ إلى الأسلوب السري، حيث إن الإجهار لم يعد من المصلحة، بل قد يكون مضراً لجهوده ورســالته، وأنه عليه الســلام يمكن أن يعمد إلى العلنية والتحرك المكشــوف كلما

1الميداني، المرجع السابق، ص 183.

شعر بالاطمئنان المعقول، وعدم المخاطرة برسالته وأتباعه وجهده، ولذا فإن السرية والعلنية مسألة تفرضهما الظروف الموضوعية، وهذا ما انتهجه نوح عليه والسلام، وهي سنة سار على نهجها رسولنا محمد ﷺ[1].

كان نوح عليه السلام مجتهداً في الدعوة إلى الله، وبذل غاية جهده، وكان يدعو قومه في الأوقات والظروف والحالات المختلفة في جدّية ودأب واجتهاد، وواصل سعيه في الدعوة "ألف سنة إلا خمسين عاماً"، قمة في الجهد، وعظمة في المثابرة، وتألقاً في الاجتهاد الذي لا نظير له، تسعمائة وخمسون عاماً يعمل بدأب ليل نهار، في السر والعلن، إنه لأمر عظيم، بل الصورة المثلى في عالم الدعوات الإلهية على الأرض، وإنه بحق نموذج فذّ، وقدوة في عالم الجد والاجتهاد في سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه، ولم تتجسّد إلا عند من اجتباهم الله واصطفاهم لرسالته، ومن سار على هداهم، واقتفى أثرهم واستلهم قبساً من سيرتهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ **[الأنعام: 90]**[2].

ثانياً: ترغيب نوح عليه السلام قومه وحثهم على الاستغفار:

رغّب نوح عليه السلام قومه بالاستغفار حتى تتنزّل عليهم الخيرات، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ **[نوح: 10- 12]**.

بعد دعوة نوح الأولى لقومه وإصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان، واستكبارهم عن اتباع رسول ربهم إليهم، صاروا على علم بمضمون دعوته، غير خالي الأذهان من أركان

1عبود الراضي، في رحاب قصص الأنبياء، 1/ 123.

2 المرجع السابق، 1/ 123.

الإيمان وأركان الإسلام، وقواعد الدين الكبرى، ولم يبقَ لهم عذر بعد التبليغ، وصاروا كفرة مذنبين عن إرادة جازمة وتصـــميم، ولا بدَّ أن يكون نوح قد أبان لهم أنهم كفرة مذنبون، ولذلك تحّول عليه السلام مع قومه من الدعوة إلى مبادئ الإيمان وأركان الإسلام، وقواعد الدين الكبرى إلى بيان ما يجب عليهم من الإقلاع عن الذنوب التي هم غارقون فيها من الكفر إلى كل ما دونه من فسوق وعصيان[1].

فحثّهم على الاســتغفار والتوبة إلى الله ســبحانه، وأنه ســبحانه وتعالى يقبل منهم التوبة مهما عظمت ذنوبهم وتكاثرت خطاياهم، فكأنه يقول لهم: لا تجعلوا خطاياكم الكثيرة حاجزاً بينكم وبين التوبة، ولهذا جاء بصـيغة المبالغة "إنه كان غفاراً"، حثاً لهم وتشـجيعاً لهم واستنهاضاً لهممهم، فإن القوم من كثرة ذنوبهم مُنع عنهم القطر من السماء، وأجدبت الأرض وضاقت بهم أنفسهم[2].

1. ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾:

أيّ: فقلت لهم: اطلبوا من الله أن يغفر لكم ذنوبكم، ومعلوم أنه لا يســتغفر الله من ذنبه إلا من صــحّ إيمانه، وأقلع عن ذنوبه، فهو إذا يدعوهم إلى الإقلاع عما هم فيه من كفر وفسوق وعصيان، ويدعوهم إلى طلب المغفرة من الله بعد ذلك[3].

وفي حديث نوح عليه الســـلام وتذكيرهم بأهمية الاســـتغفار، وطلب ذلك من الرب جل وعلا "ربكم" أهمية واضــحة في التذكير باســم الكريم الرب، والرب: هو المالك المتصـرف، ومعنى قوله تعالى "رب العالمين" ربوبيته للعالم تتضــمّن تصــرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره

1الميداني، المرجع السابق، ص 185.

2الرقب، المرجع السابق، ص 67.

3الميداني، المرجع السابق، ص 185.

كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن، يخلق ويرزق، ويُميت ويحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويصـرّف الأمور بمشـيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه [1].

والربُّ هو المربي جميع عباده بالتدبير وأصـناف النعم، وأخص من هذا: تربيته لأصـفيائه بإصـلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ولهذا كثر دعائهم له بهذا الاسـم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه التربية الخالصة[2].

والربُّ في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حدّ التمام [3]، وفيه معنى الحنو الرعاية والعطف، ونوح عليه السلام في سيرته كان مستحضراً وتعبداً وداعياً لله بهذا الاسم فعلى سبيل المثال نجد ذلك:

في قول الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾.

وغير ذلك من الآيات التي جاءت على أبدع ما يكون ضمن السياقات المعروفة في قصة نوح عليه السلام.

ومن آثار الإيمان باسمه سبحانه "الربّ":

- إن اسم "الربّ" سبحانه وما يستلزم من الأسماء والصفات، يتضمن تعريف الناس غايتهم التي خلقوا من أجلها، وتعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، فكونه رب العالمين لا

1ابن القيم، الصواعق المرسلة، 4/ 1223.

2السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 5/ 486.

3المفردات في غريب القرآن، ص 189.

يليق به أن يترك عباده سدىً هملاً لا يعرفهم بنفسه ولا بما لا ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيها، فهذا هضم للربوبية، ونسبة للرب إلى ما لا يليق: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: 115].

- الإقرار بربوبية الله عزَّ وجل – يقتضي ويستلزم توحيد الله عز وجل– وعبادته لا شريك له، إذ إن الخالق لهذا الكون وما فيه والمتصرف فيه بالإحياء والإماتة، والخلق والرزق، والتدبير هو المستحق للعبادة وحده، إذ كيف يعبد مخلوق ضعيف، ويجعل نداً لله تعالى في المحبة والتعظيم والعبادة، وهو لم يخلق ولا يملك لنفسه تدبيراً فضلاً عن أن يملكه لغيره، وهذا ما احتج الله عز وجل به على المشركين الذين أقروا بربوبيته سبحانه، لكنهم لم يعبدوه وحده، بل أشركوا معه غيره، وقد جاءت هذه الاحتجاجات الكثيرة في القرآن الكريم بأساليب متنوعة منها: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38].
- الإيمان بصفة الربوبية لله عز وجل: الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، إذ إن من صفات الرب سبحانه كونه قادراً، خالقاً، بارئاً، مصوراً، حياً قيوماً، عليماً، سميعاً، بصيراً، محسناً، جواداً، كريماً، معطياً، مانعاً، وقل ذلك في بقية الأسماء والصفات، فكل أثر من آثار الإيمان بالأسماء الحسنى هو في الحقيقة راجع إلى ما يتضمنه اسم "الرب"سبحانه[1].

1عبد العزيز بن ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، القسطاوي للطباعة والتجليد وحقوق الطباعة محفوظة للمؤلف، ط1 2018، ص 98.

يقول ابن القيم: إنَّ الربَّ هو القادر الخالق الباري المصور الحي القيوم، العليم السميع البصير، المحسن المنعم الجواد المعطي المانع، الضار النافع، المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويُسعد من يشاء، ويشقي ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى [1].

- لما كان من معاني "الرب" أنه الذي يربي عباده وينقلهم من طور إلى طور، وينعم عليهم بما يقيم حياتهم ومعاشهم، وهو الذي أحسن خلقهم، وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فإن هذه المعاني من شأنها أن تورث في قلب العبد المحبة العظيمة لربه سبحانه، وحب ما يحبّه ومن يحبّهن وبغض ما يبغضه ومن يبغضه، والمسارعة في مرضاته وتعظيمه وإجلاله وشكره وحمده الحمد اللائق بجلاله وعظمته وسلطانه وإنعامه.
- لما كان من معاني "الرب" أنه المتكفّل بأرزاق خلقه، وعنده خزائن السماوات والأرض، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، فإن هذه الصفات تورث في قلب العبد العارف لربه سبحانه قوة عظيمة في التوكل عليه سبحانه في جلب المنافع، ودفع المضارّ، وفي تصريف جميع أموره، فلا يتعلق إلا بالله تعالى، ولا يرجو إلا هو، ولا يخاف إلا منه سبحانه، إذ كيف يتعلق بمخلوق ضعيف مثله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً [2].
- لما كان من معاني الربوبية اختصاصه سبحانه بجلب المنافع ودفع المضارّ، وتفريج الكروب، وقضاء الحاجات، فإن العباد بما أودع الله في فطرهم في معرفة ربهم بهذه

1 عبد العزيز بن ناصر الجليل، المرجع السابق، ص 99.

2 الجليل، المرجع نفسه، ص 98.

الصفات – يلجؤون إلى ربهم ويتضرعون إليه في الشدائد والملمّات، وينفضون أيديهم من كل سوى الله عز وجل، وكلما عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته أثر هذا في دعائه وقوة رجائه، ولجوئه، وتضرعه لربه سبحانه، والوثوق بكفايته سبحانه، وقدرته على قضاء الحوائج[1]، وغير ذلك من الآثار في اسم الله عز وجل "الرب".

وقد استعمل نوح عليه السلام عبارة "ربكم" في حديثه لقومه، لأن ربوبية الله لهم دائمة لا تتوقف على إيمانهم بها، بخلاف عبارة "إلهكم" أي: معبودكم، إذ هم لا يعبدون ربهم.

2. ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾:

أيّ: إن من صفات الله الدائمة أنه كثير المغفرة لعباده، فصيغة "غفّار" من صيغ المبالغة، ووصْف الله بصيغة المبالغة لا مبالغة فيه، بل هي الصيغة الأقرب للدلالة على حقيقة صفة الله عز وجل. واستعمال فعل "كان" للدلالة على الكينونة المستمرة، والوجود الدائم، وهكذا سائر النصوص التي استعمل فيها هذا الفعل بالنسبة إلى صفات الله عز وجل[2].

و"الغفّار": سبحانه وتعالى: الستّار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم[3]، وقال ابن القيم:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها ... من غير شرك بل من العصيان

لأتاه بالغفران ملء قرابها ... سبحانه هو واسع الغفران[4]

1عبد العزيز بن ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، المرجع السابق، ص 98.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 185.

3 الخطابي، المرجع السابق، ص 38.

4 ابن القيم الجوزية، نونية ابن القيم الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، 2/ 231.

قال الشـيخ السـعدي: الغفور الذي لم يزل يغفر الذنوب، ويتوب على كل من يتوب [1].

وقال أيضاً: العفو والغفور والغفار: الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ **[طه: 82]**.

ومن ثمار الإيمان بأسمائه "الغفور والغفار":

- محبة الله عز وجل وحمده وشكره على رحمته لعباده، وغفرانه لذنوبهم، وهذا الأثر يثمر في قلب المؤمن توقي معاصـي الله تعالى قدر الطاقة، وإذا زلّت القدم ووقع المؤمن في الذنب فإنه يتذكّر اسمه سـبحانه الغفور والغفار، فسـيرى الرجاء في قلبه، ويقطع الطريق على اليأس من رحمة الله تعالى، ويُحسن الظن بربه الذي يغفر الذنوب جميعاً.
- فتح باب الرجاء والمغفرة للشـاردين عن الله تعالى، والمسـرفين على أنفسـهم بعظائم الذنوب كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ **[الزمر: 53]**.
- الإكثار من الأعمال الصـالحة والحسـنات لأنها من أسـباب الحصـول على مغفرة الله تعالى للسـيئات السـالفة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ **[هود: 114]**. وقال سبحانه: ﴿وَإِنِّي

---

1 عبد الرحمن بن ناصـر السـعدي، الحق الواضـح المبين في شـرح توحيد الأنبياء والمرسـلين من الكافية الشـافية، دار ابن القيم، الرياض، الطبعة الثانية، 1407هـ، ص 73.

لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82][1]. وقوله ﷺ: "وأتبع السيئة الحسنة تمحها"[2].

فكانت من مواعظ نوح عليه السلام الحسنة ترغيب قومه في استغفار ربهم، والإيمان به وبرسوله وإفراده بالعبادة، وبيّن لهم ولمن جاء بعدهم ثمار قانون الاستغفار الرباني، والتي من أهم ثماره:

3. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾:

أيّ: ينزّل الأمطار على بلادكم غزيرة وافرة، وجاء استعمال فعل "يرسل" بدل "ينزّل"، لما في الإرسال من معنى تأدية المرسَل مهمة كلَّف من أرسله أن يؤديَها، وحدّد له وظيفته فيها، وهذا ما يسمّى "الإرداف" عند علماء البديع، وهو اختيار لفظ بدل لفظ آخر هو الأصل في تأدية المعنى، وذلك لغرض بلاغي.

- جاء إطلاق "السماء" على الأمطار؛ لأنها كانت في جهة العلو سحاباً، فهي سماء، إذ كل ما هو في جهة العلو بالنسبة إلى ساكن الأرض سماء لغة، وكل ما علاك فأظلك فهو سماء لغة[3].

والمقصود بالسماء هنا - والله أعلم- ماء المطر، وإن كان من أسمائه عند العرب السماء، وفي الصحيحين عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليل[4].

1عبد العزيز بن ناصر الجليل، المرجع السابق، ص 570.

2 صحيح الترمذي، رقم 1618.

3الميداني، المرجع السابق، ص 186.

4البخاري، رقم 991. وانظر: أحمد سليمان الرقب، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح، ص 230.

- "عليكم": أيّ: على أرضكم وبلادكم ومزارعكم لمنافعكم وسقياكم وسقيا أنعامكم، ودوابّكم [1].

- "مدراراً": أيّ: إن استغفرتم ربكم يرسل المطر عليكم متتابعاً، كثير الدرور والغزارة، فيكثر الخير والخصب الغلال والثمار، ويعم الرخاء والاطمئنان، والسعادة والاستقرار [2].

4. ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾:

المال والبنون من أولى مطالب الإنسان في الحياة الدنيا، وهما مزيّنان للناس فيها، وقدم الأموال لتعلّق قوم نوح بها، في المرتبة الأولى، وأما معظم الناس فالأولويات عندهم جاءت في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ **[آل عمران: 14].**

أو يقال برجحان: إن مقداراً من المال لا يصل إلى القناطير المقنطرة يطلب قبل النساء البنين، ثم إن الاستزادة من الأموال تُطلب بعد البنين، فلكلّ من النصّين دلالته، وهما يتكاملان في الدلالة على حال الناس، ونظير تقديم المال على البنين بمقتضى هذا التعليل ما جاء في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ **[الكهف: 46].** وكذلك جاء في نصوص أخرى متعددة في القرآن الكريم [3].

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 186.

2 وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1418هـ، (29/ 142).

3 الميداني، المرجع السابق، ص 187.

5. ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾:

"ويجعل لكم" أي في الدارين "جنات" أيُّ بساتين عظيمة، "ويجعل لكم أنهاراً" يخصّكم بذلك عمّن لم يفعل ذلك، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً[1].

إنَّ الاشتغال بطاعة الله سبب يوجب زيادة البركة والنماء، وانفتاح أبواب الخيرات، وإدرار الأمطار، وزيادة الغلال، ووفرة الثمار، وقد وعدهم الله على الطاعة بخمسة أشياء: إنزال المطر، والإمداد بالأموال، والبنين، وجعل الجنات "البساتين"، وجعل الأنهار [2].

وعن الحسن البصري: أن رجلاً شكا إليه الجدب فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعاً من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له الآية "فقلت استغفروا ربكم".

ويلاحظ أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة، لذا أطمعهم نوح بالخيرات في هذه الآية، وآية الاستغفار هذه دليل على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار، قال الشعبي: خرج عمر يستسقي، فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأُمطروا، فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر ثم قرأ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[3].

---

1 البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (8/ 169).

2 د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (29/ 145).

3 مجاديح: جمع مجدح: وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهاً بالأنواء مخاطبة لهم بما يعرفونه لا قولاً بالأنواء. يمكن النظر في: وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، 29/ 146.

إنَّ من أسباب الرخاء في الأفراد والمجتمع اللجوء إلى الله بالتوبة والاستغفار، وقد ربط الله عز وجل في كتابة الكريم بين الاستغفار والتوبة، ونزول الغيث، وزيادة القوة، وكثرة الأولاد والبنين، والمتاع الحسن، هذا ما بيّنه الله في كتابه على لسان نوح عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ **[نوح: 10- 12]**.

ففي هذه الآية دليل على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق، فنوح أمرهم بالاستغفار والذي هو الإقلاع عن المعاصي، وطلب المغفرة من الله على الذنوب السابقة، وهذا ربط بين القيم الإيمانية والقيم المادية، فما كان للحياة المادية أن تسير في عزلة عن هذه القيم الأصيلة، وما كان لها أن تؤتي ثمارها من دونها، ولئن كان يبدو لنا في بعض الأحيان من حياة الأمم أن هذه القاعدة لا تنطبق، إلا أن هذا هو الابتلاء بعينه، والذي يقول فيهم القرآن: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ **[الأنبياء: 35]**.

ثم إن ذلك الرخاء الذي لا يستند إلى قيمة الإيمان، إنما هو رخاء زائف موقوت بالنسبة لأعمار الشعوب والدول والحضارات، رخاء تأكله آفات الاحتلال الاجتماعي والانحلال الأخلاقي، والظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان، وما المجتمعات الأوربية المنحلّة حديثاً إلا أكبر شاهد على ذلك[1].

---

[1] شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، الدار العثمانية، عمان، الأردن، ط1 2004م، 1/ 423.

ثالثاً: دعوة نوح عليه السلام إلى التفكر في آيات الله في الأنفس والسماوات والأرض وما فيهن:

قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا* أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا* وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا* وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا* لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ **[نوح: 13- 20].**

نمضي مع نوح – عليه السلام – في جهاده النبيل الطويل، فنجده يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله، وينكر عليهم ذلك الاستهتار[1]، في خطاب عقلي على أسس منطقية خاضعة للدليل والبرهان.

1. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾:

– "ما لكم لا ترجون لله وقارا": أي: ما لكم لا تخافون عظمة الله، فتوحّدوه وتطيعوه، وهذا استفهام انكاريّ تعجّبي، أي: ما الصّارف أو الباعث أو المفسد لكم حال كونكم لا تخشون ولا تخافون الجليل العظيم، عظمةً إذا شاء أهلككم وعذبكم عذاباً شديداً بها، لأن هذه العظمة تشتمل على كمال صفات القدرة والعلم، والعدل، وإذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، وإنكم لن تعجزوه في شيء[2].

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3713.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 188.

- "وقاراً": يأتي الوقار في اللغة بمعنى الحِلم والرزانة، والسـكينة والوداعة، والعظمة، وهذا المعنى الأخير هو المعنى المناسب للآية. والمعنى الظاهر: ما لكم لا تتوقعون آثار عظمة الله وجلاله، من ثواب وعقاب، وجاءت كلمة "وقاراً" منكّرة لما في التنكير –هنا– من دلالة على أنه وقار عظيم جداً، عظمة أجلّ من أن توصف، إذ هي تنطلق إلى غير نهاية.

وأما عبارة "ما لكم" مبتدأ وخبر، والمعنى: أي شيء حصل لكم، أي: لعقولكم وأفكاركم ومداركم وقلوبكم ونفوسكم فأفسدها وصرفها عن ترقّب وعد الله العظيم، الذي يرغب فيه ويطمع العقلاء أولوا الألباب، وصرفها أيضاً عن ترقّب وعيد الله العظيم، الذي يخشاه ويخافه العقلاء أولوا الألباب؟ أغشـي على مداركم فصـرتم لا تدركون دلائل آيات الله المشـهودة، والمسـموعة، فلا تخافون عقاب الله ولا تطمعون في ثوابه يوم الدين، وهما من آثار عظمته وجلاله.

- "وقد خلقكم أطواراً": ما لكم لا تتوقعون ثواب الله وعقابه اللّذين هما من آثار عظمته الظاهرة آثارها في خلقه والحال قد خلقكم أطوار من تراب إلى غذاء إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، إلى جنين، إلى طفل وهكذا؟.

أما دلتكم آثار هذه العظمة الجامعة لكل صـفات الكمال على أنه لا بد أن يكون من آثارها أيضاً بعثكم وحسابكم ومجازاتكم على أعمالكم في يوم معدّ للجزاء فيه دار للثواب ودار للعقاب؟.

- ما الداعي لإنكار طور العودة وأنتم تشاهدون أطوار النشأة الأولى؟

أطواراً: جمع طور، وكلمة "طور" تأتي في اللغة بمعنى "تارة" فيقال: طوراً بعد طور، أي: تارة بعد تارة، وتأتي بمعنى الحال والوصف المتميّز بخصائصه ومقاديره الذي يتحول بعد ذلك إلى وصف آخر متميّز بخصائصه ومقاديره، وهكذا، فمثلاً:

- يخلق الله الشيء أولاً من التراب، فيكون نباتاً "هذا طور".
- ثم يتغذى منه الإنسان، فيخلق الله من الغذاء دماً "وهذا طور آخر".
- ثم يخلق الله من الدّم نطفة "وهذا طور ثالث".
- ثم يخلق الله من النطفة علقة "وهذا طور رابع".
- ثم يخلق الله من العلقة مضغة "وهذا طور خامس".

وهكذا تتابع الأطوار حتى يكون الجنين إنساناً سويّاً، فخلق الشيء في صفات متحوّلات من وضع إلى وضع هو خلق في أطوار.

وينبه الخلق ضمن نظام الأطوار دواماً على التفكّر في صفات الخالق المدبّر الحكيم، والعليم القدير، إذ كل طورٍ من أطوار الخلق يوجه أنظار المتفكرين لعمل الخالق في أحداث طورٍ في الخلق بعد طور، ولو بقي الخلق على طور واحد دواماً لما حدث هذا التنبيه، ولبدا للناظر إليه أن وضعه الطبيعي الدائم هكذا، فهو لا يحتاج خالقاً [1].

وفي قول نوح عليه السلام لقومه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ **[نوح: 13- 14]** توجيه للتبصّر والتفكّر في آيات عظمة الله وقدرته في الخلق، الدالة على شمول علمه، وعظيم حكمته وقدرته وعدله، وإدراك هذه الصفات يهدي المتفكر إلى حقيقة

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 192.

البعث للحساب والجزاء، وأن يوم الدين حق لا ريب فيه، وهو توجيه ليتفكروا في أنفسهم وخلق الله لهم، حتى يتوصلوا إلى العلم، فالإيمان بصفات الله العظمى[1].

-"وقد خلقكم أطوارا": فالأطوار التي يخاطَب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بدَّ أن تكون أمراً يدركونه، أو أن يكون أحد مدلولاتها مما يملك أولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه؛ ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثّر، يقودهم إلى الاستجابة، وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم؛ لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام، يمكن أن تعطيهم فكرة عن هذه الأطوار، وهذا أحد مدلولات هذه الآية. ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة، من أن الجنين في أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم يأخذ شكل حيوان مائي، ثم شكل حيوان ثديي، ثم شكل المخلوق الإنساني، وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح، فقد كشف هذا حديثا جداً، وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين:﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ **[المؤمنون: 14]**، كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد، ولا نقيدهما[2].

ومما لا شك فيه فإن قوم نوح لديهم شيء من المعرفة المتعلقة بخلق الإنسان، ولذلك استنكر نوح عليه السلام عدم الاعتبار بهذا العلم الدال على خالق واحد﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ **[نوح: 13- 14]**[3].

---

1 الميداني، المرجع السابق، ص 193.

2 السيد قطب، المرجع السابق، 6/ 3714.

3 عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء دين واحد وشرائع عدة، مركز نماء للدراسات، بيروت، لبنان، ط1 2015م، ص 59.

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر في أنفســـهم، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطواراً، ثم هم بعد ذلك لا يســتشــعرون في أنفســهم توقيراً للجليل الذي خلقهم، وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق[1].

وبعد أن وجّههم نوح عليه السلام للتفكر في أنفسهم وجههم أيضاً للتفكر في آيات الله، في السماوات، وآيات الله في النبات، وآيات الله في الأرض.

أشار نوح عليه السلام إلى الظواهر الكونية المتقنة العظيمة في السماوات والأرض، للدلالة العقلية على تتابع تصـــاريف الخلق فيها بإتقان تام دون خالق عظيم له كل صـــفات الكمال، التي منها العلم الشـــامل والقدرة العظيمة المكافئة لتصـــريف هذه المكونات العظمى، والحكمة البالغة والعدل والعناية والرحمة[2].

إنَّ التفكر والتأمل بالعقل النيّر والفكر المستنير بصفاء الفطرة في الأنفس وفي السماوات والأرض وما بينهما يقود الإنســـان الســـوي إلى توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبودية والدينونة له، والاستعداد ليوم الدين والحساب والجزاء الأخروي.

2. ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾:

استخدم نوح – عليه السلام – المحاججة العقلية، وخاطبهم بالعقل والمنطق، ودعاهم إلى التفكر والتدبر في مفردات خلق العالم، التي تحيط بهم من سماء وأرض، وإنســـان وزرع، وشـجر وشمس، ونجوم وقمر، ذلك أن لا بد لهذه المخلوقات من خالق ورب ومنشـئ، إذ لا يمكن أن تكون هذه الموجودات دون خالق، أو إرادة صـــانع، أو يكون وجودها عبثاً

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3714.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 194.

وسدى، لقد طلب من قومه أن يستخدموا عقولهم، وينظروا إلى هذه النعم التي لا تحصى، والآيات البينات والخلق العظيم ببصـــائرهم، ويتدبروا في خلقها، ويســـتســـلموا لخالقها، ويؤمنوا به ويطيعوه[1].

فبدأ نوح بالدعوة إلى التفكر والتأمل، على كيفية خلق الله للســـماوات الســـبع، فلفت أبصـار قومه إلى أن الله عز وجل هو الخالق للسـماوات الطباق وما فيهن، وهذا قد يكون من القضـــايا المســـلمة لديهم باعتبارها من بقايا الموروثات التي ورثتها البشـــرية عن آدم المؤمنين من ذريته، وهذا هو الظاهر، وإما أن يكون من الأمور التي أقام لهم الدليل عليها حتى سـلّموا بها، وبعد ذلك أراد أن ينقلهم إلى الاقناع بما لم يسـلّموا به بالاسـتناد إلى ما سلّموا به، وكون السـماوات سبعاً، وكونها طباقاً أمران خبريان ورثهما نوح وقومه من أبينا آدم عليه السلام ومن تعليم الله له.

وهي دعوة من نوح عليه الســـلام لقومه للتفكير والبحث، ومن خلال التأمل والتدبر المستقيم يصل الإنسان إلى إدراك عظمة الله عز وجل.

وأضاف نوح عليه السلام أنها سبع سماوات طباقاً، أي فابحثوا وتتبعوا ما انفتحت أمامكم طرق البحث والتتبع، فإن من الناس من سيأتي ويبحث ويتوصل إلى ما جاء في الخبر عن السماوات السبع الطباق.

وسؤال نوح لهم عن كيفية خلق السـماوات السـبع الطباق هو سـؤال لهم عن حالة اتقانها البديع، الظاهرة آثارها في المشـاهدات المتكررة مع توالي الأزمان في سـاعات الليل والنهار دواماً، لانتزاع اعترافهم بكمـال صــــفـات الرب الخـالق، والانتقـال بهم إلى حق ربوبيتـه

1 عبود الراضي، في رحاب قصص الأنبياء والرسل، 1/ 115.

ومسؤوليتهم في الحياة الدنيا تُجاهه، فإلى قانون الدينونة والحساب والجزاء، فإلى الإيمان بيوم الدين. وقد جعل الله السـماوات السـبع طباقاً، أي: جعل بعضـها فوق بعض، كثوب داخل ثوب، أو كرات متداخلات بعضها داخل بعض[1].

والاسـتفهام في: "ألم تروا": يتضـمن هدفين: **الهدف الأول**: التلويم على عدم الاسـتفادة من هذه المعرفة بالإيمان، وبالخوف من عذاب الله ونقمته، إذا كان جواب الاسـتفهام: "بلى"، و**الهدف الثاني**: توجيه أنظار المخاطبين، لهذه الرؤية التفكّرية في خلق الله العظيم للتوصـل من خلالها إلى إدراك ما يدهش من عظمة الله ووقاره، فالإيمان به وبرسـوله وبمضـمون رسـالته، فالخوف من عقابه مع رجاء ثوابه على الإيمان العمل الصـالح واتباع الرسول[2].

3. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾:

يلاحظ أن نوحاً – عليه السلام – قد أبان لهم فيما لفت أنظارهم إليه أن القمر نور، وأن الشمس سراج، ويظهر أنهم كانوا يفرقون بين النور والسراج، إنهم إذا جلسوا في نور القمر طوال ليلة مقمرة لم يشـعروا بأية حرارة لنوره الذي يمتد إليهم، بخلاف ما لو جلسـوا في النهار في ضياء الشمس، فإنهم يشعرون بالحرارة، وقد اتصل إلى حدّ لذع أجسادهم، كما يفعل السراج المشتعل بالنار، فإنه يعطي ضياءً مصحوباً بحرارة، وشعلته تحرق من مسّها.

وهذا الذي كان قوم نوح يدركونه بالحسِّ دون أن يكونوا على علم بتفسـيره، وتحديد أسـبابه، هو من ظواهر عناية الله لخلقه، أن يدركون أنهم بحاجة إلى ضـياء حار، يبعث

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 195.

2 المرجع نفسه، ص 196.

بالحرارة باتجاه الأرض، من أجل حياة الناس فيها، فهي الوقود الضروري للحياة على وجه الأرض، ويدركون أنها بحاجة إلى مدة راحة من وطأة حرارة الشمس، فجعل الله لهم الليل، الذي تغيب فيه الشمس، ويدركون أنهم بحاجة في الليل إلى نور بارد، لا تصاحبه حرارة، فجعل الله لهم القمر.

أليس كل هذا التدبير الكوني من عناية الله بالناس، ومن الآيات الدالات على عظمته وجلاله ووقاره؟

وهذا ما لفت نوح عليه السلام أنظار قومه إليه، وأما التفسير العلمي لكون القمر نوراً، وكون الشمس سراجاً، فمتى وصل الناس إليه أدركوا أن البيان الديني قد ألمح إليه، ليدل على أن الدين حق، وأن كل بيانه صدق، فمُنزّل الدّين هو خالق الكون والعليم به[1].

السّراج: هو فيما يعرف الناس شيء يوقد فيعطي شعلة نار مضيئة، والشمس في حقيقتها التي توصّل إليها العلماء بعد ألوف السنين من عصر نوح، كرة نارية كبرى، سابحة في السماء، فاتفق الإلماح في البيان الديني مع ما توصّلت إليه المعارف الإنسانية بعد ألوف السنين.

وأما النور: فكاشف للظلمة والناس يفرقون – منذ عهد نوح– بينه وبين الضياء الحار الذي ينبعث من النار المشتعلة، إذ كان الناس يعرفون أنواراً باردة لا حرارة فيها، أقربها إلى الناس البُدائيين ما يشاهدونه من انعكاس الأضواء عن الأشياء الصقيلة العاكسة للنور، كالمرآة، وهذه الكواشف المنعكسة باردة لا حرارة لها.

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 197.

والقمر في حقيقته جسم في السماء يعكس ضياء الشمس عليه، فيأتي إلى الأرض نوراً: فاتفق الإلماح في البيان الديني مع ما توصلت إليه المعارف بعد ألوف السنين، قوله تعالى: "وجعل القمر فيهن نوراً": أي: عاكساً نوراً، أو باثّاً نوراً أو ذا نور، وقوله تعالى: "وجعل الشمس سراجا": أي: جعل الشمس فيهن كالسراج، فهو من التشبيه البليغ، أو هي سراج كوني كبير يناسب حجم الأرض وحاجتها [1].

وهكذا وجّه نوح عليه السلام قومه إلى التفكر والتأمل والتدبر في كتاب الكون المفتوح، وهي دعوة لإشارة التطلع فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة، وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه، ثم عاد نوح فوجّه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث [2].

4. ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾:

إنَّ التعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موحٍ، وهو يُكَرر في القرآن في صور شتى، كقوله تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ **[الأعراف: 58]**، وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات، كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة في القرآن الكريم، وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب، فهي توحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات من عناصرها الأولية يتكون، ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو، فهو نبات من نباتها، وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة، وكلاهما من نتاج الأرض،

---

1 المرجع السابق، ص 198.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، (6/ 3714).

وكلاهما يرضـع من هذه الأم، وكذلك ينشـئ الإيمان في المؤمن تصـوراً حقيقيا حياً لعلاقته بالأرض وبالأحياء، تصـوراً فيه دقة العلم وفيه حيوية الشـعور؛ لأنه قائم على الحقيقة الحية في الضـــمير، وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة. والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى، يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها، فيختلط رفاتهم بتربتها، وتندمج ذراتهم بذراتها، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها، ثم يخرجهم الذي أول مرة وينبتهم كما أنبتهم أول مرة، مسـألة سـهلة يسـيرة لا تسـتدعي التوقف عندها لحظة، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها.

وقد وجّه نوح عليه السـلام قومه إلى هذه الحقيقة؛ لتسـتشـعر قلوبهم يد الله وهي تنبتهم من هذه الأرض نباتاً، وهي تعيدهم فيها مرة أخرى، ثم تتوقع النشـــأة الأخرى وتحســـب حسابها، وهي كائنة بهذا اليسر وبهذه البداهة التي لا تقبل جدلاً[1].

ومن هنا ندرك أن قضـية البعث ليوم الدين، من الحقائق التي بلغها جميع الرسـل لأممهم، إذ هي داخلة في برنامج التكوين الرباني منذ قضـــــت إرادة الله عز وجل بأن يخلق الناس ليبلوهم في الحياة[2].

5. ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾:

وجَّه نوح عليه الســـلام قومه إلى نعمة الله عليهم في تيســـير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسـيرهم ومعاشـهم وانتقالهم وطرائق حياتهم: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَـاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[3].

1 السيد قطب، المرجع السابق، 6/ 3715.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 200.

3 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3715.

"بساطاً": أي كالبساط في سُطوحها على دائرة كرتها، فهي ذات سهول منبسطة واسعة وذات سطوح مختلفة، صالحة للحرث والزرع واتخاذ المزارع والبساتين الواسعة فيها، ولإقامة المدن والقُرى، وشق الطرق التي تقرّب المسافات الشاسعات، فليست كل الأرض جبالاً ذوات رؤوس عالية، ووديان سحيقة، وأغواراً، وليست هي كظهر القنفذ، بل هي بسطوحها المنبسطة صالحة لتسهيل مصالح الناس عليها، ولو كانت على غير هذه الصفة، لاشتدّ على الناس اتخاذ سبل الحياة والرزق والتنقل في أرجائها على أرضها. "لتسلكوا": أي: لتدخلوا وتعبروا. "سبلاً": جمع سبيل، والسبيل هو الطريق سواء أكان ضيقاً أو واسعاً، ويطلق على الطريق في الأرض وفي الجو، وفي البحر، وعلى المادي والحسي، وعلى المعنوي الفكري."فجاجاً": جمع فجّ، وهو الطريق الواسع، أي: لتسلكوا من الأرض طرقاً مختلفة واسعة [1].

وخاطبهم نوح عليه السلام بحقيقة قريبة من مشاهدتهم وإدراكهم، واجهتهم مواجهة كاملة، ولا يملكون الفرار منها كما لا يفرون من صوت نوح وإنذاره، فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسوطة ممهّدة، حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروباً فجاجاً، كما جعل في سهولها من باب أولى، وفي سبلها ودروبها يمشون ويركبون وينتقلون ويبتغون من فضل الله، ويتعايشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق، وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة دون حاجة إلى دراسات علمية عويصة يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض، وتيسر لهم الحياة فيها، وكلما زاد الإنسان علماً أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وآفاق بعيدة[2].

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 200.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3715.

هكذا سلك نوح عليه السلام – أو حاول أن يسلك– إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب، ومتنوع الوسائل في دأب طويل، وفي صبر جميل، وفي جهد نبيل، ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم، يقدم حسابه، ويبث شكواه، في هذا البيان المفصل، وفي هذه اللهجة المؤثرة. ومن هذا البيان الدقيق تطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة، وهي حلقة واحدة من سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العمية، فماذا كان بعد كل هذا البيان [1].

رابعاً: شكوى نوح عليه السلام من معصية قومه له ودعاؤه عليهم:

قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا* وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا* وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا* وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا* وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا* رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ **[نوح: 21- 28]**.

لما عرض نوح عليه السلام دعوته بطرق متعددة، وبأساليب متنوعة، تشوفت النفوس لمعرفة نتيجة هذه الدعوة، هل قبل قومه دعوته؟ وكيف كان قبولهم؟ وهل تخلف منهم أحد بعد هذا البيان والصبر الجميل؟

لقد اتبع نوح مع قومه أسلوب الترهيب والترغيب، وذكرهم بنعم الله تعالى، ولفت أنظارهم للتأمل في كيفية خلقهم، وخلق السماوات والأرض، ولم يأل جهداً في ذلك، يتساءل المرء

1 السيد قطب، المرجع السابق، 6/ 3715.

بعد هذا كله، ثم ماذا؟ وإذا بالجواب يأتي على لسان نوح عليه السلام الذي دعاهم إلى طاعته[1].

1. ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾:

بعد كل هذا الجهد، وبعد كل هذا الإنذار والأطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء، بعد كل هذا كله كان العصيان [2].

2. ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾:

واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلا خساراً؛ لأنهم استغلوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خساراً، إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكاب للفساد[3].

وبيَّن نوح عليه السلام أن جماهير قومه اتبعوا كبراءهم وسادتهم الذين احتلوا مراكز السيادة بين قومه بأمرين هما: أموالهم، وأولادهم، لكن زيادة أموالهم واستغناهم بذلك لم يزدهم إلا طغياناً، والطغيان زادهم عند ربهم خساراً، فوق الخسار الذي حصل لهم بكفرهم، الذين يشتركون فيه مع سائر قومه، إذ هم قد تحملوا إثم ضلالهم أنفسهم، وإثم الأعمال التي أضلوا بها أتباعهم، فحملوا بذلك مع آثامهم مثل آثام من ضلوا بسببها، فجاء في النص الاكتفاء بذكر زيادة الخسار الذي هو نتيجة الأعمال الطغيانية، عن ذكر هذه الأعمال التي طغوا بها، لأن ذكر النتيجة يدل على مقدماتها، وذكر المسبّب يدل على سببه أو

1 مجموعة باحثين، التفسير الموضوعي، 8/ 381.

2 السيد قطب، المرجع السابق، 6/ 3715.

3 عبد الرزاق أدهم الجميلي، العقيدة في القرآن أولو العزم من الرسل نموذجاً، المرجع السابق، ص 70.

أسبابه، وهذا من أساليب القرآن، التي يكتشف دلالتها من تدبر القرآن بعمق وأناة وفتح الله عليه[1].

3. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾:

لقد مكروا مكراً متناهياً في الكبر، مكروا لإبطال دعوة نوح عليه السلام، وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس، ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبّط فيها القوم[2].

وجاءت "كبّار": صيغة من صيغ المبالغة السماعية النادرة وهي مبالغة لكبير، لقد مكر هؤلاء القادة الكبراء بأموالهم وأولادهم في الإغواء والطغيان مكراً عظيماً، أوقعوا فيه أتباعهم وحاولوا إقناعهم ببطلان ما يدعوهم إليه نوح عليه السلام، وإقناعهم بالتزام ما ورثوه عن آبائهم من شرك وعبادة أوثان، وفسق وفجور وظلم وطغيان، وعادات وقبائح ومنكرات[3].

4. ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾:

قال هؤلاء السادة الكبراء لأتباعهم مؤكدين لهم على وجه الخصوص بأن عليهم أن لا يتركوا دين آبائهم في عبادة آلهتهم من الأوثان لا سيما كبارها: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر[4].

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 203.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3716.

3 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 204.

4 المرجع السابق، ص 204.

-"وقالوا لا تذرن آلهتكم": بهذه الإضافة "آلهتكم" لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم، وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأناً، فخصّوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز: "ولا تذرن ودا، ولا سواعا، ولا يغوث، ويعوق، ونسرا" وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناماً، تختلف أسماؤها وأشكالها، وِفق النعرة السائدة في كل جاهلية وتجمع حواليها الأتباع، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد [1].

-"وقد أضلوا كثيراً": أي: أضلوا القادة المبطلون خلقاً كثيراً بهذه الأصنام، أو أضلت الأصنام خلقاً كثيراً حيث توهموا أنها آلهة حق، أو أنها تنفع أو تضر، وهو وهم خاطئ، وقد استمرت عبادتها قروناً كثيرة، فقلدهم الناس دون أدلة عقلية أو نقلية، أو برهان أو حجة [2].

-"وقد أضلوا كثيراً ": ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام، أصنام الأحجار، وأصنام الأشخاص، وأصنام الأفكار...، سواء بالصد عن دعوة الله وتوجيه القلوب بعيداً عن الدعاة بالمكر الكبار، والكيد والإصرار. هنا انبعث من قلب النبي الكريم نوح عليه السلام ذلك الدعاء على الظالمين، الضالين المضلين، الماكرين الكائدين [3].

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، (6/ 3716).

2 عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م، 15/ 6113.

3 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 6/ 3716.

- "ولا تزد الظالمين إلا ضــلالاً": ذلك الدعاء المنبعث من قلب نوح عليه الســلام الذي جاهد طويلاً، وعانى كثيراً. وقد جاء عطف هذه الجملة الدعائية من نوح على قومه بالواو، والظاهر أنه لو كان دعاء نوح عليهم بســـبب كونهم قد أضـــلوا كثيراً، بأن يكون العطف بالفاء التفريعية لا بالواو، والرســول لا يدعو بزيادة ضــلال الضــالين عن الحق، فالعطف بالواو يشـــير إلى أن المعطوف بها أمر يدخل في القضـــايا التي ذكرها نوح في شكواه، فما هي هذه القضية الأخيرة؟

لقد سبق – في النص الذي تحدثنا عنه في سورة الشعراء – أن قادة قومه فقالوا له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116]، أي: لنرجمنّك أنت وأهلك، فأشــار نوح في شــكواه إلى قضــية تهديدهم له ولأهله بالرجم، وبما أنهم لم يهتدوا بعد إلى طريقة مقبولة لدى جماهيرهم ينفذون فيها ما توعدوا به، إذ أضـــلهم الله عن أن يجدوا الطريقة المناسبة، طوى نوح عليه السلام قضية التهديد هذه ودعا دعاء يتصل بها فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾.

وإذا أبرزنا المطويات في النص وجدنا الكلام يتسق على الوجه التالي: وقد أضـلّوا إضـلالاً كثيراً، وأضـلوا كثيراً من الناس وهدّدونا بالرجم، فأضـللتهم يا رب عن التوصـل إلى طريقة تقبلها جماهيرهم فلا تزد الظالمين الذين يودُّون التخلّص من بالقتل إلا ضـــلالاً، وهذا في مضمونه دعاء بأن يسلمه الله والمؤمنين معه من أعدائهم[1].

1الميداني، المرجع السابق، ص 208.

5. ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾:

بسبب ذنوبهم وإعراضهم عن الإيمان، وإصرارهم على الكفر، أغرقهم الله بالطوفان، ثم أدخلهم النار في عذاب القبر، أو أدخلهم نار جهنم، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً، لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة.

وفي هذه الآية ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة، ويطوى ذكرهم من الحياة، وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والفناء، ولا يفصل هنا قصة غرقهم ولا قصة الطوفان الذي أغرقهم، لأن الظل المراد بقاؤه في هذا الموقف هو ظل الإجهاز السريع، حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحراق حرف الفاء على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة، وسنأتي للحديث عن الإغراق والطوفان بالتفصيل بإذن الله تعالى.

6. ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾:

توضيح الآية أن غرقهم المذكور في الآية السابقة كان بسبب ذنوبهم، وبسبب دعاء نوح عليهم، فقد طال مكثه فيهم، وما آمن معه إلا قليل، وأخبره الله: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ **[هود: 36]**.

فدعا الله أن يهلك جميع الكافرين، وألا يترك أحداً يسكن داراً، حيث مكث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، وسلك كل سبيل إلى دعوتهم، لكنهم صمّوا آذانهم وتحجّرت

قلوبهم، وكانوا طغاة بغاة ظالمين، فدعا ربه أن يطهر الأرض من الظالمين حتى لا يكون هؤلاء الطغاة عقبة في وجه إيمان الجيل الجديد[1].

7. ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾:

إنك يا ربنا إذا تركت هؤلاء الكافرين الطغاة فسيحملون الناس على الشرك بدعوتهم لعبادة الأصنام، وهم في نفس الوقت يحذرون ذريتهم من اتباع نوح، فكان الرجل يأتي بابنه إلى نوح، ويقول له: احذر من هذا الرجل فلا تتبعه، فقد حذرني أبي من اتباعه وأنا أحذرك من اتباعه، وتبيّن لنوح أن الضلال أصيل فيهم، فهم أباطرة في الضلال والإضلال[2]، لذلك قال نوح: "إنك إن تذرهم يضلُّوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً". ولفظة "عبادك" توحي بأنهم المؤمنون، فهي تجيء في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنى، وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية.

ثم إنهم يوجدون في بيئة وجو يولد فيه الكفار، وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار، بما يطبعه به الوسط الذي ينشئه الظالمون، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها، وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح عليه السلام، وحكاها عنه القرآن: "ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً"، فهم يطلقون في جوّ الجماعة أباطيل وأضاليل، وينشئون عادات وأوضاعاً ونظماً وتقاليد، ينشأ معها المواليد فجاراً كفاراً كما قال نوح عليه السلام.

---

1 عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، 6114/15.

2 المرجع السابق، 6115/15.

من أجل هذا دعا نوح عليه السلام دعوته الماحقة الساحقة، ومن أجل هذا استجاب الله دعوته فغسل وجه الأرض من ذلك الشر، وجرف العوائير التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير، وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول: "ولا تزد الظالمين إلا تباراً" أي هلاكاً ودماراً، وإلى جانب هذا كان الابتهال الخاشع الودود[1].

8. ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾:

ختم نوح عليه السلام قصته في سورة نوح بهذه الآية الكريمة، وهي ترنيمة دعاء من نبي صالح[2].

- "رب اغفر لي": دعاء نوح النبي لربه أن يغفر له هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم، أدب العبد في حضرة الرب، العبد الذي لا ينسى أنه بشر وأنه يُخطئ وأنه يقصر، مهما يطع ويعبد، وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله، وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه، فاستكبروا عليه، وهو هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد، وكل هذا العناء، يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب[3].

- "ولوالدي": هو برّ النبوة بالوالدين المؤمنين -كما نفهم من هذا الدعاء- ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر، الذي أغرق مع المغرقين، كما سيأتي تفصيله في سورة هود.

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3717/6.

2 عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، 6115/15.

3 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3717/6.

- "ولمن دخل بيتي مؤمناً":وهذا دعاء خاص لمن دخل بيته مؤمناً، لأن هذه كانت علامة النجاة، وحصر المؤمنين الذين يصحبهم معه في السفينة.

- "وللمؤمنين والمؤمنات": وهذا دعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان، وشعوره بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن، وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها برباط الحب الوثيق، والشوق العميق، على تباعد الزمان والمكان، السر الذي أودعه الله هذه العقيدة، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة [1].

قال بعض العلماء: إن الذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته أهل الأرض الكفار، لجدير أن يستجيب له فيرحم بدعوته المؤمنين والمؤمنات[2].

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين كان الكره للظالمين: "ولا تزد الظالمين إلا تباراً": أي: أهلك هؤلاء الظالمين لأنهم عقبة في سبيل دعوة الإيمان والخير [3].

كان الحديث عن بيان نوح عليه السلام لربه، وما قام به من جهود تجاه قومه وشكواه لله عزَّ وجل، ودعاؤه على قومه، ونزول العقاب الرباني بهم اعتمدت على الله ثم النص القرآني وأقوال المفسرين.

وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبي الكريم نوح عليه السلام، وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين، وقد تركت هذه وتلك في القلب حباً لهذا النبي الكريم، وإعجاباً بهذا الجهد النبيل، وزاداً للسير في هذا الطريق الصاعد، أياً كانت المشاق

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3718/6.

2 محمد عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى، 126/15.

3 عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم، 1115/15.

والمتاعب، وأياً كانت التضــحيات والآلام، فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشــرية إلى أقصـــى الكمال المقدر لها في هذه الأرض، حين ينتهي بها الله العلي الأعلى، الجليل العظيم[1].

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3718/6.

المبحث الخامس: سفينة نوح والطوفان العظيم

أولاً: أوحى الله لنوح بأن لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأمره ببناء الفلك.

قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ* وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ* فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ **[هود: 36- 39].**

1. ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾:

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه، هكذا أوحى الله إلى نوح، وهو أعلم بعباده، وأعلم بالممكن والممتنع، فلم يبق مجال للمضي في دعوة لا تفيد، ولا عليك مما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء [1].

2. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾:

أي لا تحس بالبؤس والقلق، ولا تحفل ولا تهتم بهذا الذي كان منهم، لا على نفسك فما هم بضاريك بشيء، ولا عليهم فإنهم لا خير فيهم[2].

"بما كانوا يفعلون"؛ بالذي يفعلونه من الكفر والسخرية والاستهزاء والصد والأذى والتكذيب والابتئاس – افتعال من البؤس وهو الهم والحزن– أيّ لا تحزن حزن البائس

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، (1876/4).

2 المرجع نفسه، (1876/4).

المســـــكين، ولا تغتم بما كانوا يتعاطون من التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة، فقد انتهى زمان أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم[1].

يتضـــمن هذا البيان لنوح عليه الســـلام الإشـــارة إلى الحكم عليهم بالإهلاك الشـــامل، فالتيئيس من إيمان منهم يدل على أن الحكمة تقضـــي بعدم الإمهال، إذ الغاية الابتلائية قد استنفدت كل ما يلزم لها، وصار إبقاؤهم في الحياة خالياً من الحكمة فالعقاب الشامل لهم صار هو الأمر الحكيم، كما صارت متابعة دعوتهم غير مجدية[2].

3. ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾:

دلَّ قول الله عز وجل لنوح: "واصـنع الفلك" على أن وسـيلة النجاة من الغرق مركبة مائية تعوم على الماء، وتجري فيه، وأن الماء الذي ســـينزل ســـيغمر رؤوس الجبال، فاتخاذ معاقل فيها لا يعصـــم من الغرق، فلا فائدة من التفكير في اتخاذ وســيلة أخرى غير ذلك، فكان من روائع البيان الإيجازي الذي يعتمد على لوازم الأفكار الاكتفاء بجملة »واصـنع الفلك" للدلالة على كل هذه المدلولات التي يستدعيها فكر النبيه الفطن لزوماً.

ودلّ قوله تعالى: "بأعيننا ووحينا" على أن التنفيذ وخطة العمل وهندســـة بناء الســـفينة، وتحديد المواد التي تصـــنع منها وطريقة التنفيذ، أمور مســـبوقة بالوحي، ومحفوفة بالعناية والمراقبة التوجيهية، والتســديد الدائم، حتى تبلغ الفلك الغاية المقصــودة في إحكام الصـنع

1نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 144.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 107.

للأمر الذي تهيأُ له، وذلك ضـــمن إمكانات نوح المتاحة له في زمانه [1]، والمراد بالفلك السفينة.

إنَّ نوح عليه الســلام قد كان نجاراً، وكانت عنده فكرة ما عن مركبة تصـنع صـالحة لأن تقوم على الماء وتجري فيه، فهو منذ أو خطوة إعدادية يقوم بها يحتاج إلى أن يكون محاطاً بعناية الله ومراقبته التوجيهية وتسديده قبل أن يوحي إليه بالهندسة وخطة العمل.

إن عناية الله وتســديده له دائمة قبل الوحي له بطريقة صــنع الســفينة، وبعد الوحي له بذلك، فهي صـفة لها السـبق دوماً فجاءت سـابقة في البيان، كما أن الصـنع الذي دلّ عليه قوله تعالى: "واصـنع" هو تنفيذ عملي، وأوّل ملائم فكري له يخطر على البال حاجة الصـانع إلى أن يكون محاطاً بالعناية والارشـاد التوجيهي والتسـديد، فاقتضـى تصـفيف حبات العقد الكلاميّ أن تكون عبارة "بأعيننا" ملاصـقة لعبارة "واصـنع" وعقبها مباشـرة دون فاصل بينهما، مهما كان هذا الفاصل ذا أهمية شرطية.

وجـاء لفظ "أعيننـا" بصــــيغـة الجمع للـدلالـة على أحـاطتـه بأنواع من العنـايـة والتوجيه والتســديد، كالعناية بالإمداد بالقوة والعناية بتهيئة الوســائل، والعناية بالحفظ من عدوان قومه عليه إلى غير ذلك.

ودلّت "الباء" في "بأعيننا" على الوعد الكريم بأنه محوط من كل جوانبه بالعناية الربانية حتى كأنها ظرف وهو مظروف فيه، فلا يصـــل إليه ما يكره، ونظيره قول الله لرســـوله محمدﷺ : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ **[الطور: 48]**.

1الميداني، المرجع السابق، ص 108.

وأما قول الله عز وجل بشأن موسى عليه السلام وهو طفل في قصر فرعون: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: 39]. فأفرد العين وجعل التعدية بحرف "على"؛ لأن موسى يومئذ قد كام مُدللاً محفوظاً في أيدي من ألقى الله حُبّه في قلبه من أهل القصر الفرعوني، ولم يكن في قوم يضمرون له الكيد أو يريدون به السوء.

ولما كان صنع الفلك ينبغي أن يكون ضمن خطة يوحي الله بها، قال تعالى: "ووحينا" عقب قوله: "بأعيننا"، فالخطة شرط على فقه يجري كمال التنفيذ، فتطابق النص بعبارته مع الأغراض البيانية المختلفة، ومع الدلالات الفكرية، وهذا من رفيع الأدب مع ما في النص من اللمسات الجمالية البديعة[1].

4. ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾:

لقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم، فلا تخاطبني فيهم، لا دعاء بهدايتهم ولا دعاء عليهم، فقد ورد في موضع آخر حين يئس منهم دعاء عليهم[2]، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ* فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: 26- 27].

ومن المقارنة بين النصّين في سورة هود المؤمنون تبين لنا فروق تعبيرية تحمل دلالات متكاملات فيما بينها:

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 110.

2الميداني، المرجع السابق، ص 274.

فالذي في سورة "المؤمنون" وهو النص الذي نتدبره الآن، جاء فيه أن نوحاً دعا ربه "رب انصرني بما كذبون"، فاستجاب الله دعاءه فوراً فقال تعالى: "فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا" إلى آخر النص، عطفاً بالفاء الدالة على التعقيب، وبالفعل المتني للمعلوم. أما الذي في سورة "هود" وقد سبق، فقد جاء البيان فيه بالفعل المبني لغير مذكور "وأوحي" تفنناً في التعبير، وجاء فيه أن الله أيّسه من إيمان أحد من قومه في المستقبل: "لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن"، وأن الله قال له: "فلا تبتئس بما كانوا يفعلون" أي: فاهجرهم وتوقّف في دعوتهم حتى لا تتعرض لأذاهم، وأما ما كانوا يفعلونه معك من قبل من أنواع الأذى فلا تحزن من أجله، ولا تكن في غمّ وضيق بسببه، فالعقوبة نازلة فيهم، والانتقام واقع عليهم، وعطف على هذه الجملة قوله تعالى: "واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون" فهو معطوف على جملة معطوفة بفاء التعقيب، فله حكم التعقيب، فيتطابق مع نص سورة "المؤمنون"[1].

وتوقّف نص سورة "هود" عند هذا، وانتقل إلى حكاية قيام نوح بصناعة الفلك، وحكاية بعض الأحداث التي جرت بحسب الواقع.

أما نص سورة "المؤمنون" فلم يأت فيه بيان التيئيس، ولا التسلية بعد الابتئاس، اكتفاء بما جاء في سورة "هود"، ولكن جاء فيه بيان أن الله عز وجل منذ أمره بصناعة الفُلك، قال له: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾. وهكذا حتى آخر ما جاء في التعليم.

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 274.

ونلاحظ أنه في هذا التعليم السـابق لوقوع الحدث بزمن قال الله له: "فاسـلك فيها" أي: فأدخل في الفلك بانتظام.

أما ما جاء حكاية لما قال الله له عند وقوع الحدث، فقد جاء التعبير فيه: "قلنا احمل فيها" ولم يُشـر – هنا– إلى موضـوع الإدخال بانتظام، اكتفاء بما جاء في التعبير السـابق، مع ما في الأمر عند وقوع الحدث السـريع من إمكان تجاوز بعض الشـروط النظامية، وتحقيق غاية الحمل للإنقاذ، فالأمر لا يتحمّل التريّث والأناة ومراعاة الترتيبات النظامية بتمامها، فإدراك الماء المنهمر والنابع وشيك.

ولم يأتِ في نصِّ "المؤمنون" بيان أن الله أوحى له بأن يحمل معه من آمن من قومه من غير أهله؛ لأن همّ نوح قد كان موجّهاً ساعتئذٍ لتخليص نفسه وأهله الذي كانوا هم المعرضين لتدبيرات الكيد التي كان يدبرها قومه ضـدهم، أما بقية المؤمنين وهم قلة فلم يكونوا مقصودين بهذه التدبيرات[1].

لكن لما جاء الأمر التنفيذي بالإغراق، وفار التنور إنذاراً، بداية حصول الطوفان وبضرورة ركوب السـفينة بسـرعة، قال الله: "احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سـبق عليه القول ومن آمن". فأمره هنا أن يحمل أيضاً معه من آمن من قومه من غير أهله، لأن سفينته قد صارت هي الوسيلة الوحيدة في خطة الله للإنقاذ من الغرق، والذين آمنوا معه من قومه من غير أهله يسـتخفون هذا الإنقاذ، فنزل الوحي اللاحق عند بدء تنفيذ الأمر بإضافة حمل هؤلاء في السفينة.

1الميداني، المرجع السابق، ص 274.

ودلّنا هذا على أن الســـكوت عنهم في الوحي الســـابق لا يفيد عدم إرادة حملهم، وأن إضــافتهم في الوحي اللاحق لم يكن نســخاً، وإنما روعي في كل من الســكوت والبيان ما تقتضيه الحكمة الملائمة لمقتضى الحال.

وهكذا نلاحظ التكامل في النصــوص مع الإشـــارة من خلال فروق التعبيرات إلى معان مقصـــودة دلت عليها، لم تكن تســـتفاد لولا هذا الترتيب البياني الإبداعي الموزع في النصوص، مع ما تؤديه من أغراض التذكير والتوجيه والاتّعاظ في مراحل التنزيل، وما يلائم كل مرحلة لمعالجة القوم الذي كانوا يتلقّون بيانات القرآن تباعاً [1].

ونحاول أن نتدبر عناصر فقرة النص في سورة المؤمنون:

-"فأوحينا" بفاء التعقيب، أي: عقب دعاء نوح: "رب انصــرني بما كذبون"، أوحينا إليه، وجاء التعبير بنون العظمة، لأن مضـــمون الموحى به تكليف بعمل يتضـــمن دلالة على قضـــاء رباني يحدث جســـيم عظيم، هو حدث الطوفان الكبير لإغراق القوم الظالمين. والفاء في "فأوحينا" تفصـــح عن معطوف عليه محذوف، وبعض هذا المحذوف قد جاء التصـريح به في نصّ سـورة "هود"، والتقدير: فاسـتجبنا دعاءه، وقضـينا بنصـره، واخترنا إهلاك قومه الظالمين بوسـيلة الإغراق، وأعلمناه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، وأوحينا إليه أن اصـــنع الفلك بأعيننا ووحينا ...إلى آخر النص.

-"أن اصــنع الفلك": أن: تفســيرية، بمعنى "أي"، وأن التفســيرية هي التي يســبقها معنى القول دون حروف. وهذه جاءت كذلك؛ لأن الفعل الذي في "فأوحينا إليه" يتضـــمن

1 الميداني، المرجع السابق، ص 275.

معنى القول، وليس فيه حروفه، والكلام الذي بعدها هو الذي جاء تفســـيراً لما أوحى الله به إليه.

- "اصـنع": أصـل الصـنع العمل، واشـتهر في الدلالة على العمل الذي يتطلب خبارة ومهارة ما، كالأعمال الحرفيّة، ومنها قول الله تعالى بشـأن داود عليه السـلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80].

ومعلوم أن بناء سفينة تجري في بحر لجيّ وتحمل بشراً وبهائم ومواد تموينية، وتتعرض لهطول أمطار غزيرة عليها كأفواج القرب، ويتقاذفها موج كالجبال، لا بدَّ له من مهارة صـــناعية رفيعة جداً، يباشرها ذو خبرة في الهندسة والبناء والتفصيل والتركيب، ولا بد له من إحاطة بالتوجيه والتســـديد التامّيْن، حذراً من وقوع الخلل أو الخطأ الذي قد يؤدي بركابها إلى الغرق السـريع، باعتبار أن المطلوب صـنعه عمل مبتكر، لا يخضـع لتجارب وإنما يصـنع؛ ليكون هو وسيلة النجاة مباشرة بعد إتمام الصنع.

ومع أن نوحاً عليه السلام كانت له خبرة بالتجارة إلا أنه لم يكن يصنع سفناً بحرية، لذلك كان بحاجة إلى أن يوحى إليه، كيف يصنعها، وأن يحاط بالعناية والمراقبة والتوجيه والحفظ من الله عز وجل، فقال تعالى: "فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا"[1].

-"بأعيننا ووحينا": مرّ معنا تفسيره في سورة هود.

5. ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾:

1 الفُلك: مركبة بحرية تجري في الماء، انظر: الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 277.

صدر لنوح عليه السلام الأمر بصنع الفلك وهنا بدأ التنفيذ وتصوير هذا البدء "ويصنع الفلك" وموقف قومه من هذا الصنع، والتعبير بالمضارع "ويصنع الفلك" فعل الحاضر هو الذي أعطى المشـــهد حيويته وجدّته، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير، ونرى فيه نوحاً وهو منهمك في صـنع الفلك وإعدادها ونبصـر في هذا المشـهد قوم نوح وهم يمرّون، جماعة إثر أخرى يضجّون سخرية به وبعمله الجديد هذا، ولك أن تتصور ما شئت من مظاهر السخرية وأقاويلها، فالقرآن ترك تصوّر ذلك لخيالك.

– وتأمّل في ذلك قوله عز وجل: "وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَـخِرُوا مِنْهُ ": جملة حالية، تصـور لك الأمر مسـتمراً متكرراً، ذلك أنهم رأوا في عمله هذا مادة جديدة هائلة للسخرية خصوصاً وإنه يقوم بهذا العمل في مكان لا حاجة ولا محل فيه للسفن إذ كانت القصـة بين بلاد الشـام والعراق، فهم كلما مروا به وقفوا عنده يسـخرون منه [1]؛ لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر، شـأنهم دائماً في إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير. فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم في اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية:

– "قال إن تسـخروا منا فإنا نسـخر منكم كما تسـخرون": أي: إن كنتم تسـخرون منا لإيماننا أولاً ثم لصـنع سـفينة النجاة ثانياً فإنا سـوف نسـخر منكم عندما تقع الواقعة، وننجوا وتتهلكون، وعندما نلتقي في مجمع الآخرة فأي الفريقين سـخريته أشـدّ؟ أنتم تسـخرون منا بكلام يطير في الهواء، ونحن نسـخر منكم وأنتم تغرقون في لجج الماء، وغداً عندما تكون أفئدتكم من الرعب هواء، والمعاملة بالمثل قانون إلهي وأحكام ربانية [2].

1محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 271.

2 أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص 149.

كان نوح عليه السـلام يصـبر على مقالاتهم، فلمّا تضـجّر منهم بعد صـبر طويل قال لهم متحدثاً عن نفسه وعن العاملين معه ممن آمن به من آهله وغيرهم.

ويظهر أنَّ نوحاً عليه الســــلام قد قال هذا القول لهم مرّة واحدة ولعلها كانت في آخر عبارات سخرية وجهها ملأ قومه له، وبعد أن نفذ صبره وقارب صنع الفلك نهايته، بدليل أن النصّ اسـتعمل – هنا– فعل :"قال". ولو أنه عليه السـلام قد كان يكرّر هذا القول، لكان البيان يقتضـي أن يؤتى بعبارة تدل على ذلك، مثل: ويقول: "إن تسـخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون".

كان ردُّ نوح عليه السلام بعد صبر طويل على سخرية قومه منه في غاية التهذيب: إنه لم يقل: فأنا أسخر، وإنما تحدث بلسـانه ولسـان المؤمنين العاملين معه. ولم يقل: فإنا نسـخر منكم أكثر مما تسخرون، بل قال: كما تسخرون، فواجه مقالهم بمثله فقط[1].

وكشف نوح عليه السلام لقومه الكافرين به دواعي سخريته منهم بقوله: "فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم"،"فسوف تعلمون": سوف حرف استقبال مبني على الفتح يخصِّص الفعل المضـارع للاستقبال، وأكثر ما يُستعمل في الوعيد، ويدل غـالباً على أن الزمن الذي يمرّ لحدوث الأمر الموعود بوقوعه أطول من الزمن الذي يدل عليه حرف السين في نحو "ستعلمون".

– "من يأتيه عذاب يخزيه": أيّ: من يأتيه عقـاب من الله يخزيه، أي: يجعله ذليلاً مهـاناً مفضوحاً بحماقته ونقصان عقله وكثرة سفاهته، يعلمون ذلك حين يحيط بهم الماء من كل مكان، ويدركون يومئذ أنهم الجديرون بأن يكونوا مســـخوراً منهم، فينالهم الخزي والمذلة،

1الميداني، المرجع السابق، ص 114.

والمهانة، ويقال لغة: أخزاه، إذا أهانه وفضـــحه وأخجله، وفي هذا إشـــارة إلى العذاب بالإغراق، وهو العقاب المعجّل في الدنيا.

- "ويَحل عليه عذاب مُقيم": أي: وينزل عليه عقاب دائم لا يتحول، وفي هذا إشـارة إلى عذاب جهنم يوم الدين، وهو العقاب المؤجل.

وهكذا انتهى فصـــل حكاية صـــناعة الفلك، وما صـــاحب ذلك من أحداث بين نوح وقومه[1].

ثانياً: ركوب سفينة النجاة:

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَـــبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْـــمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ **[هود: 40- 41].**

1. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾:

-"حتى": حتى نهاية وبداية، هي نهاية ما قبلها وبداية ما بعدها... وهي لحظة فارقة في الزمن بين شـيئين ما قبله مختلف كلياً وجذرياً ونهايةً عما بعده، فهي فاصـل زمني، لكنها أخطر من ذلك فاصل كوني عملي.

-"إذا": أصلها أداة شرط تفيد تحقق الوقوع.

1الميداني، المرجع السابق، ص 115.

-"جاء أمرنا": وقع وحلّ أوان أمرنا، أي بنهاية مهلة الكافرين، وبدء أخرى بعد انتهاء تلك اللحظة بدء عذابهم، وأضاف "أمر" إلى نون العظمة لتفخيمه، أي الأمر وتعظيمه فكل ما أضيف إلى التعظيم عظيم، فكيف إذا عبّر عن ذاته العليّة بنون العظمة؟ [1]

-"وفار التنور": وكانت علامة بدء الطوفان فوران الماء من التنور، وكان معروفاً لدى نوح عليه السلام، وكان في المكان الذي كان موجود فيه نوح عليه السلام في ذلك الوقت، وتتفرق الأقوال حول فوران التنور، ويذهب الخيال ببعضها بعيداً، وتبدو رائحة الإسرائيليات فيها وفي قصة الطوفان كلها واضحة، أما نحن فلا نضرب في متاهة بغير دليل في هذا الغيب الذي لا نعلم منه إلا ما يقدمه لنا النص، وفي حدود مدلوله بلا زيادة[2]. وإن التنور معروف، والماء لم ينبع من التنور وحده بل فاض من أنحاء الأرض، ولكنه إنما اكتفى بالنص عليه وحده إشعاراً بالغاية ودلالة على الماء، إذ كان قد فار من منبع النار وهو التنور فلأن يفور ويفيض من عامة الأماكن الأخرى أَحرى وأجدر[3].

وقد تَحدث العلماء عن التنور: فقالوا هو الفرن الذي يُخبز به، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: التنور وجه الأرض. ويقال لغة لكل مفجر ماء تنور، ويحمل اللفظ على كل هذه المعاني. أيّ: وفارت العيون فوراناً زائداً عن عادتها، وفار وجه الأرض من المواقع التي لم تكن تتفجّر فيها عيون الماء، حتى الأماكن البعيدة عن مواطن العيون، كالمخابز فارت أيضاً، والمعنى: بدأت الأرض تتفجر بالماء.

1أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص 153.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1877/4.

3 محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 272.

ويدل على أن المراد وجه الأرض عموماً كما قال علي رضـــي الله عنه قول الله عز وجل: ﴿وفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 12].

2. ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾:

-"قلنا احمل فيها"؛ قُلنا بنون العظمة أيضاً ولا ريب أن الحادثة جلل ضخم عظيم مناسب نون العظمة[1]. وعبَّر هنا بقوله "احمل" ولم ترد إلا هنا، وعبر في "المؤمنون" بقوله: "فاسلك" فقال هناك: "فاســلك فيها من كل زوجين اثنين" أيّ: "فادخل في الفلك بانتظام وإحكام"[2].

واستنتج البعض أن "اسلك" تفيد معنى أن السفينة كانت طبقات، وأنها كانت كالغواصة، فالحِمل مطلق والسـلك يُفيد الإدخال في الشــيء، أيّ السـفينة ولا بأس في ذلك، وإن كانت صُنعت بإحكام وإتقان وبتوجيه وتسديد من الرحمن.

وأما قول الإســرائيليات أنها ثلاث طبقات، وأن طبقة للحيوانات وطبقة للطعام وطبقة للأناســيّ، وأن طولها كَيت وارتفاعها كيت، وأن عرضــها كيت، فهذا مما لا يعتمد ولا يستند إليه ولا ينقل ولا يروى، ولا يقر ولا يحكى وإنما ذكرناه من باب الرد والرفض لا من باب القبول وصحة الغرض، معاذ الله[3]، وكذلك لم يهتم القرآن الكريم بنوع الخشب الذي صنعت منه السفينة، ولا من أين قطع ذلك الخشب؟

1أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص 154.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 278.

3 نوفل، المرجع السابق، ص 155.

وأين كان يقيم وهو يصنع السفينة؟ وكيف قطع ألواح الخشب وركّب منها السفينة؟ وما مساحة تلك السفينة؟ وكم كان طولها وعرضها وارتفاعها؟ وماذا كان شكلها؟ كل هذه الأسئلة وغيرها عليها إجابات في الأساطير والإسرائيليات، لكن لم يهتم القرآن الكريم بها؛ لأنها لا تضيف علماً ولا تقدم عبرة أو موعظة لبني الإنسان[1].

-"من كل زوجين اثنين"؛ يفهم كثير من المفسرين من هذا الجزء من الآية أن "كل" مطلق، وهذا محال في العقل والواقع، ومهما كان اتساع السفينة وعظمتها فإنها لا تستوعب مخلوقات الأرض.

وأصحاب هذا القول والفرض ينطلقون من افتراض أن الطوفان عم جميع الأرض وأنى لهم هذا أن يثبتوه؟ فكم وردت الأرض مطلقة وأريد بها الخصوص، وارجع مثلاً إلى سورة يوسف تجد مصداق ما نقول وافراً تماماً، فقال بمجرد أن دخل يوسف قصر العزيز: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ **[يوسف: 56]**، ولما استلم مقاليد مصر قال: مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ فهل هما واحد؟ وهل الأرض هنا مطلقة[2]؟

فهل أعدّ حديقة حيوان شاملة وجعل فيها من كل نوع زوجين ذكراً وأنثى، ليسلك الجميع معه في السفينة أو أعدّ ما يهمه حمله للتكاثر عند الهبوط من السفينة، أو ما أوحى الله له بحمله منها؟

يَرى الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أنه لم يأتِ في البيان القرآني ما يدل على أحد هذه الاحتمالات، وما روي في الإسرائيليات لا يوثق به، فمن الأجدر عدم

---

1 صلاح الخالدي، القصص القرآني، 187/1.

2 نوفل، تفسير سورة هود، ص 155.

التحديد، والنص بإطلاقه يصلح لأي واحد منهما، وقد ترك بينه؛ لأن معرفته غير ذات جدوى مهمة، ويبدو ترجيح أنه أعدّ ما يهمه حمله للتكاثر عند الهبوط من السفينة أو ما أوحى الله له بحمله منها[1].

ويرى د. صلاح الخالدي أن التنوين في كلمة "كلٍ" عوض عن مضاف إليه محذوف، ويسميه علماء النحو تنوين "العِوض" من كل مخلوق حيّ زوجين اثنين، وكلمة "كل" تدل على الشمول والعموم، وتدلنا جملة "احمل فيها من كل زوجين اثنين" أن نوحاً أخذ معه في السفينة زوجين اثنين من كل المخلوقات الحية على إطلاقها، من فصائل الحيوانات والحشرات والزواحف والطيور، والمراد بالزوجين: الذكر والأنثى من كل صنف، كالجمل والناقة، والبقر والثور، والتيس والشاة، والدجاجة والديك... وهكذا. ولعل الحكمة من ذلك أن الطوفان الذي بدأ يقضي على كل المخلوقات الحية على وجه الأرض، وسيزيل كل مظاهر الحياة، وذلك لاستئناف الحياة على الأرض، بعد انتهاء الطوفان[2].

3. ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾:

الذين كانوا في السفينة هم المؤمنون، ولن يدخلها إنسان كافر، وهؤلاء المؤمنون قسمان:

الأول: أهل نوح المؤمنون، والمراد بهم أهل بيته الذين آمنوا به واتبعوه "وأهلك إلا من سبق عليه القول"، وتدلّنا هذه الجملة على أن أهل نوح عليه السلام وأفراد أسرته كانوا فريقين:

- فريق آمنوا به، ولا نعرف عدد هؤلاء ولا أسماؤهم ولا درجة قرابتهم له، فلا نعرف كم ذكراً من أهله آمن به، ولا كم أنثى آمنت به.

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 117.

2 صلاح الخالدي، القصص القرآني، (194/1).

– وفريق آخر كفروا، ولا نعرف عدد هؤلاء ولا أسماؤهم، لكننا نجزم بما أخبرنا عنه القرآن باثنين منهم وهم: امرأته الكافرة، وابنه الكافر، ولا نعرف اسميهما لأنه من مبهمات القرآن.

الثاني: المؤمنون من غير أقارب وأهل نوح، وكانوا من قومه الذين أرسل إليهم، ولا نعرف عدد هؤلاء المؤمنين من قومه ولا أسماءهم، كل ما أخبرنا عنه القرآن، أنهم كانوا قليلين في العدد بالقياس إلى عدد قومه الكفار.

4. ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1]:

هذا خبر مُوجّه لنا، جاء معترضاً ضمن حكاية قصة نوح عليه السلام وقومه، لإفادتنا أمراً يهم الدعاة وينفعهم، ويفيد الباحثين في الظواهر الاجتماعية، ويفيد مستبصري حكمة الله في عقوباته العامة.

ولما رأى نوح عليه السلام علامة مجيء أمر الله بإغراق الكافرين من قومه، حمل أزواج البهائم في الفلك وشحنها بمواد التموين، وقال لأهله والمؤمنين معه: اركبوا فيها، وذكر الله ودعاه قائلاً[2]: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

إنَّ ركوبهم السفينة باسم الله، وجريان السفينة وسط أمواج الطوفان باسم الله، وحفظها وسط الأمواج من الغرق باسم الله، ورسو السفينة بعد انتهاء الطوفان باسم الله، ونجاة المؤمنين من الغرق باسم الله [3].

1 صلاح الخالدي، القصص القرآني، 193/1.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 118.

3 صلاح الخالدي، القصص القرآني، 195/1.

وهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورسوّها، فهي في رعاية الله وحماه، وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجّة الطاغية، بله الطوفان[1].

وهكذا بدأ نوح عمله المبارك بالتسمية وذكر الله تعالى، أي إنه يستعين بالله تعالى في عمله، وهذا من شرع الله تعالى، قرره على الأنبياء والناس جميعاً، ولذلك كان رسول اللهﷺ يبدأ جميع أعماله باسم الله، في الطعام والشراب واللباس والمراسلة والكتابة وغيرها، وجاءت التسمية في مطلع جميع القرآن الكريم إلا سورة التوبة[2]، وقال ﷺ:"كل أمر ذي بال لا يفتتح بذكر الله تعالى فهو أبتر أو أقطع"[3].

وفي قوله: "اركبوا فيها" لم يقل: اركبوا عليها، والركوب يكون على السفينة، ولكن الله يريد أن يعطينا لقطة بأن السفينة لم تصنع بطريقة بدائية على شكل ألواح خشب يركب الناس فوقها، ولكنها مصنوعة بأحدث نظام لصناعة السفن، ولذلك فإنهم يركبون فيها، لا يركبون عليها، ولم تكن من طبقات ولكنها من عدة طوابق، وفيها عدة أدوار، لأن فيها خلقاً مختلفاً، فيها حيوانات ووحوش، حشرات ودواب وبشر وغير ذلك، ولا يمكن أن يركب هؤلاء مع بعضهم البعض، إذن فلا بد أن يكون فيها طوابق بحيث يركب كل جنس مع بعضه[4].

1السيد قطب، المرجع السابق، 1878/4.

2 د. محمد مصطفى الزحيلي، شرع الله للأنبياء، ص 84.

3 مسند أحمد، 359/2. وانظر: تفسير القرطبي، 121/11.

4 الشعراوي، قصص الأنبياء، 53/1.

وكان جريان السفينة باسم الله، ومرساها يكون باسم الله، أي بتسخيره وقدرته، وهكذا علّم نوح عليه السلام من آمن به كيف يبدؤون باسم الله في كل أعمالهم، فالحضارة الجديدة التي أسسها نوح عليه السلام بدأت باسم الله.

وفي قوله: "إن ربي غفور رحيم": إن ربي الذي يتعهدني ويتعهدكم لغفور للذنوب رحيم بالعباد، وغفور تفيد شدة المغفرة وقوتها، ورحيم تفيد سعتها وشمولها[1].

وجاء التعبير في قوله تعالى: "إن ربي لغفور رحيم"؛ لأن الذين آمنوا مع نوح بشر، وليسوا ملائكة، قد يكون منهم من أخطأ واستغفر أو أذنب وتاب، أو من آمن ولكن إيمانه تشوبه أشياء صغيرة، ولكن الله قدر أنهم آمنوا، فغفر لهم هذه الذنوب والهفوات الصغيرة التي ارتكبوها ولم يأخذهم بذنوبهم[2]، ورحمهم برحمته الواسعة، فظهرت آثار اسم الله الرب في عنايته وتدبيره وحفظه لنوح. واسم الغفور لمغفرته لأهل الإيمان، واسم الرحيم لرحمته بهم "إن ربي لغفور رحيم".

وقد أمر الله عز وجل نوحاً عليه السلام بعد الاستواء على الفلك أن يحمد الله على هذه النعمة من إنجاء الله لهم من القوم الظالمين، وأن يدعو الله عز وجل بأن ينزله منزلاً مباركاً فالله خير المنزلين، جاء هذا التوجيه الإلهي في سورة المؤمنون.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ **[المؤمنون: 28- 29].**

1نوفل، المرجع السابق، ص 159.

2الشعراوي، المرجع السابق، 54/1.

فهكذا يحمد الله، وهكذا يتوجه إليه، وهكذا يوصف سبحانه بصفاته، ويعترف له بآياته، وهكذا يتأدب في حقه العباد، وفي طليعتهم النبيون، ليكونوا أسوة للآخرين [1].

-"فإذا استويت أنت ومن معك؛ الاستواء هنا يراد منه فيما يظهر من معاني الاستواء، وما يلائم موضوع النص الذي استعمل فيه "استويت" معنى الاستقرار الملائم المستوي الذي لا يجعل بعض جوانب الفلك أثقل من مقابله، لتكون عند الجري مستوية على الماء.

-"فإذا استويت": أي: فإذا انتهيت من أعمال إدخال ما ومن أُمرت بإدخاله في السفينة، وسلكت كل فرد ونوع وصنف في المكان الملائم له، واستقررت أنت ومن معك على الفلك بوضع مستوٍ منتظم، لا يميل بالفلك إلى أيّ جانب إذا طفت على الماء.

-"فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين"؛ "فقل الحمد لله"؛ علّمه الله عز وجل عبارة الثناء عليه فقال له: "فقل" ودلت هنا على الفاء التي للترتيب مع التعقيب على التكليف بالثناء على الله عقب الاستقرار المستوي على الفلك التي بدأت رحلتها على الماء[2].

-"والحمد لله"؛ أيّ: الثناء على الله بما هو له من كمالات، وبما أنعم به وتفضّل، وأداة التعريف في صيغة الحمد لله هي لاستغراق جنس الحمد، أي: الحمد كله بأنواعه كلها على وفق علم الله ومراده، لا على مقادير ما نعلم ونفهم من حدود الحمد هو لله.

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2466/4.

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 280.

-"الذي نجّانا من القوم الظالمين": أيّ؛ الذي خلّصـــنا وأنقذنا من تدبيرات كيد القوم الظالمين.

وفي ذكر هذا، بيان للدافع الآنيّ لإطلاق عبارة الحمد، مع أن الحمد كل الحمد هو لله دواماً، ولكن علّم الله عباده أن يحمدوه عند كل حدوث نعمة منه ينعم بها عليهم، في أحداث حياتهم الجارية، ليكونوا ذاكرين لله عندها، كما يذكرونه بالدعاء في مطالبهم وحاجاتهم ويذكرونه بالشكر، ويذكرونه بالطاعة، ويذكرونه بالتفكر في آياته ومظاهر قدرته وعلمه وحكمته، عند مناسـباتها وقيام العباد بممارسـة الأسـباب ينبغي ألا يصـرفهم عن تذكّر الله والثناء عليه، وحمده وشـكره؛ لأنه هو مسـبّب الأسـباب، وهو مانع قوي، وهو مزيل العقبات، ومنه التوفيق في كل أمر، فله تبارك وتعالى الحمد كلّه.

ونلاحظ مما جاء بيانه في سـورة هود أن نوحاً عليه السـلام قال عند البدء بركوب الفلك للذين معه: "اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم"، ودلّتنا عدّة نصوص أن الاستعانة باسم الله تعليم رباني[1].

- كذلك أمره الله بأن يقول: "الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين" إذا اســتوى هو ومن معه على الفلك وبأن يدعو ربه بأن ينزله منزلاً مباركاً، ويثني عليه بأنه خير المنزلين، إذا انتهت مدة الرحلة البحرية، وجاء وقت الهبوط، فقال الله له: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: 29]، فعلّم الله عز وجل نوحاً أن يدعو بهذا الدعاء بأن ينزله منزلاً مباركاً: أيّ: زائد الخيرات والنعم والفضـــل، بما جعل الله فيه من خصـــب وحسن استقرار وسُكنى.

1الميداني، المرجع السابق، ص 282.

-"وأنت خير المنزلين": في هذه الجملة ثناء على الله عز وجل، يتضمن استدرار العطف، بأن ينزلهم خير منزل إذ هو خير المنزلين.

ومن آثار عناصر الإيمان أن يتذكر المؤمن عندما يخطر في باله أيّ عمل خير أو وصف من أوصاف الكمال ممّا جعل لبعض خلقه منه، وهو ممّا يليق بالله عز وجل، أن الله هو خير الموصوفين به، وبأن يثني على ربه بذلك فهو من الذكر المشروع عند هذه المناسبة، وقد علّمنا الله سبحانه وتعالى في القرآن المجيد أن نُثني عليه بمثل هذا الثناء في مناسبات متعددة منها:

- ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ **[المائدة: 114]**.
- ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ **[الأعراف: 89]**.
- ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ **[الأعراف: 155]**.
- ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ **[الأنفال: 30]**.
- ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ **[الأعراف: 87]**.
- ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ **[يوسف: 64]**.
- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ **[الأنبياء: 89]**.
- ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ **[المؤمنون: 118]**[1].

1الميداني، المرجع السابق، ص 283.

ثالثاً: طريقة إغراق الأرض بالماء وحدوث الطوفان:

عرض الله عزَّ وجلّ في ســـورة القمر مشـــهد التنكيل والتعذيب والطوفان العظيم، الذي أصـــاب قوم نوح، وكيف أن أبواب الســـماء فتحت، وكأن الماء يصـــب منها صـــباً على خلاف المعهود من نزول المطر، وكيف تحولت الأرض كلّها إلى عيون تتفجّر منها المياه بشـكل عنيف وقوي، ولك أن تتصّـور من خلال الآيات الكريمة إلى الحد الذي وصـلت المياه إليه من الارتفاع [1].

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُـــرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ **[القمر: 9- 16].**

بدأت الآيات القرآنية تبين تكذيب قوم نوح بالرسالة، والآيات في بيان موجز.

1. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾:

أي: فكذبوا عبدنا نوح، وتكذيبه يشـمل التكذيب بأنه رسـول الله، والتكذيب بما أنباهم به عن ربه وأجمل النصُّ الأعمال التي قام بها قومه لمقاومة دعوته بعبارة "وازدجر" أي: منعه كبراء قومه، ونهوه بغلظة وعنف وشـــدّة عن أن يدعو عامتهم إلى الدين الذي جاء به، وطالبوه أن يكفّ عنهم، ونهروه بعنف "وازدجر"، بدلاً من أن ينزجروا هم ويرعووا [2].

---

1 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 70.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3429/6.

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله وكلفه مهمة التبليغ، عاد لينهي إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه، وما انتهى إليه جهده وعمله، وما انتهت إليه طاقته ووسعه، ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾.

2. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾:

انتهت طاقتي، انتهى جهدي، انتهت قوتي، وغلبت على أمري، ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ انتصِر أنت يا ربي، انتصر لدعوتك، انتصر لحقك، انتصر لمنهجك، انتصر أنت فالأمر أمرك، والدعوة دعوتك، وقد انتهى دوري، وما تكاد هذه الكلمة تقال، وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة، فتدور دورتها المدوّية المجلجلة[1].

3. ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾:

عبّرت الآية بعبارة دلّت فيها على أن الســـــماء كانت كخزان عظيم، مليء بالماء، ولهذا الخزان أبواب، وفتح الله هذه الأبواب، فانهمرتِ المياه على مقاديرها، منصبّة انصباباً كأنها شـلالات موزّعة توزيعاً منتظماً على مواقعها في الأرض .بماء منهمر: أي: منصبّ بشـدة وتتابع[2].

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، (3430/6).

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 23.

4. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾:

دلّ على حركة تفجير مائيّ من الأرض مناظر لحركة الشـــلالات المنصـــبّة من الســـماء، فالأرض المتحدَّث عنها على امتداد مساحاتها قد فجرها الله عيوناً.

إنَّ التفجير يدل على أشـــد صـــور تدفّق الماء وتدافعه من باطن الأرض إلى ما فوقها، والتعميم في إســناد التفجير إلى كل الأرض يوحي أولاً بأن ســطح الأرض قد تفجر ماء، ولفظ "عيوناً" الذي جاء تمييزاً قد حدد الصـــورة التي تمّ تفجير الأرض على وفقها، وهي صـورة عيون مائية متفجرة موزّعة على سـاحة الأرض كعيون الغربان، والقرآن يرسـم روعة الصـــورة الأدبية "وفجرنا الأرض عيوناً" فجّر الله الأرض تفجيراً على صـــورة عيون مائية متدفقة متدافعة منبعثة بقوة[1].

5. ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾:

أي: فبدون تراخٍ التقى الماء المنهمر والماء المتفجر، على أمرٍ من أمر الله قد قُضـــي وقُدّر للتقدير الشـــامل لكل الدقائق والتفاصـيل، قبل الأمر به، وقبل قضـــائه وإمضـــائه، وهو إهلاك قوم نوح الذين كفروا به[2].

ونلاحظ في الآيات الســـابقة: "ففتحنا أبواب الســـماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر"، حركة كونية ضـــخمة تصـــورها ألفاظ وعبارات مختارة تبدأ بإســناد الفعل إلى الله مباشــرة "ففتحنا"، فيُحسُ القارئ يد الجبار تفتح "أبواب الســماء" بهذا اللفظ وبهذا الجمع "بماء منهمر" غزير متوالٍ، وبالقوة ذاتها، والحركة نفســـها "وفجرنا

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 23.

2المرجع نفسه، ص 23.

الأرض عيوناً"؛ وهو تعبير يرسم مشهد التفجير وكأنه ينبثق من الأرض كلها، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيوناً.

والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض، "على أمر قد قدر" التقيا على أمر مقدّر، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر، طائعان للأمر، محققان للقدر، حتى إذا صار طوفانا يطُم ويعُم، ويغمر وجه الأرض، ويطوي الدنس الذي يغشى هذا الوجه وقد يئس الرسول من تطهيره، وغلب على أمره في علاجه، امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الكريم الذي دعا دعوته، فتحرك لها الكون كله، امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم[1].

6. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾:

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها. فهي ذات ألواح ودسر، توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها[2].

فهي "ذات ألواح" فهذا يدل على أنها أداة خشبية. وهي "ذات دسر": الدُّسر: جمع دِسار، وهي المسامير التي تثبّت بها الألواح بعضها إلى بعض، وهي أيضاً الخيوط والحبال الليفية التي تشد بها ألواح السفن. إذن: فهي مركبة من ألواح خشبية قد شد بعضها إلى بعض بالدسر.

ونلاحظ أن التعبير عن هذه المركبة المائية لم يأت بالاسم الخاص الذي يدل عليها دلالة مباشرة، وإنما جاء يذكر بعض المواد الأساسية التي صنعت منها، وهي الألواح والدسر،

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3430/6.

2 المرجع نفسه، 3430/6.

وهذا من الإلماح الفني البديع الذي يرضـــي ذكاء الأديب اللّماح، ويغمر مشـــاعره، لكن جاء بعد ذلك في ســـــور أخرى لفظ "الفلك" وذلك في الأعراف، والشـــعراء، ويونس، وهود، والمؤمنون، ثم جاء إيضاح أنها مركبة مائية في قوله تعالى في الفقرة الخامسة [1].

7. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾:

إن ذات ألواح ودسر تجري وقد امتلأت الأرض ما لا تجري على اليابسـة، إنما تجري على الماء فهي إذن "فلك"، وقد دلَّت هذه الجملة على أنها تجري جرياً محاطاً بالحفظ والعناية من الله ضـــمن بحر عظيم منهمر من الســـماء، وبحر متفجر من الأرض، وموج متلاطم كالجبال.

إنَّ أحوج ما تحتاج إليه هذه المركبة أن تكون محاطة بالحفظ والعناية والحماية من الله عز وجل، للنجاة والســـلامة حتى بلوغ البر الســـاكن الأمن، فأيّ تعبير أدل على هذا الأمر الذي هو مطلوب راكبيها من قوله تعالى:﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؟

فمركبة نوح عليه الســـــلام تجري بأعين الله، وهذا يدل على أنها في غاية الحفظ والرعاية والحماية والمراقبة والتامة لكل حركة من حركاتها على مدى اللحظات والآناء.

8. ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾:

يضـيف البيان ما يدل على الغاية من هذا الاهتمام الشـدید بحفظ سـفينة نوح كل هذا الحفظ، وهي مكافأة نوح بثواب معجّل له في الحياة الدنيا جاء كونه كُفر من قبل قومه، فقال عز وجل ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَاجَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾.

1الميداني، المرجع السابق، ص 27.

ونلاحظ أنه لم يأت في النصّ عبارة جزاء نوح، بل جاء فيه وصفُ كونه –كُفر– من قبل قومه، أي: جُحد وكُذّب[1] وازدجر، وهذا جزاء من الله تعالى بالرعاية على الجفاء، وبالتكريم على الاستهزاء، ويصور مدى القوى التي يملك رصيدها من يُغلب في سبيل الله، ومن يبذل طاقته، ثم يعود إليه يسلم له أمره، وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر، إن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته، والله من ورائها بجبروته وقدرته[2].

9. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾:

ولقد تركنا فلك نوح باقية زمناً طويلاً من بعده، لتكون علامة على حادثة الطوفان، وقصة نوح مع قومه تذكر بعقاب الله للمكذبين الظالمين الطغاة، وتكون عبرة لمن يَعتبر، وذكرى لمن يذّكر فقال تعالى في الفقرة الثامنة[3].

10. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾:

دلَّ هذا التساؤل البديع على الغرض من ترك سفينة نوح آية شهدتها أجيال متتابعة من بعده، وهو أن تكون للادّكار، أي: للتذكّر الآخذ بيد المتذكر للاتعاظ، إذا كان لديه استعداد للاتعاظ والإرادي، ورغبة فيه مع ما في هذا التساؤل من حض على الادّكار والاعتبار بما جرى لقوم نوح، وقد جاء هذا الحض بأسلوب الاستفهام، ومع ما فيه من إشعار بقلّة المدّكرين، لأن السؤال يسأل عن واحد مدّكر يعتبر بما جرى للأولين من عقاب رباني.

1الميداني، المرجع السابق، ص 27.

2السيد قطب، المرجع السابق، 3430/6.

3 الميداني، المرجع السابق، ص 28.

ويُحمل هذا التعبير على معانيه العديدة التي يدل عليها، تتكشف لنا وفرة الدلالات أدّها تساؤل موجز ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾؟ وأخيراً جاء الختام الواعظ المنذر في الفقرة التاسعة ومن النص، فقال الله عز وجل خطاباً لكل من يصلح للخطاب من معاصري التنزيل وغيرهم[1].

11. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾:

أيّ: فعلى أيّة حال كان عذابي لقوم نوح، وعلى أيّة حال كانت نُذري لقوم نوح؟ لقد كان كما صوره القرآن، عذاباً مدمراً جباراً شديداً مخيفاً، يثير الرّعب والاتعاظ والاعتبار، وكل النذر التي أنذر الله بها قوم نوح على لسان رسولهم نذر صادقة حقق الواقع الثابت في التاريخ والذي ظلت آيته باقية حقباً تشهدها القرون، ما جاء فيها بلا نقصان، فما أبدع هذا الإيجاز وما أحكمه وما أغزره دلالات وأفاه بالمقصود من البيان[2].

رابعاً: حوار نوح مع ابنه في وسط الأهوال الكونية والنفسية:

قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ **[هود: 42- 43].**

1. ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾:

لا تكون الأمواج في البحر متعالية كالجبال إلا إذا كانت الرياح العاتيات تحركها، فوصف الموج بأنه كالجبال أغنى عن ذكر الرياح العاتيات في الصورة لأن الذهن يستدعيها في التصور من خلال جبال الأمواج، لكن المياه ما زالت دون مستوى الجبال العالية، ولعلها

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 28.

2المرجع نفسه، ص 29.

غمرت الوديان، وبدأت ترتفع حتى وصلت إلى المساكن العالية في أواسط الجبال أو قريبة منها[1].

تدلّنا "وهي تجري بهم في موج كالجبال" على أنها مسيّرة بقدرة الله عز وجل، ولذلك فإن هذه الأمواج التي وصفها الله أنها في علوّها وضخامتها كالجبال، هذه الأمواج التي لا بد أن تغرق أضخم السفن وأقواها لم تفعل شيئاً لسفينة نوح، فلم تضربها بقوة، أو تقلبها أو تضرها على أي شكل من الأشكال، بل إن السفينة تجري - أي تمشي بسرعة عالية- بين أمواج كالجبال، بل إن طريقها الذي رسمه الله تعالى لها ليس فيه موج يعوقها أو يضرها، ولك أن تتخيّل سفينة في بحر هائل بين أمواج كالجبال، كيف يمكن أن تبحر حتى إذا لم تغرقها الأمواج فإنها على الأقل لا تجعلها تسير بسرعة، ولكن سفينة نوح تسير بأمر الله تعالى، فإن هذه الأمواج لا تؤثر فيها[2].

2. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾:

-"ونادى نوح ابنه": وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم وليس معهم، وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة، ويروح يهتف بالولد الشارد[3].

-"وكان في معزل": كان في مكان حتى تلك اللحظة من المناداة في مكان معزول عن الماء لارتفاعه مثلاً أو غير ذلك[4].

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 29.

2 محمد متولي الشعراوي، قصص الأنبياء، (55/1).

3 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، (1878/4).

4 د. أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص 162.

وهناك من العلماء من يرى أن هذا الابن كان منعزلاً عن أبيه وقومه ويظهر أنه قد كان كاتماً كفره، غير متظاهر به، عصـــبية لأبيه، إلا أنه كان في باطنه مع عقيدة قومه، ولعل اعتزاله قد كان اعتزالاً توفيقياً، فهو لا يريد أن يَنصر قومه على أبيه، ولا يريد أن يتابع أباه وينصره ضد قومه[1].

-"يا بني": وفي نداء نوح عليه الســلام لابنه بكلمة »يا بني" فيه تحنّن ورأفة ورحمة وتحبّب وتلطّف وتودّد وتقرّب لو كان هذا يجدي. ولاحظ الادغام في الباء والميم في "اركب معنا" أيّ؛ تفضل بنا واركب في سفينة النجاة مع الناجين من المؤمنين.

-"ولا تكن مع الكافرين": انظر التلطف في "مع" بدل "من"، فكأنه بهذه الملاطفة يحرك شعوره ليستجيب، وما أجمل أجهزة الاستقبال عند الإنسان شفافة وحساسة وشغالة ومستجاشة، حتى يستجيب لمثل هذه الإشارات، ويتأثر بمثل تلك اللطائف.

"ولا تكن": الواو عاطفة، نهياً عن أمر: اركب معنا ولا تكن، ولا ناهية، وتكن مضـــارع مجزوم بحرف النهي، "مع الكافرين": أي كأنه يقول له برفق شــديد: أعيذك أن تكون من الكافرين، فلست منهم بإذن الله، ولكن هذه اللحظة تقف معهم، فلا تكن معهم بل كن من الناجين ومعهم[2].

ويرى بعض العلماء إن نوحاً قال لابنه: ولا تكن مع الكافرين، ولم يقل له: ولا تكن من الكافرين، فدل هذا على أن نوحاً لم يكن يعلم أن ابنه هذا قد كان كافراً؛ لأنه لو كان

1الميداني، المرجع السابق، ص 121.

2أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص 162.

يعلم ذلك لكان المناســب أن يقول له: "ولا تكن من الكافرين"، كما قال تعالى بشــأن إبليس: ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].

ويخاطب الله الكافر يوم القيامة بمثل ذلك فيقول: ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْـــتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: 59][1]، "ولا تكن مع الكافرين": أي: في الدين والانعزال الهالكين[2].

3. ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾:

إن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة، والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشـــامل[3]. ويُجيب الابن من معزله البعيد غير مبالٍ بتأثر الوالد وشفقته: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، أيّ: ســأعتصــم من الطبيعة بالطبيعة، ومهما كان من طغيان الماء، فإن في طبيعة الجبال أعظم معتصــم منها، وذلك هو منطق الإلحاد، لا يُبصِّـر صــاحبه مما هو أمامه إلا وراء أرنبة أنفه، ويصــوّر القرآن ردّ الوالد عليه في جملة فيها الأســى والحزن، وفيها منطق الإيمان، يردّ على غرور الجحود والإلحاد[4].

4. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾:

لا عاصــم اليوم من أمر الله بالطوفان العام الشــامل، إلا من رحمه الله، فجعل له الســفينة وسيلة النجاة الوحيدة، لكن ابن نوح لم يستغل هذه الفرصة الأخيرة له؛ لأنه لم يكن من

1الميداني، المرجع السابق، ص 121.

2 محمد جمال الدين بن قاسم الحلاق القاسمي، محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1418هـ، 96/6.

3 السيد قطب، المرجع السابق، 1878/4.

4 محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 273.

المؤمنين في باطنه، وظل مصرّاً على موقفه.

ولم يطُل الحوار بين الأب وابنه، ولم يعلم نوح من ابنه موقفه من قضـــيّة الإيمان، إذ حال بينهما الموج فقطع حوارهما، وأخذ الموج الفلك بعيداً إلى العُباب، ولم يســـتطع الابن أن يسرع إلى جبل شاهق فقد داهمه الماء، فكان من المغرقين [1].

5. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾:

إننا بعد آلاف الســـنين، لنمســـك أنفاســـنا –ونحن نتابع الســـياق– والهول يَأخذنا كأننا نشـــهد المشـــهد، وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء، والموجة الغامرة تَحســـم الموقف في ســـرعة خاطفة راجفة وينتهي كل شيء، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب.

وإنَّ الهول هنا ليقاس بمداه في النفسِ الحية – بين الوالد والمولود– كما يقاس بمداه في الطبيعة، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان، وإنهما لمتكافئان، في الطبيعة الصـامته وفي نفس الإنسان، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن [2].

ويسدل البيان الإلهي ستاراً على هذا الحوار بين منطق الإيمان وغرور الإلحاد "وحال بينهما الموج فكان من المغرقين".

ولكأني أرى في هذه الجملة الرهيبة صـــواعق من مظهر الغضـــب الإلهي وهي تنقض على الجهل المتعالم، والغرور المتطاول تســـحقه فإذا هو أثر بعد عين، إن الجملة لتقول بأبين

---

1 الميداني، المرجع السابق، ص 122.

2 السيد قطب، المرجع السابق، 4/ 1878.

دلالة ما كاد هذا المســـكين يتم النطق بكلامه المغرور، وما كاد يطرف ببصـــره بحثاً عن الجبل الذي يستعصم فيه، حتى أسرعت إليه موجة فالتهمته، وكأن لم يكن.

وبهذه الصــورة الحزينة الرهيبة يكتمل مشــهد الطوفان حيث عرض القرآن الكريم مشــهد الطوفان في ثلاث مشاهد:

- **أوّلها**: سفينة في موج كالجبال.
- **ثانيها**: موج يحول بين نوح وابنه الذي كان في معزل.
- **ثالثها**: الماء المنهمر من أبواب السماء، وهو يلتقي بالماء المتفجر من عيون الأرض.

ويعرض ما بعد هدوء ثورة الماء في ثلاثة مشاهد:

- **الأول**: الأرض تبلع ماءها.
- **الثاني**: السماء ينقشع غيمها.
- **الثالث**: السفينة ترسو على الجوديّ [1].

خامساً: الأمر الرباني بنهاية الطوفان:

في غَمرة الأحداث التي تصـورها الآيات القرآنية، وبين صَـخب الأمواج التي تَنحسـر وتمتد في بحر هي الأرض كلها ينطوي هذا المشـهد فجأة لنرى من ورائِه مُباشـرة عودة الهدوءِ إلى الدنيا، ورجوع كل شــيء إلى نظامه الســابق، فقد هدأت الزمجرة، وســكنت العاصــفة،

1أحمد الكبيسي، من أنباء القرى، برنامج أحسن القصص، الإعداد للنشر والمداخلات، فاطمة محمد ستون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2007م، ص 146.

وولدت الدنيا كما كانت من جديد، وتعال فلنتأمل في اللوحة الإلهية التي رسمت هذا المشهد [1].

قال تعالى:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود: 44]**.

إنَّ هذه الجمل القرآنية العجيبة تصور لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله، بل القابض عليه كله، تتصرف به كما تشاء في سمائه وأرضه وبحاره وجباله وفي كل شيء ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير أو لعظيم وحقير، ألا ترى كيف علّقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كان عليه بعد أن التقت مياه السماء والأرض على طوفان هائل مخيف، على كلمة صغيرة: "وقيل" لتصور لك سهولة الأمر، وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدنيا وزوالها. وثم انظر إلى دقائق التعبير المصوَّر:

1. ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾:

أرأيت أنه لم يقل: جفّفي ماءك، مثلاً، مع أنه هو التعبير المتّفِق مع طبيعة الأرض وشأنها، وإنما قال: ابلعي ماءك؛ ليصور لك بأن الأرض لما اتجهت إليها إرادة العزيز الخبير انقلبت مسامها وشقوقها إلى أفواه فاغرة تبتلع بها المياه ابتلاعاً، فهي لم تنفذ الأمر بالطبيعة المألوفة لها، وإنما بالانقياد لأمر خالقها جل جلاله [2].

وجاء نداء الأرض قبل سابقاً لنداء السماء، لأن المطلوب منها وظيفتان: توقف عيونها عن الإمداد بتدفق الماء، وابتلاع مياهها التي كانت قد فاضت بها، ليتناقص الماء وتستوي

1 محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن، ص 274.

2 المرجع السابق، ص 274.

الفلك على اليابسة. وأما المطلوب من السماء فوظيفة واحدة: هي الإقلاع عن هطول الأمطار. وأغنى فعل "ابلعي" عن الأمر بالتوقف؛ لأنه لا يكون هذا البلع إلا بعد التوقف. ولما جاء الأمر "يا أرض ابلعي ماءك"، فتوقفت فوراً عن التفجّر، وأخذت تبلع ماءها الذي كانت قد تفجرت به إلى سطحها[1].

وفي هذا النصِّ القرآني الكريم نُسب الماء إلى الأرض، وأرضنا هي أغنى الكواكب المعروفة لنا بالماء، ولذلك سمّيت الأرض باسم الكوكب المائي، أو الكوكب الأزرق، وقد احتار العلماء منذ القدم في تفسير مصدر هذه الكمية الهائلة من الماء، والتي من دونها لم يكن ممكناً للحياة التي نعرفها أن توجد على الأرض، وقد وُضعت فروض ونظريات عديدة من أجل تفسير أصل ماء الأرض، ومن ذلك كانت فرضية اصطدام المذنبات بالأرض والتي ظلت سائدة فترة طويلة ثم انهارت كما انهار غيرها من الفروض والنظريات، وكان ذلك باكتشاف علماء البراكين أن أكثر من 70% مما يتصاعد من فوّهات بعض البراكين على سطح الأرض، ومعدّل ثورة كل منها ومتوسط ما يتصاعد من بخار الماء في كل ثورة.

وصل العلماء إلى نفس كمية الماء المتجمعة على سطح الأرض، وفي صخور ورسوبيات قشرتها، وفي الغلاف الغازي المحيط بها، وبذلك ثبت أن كل ماء الأرض قد أخرجه ربنا تبارك وتعالى أصلاً من داخل الأرض، وفي ذلك قال عزّ من قائل: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ **[النازعات: 30- 31]**.

وتحدث القرآن الكريم عن دورة الماء حول الأرض في آيات أخرى عديدة منها نسبة الماء إلى الأرض في الآية الرابعة والأربعين من سورة هود»، و"قيل يا أرض ابلعي ماءك"؛ هو

1الميداني، المرجع السابق، ص 124.

سبق قرآني واضح، حيث لم تتوصل العلوم المكتسبة إلى معرفة ذلك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

وفي هذا النصِّ القرآني إشـــارة إلى اشـــتراك عيون الأرض المتفجرة في إحداث طوفان نوح عليه الســـلام وه ما أكده القرآن الكريم ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 12].

2. ﴿وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي﴾:

إذا تأملت في كلمة "أقلعي"؛ بمعنى كفّي وأمسكي- تصورت كم كانت منفتحة على مياه تنصـــب في الأرض، وحســـبك أن تتأمل الآية الأخرى في وصـــف ذلك: "وفتحنا أبواب الســـماء بماء منهمر"، لنتصـــور هول تلك المياه المنهمرة من أبواب الســـماء، ثم انظر كيف أسند الخطاب إلى كل من السماء والأرض مع أنهما مخلوقان جامدان، ليصور لك سرعة استجابتهما لأمر الله عزَّ وجل، حتى كأنهما منقادتان بسماع الأمر وفهم الخطاب[1].

وقد توقفت الســـماء فوراً عن الإمطار بمجرد سماعها "ويا سماء أقلعي"، وانقشـــعت الغيوم وصـــارت الســـماء صـــحواً لا غيوم فيها، وفعل "أقلعي" يدل على المعنيين، إمســـاك الســـماء عن المطر، وانقشاع الغيوم وانجلاء السماء[2].

يقول الدكتور زغلول النجار في قوله تعالى: "و يا سماء أقلعي" يؤكد النص القرآني الكريم أن طوفان نوح عليه الســـلام كان بالماء العذب، تمييزاً له عن العديد من صـــور الطغيان البحري الذي تعرضـــــت له الأرض عبر تاريخها الطويل، وعلى الرغم من ذلك يأتي اثنان

1البوطي، المرجع السابق، ص 275.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 124.

من علماء فيزياء الأرض وعلوم البحار الأمريكيين في عام 1998م وهما (وليام ريان و والتر بتمان) ليجزمان بأن الطوفان كان بماء البحر، وذلك في كتابهما المعنْوَن "طوفان نوح... الاكتشـــافات العلمية الجديدة عن الحدث الذي غير مجرى التاريخ"؛ يؤكد هذان العالمان أن ما وصـــفاه من طوفان بحري فوق بحيرة من الماء العذب كان حدثاً طبيعياً لا علاقة له بما جاء من أخبار قوم نوح عليه السلام، وفي هذا المؤلَّف يذكر الكاتبان أن هذا الحدث قد تم قبل 7600 سنة، حين أدى ارتفاع منسوب الماء في البحر والمحيطات إلى اندفاع هذا الماء المالح من البحر الأبيض المتوسط عبر وادي البوسفور ليُدمر كل شيء مرّ به، ويؤدي إلى عدد من الهجرات البشرية الكبرى، ولكن اكتشاف بقايا سفينة نوح عليه السلام على سفح جبل الجودي مطمورة وسط طبقات من رسوبيات الماء العذب التي تمتد من جنوب تركيا إلى رأس الخليج العربي، مروراً بالمســاحة الهائلة من أرض ما بين النهرين "دجلة والفرات" ينفي مزاعم الكاتبين الأمريكيين أن ما ذكروه من طوفان بحري له علاقة بطوفان، ويؤكد دقة الوصـــف القرآني لواقعة الطوفان، وذلك من قبل ألف واربعمائة سنة[1].

3. ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾:

وهذا مظهر للاســتجابة الســريعة لأمر الله فقد غيض الماء أي: فلم يبق إلا ما كان على وجهه من قبل، وذهب ونشف وكانت الاستجابة على الفور، دل على ذلك قوله تعالى:

1زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013م، 188/1.

"وغيض الماء"[1]، وحقق الله أمره ونفذ إرادته وأوقع عذابه بالكافرين وأغرقهم بالطوفان، ومنّ على نوح والمؤمنين بالنجاة[2].

ويظهر التوازن بين الجملتين المتواليتين: "وغيض الماء وقضـــي الأمر"؛ يشـــير ذلك إلى أن التنفيذ تم موافقاً للأمر دون شطط أو تقصير وبنفس الوتيرة من الإيقاع تقريباً، وفي صيغة "وقضي الأمر" جمالية في الدلالة، حار فيها الدارسون بين وصفها بالتمثيل كفن من فنون البديع، حيث عبر عن هلاك الهالكين ونجاة الناجين بلفظ يدل على بلاغة متناهية، بينت أن الحقيقة المعنية فيها أنه هلك من قضى الله هلاكه، ونجا من قضى الله نجاته[3].

4. ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾:

في النصِّ القرآني الكريم تأكيد على أن سفينة نوح عليه السلام استقرت على جبل اسمه الجودي، وهذا الجبل يقع حقيقة في جنوب شرقي تركيا، إلى الشمال الشرقي من جزيرة ابن عمر على ضفاف نهر دجلة، بالقرب من الحدود التركية العراقية السورية، وإلى الشمال من مدينة الموصل.

ويرى الدكتور زغلول النجار أن الدراسات الأثرية أثبتت صحة ذلك ودقته، وذكر أنه في منتصف شهر مايو من سنة 1948م اكتشف أحد رعاة الغنم من الأكراد، واسمه (رشيد سرحان) بقايا من أخشاب سفينة نوح عليه السلام مطمورة في كم من الرسوبيات في قمة جبل الجودي، وتتابعت دراســات الموقع بعد ذلك في 1953م، 1959م، 1980م، 1987م، 1994م، وظلت تتابع إلى يومنا هذا، وكذلك وجد سُمْكٌ هائل من رسوبيات

1 فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني، 3 /159.

2الخالدي، القصص القرآني، 200/1.

3نوفل، المرجع السابق، ص 171.

المياه العذبة سهول ما بين النهرين دجلة والفرات والتي كانت مهداً لعدد من الحضارات القديمة التي تم اكتشاف بعضها، والتي تتراوح عمرها بين ثلاثة وسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، ومن المرجح أن تكون هذه الرسوبيات تالية لرسوبيات الطوفان التي وجدت أسفل منها، ووجدت خالية من الآثار الإنسية وغامرة لحضارات سابقة وذلك لانتشارها الأفقي على مساحات شاسعة من الأرض، ولسمكها الذي يزيد على عشرة أقدام، ولطمرها للعديد من القرى القديمة التي استمر التنقيب عنها في هذه الفترة من 1922 إلى 1934م، وتتابع هذا التنقيب عن تلك الحضارات القديمة متقطعاً بعد ذلك إلى اليوم، وقد تأكدت هذه الاستنتاجات بدراسة الرسوبيات المتجمعة في أحد كهوف شمال العراق والمعروف باسم (كهف شانيدار العظيم)، ويرجع عُمْرُ الرسوبيات فيه إلى حوالي مائة ألف سنة مضت، وتحوي رسوبياته عدداً من البقايا الإنسية التي قام بدراستها الدكتور رالف سولسكي من معهد سمشوينان بالولايات المتحدة الأمريكية[1].

كما أن العديد من الروايات التاريخية القديمة التي تم اكتشافها مؤخراً تشير إلى رسوٍّ سفينة نوح عليه السلام فوق الجودي، وذلك من مثل كتابات كلٍّ من: بيراسوس من كهان الحضارة البابلية، وأبيدنوس من تلاميذ سقراط وأحد رموز الحضارة اليونانية القديمة[2].

وقال ياقوت الحموي عن الجودي (في معجم البلدان)؛ الجوديّ: ياؤه مشددة، وهو جبل مطلّ على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل، استوت عليه سفينة نوح عليه السلام لما نضب الماء[3]، وجزيرة ابن عمر هي الأرض الواقعة بين نهري

1النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي، 190/1.

2 المرجع نفسه، 190/1.

3الحموي، معجم البلدان، 179/2.

دجلة والفرات في شمال العراق، وجبل الجودي مُطل على الجزيرة، وهو قريب من مدينة الموصل العراقية المعروفة، وما زال اسمه حتى الآن جبل الجودي وهو جبل معروف هناك[1].

ومعنى "واستوت على الجودي" أي: استوت الفلك على جبل اسمه الجودي، والمراد: أنها توقفت عن الجري واستقرت على اليابسة استقراراً مستوياً، غير مائلة ذات اليمين ولا ذات الشمال، ولا إلى جهة مقدمها ولا إلى جهة مؤخرها، وكان كل ذلك بعناية الله وحفظه ورعايته التامات[2].

5. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

هي جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير "بعداً للقوم الظالمين" بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا، وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى، فهم قد ماتوا وانتقلوا إلى حياة البرزخ، وسيظلون فيها إلى أن تقوم الساعة ليلقوا جزاءهم، إذاً فابتعاد قوم نوح الظالمين الذين كفروا برسالة نوح عن الإفساد في الأرض، أصبح نهائياً ولم يبق على الأرض إلا المؤمنون[3].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: هذا دعاء على الهالكين، ووصفهم بالظلم ليعلم الذين من بعدهم أن جميع من هلك كان مستحقاً للهلاك، احتراساً لما قد يتوهم أن الهلاك بعمومه شمل من لا يستحق العذاب[4].

1الخالدي، القصص القرآني، 201/1.

2الميداني، المرجع السابق، ص 125.

3 الشعراوي، قصص الأنبياء، 59/1.

4 عفيف طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم، ص 77.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فيه تعريض بأن سالكي مسار هؤلاء في الظلم والتكذيب يستحقون مثل هذا البعد من الله، والدعاء عليهم، فأَولى للظالمين والمكذبين أن يَعتبروا ويرجعوا عن تكذيبهم وظلمهم حتى لا ينزل الله بهم ما انزل بأمثالهم[1].

6. بلغت الآية الغايةَ في بلاغتها، واحتوت على وجوه عديدة من الإعجاز البياني:

احتوت هذه الآية ﴿ وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ على وجوه عديدة من الإعجاز البياني، وبلغت الغاية في بلاغتها، وقال بعض المفسرين: هذه الآية أبلغ آية في القرآن وقد احتوت من أنواع البديع على احد وعشرين نوعاً، فيها تسع عشرة كلمة، وخوطبت الأرض أولاً بالبلع لأن الماء نبع منها أولاً قبل أن تمطر السماء[2].

وذكر في هذه الآية الشيء الكثير، وأفردت فيها رسائل ومما قيل فيها:

أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية[3].

وقيل فيها أيضاً: إنه قد أمر فيها ونهى وأخبر ونادى وسمى وأهلك وأبقى وأسعد وأشقى وقص من الأنبياء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام[4].

---

1 عماد زهير حافظ، القصص القرآني الكريم بين الآباء والأبناء، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1988م، ص 46.

2 أحمد نوفل، تفسير سورة هود، ص 173.

3 السيوطي، الإتقان، ص 218.

4 فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني، 155/3.

وهذه الآية بلغت من أســـرار الإعجاز غايتها، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها، وجمعت من المحاســـن اللفظية والمعنوية ما يضـــيق عنه نطاق البيان[1]، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأســـرارها العلامة أبو حيان المفســـر حيث قال: في هذه الآية واحد وعشـــرون نوعاً من البديع:

- المناسبة: في قوله أقلعي وابلعي.
- المطابقة: بذكر الأرض والسماء.
- المجاز: "يا سماء" والمراد: مطر السماء .
- الاستعارة: "أقلعي".
- الإشارة في "غيض الماء"، فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة.
- التمثيل في "وقضي الأمر" عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة المؤمنين.
- الإرداف في"واســتوت على الجودي" فلفظ واســتوت، كلام تام أردفه بلفظ "على الجودي" قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان
- التعليل في "غيض الماء"، فإنه علة للاستواء.
- الاحتراس في "بعداً للقوم الظالمين"، وهو أيضاً ذمٌّ لهم .
- الإيجاز: وهو ذكر القصـــة باللفظ القصـــير مســـتوعباً للمعاني الجمة، وعدد بقية الوجوه وهي: الإيضاح، والمساواة، وحسن النسق، وصحة التقسيم، وحسن البيان، والتمكن والتجنيس، و التسهيم والمقابلة، والتهذيب والوصف[2].

1محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، دعاء الأنبياء والرسل، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1 1999م ، ص 29.

2 أبو حيّان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، ط1 1420هـ، 228/5.

وألَّف أيضاً السيد محمد إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها: (النهر المورود في تفسير آية هود)، ويدلُّ على هذا الإعجاز ما روي من أن كفار قريش قصدوا أن يعارضوا القرآن، فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوماً، لتصفوا أذهانهم، فلما أخذوا فيما قصدوه وسمعوا هذه الآية، قال بعضهم لبعض: هذا الكلام لا يشبه كلام المخلوقين، فتركوا ما أخذوا فيه وتفرقوا[1].

ويروى أن ابن المقفع كان -كما في القاموس- فصيحاً بليغاً، بل قيل: إنه أفصح أهل وقته، أراد أن يعارض القرآن فنظم كلاماً وجعله مفصلاً وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرؤها، فرجع ومحا ما عمله وقال: أشهد أن هذا لا يعارض أبداً، وما هو من كلام البشر[2].

سادساً: سؤال نوح عليه السلام ربه في شأن ابنه وطلبه المغفرة والرحمة من الله عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ* قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ **[هود: 45 -47]**.

إنَّ رحلة النجاة في بحر لُجِّيّ ضمن أمواج كالجبال، وأمطار تصب صباً كالجداول، إذ فتحت لها السماء أبوابها، قد أنست نوحاً حال ابنه فحال الموج بينهما[3].

1عماد زهير حافظ، القصص القرآني الكريم بين الآباء والأبناء، ص 46.

2 الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 63/12.

3الميداني، المرجع السابق، ص 129.

لقد صرفته عنه أهوال الرحلة المخيفة القاسية، فلما حطت السفينة على الجودي مستوية الاستقرار، وذهب الروع والقلق الصارف للأفكار، ولم يبق غلا الانشغال بأحداث الوضع القائم، عندئذ تواردت على نوح ذكريات أرضــه وبلده وقومه وذكر ابنه الذي لم يدرِ ماذا حصل له، فتفجرت عاطفة الأبوة التي فطرها الله عز وجل في قلوب الآباء[1].

1. ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ﴾:

الواو إما عاطفة مشـــهداً على مشـــهد، وحدثاً على حدث، وإما اســـتئنافية، ولعل هذا أقرب، "ونادى" نداء دعاء ومناجاة ورجاء والتجاء، وهذا النداء نداء اســـتغاثة مقرن بانفعال الخضـــوع والتضـــرع والتذلل، دل على ذلك كلمة " نادى " إذ لو كان ما قاله سـؤالاً عادياً هادئاً لكان المناسـب التعبير بنحو "ودعا"، ولكن كان نداء فهو يحمل معنى التلهف، وهو من رسول حليم، لا بد أن يقترن بالخضوع والتضرع والتذل[2].

"ربه": أيّ الذي يتعهده ويتولاه ويدبر أمره، فقال في ندائه "رب" أيّ: يا رب، ولم تذكر أداة النداء هنا استغناءً بما دل عليه فعل "نادى"[3].

2. ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾:

أيّ: من أهلي الـذين وعـدتني بنجـاتهم، ولا يعلّم اللهَ أحـدٌ، ولكنـه من باب الرجـاء والاســـتجداء من الله ودعاء من قلب مكســـور على الولد، إن ابني من أهلي، كأنه يستحضر في هذا المقام وعداً بنجاة أهله، ويغض الطرف عن "إلا من سبق عليه القول".

---

1 الميداني، المرجع السابق ، ص 130.

2 الميداني، المرجع نفسه، ص 129.

3 الميداني، المرجع نفسه، ص 129.

3. ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾:

أيّ: فلا يُمكن أن يخالفه الواقع، ولعله وضـــع في حســـبانه أن الله عز وجل ربما يكون قد أنجاه بوسيلة أخرى غير الركوب معه في السفينة[1] أو أن نوحاً عليه السلام قد أيقن أن ابنه قد غرق مع الغرقى، ولكنه ســـأل الله الرحمة الوابلة والمغفرة الهائلة ألا تفوته نجاة الحياة الأبدية الآخرة، فأدلى إلى ربه بدعاء من كل كيانه، استهله بقوله "ربِّ" الكلمة التي تضم معاني العناية والإكرام، والتربية ودوام الاهتمام، والصلة المستمرة، ورفعة المقام، بان ابنه من أهله، وبما له من مقام عند ربه أن يلحظ بعض أهله – ابنه – بعين عنايته وواســـع رحمته، ولم يصرح بذلك، بل عرّض بذلك تعريضاً تأدباً مع ربه واستغناءً بعلم ربه بسؤاله وحاجته، وهذا أسلوب في غاية الأدب الرفيع مع الله عز وجل[2].

4. ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾:

أنت الحكم العدل، وأنت أحكم الحاكمين في أحكامك وإني راضٍ بكل ما تحكم وتأمر وتقدر، وخاضـــع لقدرك وإرادتك وقضـــائك، لكني أدعوك وأرجوك وأتوســـل إليك مع رضائي بقضائك أياً يكن، فأنا عبد مستسلم خاشع منيب[3].

5. ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾:

لم يَنفِ الله أن يكون ابنه من الصـــــلب، ولكن نفاه أن يكون على عقيدته، ومن أتباعه الذين يحق لهم النجاة من الغرق، وهذا هو أرجح الأقوال في المسألة، وقد أبعد النجعة من

1فارق حمادة، آباء وأبناء ملامح تربوية، دار القلم، دمشق، ط1 1997م، ص 20.

2 المرجع نفسه، ص 20.

3نوفل، المرجع السابق، ص 178.

قال: إنه لم يكن ولده من النسب بل كان من الزنا وهو أضعف الأقوال لدليل ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما بأسانيد كثيرة قوله: ما بغت امرأة نبي قط غير أنه خالفه في العمل والنية[1].

قال ابن كثير: وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية، ثم قال: قال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، ثم قال: وقوله:"ليس من أهلك" أي الذين وعدتك بنجاتهم، ثم قال: وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه؛ فإن الله تعالى أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة[2].

وقال ابن جرير: وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: تأويل ذلك إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم؛ لأنه كان لدينك مخالفاً، وبي كافراً، وكان ابنه لان الله تعالى قد اخبر نبيه محمداً ﷺ أنه ابنه فقال:" ونادى نوح ابنه " دلالة على انه ليس بابنه إذ كان قوله " ليس من أهلك " محتملاً من المعنى ما ذكرنا، ومحتملاً أنه ليس من أهل دينك، ثم يحذف الدين فيقال" إنه ليس من أهلك "كما قيل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ **[يوسف: 82]**[3].

6. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾:

هذا تعليل وتبرير لاعتبار أنه ليس من ولده، أن الإيمان هو النسب الحقيقي، أما غير المؤمن فليس من أهلك الذين يشملهم الوعد فقد قلت لك قبل "ومن آمن"، ولفتة في

1عمر إيمان أبو بكر، المرجع السابق، ص 73.

2 تفسير ابن كثير، 4/226.

3 تفسير الطبري، 15/346.

اعتبار أن الإنسان هو عمله، فلم يبق إلا صورة اللحم والدم، و"غير صالح" يقتضي أنه فاسد طالح[1].

فالنسب نسب الإيمان والعقيدة، وليس نسب الدم والقرابة، فاقتضى بيان هذه الحقيقة وتقريرها،"قال يا نوح إنه ليس من أهلك"، وعلل السبب:"إنه عمل غير صالح"[2].

إنها الحقيقة الكبيرة في هذا الدين، حقيقة العروة الوثقى التي ترجع إليها الخيوط جميعاً، عروة العقيدة التي تربط بين الفرد والفرد ما لا يربطه النسب والقرابة[3].

"يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح"؛ هذه الكلمات الربانية والقواطع الإلهية، أخرجته من دائرة اهله، وأبعدته إلى مهوى سحيق لا يُذكر فيه، ولا يلتفت إليه؛ لأنه اختار الكفر على الإيمان، وسلك مسالك الشيطان، فلم يعد للرحم الماسة معنى، وليس للولادة والنسب، ودل هذا الخطاب الإلهي على أن ابن نوح هذا قد شمله الغرق، فكان من الهالكين لأنه كان من الكافرين والفاسقين في باطن أمره.

7. ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّيَ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

تضمَّن هذا البيان زيادة تعليمية لنوح عليه السلام، ساقتها المناسبة وهي تعليمية لنا أيضاً، أي: إذا كنت لا تعلم بواطن الأمور وقد رأيت من تصاريف ربك شيئاً على خلاف ما ترغب، بحسب رغبات نفسك وعواطفك فكن على ثقة تامة بأن ربك عليم حكيم، وأن تصاريفه تجري على وفق علمه وحكمته.

1نوفل، المرجع السابق، ص 180.

2 محمد ديب الجاجي، النسق القرآني دراسة أسلوبية، مؤسسة علوم القرآن، المملكة العربية السعودية ، ط1 2010م، ص.ص 126 - 127.

3السيد قطب،المرجع السابق، 1880/4.

"إني أعظك أن تكون من الجاهين" أيّ: أؤكد لك التوجيه والنصـــح بهذه الموعظة التي تضمنها، "فلا تسألن ما ليس لك به علم"؛ فدل هذا على أن النهي نهي موعظة وإرشاد للمستقبل، لا نهي تأنيب على ما مضى. والمعنى: إني أعظك دفع أن تكون في المستقبل من الجاهلين بهذه الحقيقة، فتســأل ربك مســتقبلاً ســؤالاً تطالبه فيه بأمر على خلاف مقتضــى علمه وحكمته وعدله، مهما كانت دوافعك العاطفية والنفسـية، وهذا يتضــمن التوجيه للرضى التام عن الله عز وجل فيما تجري به مقاديره وأحكامه، مهما كانت صادرة ضد أقرب الناس رحماً[1]. عندئذ لم يكن من نوح عليه السلام إلا أن قال.

8. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

يعتذر نوح عليه السـلام في هذه الآية عن سـؤاله، ويعاود سـؤال الله لكن أن يصـرف عنه أن يسأل ما ليس له به علم، فالسياق متصل كل الاتصال[2].

-"قال رب" قال نوح مسـتغفراً مسـتعيناً بالله، قال رب، بحذف ياء النداء لمزيد تقرُّب، يا من تتعهدني وتربيني وتعلمني وتقومني وتهديني.

-"إني أعوذ بك": إني أتحصـــن بك وأحتمي بك واعوذ بك وألوذ من أن أقع في هذه المخالفات مرة أخرى.

-"أن أسألك ما ليس لي به علم": هذا هو ما تعوذ منه نوح، أن يسأل الله ما ليس له به علم، أي يؤذَن له به، ولم ينزل به كتاب ولا إذن إلهي.

1الميداني، المرجع السابق، ص 132.

2نوفل، المرجع السابق، ص 185.

-"وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسـرين": وإن لم تغفر ذنبي وتتولني برحمتك يكن مصـيري الخسـران في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك أن يكون أمري كذلك، والخاسـر من انتقص رأس ماله، والخاسر هنا: من فقد محبة الله ومثوبة الله[1].

وقد طلب نوح عليه السـلام المغفرة ابتداءً لأن التخلية مقدمة على التحلية، ثم أعقبها بطلب الرحمة لأنه إذا كان بمحل الرضـى من الله كان أهلاً للرحمة [2]، وقد علمنا الله بهذا كيف يكون أدب المرسلين مع ربهم لنتخذهم أسوة لنا[3].

ويؤخذ من قصة نوح مع ابنه أن الله عز وجل قد يبتلي المؤمن بوجود ولد فاسق أو كافر له، يضاده في دينه ويخالفه في عقيدته وإيمانه، ويتناصر مع اعدائه أولياء الشيطان ضد أولياء الرحمن، على الرقم من إقامة الحجة الدامغة والبرهان الساطع على صدق رسالته، وهذا لا يعاب به المؤمن ولا يؤذى به، وليس لأحد من الناس المؤمنين أن يعيب أخاه المؤمن إذا ابتلاه الله بولد عاق، فاجر، بل إن هذا الابتلاء ينبغي أن يكون له عبرة وان يقوم بالتضرع إلى الله أن يهدي ولد أخيه الفاجر. ولا يحل لمسلم أن يعيب أخاه المسلم أو يذمه بسـبب ولده العاصـي الفاجر إذا كان بالغاً عاقلاً، فهو مجزي بعمله وليس مجرَّماً بعمل ولده قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ **[الأنعام: 164]**[4].

1نوفل، المرجع السابق، ص 185.

2 المرجع نفسه، ص 186.

3الميداني، المرجع السابق، ص133.

4 محمد أبو فارس، مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، ص 85.

سابعاً: زوجة نوح عليه السلام الكافرة:

قال الله تعالى: ﴿ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـــالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَـــيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ* وَضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَـنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَـــدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

[التحريم: 10 - 12].

وفي هذه الآيات حديث صريح عن موقف امرأة نوح عليه السلام التي ظلت على كفرها، فلم ينفعها زواجها من نبي الله نوح عليه الســلام، والخيانة هنا هي: الخيانة في الدين بمعنى الكفر وليس المقصود بها الخيانة بمعنى الزنى[1].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما في الدين[2].

وقال ابن كثير: "فخانتاهما" أي في الإيمان، لم توافقهما على الإيمان ولا صـــدقتاهما في الرسالة فلم يُجْدِ ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذوراً، ولهذا قال تعالى: "فلم يغنيا عنهما من الله شـــيئاً "أيّ لكفرهما، وقيل للمرأتين"ادخلا النار مع الداخلين"، وليس المراد بقوله "فخانتاهما" في فاحشـــة، بل في الدين فإن نســـاء الأنبياء معصـــومات عن الوقوع في

---

1 أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م، 143/1.

2 المرجع نفسه، 143/1.

الفاحشة لحرمة الأنبياء[1]، لم تدخر امرأة نوح جهداً في التصدي لدعوة الخير والتوحيد، بل أصرت واستكبرت فكانت من الكافرين[2].

لقد كَفرت امرأة نوح بزوجها وكان الأولى بها أن تكون أول المؤمنين به، لا سيما وهي زوجته وأعلم الناس بأحواله وأقرب الناس منه، ولكنها آثرت ما عليه قومها من الكفر والضلال فكان عاقبتها الخسران والنكال. كفرت امرأة نوح مع الكافرين، وسخرت من زوجها مع الساخرين، فلم يغن عنها نوح عليه السلام من الله شيئاً ودخلت النار مع الداخلين[3].

وإليك تفسير الآيات المتعلقة بالأمثال الأربعة، فالمثل الأول والثاني في الكفار، والمثل الثالث والرابع في المؤمنين[4].

1. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾:

يأتي المثل هنا ليلفت النظر إلى أن الهداية بأمر الله تعالى، فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]، فالكافر يكفر ولو كان يعيش في بيئة إيمانية وحوله رفاق مؤمنون و موحدون ويعرف الحق من الباطل والخير من الشر، وهذا الذي حصل مع تلك المرأتين، فحاشا لنوح عليه السلام وللوط عليه السلام أن يقصروا في دعوة زوجتيهما إلى الله تعالى

1تفسير ابن كثير، 393/4.

2 هدى عبد اللطيف عريان، الشخصية النسائية في القصة القرآنية، دار غار حراء، دمشق، الطبعة الأولى، 2005م، ص 283.

3 أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، 143/1.

4 عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الدائرة الحميدية، الهند، ط1 2008م، 1/ 526.

وإلى الإيمان به وإلى الحق والفضـــيلة والمعروف والخير، ولكن القلوب المريضـــة تأبى إلا أن تكفر ولو كانت برعاية نبي مرسل مبارك أو رجل صالح[1].

2. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾:

زكى المثل كلاً من نوح ولوط عليها الســـلام بقوله تعالى "عبدين"، وليس ذلك فحســـب وإنما أردفهما بقوله "صـالحين"، فهما حققا العبادة الخالصـة لله عز وجل وحققا الصـلاح، وفيه الإشـارة إلى صـلاح الدين وصـلاح العلاقة الصـحيحة مع الناس، ولهذا كانت دعوة الصـــلاح هي دعوة الأنبياء، فقد قال يوســـف عليه الســـلام بعد كل ذلك الملك والرفعة والمكان والعزة والشـرف، فقد كان نبياً ورسولاً وصـديقاً وقائداً وعالماً بتفسير الرؤى وعزيزاً وذا جاه وذا مال، قـال كمـا نقل عنه المولى تبـارك وتعـالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ **[يوسف: 101]**، وقالها سليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـالِحًا تَرْضَـاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ **[النمل: 19]**.

كما وردت في هذا المثل الصـريح كلمة "تحت" في إشـارة إلى العلاقة الزوجية بمعنى أن كلاً من نوح ولوط عليهما السلام كانا هما الأعلى في تسلسل الهرم في بيت الزوجية[2].

---

1 عبد الســـتار المرســـومي، اللفتات المليحة للأمثال الصـــريحة في القرآن الكريم، دار المعراج الدمشـــقية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2016م، ص 295.

2 المرسومي، المرجع السابق، ص 296.

3. ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾:

يتبادر لذهن العامة من الناس أنها الخيانة الزوجية، وهذا من الأمور التي لا ينبغي أن تكون في حق الأنبياء عليهم السلام، فقد جعل للأنبياء صفات خاصة من أجل ألّا يَنفر الناس عنهم وعن دعوتهم، ومن ذلك: الأمراض المعدية والكذب والخيانة وصــيانة العرض، من أجل أن لا يجد الناس سُبّة عليهم، ولكن الخيانة هنا من نوع آخر، وهي:

أ – خيانة امرأة نوح: لم تكن امرأة نوح تصـدق به عليه السـلام، بل وكانت تقول للناس أنه مجنون – حاشاه – ، فقد جاء في تفسير ابن جرير الطبري: أن ابن عباس يُسأَل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله تعالى" فخانتاهما "، فقال ابن عباس: أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، أو أن خيانتها له أنها كانت تخبر الولاة في ذلك العصر بأسماء كل من يؤمن بنوح عليه السلام، قال الماوردي في النكت والعيون: أن خيانة امرأة نوح أنها كانت تخبر الناس أنه مجنون، وإذا آمن أحد به أخبرت الجبابرة به[1]. وقال: بعض العلماء أنها قد ماتت قبل الطوفان[2].

ب – خيانة امرأة لوط: وخيانتها لزوجها لوط عليه الســـلام: أنها كانت تعلم قوم لوط عندما يأتيه الضيفان، وكانت كافرة ومنحازة لقومها الكفرة، وخيانتها للوط زوجها لم تكن بارتكاب الفاحشة، قال الضحاك عن ابن عباس:"ما بغت امرأة نبي قط وقد أهلكها الله مع كفار قومها، إذ قلب الله بهم البلاد عاليها سافلها"[3].

1أبو الحسن الماوردي، تفسير الماوردي (النكت والعيون)، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 46/6 - 47.

2 الميداني، المرجع السابق، ص 310.

3 الميداني، المرجع نفسه، ص 310.

4. ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾:

أي: وحكم الله عليهما حكماً مبرماً بدخول النار، إذ لم ينفعهما كونهما زوجتي رســـولين من رسـل الله، فهما يوم الدين من أصـحاب النار[1]، فلا كرامة ولا شـفاعة في أمر الكفر والإيمان وأمر الخيانة في العقيدة حتى أزواج الأنبياء[2].

5. ﴿وَضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

وها هي ذي امرأة فرعون لم يصـــدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصـــر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة، وتبرأت من صـــلتها بفرعون فســـألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شـــيء وهي ألصـــق الناس به "ونجني من القوم الظالمين" ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثَلٌ للاسـتعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صــوره، فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ في قصر فرعون، أمتع مكان تجد في امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان، ولم تعرض عن هذا العَرَض فحسـب، بل اعتبرته شـراً ودنسـاً وبلاءً تسـتعيذ بالله منه وتتفلت من عقابيله وتطلب النجاة منه، وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية، وهذا فضل آخر عظيم، فالمرأة كما أسلفنا أشد شعوراً وإحساساً بوطأة المجتمع وتصوراته، ولكن هذه المرأة وحدها في وسط ضغط المجتمع، وضغط القصر، وضغط الملك، وضغط

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 310.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3621/6.

الحاشية، والمقام الملوكي، في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء وحدها في خضم هذا الكفر الطاغي.

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات، وكل هذه الأواصر وكل هذه المعوقات وكل هذه الهواتف، ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد، الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تتنزل من الملأ الأعلى[1].

6. ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾:

إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التي قصها الله في سور قرآنه، ويذكر هنا تطهرها "التي أحصنت فرجها" ويبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة "فنفخنا فيه من روحنا"، ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام كما هو مفصل في السورة المفصلة لهذا المولد سورة مريم، فلا نستطرد معه هنا تماشياً مع ظل النص الحاضر، الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها "وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين". وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر؛ بسبب ملابسات حياتها التي أشرنا إليها، وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة، يضربهما الله لأزواج النبي ﷺ بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر سورة التحريم، ويضربهما للمؤمنات من بعد في كل جيل[2].

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3622/6.

2 السيد قطب، المرجع نفسه، 3622/6.

ثامناً: أسباب هلاك قوم نوح الكافرين:

إنَّ نوحاً عليه السـلام جاء في نهاية الحضـارة الإنسـانية الأولى، والتي بدأت من آدم عليه السـلام، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد العبادة للخالق العظيم، وتطورت الحياة الإنسـانية على وجه الأرض في قضـاياها المادية، وضـعفت وأخطأت السـبيل في قيمها الروحية ومعرفتها بخالقها العظيم، فأرسـل الله عز وجل نوحاً عليه السـلام، فأقام على الكافرين والظالمين والفاسقين والمعاندين الحجة، ومضت سنة الله في زوالهم واستئصالهم، وآمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطوفان. وإن من أسباب زوال ونهاية الحضارة الإنسانية الأولى عوامل عديدة من أهمها:

1. الكفر بالله عز وجل:

إنَّ من أهم أسـباب العقاب الإلهي وهلاك الحضـارة الإنسـانية الأولى بالطوفان العظيم، الكفر بالله، وأصـل الكفر في اللغة: السـتر والتغطية، وقد سمي الكافر كافراً لأنه غطى بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان، والكفر ضـد الغيمان الذي هو التصـديق والاعتقاد والإقرار بوحدانية الله وبربوبيته والوهيته، والإيمان بالملائكة وشـريعة الله ورسـالة نوح عليه السلام واليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره من الله.

وقد رفض قوم نوح دعوة نوح للتوحيد ورسـالات الله، وكفروا بها وحاربوها ووصـفهم الله بالكفر كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: 27].

إنَّ وصـــف نهاية الحضـــارة الأولى التي عاشـــها قوم نوح بالكفر يعني انها في تلك الفترة التاريخية من تاريخ الإنســانية كانت منفصـلة عن الدين ومتحررة من تكاليف الإيمان بالله وشـرعه، وهذا يفضـي بها على انحلال الأخلاق وانحطاطها، وهذا ما حدث لها من حالة الشقاء والتعاسة التي كان يعيشها قوم نوح عليه السلام من بُعدهم عن هدايات السماء.

وإنَّ الجنوح المادي الذي طالما تميزت به قوى الكفر منذ فجر التاريخ وحتى وقتنا الراهن كضرورة من ضرورات التصاقها بالأرض ورفضها أي إيمان بالغيب أو المثل العليا، لا يمثل تعبيراً عن السـعادة بمفهومها الشـامل، بل على العكس فإن هذا الجنوح يمثل نقضـاً كبيراً وانحرافاً خطيراً في تجربة يملأ خلاياها وشـرايينها بالتعاسـة والشـقاء[1]. ومهما يكن من أمر فإن الحضـارة – أية حضـارة – محكومة بالسـنن الإلهية، وهذه السـنن في المجال الحضـاري على نوعين:

- سـنن جزئية تتعلق بعالم الشـهادة، وهي سـنن تعطي كل من يوظفها على قدر سـعيه ولا تفرق بين مؤمن وكافر.
- سـنن كلية حاكمة على هذه السـنن الجزئية، وهي سـنة الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وهي التي تحدد مصير الحضارات، نمواً وسقوطاً، وتعتبر جميع عوامل سقوط الحضارات تبعاً لهذا العامل، أي غياب الإيمان بالله وتوحيده[2].

1عبد الله محمد الأمين، الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية، قطر، (كتاب الأمة)، العدد (153)، السنة (33)، 1434هـ، ص 103.

2 المرجع نفسه، ص 103.

فقوم نوح مضت فيهم سنة الله، بأسباب عديدة منها: الكفر بالله عز وجل فكانت واقعة الطوفان العظيم والتي تعدُّ من أبرز الحوادث التاريخية وقعاً في النفس الإنسـانية، حيث إنها من أقصى العقوبات التي عاقب الله بها الكفار[1].

2. الشرك بالله:

من المعلوم أن التوحيد هو الأصل في حياة الإنسان، وهو الذي صنع الحضارة الإنسانية مع بداية خلق الله لأبينا آدم عليه السلام، ولكن في نهاية عهد الحضارة الإنسانية الأولى وفي عهد قوم نوح فشا فيهم الشرك، وبدأ بهم الانحراف عن دين التوحيد، كما جاء في حديث ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[2]، وقد استدرجهم الشيطان إلى الشرك، حيث زين لهم وجوب تعظيم رجال صالحين منهم من موتاهم، ووسوس لهم أن ينصبوا إلى مجالسهم التي يجلسون إليها أنصاباً " تماثيل " على هيئة أولئك الصالحين، تخليداً لذكراهم وسموها بأسمائهم، وجاء آخرون من قوم نوح فوسوس إليهم الشيطان أن من كان قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها[3].

وقد بينا في هذا الكتاب محاورة نوح عليه السلام إياهم واستعماله كافة أساليب الإقناع في سبيل دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك، وقد مضى فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل وكان نوح عليه السلام كلما أعرض قومه عن دعوته غيّ وبدل

1 وفاء محمد سعيد، فقه السنن الإلهية، دار الأمة، ط1 2016م، ص 169.

2 أخرجه الحاكم في المستدرك، 442/2.

3 صحيح البخاري، كتاب التفسير، 442/2.

أسلوبه فإذا اعرضوا عن الدعوة العلنية عاد ليبلغهم الدعوة بصورة سرية، ولكن مع ذلك لم تلن قلوبهم لدعوته، إذ ران عليها حب الأوثان وعبادتها[1].

لقد كان قوم نوح هم أول مشـركين في تاريخ الحضـارات الإنسـانية، وبهم بدأ الانحراف، وكانوا متوغلين في الشـرك راسـخين في العناد، وسـجل القرآن عليهم موقفهم النهائي من الشرك وعبادة الأصنام بعد المواعظ البليغة والنصائح الغالية التي بذلها لهم نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُـوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْـرًا﴾ **[نوح: 23]**. وهذا الموقف ليس مجرد شـرك وإصـرار عليه بل هو تواص به، وتناصـح بالإقامة عليه وتحذير من تركه[2].

وفي موقف من مواقف الثقة بالله والتوكل عليه يبين نوح عليه السـلام عجز أصـنامهم وضـعفها، فتحداهم جميعاً هم وأصـنامهم التي زعموا أنها آلهة تنفع وتضـر، وتحداهم أن يسـعوا في الكيد له والإصـرار به ما أمكنهم ذلك، فلو كانت تلك الأصـنام آلهة حقاً لانتقمت منه وأهلكته بما شـنع عليها وذمها، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُـرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُـوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ **[يونس: 71]**، ولم تفعل اصنامهم شيئاً، وأنى لها ذلك؟ وهي جمادات لا إدراك لديها فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضـر، والقوم بعد هذه الحجج وهذا التحدي لم يقارعوا الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان، بل أعلنوا تبرمهم من الحجج التي يأتي بها نوح عليه السلام، وأغلقوا باب المحاورة والمجادلة وطلبوا نزول العذاب، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا

---

1 محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، دار طيبة، ط1 1432هـ، 385/3.

2 سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، سلسلة إصدارات الحكمة، بريطانيا، 2000م، ص 128.

بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: 32]، إنه عناد ما بعده عناد، وكل ذلك من أجل أصنام صنعوها بأيديهم وسموها آلهة بغير سلطان أتاهم[1]. وفي النهاية قضى الله تعالى بهلاك المشركين، وهي سنة فيمن أشرك به وحادّ رسوله، وانهدت أركان وقواعد شركهم بالطوفان العظيم.

3. الظلم:

يعدُّ الظلم من اكبر عوامل سقوط الحضارات، وله مفهوم شامل عريض، يؤدي إلى فقدان التوازن في كافة مجالات الحياة وعلاقة الإنسان مع نفسه ومع الله ومع غيره، وعن هذا تنبثق ظواهر نفسية واجتماعية واقتصادية مرضية، وتصورات فاسدة عن الوجود كله، فيعم الفساد الحياة الإنسانية بأسرها[2]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

وقد تكرر وصف قوم نوح بالظلم في القرآن الكريم مرات عديدة:

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: 70].

1سيلا، المرجع السابق، ص 128.

2 محمد هيشور، المرجع السابق، ص 23. والظلم: لفظ عام في وضع الشيء في غير موضعه، يشمل الشرك وغيره من المعاصي، إلا أن الشرك أعلى أصناف الظلم، ولا ظلم أعظم منه، بالإمكان مراجعة: محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، 389/3.

- قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ [النجم: 52]، أي أكثر ظلماً وطغياناً من عاد وثمود[1]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: 37]. وفي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود 44].

إنَّ قوم نوح عليه السلام استفحل فيهم الظلم وأصبح ظاهرة على مستوى المجتمع، وارتكبوه بكل أنواعه، واستمروا على ذلك إلى أن نزل بهم العقاب الرباني" فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: 11].

وإنَّ الإهلاك بسبب الظلم سنة من سنن الله في سقوط الحضارة الإنسانية الأولى وإبادة مدنيتها المتخلفة عن نور الوحي، وإزالة سلطان الملأ الذي يمثل القيادة السياسية والاجتماعية والفكرية في تلك الحقبة من تاريخ البشر.

4. تكذيب الرسول الكريم نوح عليه السلام:

وردت آيات كثيرة تدل على أن تكذيب الرسل كان سبباً في هلاك الأمم السابقة، وهذه الآيات واضحة الدلالة وصريحة في العلاقة بين تكذيب الرسل وبين ما حاق بهم من الهلاك والدمار[2].

1الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 24.

2 سعيد سيلا، المرجع السابق، ص 192.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ* وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ **[الحج: 42 - 44]**.

وهذه الآيات ونظائرها وردت في سياق تسلية النبي ﷺ عما يلاقيه من قومه من التكذيب والإعراض، فالله سبحانه وتعالى يقص على نبيه قصص المكذبين من الأمم السابقة وما واجهوا به رسلهم من التكذيب وما صار إليه أمرهم من الهلاك، وفي ذلك تخفيف عليه ﷺ عما يجد في نفسه من الألم والأسى بسبب تكذيب هؤلاء الكفرة، فهو ليس بدعاً من الرسل في التكذيب، بل كُذِّب قبله رسلٌ، وفيه إنذار وتحذير للمكذبين من قومه من أن يكون مصيرهم كمصير أسلافهم الذين كذبوا رسلهم فأخذهم الله بعاجل العذاب[1]. ومن نظائر هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ* وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ* إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ **[ص: 12، 14]**.

قال ابن كثير: فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل.

- ومنها قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ* وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ* وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ **[ق: 12، 14]**.

- وقال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ **[غافر: 4،5]**.

1سيلا، المرجع السابق، ص 192.

وهذه الآيات كما ترى تتحدث عن هلاك جميع الأمم بسبب ما أقدموا عليه من تكذيب رسلهم، وهناك صنف آخر من الآيات تدل على المعنى ذاته غير أنها تتحدث عن مسلك أمة معينة في تكذيب رسولها وهلاكها بسب ذلك.

وتكذيب الرسل هو: نسبتهم إلى الكذب أو إلى ما يقتضي ذلك في ذكر صور التكذيب، وهو من اكبر الجرائم وأعظم الشنائع التي ارتكبتها الأمم السابقة واستحقوا بها الهلاك، وعلى رأس تلك الأمم قوم نوح عليه السلام، فقد كان أصدق الناس لهجة وأنقاهم سريرة، اتصف بالأمانة، مؤيد بالوحي الإلهي والآيات والدلائل، وما اختاره الله لرسالته إلا لعلمه بأهليته لها، وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وهو أعلم حيث يجعل رسالته[1].

ولعظم جرم تكذيب الرسل وشناعته جعل القرآن الكريم من كذب رسولاً واحداً مكذباً لجميع الرسل، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: 37]، بيَّنت الآية أنهم أهلكوا بالغرق؛ بسبب تكذيبهم الرسل، مع أن الله لم يرسل إليهم غير نوح عليه السلام، وذلك لأن تكذيب رسول واحد تكذيب لجميع الرسل، سابقهم ولاحقهم، لاتفاق كلمتهم على التوحيد وهو أساس رسالتهم فلا فرق بين نوح وغيره من الرسل من حيث وجوب الإيمان به، ولو فرض أن الله سبحانه وتعالى أرسل إلى هؤلاء كل رسول فإنهم كانوا سيكذبونه كما كذبوا نوحاً، وفي هذا إبراز لعظم كفرهم وإظهار لفظاعة جرمهم[2].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: 37]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي

1 سيلا، المرجع السابق، ص 194.

2 المرجع نفسه، ص 195.

الْفُلْكِ﴾ [الأعراف: 215]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [يونس: 73]، والآيتان الأخيرتان ختمت بهما قصة نوح عليه السلام في سورتي الأعراف ويونس لبيان استمرارهم وإصرارهم على تكذيب نوح حين مشارفتهم الهلاك[1].

ومع هذه القصة الطويلة من التكذيب والعناد وردّ الحجج والآيات، يأتي قوم نوح يوم القيامة فينكرون أن يكون نوح أو غيره جاءهم بنذارة، ويرومون من وراء ذلك نفي قيام الحجة عليهم طمعاً في النجاة من العذاب، وأنى لهم ذلك والشهود العدول حضور؟

روى الإمام البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول اللهﷺ: يجيء نوح وأمته فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فنشهد له أنه قد بلغ، وهو قوله جل ذِكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143][2].

5. إيذاء نوح عليه السلام بأنواع الإيذاء ودعاؤه عليهم:

من أسباب العقاب الإلهي الذي نزل بقوم نوح، إيذاؤهم له بالاستهزاء والسخرية والتكذيب وتهديدهم له بالرجم واتهامهم له بالجنون، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: 9]، وقوله: "وازدجر" أيّ: زجروه وأوعدوه[3]،

1سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 217.

2 صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، 105/4.

3سيلا، المرجع السابق، ص217.

كفعلهم الوارد في قولـه تعـالى:﴿قَـالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَـهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ **[الشعراء: 116]**، وعلى هذا فكلمة "وازدجر" حكاية لفعلهم لا لمقالهم.

لقد اتهموه بالجنون ثم زجروه عن الاستمرار فيما هو فيه من الدعوة إلى التوحيد وذم الأصنام والأوثان، وأما على القول الثاني: فيكون تأكيداً لاتهامه بالجنون والتأسيس هو الأصل، والله أعلم[1].

ووصف هؤلاء نوحاً بالجنون بالإضافة إلى الكذب فيه مبالغة في تكذيبه والتشنيع عليه، ذلك أن الكاذب إذا كان عاقلاً، فإنه يقول ما يُظن انه صدق، وقد يلتبس كلامه على الناس فلا يعرفون صدقة من كذبه، أما إن كان مجنوناً فإنه يقول ما لا يُعقل، وكذبه في كلامه يكون واضحاً مستبيناً لكل عاقل، فجعلوا كلام نوح عليه السلام مما لا يخفى كذبه على أحد[2].

وفي موقف آخر رموا نوحاً بأنه واقع في ضلال، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ **[الأعراف: 60]**، فلم يكتفوا برميه بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبيناً واضحاً لكل أحد بالغاً الغاية في البعد عن الحق[3]، وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه إلى الهدى هو الضال[4].

حقاً إنه قلب للموازين، وتزييف للحقائق، فنوح عليه السلام أبعد الناس عن الضلال والذين نسبوه إلى الضلال هم الضالون المضلون فهم الذين اتخذوا أصناماً آلهة، لا تجلب

1سيلا، المرجع السابق، ص 217.

2 تفسير الرازي، 36/15.

3 السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، 45/3.

4 السيد قطب، المرجع السابق، 542/3.

إليهم نفعاً ولا تدفع عنهم ضراً، بل هم الذين صنعوها بأيديهم وسموها آلهة بغير برهان ولا سلطان، وما أُتي نوح إلا لإخراجهم من هذا الضلال وهدايتهم إلى الحق الذي هو توحيد الله جل وعلا، ونبذ عبادة الأصـــنام، لكنهم كانوا أعداء أنفســـهم، فأوبقوها بعنادهم وتعنتهم، ولم يقف تكذيب قوم نوح عند هذا الحد، بل أثاروا الشـــبهات حول رســـالته ودعوته فتارة يوردون شبهة البشرية ومناقضتها للرسالة في زعمهم، ومرة يرمونه بمخالفة نهج الآباء أو السـعي وراء الجاه والمكانة إلى غير ذلك من شـبهاتهم، وقد وصـل الأمر بهؤلاء المكذبين إلى حد التبرم من سماع كلام نوح عليه الســـلام والتأفف من رؤيته إفراطاً في التكذيب، وإمعاناً في الإعراض، كما نطق بذلك نوح في قول الله عز وجل ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ **[نوح: 7]**، ومعنى قوله: "واستغشـوا ثيابهم" أيّ: غطوا بها وجوههم لئلا يروه كراهة النظر إليه من فرط كراهتهم لدعوته [1].

ثم انتهى بهم الأمر إلى اسـتعجال نزول العذاب الذي اوعدهم به نوح عليه السـلام، ظناً منهم ألا صـدق لذلك الوعيد، وهكذا أيأسـوه من احتمال اسـتجابتهم وقطعوا رجاءه في إيمانهم بعد هذه المدة المتطاولة والمواعظ البالغة والحجج الدامغة [2]، ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ﴾، فما كان من نوح عليه السـلام إلا أن اسـتغاث بربه، فناداه واستنفره واستفتح بينه وبين قومه ودعا عليهم:

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ **[الصافات 75]**.

1زاد المسير، المرجع السابق، 98/8. وفي: تفسير البيضاوي، 529/2.

2 سيلا، المرجع السابق، ص 218.

- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: 26].

- قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10].

- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 117- 118].

- قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:26، 27]. وقد استجاب الله لنبيه ونعم المجيب فأهلك المكذبين عن آخرهم[1].

6. استعجال العذاب:

من أسباب العقاب الإلهي الذي نزل بقوم نوح استعجالهم بالعذاب، فقوم نوح عندما يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة أخذتهم العزة بالإثم، واستكبروا وأبوا الإذعان للبرهان العقلي والفطري، وإذا هم يتركون الجدال إلى التحدي، فقد كانوا قوماً عمين كما وصفهم الله تعالى ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود:32]، إنَّه العجز يلبس ثوب القوة والضعف، يرتدي رداء القوة والخوف من غلبة الحق، يأخذ شكل الاستهانة والتحدي ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا، فلسنا نصدقك ولسنا نبالي وعيدك[2].

وعندما يئس نوح عليه السلام من صلاحهم واستجابتهم لدعوته، ورأى أنه لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريقة من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب

1سيلا، المرجع السابق، ص 219.

2 شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، 342/2.

لله عز وجل، فلبى الله دعوته وأجاب طلبه[1]، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: 76]، وتحققت سنة الله في قوم نوح عليه السلام.

7. الجدال بالباطل:

قال تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: 4- 5].

أ- ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

فهم وحدهم من بين هذا الوجود الهائل يشذون، وهم وحدهم من بين هذا الخلق العظيم ينحرفون – وهم بالقياس إلى هذا الوجود – أصغر وأقل من النمل بالقياس إلى هذه الأرض وهم حين يقفون في صف يجادلون في آيات الله، ويقف الوجود الهائل كله في صف معترفاً بخالق الوجود مستنداً إلى قوة العزيز الجبار، هم في هذا الموقف مقطوع بمصيرهم، مقضي في أمرهم مهما تبلغ قوتهم ومهما يتهيأ لهم من أسباب المال والجاه والسلطان[2].

ب- ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾:

فمهما تقلبوا وتحركوا وملكوا واستمتعوا فهم إلى اندحار وهلاك وبوار، ونهاية المعركة معروفة إن كانت ثمة معركة يمكن أن تقوم بين الوجود وخالقه، وقوة هؤلاء الضعاف المساكين،

---

1 المرجع السابق، 342/2.

2 السيد قطب، المرجع السابق،3069/5.

ولقد سبقتهم أقوام وأحزاب على شاكلتهم، توحي عاقبتهم بعاقبة كل من يقف في وجه القوة الطاحنة العارمة التي يتعرض لها من يعرض نفسه لبأس الله.

ج- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ﴾:

أيّ: ليسوا أول من كذب حتى يجهلوا عاقبة تكذيبهم وما يجرهم هذا التكذيب، فهي قصة قديمة من عهد نوح، ومعركة ذات مواقع متشابهة في كل زمان. وهذه الآية تصور هذه القصة قصة الرسالة والتكذيب والطغيان على مدى القرون والأجيال كما تصور العاقبة في كل حال[1].

د- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾:

أي: من قوم نوح والأحزاب ومن بعدهم بتدبير وإعداد الوسائل والمكايد وأنواع المكر ضد رسولهم، ليقبضوا عليه ويمنعوه من متابعة الدعوة بالسجن والقيد أو القتل أو بالإخراج من البلاد والطرد.

هـ- ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾:

أي: ليوهموا بباطلهم المموّه المزخرف أن الحق الذي جاء به الرسل هو باطل، وليزلقوا الحق في مزالق الشبهات والتلبيسات التي يصطنعونها فيزيلوه عن مواقع ثباته في أفهام المؤمنين به.

و- ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾:

أي: فأخذتهم أخذ إهلاك، وكان إهلاكاً بوسائل مختلفة، فكيف كان العقاب لهم على

1 السيد قطب، المرجع السابق، 3070/5.

تكذيبهم رسل ربهم، ومجادلتهم بالباطل لدحض الحق؟ وهذا الاستفهام هو عن الحال التي كان عليها العقاب، لأن لفظة "كيف " يستفهم بها عن الحال، فقد كان بالظواهر الكونية، كالطوفان وإغراق البحر، وانقلاب الأرض وجعل عاليها سافلها إلى غير ذلك. وقد كان انتقاماً عادلاً لأمم كفرت كفراً إرادياً، وظلت مصرة على العناد ورفض الحق، رغم الإمهال الطويل لهم، وكان عبرة وعظة لمن وراءهم[1].

8. الترف:

ومن أسباب العقاب الإلهي الترف، قال تعالى: ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ **[هود 116 – 117]**[2].

فالظالمون وهم الأكثرون اتبعوا الذي أنظرهم فيه ربهم من نعيم الدنيا ولَذاتها، إيثاراً له على عمل الآخرة وما ينجيهم من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ **[الإسراء: 16]**، فإذا أراد الله عزَّ وجل إهلاك أمة فإنه يأمر هؤلاء الذين أترفوا بالطاعة فيفسقون فيها ويبقون على ترفهم، ويبقون على معاصيهم ومخالفتهم لأمره سبحانه، فيجيب عليهم بمعصيتهم لله وفسوقهم فيها وعيدُ الله الذي أوعد من كفر به وخالف رسله من الهلاك والدمار، فيخربها سبحانه تخريباً، ويهلك من كان فيها إهلاكاً.

---

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 152.

2 عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط5 1991م، ص273.

إنَّ المترفين هم أولوا النعمة والحشــمة والثروة والرياســة[1]، وهؤلاء المترفون هم المعنيون بالملأ من القوم، وهم الذين تولوا كبر معارضة الرسل كما ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى عن قوم نوح ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَــلَالٍ مُّبِينٍ﴾ **[الأعراف: 60]**، وبين نوح أن جماهير قومه اتبعوا رؤساءهم وأهل الثروة منهم الذين لم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة[2].

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَـارًا﴾ **[نوح: 21]**. ومجتمع قوم نوح ساد فيه الترف والطبقية فهو مكون من: الرؤســاء والمرؤوســين، الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضـعفاء، والمترفون من كل أمة هم طبقة من الكبراء المنعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم والراحة، فينعمون بالراحة والســيادة حتى تترهل نفوســهم وترتع في الفســق والمجون وتســتهتر بالقيم والمقدســات والكرامات وتلغ في الأعراض والحرمات، وكانوا من أسـباب الهلاك والدمار في أقوامهم الهالكة والأماكن التي عاشوا فيها[3].

وقد أخبرنا الله عز وجل عن كثرة القرى الظالمة التي كان أهلها مترفين، فاستحقت عقاب الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَــمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَــأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ* فَلَمَّا أَحَسُّـوا بَأْسَـنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُـونَ* لَا تَرْكُضُـوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَــاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْــأَلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ **[الأنبياء: 11 - 15]**.

---

1 تفسير ابن كثير، 3 /548. وانظر: سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 366.

2 تفسير ظلال القرآن، سورة نوح، 3716/6.

3 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، ص 215.

9. البطر:

ومن الجرائم التي يعاقب عليها الأمم: البطر، والبطر: هو الطغيان والإشراك وكفر النعم قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ **[القصص 58]**.

وقوم نوح عليه السلام بطروا النعمة وطغوا فيها ولم يقوموا بشكرها ولا بحقها وجحدوها فجمعوا بين الكفر وفساد المعتقد والطغيان والاستعلاء في الأرض وعدم القيام بشكر المنعم[1].

وقام نوح عليه السلام بتذكير قومه بنعم الله عليهم فقال لهم: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا* أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا* وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا* وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا* لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ **[نوح: 13- 20]**.

ولكن القوم اعتادوا البطر وكفران النعم، إذ بعد فتح أبواب الخيرات عليهم، لم يزيدوا على أن فرحوا فرحاً أشراً وبطراً وطغياناً وعجباً من غير انتداب لشكر أو عرفان للمنعم سبحانه، وكان شركهم وتكذيبهم من اعظم الكفران، إذ جعلوا لأصنامهم حظاً من الإنعام والإكرام، وصرفوا لها العبادة التي لا ينبغي أن تكون إلا لله تعالى الكريم المتفضل بجميع النعم مع الإصرار على عبادة أوثانهم متواصين بالتمسك بها، وكان عاقبتهم الطوفان الذي أبادهم ولم يترك منهم أحداً[2].

1محمد أمحزون، المرجع السابق،504/1.

2محمد أمحزون، المرجع السابق، 3/ 406.

10. الاستكبار:

من أسباب هلاك قوم نوح: الاستكبار، والكبر والتكبر والاستكبار: اشتقاقات من مادة "كبر " وهي متقاربة في المعنى[1]، فالكبر ألصـــقناه بالخلق الباطني، وهو: خلق في النفس دال على الاسـترواح[2]، والركون إلى رتبة فوق المتكبَّر عليه[3]، فمتى اتصـف المرء بهذا الخلق يقال: في نفســه كبر[4]، فإذا ظهر كعمل صــادر عن الجوارح كان تكبراً واسـتكباراً[5]. وقد بيَّن رســـول الله ﷺ حقيقة الكبر المتوعد عليه بالعقاب فقال: الكبر بطر الحق[6]، وغمط الناس[7].

وصِفة الاستكبار الذميمة كانت شائعة في قوم نوح عليه السلام، وكانوا قوماً مستكبرين متجاوزين الحد في الكبر، ووصفهم بهذه الصفة نبيهم نوح عليه السلام في شكواه إلى ربه من عنادهم وعدم اسـتجابتهم، قال تعالى: ﴿وَأَصَـرُّوا وَاسْـتَكْبَرُوا اسْـتِكْبَارًا﴾ **[نوح:7]**؛ أيّ استكباراً عظيماً غير معهود[8]، وقد أكد الفعل بالمصدر للدلالة على فرط استكبارهم[9].

---

1 المفردات في غريب القرآن، ص 421.

2 الاسترواح: التشمم، انظر في: ابن منظور، لسان العرب، مادة (روح)، 3/ 1765.

3 أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2010م، 363/3.

4 سعيد محمد بابا سيلا، المرجع السابق، ص 157.

5 سيلا، المرجع نفسه، ص157.

6بطر الحق: رده ودفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً.

7 غمط الناس: احتقارهم. والاسـتكبار: صـيغة اسـتفعال دالة على الطلب، قال الألوسـي: والاسـتكبار: طلب الكبر من غير استحقاق، صحيح مسلم، رقم147.

8الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، 72/29. أسباب هلاك الأمم، ص 165.

9 تفسير النسفي، (592/3). وانظر: سعيد محمد بابا سيلا، المرجع السابق، ص 165.

وورد هذا الوصف الدال على مبالغتهم وإفراطهم في الكبر في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم: 52]. وقال الطبري: إنهم كانوا أشد ظلماً لأنفسهم، وأعظم كفراً بربهم، وأشد طغياناً وتمرداً على الله من الذين أهلكهم من الأمم[1].

وقد تكبر قوم نوح على الله سبحانه وتعالى بالترفع عن عبادته وعن الإذعان لأوامره ونواهيه وعلى نوح عليه السلام وأتباعه، ولذلك مضت فيهم سنة الله في إهلاك أهل الاستكبار.

إنَّ الكبر خُلق ذميم، وكبيرة من كبائر الذنوب، وبسببه شقي كثير من الناس و أوبقوا أنفسهم في العاجلة، واستحقوا العذاب في الآخرة، والنصوص الواردة في ذمه، وبيان خطورته، وما أعد الله لصاحبه، كثيرة لا تحصى، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]. وقال ﷺ : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" [2].

وهذان النصان في الوعيد الأخروي، وأما في العاجلة فيكفي في بيان عاقبة صاحب الكبر ما ورد من النصوص الدالة على كونه سبباً في هلاك كثير من الأمم السالفة، وأشد آثار الكبر ضرراً لصاحبه أنه يمنعه من اتباع الحق والانقياد له بعد معرفته، فيُحرم الهداية، وينقاد للباطل بسبب كبره وعناده، ولذا كان كفر أغلب الأمم بسبب الإباء والاستكبار، عرفوا صدق الرسل، وأن ما جاءوا به حقاً ولكنهم لم يؤمنوا بهم تكبراً واستنكافاً أن يتبعوا بشراً مثلهم[3].

---

1 سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، ص 166.

2 صحيح مسلم، رقم 149.

3سيلا، المرجع السابق، ص 162.

11. المكر:

إنَّ ما تعرض له نوح عليه السـلام أمر عظيم من مكر الكافرين به، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [نوح: 22]، وقد كان المكر صفة بارزة في قوم نوح واستخدم الملأ من قومه كافة وسائل وأساليب المكر لصد الناس عن دعوة التوحيد والاستجابة لعبادة الله، وآثروا الشبهات والاتهامات الباطلة ووضعوا العوائق والعراقيل أمام دعوته، وقد بينا ذلك في الصفحات السابقة.

لقد دبروا الحيل، ونصبوا الحبائل ليمكروا بنوح عليه السلام، فأبطلها الله وجعلها سبيلاً لهلاكهم، وأخذُ الماكرين بعقاب الله سنةٌ إلهية ثابتة مطردة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [1]، إذ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123].

ويبين في آية أخرى مصير هؤلاء الكافرين الماكرين، قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل 26].

12. الخطايا والذنوب:

قال تعالى في سورة نوح عن دعائه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا* مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:25،24].

1 الخطيب، المرجع السابق، 332/2.

- ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾: ذلك الدعاء المنبعث من قلب جاهد طويلاً وعانى كثيراً وانتهى بعد كل وسيلة إلى الاقتناع بأن لا خير في القلوب الظالمة الباغية العاتية، وعلم أنها لا تستحق الهدى وتستأهل النجاة.

وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح عليه السلام يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة، فأمر الآخرة كأمر الدنيا، ماضٍ بالقياس إلى علم الله، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه.

- ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾: فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً، والتعقيب بالفاء مقصود هنا، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم، والفاصل الزمني القصير كأنه غير موجود؛ لأنه في موازين الله لا يحسب شيئاً، فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم في النار[1].

ومن أسباب العقاب الإلهي لقوم نوح وقوعهم في المعاصي وارتكابهم الذنوب والخطايا، والذنوب والخطايا تعم جميع ما ذكرت من أسباب هلاك الأمم السابقة وغيرها، لأن كل مخالفة لأمر الله، ذنب يعاقب الله عليه، وإذا تجمعت الخطايا والذنوب على أمة فإن هذه الأمة تعاقب ويحل بها الهلاك[2].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ **[الأنعام 6]**.

1السيد قطب، المرجع السابق، 3716/6.

2 شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، 337/2.

إنَّ الذنوب ســـبب للانتقام وزوال النعم[1]، فهي تعزل الأمم عن مصـــدر القوة الحقيقية، وتســـتعـدي عليهم قوى الإيمـان ومعهـا قوة الله[2]، وهـذه ســـنـة الله أن يأخـذ الأمم بالذنوب[3]،كما قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَـدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **[آل عمران: 11]**. وإنَّ من أسـباب سـقوط وهلاك الحضـارة الإنسانية الأولى ظهور المعاصي وارتكاب الخطايا والانغماس في الذنوب.

13.الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة:

اشـتغل قوم نوح بأمور الدنيا وأصـابهم الغرور بها، ونسـوا الآخرة، وفرحوا بالأموال والأولاد والمتاع الزائل، وغاب عنهم الاســتعداد ليوم الرحيل، وتطاولوا على اهل الإيمان، ووقعوا في سـنة الاسـتدراج الرباني، فكثرت أموالهم وأولادهم وأبطرتهم هذه النعم الكثيرة وتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُـــونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **[الأنعام: 44، 45]**.

والتعبير القرآني:﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَـــيْءٍ ﴾، يصـــور الأرزاق والخيرات والمتاع، والسـلطان، متدفقاً كالسـيول، بلا حواجز ولا قيود، وهي مقبلة عليهم بلا حواجز ولا كَدّ ولا حتى محاولة، إنه مشـــهد عجيب، يرســم حالة في حركة، على طريقة التصــوير القرآني العجيب.

1 محمد رشيد رضا، تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم)، 308/7 - 309.

2 الخطيب، المرجع السابق، 338/2.

3 الخطيب، المرجع نفسه، 338/2.

- ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾، وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة، واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها ـ بلا شكر ولا ذكر ـ وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه، وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة، كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع، بعد فساد القلوب والأخلاق، وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل[1].

- ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾: فكان أخذهم على غرة، وهم في سهوة وسكرة فإذا هم حائرون منقطعوا الرجاء في النجاة، عاجزون في التفكير في أي اتجاه وإذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم.

- ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾؛ دابر القوم: هو آخر واحد منهم، يدبرهم أي: يجيء على أدبارهم، فإذا قُطع هذا فأولئك أولى، و"الذين ظلموا " تعني: الذين أشركوا، والشرك من أنواع الظلم، وهو أعظمهم.

- ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: تعقيب على استئصال الظالمين بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين، وهل يحمد الله على نعمةٍ أجلّ من نعمة تطهير الأرض من الظالمين، أو على رحمة أجل من رحمته بعباده بهذا التطهير؟

1السيد قطب، المرجع السابق، 1090/2.

لقد أخذ الله تعالى قوم نوح وقوم هود وقوم صـــالح وقوم لوط كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السـنة، ووراء ازدهار حضـارتهم ثم تدميرها، ذلك السـر المغيب من القدر الظاهر في سننه، وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف[1].

14. سنة الاستبدال:

قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ **[محمد: 38]**، مضــت سنة الله في الاجتماع البشري أنه ما أهلك قوماً إلا أنشأ من بعدهم قوماً آخرين، يقومون بعمارة الأرض، ذلك أن ذهاب أمة وإنشاء أخرى لا يكون عبثاً وصدفة، ولكنه سنة الله في الأمم والدول لتتجدد خلايا الإنسـانية، وتتداول الحياة الحضـارية بين البشـر، ليسـتمر العالم قائماً على عقيدة سليمة وأسس صحيحة صالحة للبقاء[2].

وإن الحضـارات كما أن لها سنن قيام وسقوط، فلها سنن تجدد وانبعاث واستبدال، وقد تحدث القرآن الكريم عن الاسـتبدال الحضـــاري وهذا ما حدث لقوم نوح حيث تجمعت فيهم أسباب الهلاك فمضت سنة الله فيهم بالطوفان، ولكي تستأنف الإنسـانية رسـالتها اســتبدلهم الله بنوح عليه الســلام والذين آمنوا به، وكان نوح عليه الســلام ومن آمن معه تميزوا بتوحيدهم لله ومنظومة ســلوكية أخلاقية ربانية، متمســكون بالحق وصــابرون عليه وأجرى الله قدره عليهم ومكن لهم في الأرض، وجمع الله فيهم شــروط التمكين وأســبابه، وسـنتحدث بإذن الله عن حضـارة السـلام والبركات التي أسـسـها نوح عليه السـلام بعدما أبعد الله القوم الظالمين واستبدلهم بعباده الصالحين.

1السيد قطب، المرجع السابق، 1091/2.

2 محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص 73.

15. سنة الأجل الجماعي:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، كما جعل الله لكل فرد أجلاً تنتهي به حياته الدنيا جعل سبحانه للأمم والحضارات آجالاً تنتهي إليها، وتسقط في نهايتها ويسدل الستار عليها، وكذلك لحركة التاريخ الجماعي للأمم سنن كثيرة دقيقة تسير عليها، قدّرها الحكيم العليم لا تقصر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها محددة وأحداثها مقدرة مكتوبة ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾[1].

ونظراً لارتباط هذه الآجال بمواعيد ثابتة محددة في علم الله كجزء من نظام كوني متماسك ووفق مقاييس زمنية قد تبدو للإنسان ــ ذي القدرات النسبية المحددة ــ طويلة، ونظراً إلى أن إرادة الله سبحانه وتعالى وحكمته في خلقه شاءت أن تمد في هذه الأجيال كي تمنح لكل قوم أو أمة أن تكفر عن ظلمها وطغيانها، وأن تسعى لالتزام الطريق العادل المستقيم، ونظراً لهذا وذاك يتصور البعض أنهم بمنأى عن عقاب الله تعالى، وأنه لا تدهور ولا سقوط ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم 7].

ويتطرف البعض الآخر، فيستعجلُ المصيرَ قبل تحققه على سبيل التحدي والاستفزاز ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]، إلا أن أولئك وهؤلاء لم يدركوا أن كتابهم لم يبلغ أجله، وأنه إذا جاء فليس أمامهم إلا أن يعانقوا مصائرهم التي صاغوها بأيديهم سلفاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61][2]، وقال تعالى:

1عبد الحميد طهماز، السنن الإلهية في الخلق، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2000م، ص 35.

2محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، 367/1.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ **[يونس: 49]** ، أيّ: لكل قوم ميقات لانقضاء مدتهم وأجلهم في الحياة، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم لا يستأخرون ساعة، والإمداد بالساعة أقل مدة من الزمن ولا يتقدمون بالقدر نفسه، لأن الله قضى بذلك منذ حين[1].

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ **[الحجر: 4، 5]**، بيَّنت الآية أن كل القرى الهالكة كان لها أجل مقدر في أسباب هلاكها، وذلك لما أقام الله الحجة على أهلها بتقدم النذر وفرص الإمهال وسنن الاستدراج[2]، وتبقى سنة الله ثابتة وهي أن هلاك الأمم مرهون بأجلها الذي قدره الله لها، مرتب على سلوكها وأعمالها، وعلى اعتقادها وقصورها، ومن خلال هذا تنفذ مشيئة الله، فلا يغر المكذبين تخلفُ بأس الله عنهم فترة من الوقت، ومن عدل الله أن يذوق كل واحد جزاء عمله وتصرفه، وسنة الله في طريقها المعلوم تمضي رويداً رويداً نحو الأجل المقدر الذي يمنحه الله لتلك القرى ، وحتى لا تبقى بقية خير عند ذلك تبلغ الأمة أجلها وتنتهي إلى مصيرها[3].

وما من أمة عرفت الحياة ثم تمردت عن الحق وتولت عن العدل إلا والله مهلكها قبل يوم القيامة أو معذبها، وهذا قدر مقدر في الكتاب المسطور، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ **[الإسراء: 58]**.

---

1 محمد هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص 302.

2 المرجع السابق، ص 302.

3 المرجع نفسه، ص 303.

وهذا ما حدث لقوم نوح، حيث بعث الله لهم رســـولاً لهدايتهم فردوا دعوته كبراً وعناداً، وأعرضـــوا عنها جحوداً وطلبوا منه تعجيل العذاب وكذبوا وجحدوا وظلموا وبطروا وأترفوا ...إلخ، فوقع عليهم العقاب الإلهي بســبب ذنوبهم مع تقدير الله لهم وفق ســنة ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ فعلم الله لا يتبدل وسـنته لا تتحول وهي جارية وحاكمة وفق مشـيئته وإرادته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى.

16. سنة الهلاك:

إنَّ الله سبحانه وتعالى قضى بجعل الحساب والجزاء يوم القيامة، لكن جرت سنته بالفصل بين أهل الحق وأهل الباطل في الدنيا لحكمة ربانية عليا، وذلك بإهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين في الصــراع الدائر بين الرســل عليهم الســلام وأعدائهم، وفي هذا الصــراع دارت الدائرة وفق سـنة الله على أهل الشـقاوة، فمنهم من أغرقه الله بالطوفان، ومنهم من أرسـل عليه الريح العقيم، ومنهم من أخمدته الصـــيحة، ومنهم من أخذته الرجفة فأصـــبحوا في ديارهم جاثمين، ومنهم من مســخوا فغدوا قردة وخنازير على أن الهلاك الذي حل بأولئك الظالمين إنما هو خزي لهم في الدنيا ونصـــرة للمؤمنين وعبرة لمن يجيء بعدهم من الأمم ليتعظوا بمصـائر الغابرين، ويبتعدوا عن سـبل الشـيطان التي كانت سـبباً في إهلاك القرون الخالية المحادّة لله ورسوله.

وقد ورد لفظ "الهلاك" في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة حسب موقعه في السياق كالموت مطلقاً والفساد، وافتقاد الشيء والعذاب [1]، والمعنى الأخير هو الأكثر استعمالاً في القرآن الكريم وله صلة بموضوعنا.

أما الهلاك في الاصطلاح القرآني فهو: ما ينزله الله تعالى بأعدائه من العذاب المستأصل المبيد، وقد ورد هذا بكثرة في حديث الكتاب العزيز عن مصير الأمم الغابرة التي انحرفت عن جادة الصراط المستقيم وجحدت أوامر الله عز وجل وآذت رسله.

ومن أصناف الهلاك الذي حل بقوم نوح الغرق، فكان عقاباً وهلاكاً عليهم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14]، والطوفان من كل شيء: ما كان كثيراً مطيفاً بالجماعة، [2] لكنه صار متعارفاً عليه في الماء المغرق المتناهي في الكثرة سواءً كان مطراً أو سيلاً [3]، وقوم نوح هم أول الأمم الهالكة التي وردت قصتها في القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 17]، ويُفهم من هذه الآية الكريمة أن الهلاك بدأ بقوم نوح، ثم استمر إلى الفترة ما قبل البعثة النبوية، حيث كان هلاك أصحاب الفيل، وكان قوم نوح سكان الأرض في

---

1 الحسين بن محمد الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4 1983م، ص 477.

2 الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، ص 393.

3 ابن منظور، المرجع السابق، 627/2.

تلك الحقبة الزمنية البعيدة في أغوار التاريخ قبل انتشـــار الناس لقرب العهد من آدم أبي البشر عليه السلام[1].

17. سنة الخسران:

تحققت ســـنة الخســـران في قوم نوح، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: 63]، من سـنة الله أن الكافرين لا يفلحون، وأنهم خاسـرون، وهي سـنة نافذة لا تتخلف، كما أن الفلاح للمؤمنين طرد من الناموس الكبير[2]، فكل ما كان يرى على قوم نوح من نعمة ومتاع وقوة وسلطان عند الملأ، لم يكن ذلك فلاحاً في ميزان القيم الحقيقية، وإنما كان استدراجاً، انتهى بالويل والخسران والطوفان العظيم.

لقد خسـر قوم نوح الإدراك والبصـيرة فضـاعوا في صـحاري الشـبهات وبحار الشـهوات ووديان الضـــلال، ومضـــت فيهم ســـنة الخســـران ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

18. الغفلة عن أسباب الهلاك:

من أسباب هلاك قوم نوح ومضيّ سنة الله فيهم، غفلتهم عن أسباب الهلاك، فلم ينتبهوا إلى خطورتها، بل مارسـوها على مسـتوى الأفراد والمجتمع. وإنَّ القرآن الكريم في قصـة نوح عليه الســـلام وجه الأنظار إلى الاعتبار بأحوالهم، وهي مليئة بالدروس والعبر والفوائد والسنن وقوانين الله في حركة الشعوب وزوال الحضارات.

1 محمد أمحزون، المرجع السابق، 579/3.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2483/4.

هذه بعض الأسـباب التي وصـلنا إليها من خلال البحث والدراسـات في معرفة عوامل هلاك الحضـارة الإنسـانية الأولى، واللافت للنظر أن مقومات حضـارة جديدة برزت من خلال محنة نوح ساهمت في انطلاقها بعد هبوط السفينة على الجودي، وقد بدأت: باسم الله، والحمد لله على النجاة من القوم الظالمين، والدعاء لله بأن ينزلهم منزلاً مباركاً والله خير المنزلين، وكانت بذور تلك الحضـارة متوفرة في سفينة نوح عليه السلام من الإنسـان والحيوان والطيور والنباتات، مع القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية، والتطورات الفكرية عن الله والحياة والكون والوجود والجنة والنار والقضـاء والقدر وغيرها من خلال وحي الله عز وجل لنوح عليه السلام.

تاسعاً: الحذر من الإسرائيليات التي شوهت قصة نوح والطوفان العظيم

علينا الحذر من الخرافات والأساطير والإسرائيليات والموضوعات التي ألصقت بقصة نوح عليه السلام، وقد لعبت الإسرائيليات دوراً عكر صفاء قصة نوح عليه السلام في كثير من الأحايين، فيرون مثلاً أن الله أمر نوحاً أن يغرس شجراً ليصنع منه السفينة وأن النبي غرس هذا الشجر، ثم انتظره مائة عام، ثم نجره مائة أخرى على رواية، وفي أربعين على أخرى[1].

والأمر كذلك بالنسبة إلى طول السـفينة فهي ثلاثمائة ذراع في عرض خمسـين ذراعاً، وقد قام الأستاذ حامد أحمد البسيوني في كتابه: صـحيح قصـص القرآن بالتحذير من هذه الخرافات والأساطير والموضوعات والإسرائيليات، وتصدى لهذه الإسرائيليات وكشف عوارها وبين مخالفتها للشرع والعقل، فمن أراد التوسع فليرجع إليه[2].

1 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، 76/4.

2 حامد أحمد البسيوني، صحيح قصص القرآن، دار الحديث، القاهرة، دون تاريخ، ص 94.

وهناك روايات كثيرة عن دخول الحيوانات والطيور إلى السفينة، ومن الأسف أنها روايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ، ومن أمثلة ذلك: دخول إبليس إلى السفينة في ذيل حمار[1]، والرواية التي تذهب إلى أن (عوج بن عناق) لم يغرق في طوفان نوح، وأنه قد عاش من قبل عهد نوح وإلى أيام موسى، وأنه كان جباراً عنيداً كافراً متمرداً، وأن أمه عنق بنت آدم قد ولدته من زنا، وأنه كان طويلاً بدرجة لا يمكن أن تحدث، حتى أنه كان يأخذ السمكة من قرار البحار ثم يشويها في عين الشمس، وأنه كان يستهزئ بسفينة نوح وبصاحبها وأنه كان يسميها القصعة، والواقع أن هذه الأسطورة لا تستحق أن تناقش فلا عقل يقبلها، ولا شرع يقبلها[2].

ومن هذا النوع من الروايات كذلك: رواية تذهب إلى أن السيد المسيح عليه السلام وبناءً على رغبة الحواريين قد أعاد (حام بن نوح) إلى الحياة، ثم سأله عن فلك نوح فأخبر أن طولها كان ألف ذراع ومائتي ذراع، وأن عرضها ستمائة ذراع. ومن هذا النوع كذلك: رواية تذهب إلى أنه لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر، وأن مياه البحار إنما هي من بقية الطوفان.

ومن هذا النوع كذلك: رواية تذهب إلى أن القوم بعد أن استوت بهم السفينة على الجودي، هبطوا إلى أسفل وابتنوا قرية سموها ثمانين، وأنهم قد أصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربي، فكان بعضهم لا يفهم كلام بعض، وكان نوح يعبر عنهم[3].

---

1 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، 81/4.

2 محمد بيومي مهران، المرجع السابق، 82/4.

3 مهران، المرجع نفسه، 82/4.

وليس هناك باحث مُنصف يستطيع أن ينكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً، وإلى منافاتها العقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى، وإلى تعارض بعضــــها مع البعض الآخر في أحايين كثيرة، وإذا ما اردنا أن نقدم الدليل على ذلك وأخذنا على سبيل المثال قصة تبلبل ألسنة الناجين من الطوفان لوجدنا أثر التوراة واضحاً فيها، ـ إن لم تكن منقولة أو تكاد ـ ذلك أن التوراة حاولت أن تقدم تفسيراً ساذجاً غير علمي لاختلاف اللغات والأجناس، فروت أن الناجين من الطوفان أرادوا أن يبنوا برجاً عالياً بغية الصعود إلى الله عز وجل في علياء سمائه، إذ كانوا يحسبون السماء أشبه شيء بلوح زجاجي يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار، فخشي الله شرهم سبحان الله عما يقولون، واحتاط لنفسه فهبط إلى الأرض وبلبل ألسنتهم فتفرقوا شذر مذر، ومن ثم فقد سميت المدينة (بابل)؛ لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض[1].

ومن الإسرائيليات: ما ذكره ابن كثير نقلاً عن التوراة فقال: وقد ذكر أن (حاماً) ـــــ ولد نوح ـــــ واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تتشوه خلقة نطفته فولد له ولد أسود، وهو (كنعان بن حام) جد السودان، وقيل: بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها، وسترها أخواه، فلهذا دعا عليه أن يغير نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لإخوته[2]. وغير ذلك من الأخطاء والموضوعات والإسرائيليات المخالفة للمعقول والمنقول والتي للأسف تأثرت بها كتب التواريخ وأيام الناس وتسربت إلى التفاسير.

لقد نسجت خرافات وأساطير يجب تنقية كتب التراث منها، والاعتماد على الرؤية الحضارية القرآنية التي قدمها القرآن الكريم في قصة نوح عليه السلام.

1محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، ص 83.

2 حامد أحمد البسيوني، صحيح قصص القرآن، ص 97.

1. افتراء بني إسرائيل على نبي الله نوح عليه السلام:

افترى بنو إسرائيل على نبي الله نوح عليه السلام، فقد زعموا أنه شرب الخمر فسكر فتعرى في داخل خبائه، فأبصر ولده حام أبو كنعان عورة أبيه، وخرج وأخبر أخويه بما كان منه، فدخل الولدان على أبيهما وأخذا الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا للخلف حتى لا يريا عورته، فلما وصلا إليه سترا عورته، فلما استيقظ نوح وعلم بما فعل ابنه غضب عليه وأخبر أن كنعان بن حام وذريته سيكونون عبيداً لأبناء سام ويافث، وأخبر أنه سيكون عبداً لعبيد لإخوته، وبارك سام قائلاً: «مُبَارَكٌ الرَّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»[1].

وهذا الذي ذكروه عن نوح عليه السلام كذب وافتراء على نوح، فما يكون لنوح وهو من أولي العزم من الرسل أن يشرب الخمر ويسكر ويتعرى وتُرى عورته، وإذا كان الأمر كذلك فما قيل عن حام كذب كذلك أيضاً [2].

وعلق الأستاذ عبد الوهاب عبد الرزاق الراوي عن رواية "الطوفان التوراتي في كتاب تكوين"، فقال: وهكذا يتحقق غرض اليهود الخبيث من هذه الرواية، وهو الطعن ثم اللعنة ببني كنعان، السكان الأصليين لأرض كنعان – فلسطين – ورفع شأن ومباركة بني سام، ومنهم بني إسرائيل، ولكن غفل أولئك الكتاب اليهود بأن العرب ذرية عندنا يرجعون إلى سام أيضاً[3].

1سفر التكوين، الإصحاح التاسع، ص. ص 26 - 27.

2 عمر الأشقر، قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسنة، دار النفائس للطباعة، ط1 2011م، ص 52.

3 حديث القرآن العظيم، ص 446.

وعلق الدكتور محمد علي البار فقال: والغريب حقاً أن يقوم نوح السكران الذي تعرى، بلعن حفيده كنعان الذي لا دخل له في هذه الجريمة التي اقترفتها يدا نوح نفسه، كما أعلى نوح بركاته على سام جد اليهود كما يعتقدون وجعل كنعان عبداً لسام، وبالتالي ينبغي أن يكون جميع أهل فلسطين عبيداً لليهود، وأرض فلسطين تكون من نصيب أولاد سام، والمقصود من ذلك قطعاً اليهود، وهكذا تلوث التوراة المحرَّفة صورة الأنبياء بصورة مزرية قبيحة، كما أنها قد لوثت الله عز وجل ذاته تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً[1].

2. هل عمَّ طوفان نوح الكرة الأرضية؟

تحدث العلماء في هذه المسألة واختلفوا فيما بينهم، ونذكر على سبيل المثال آراءهم في هذا الحدث التاريخي:

– **أجاب الشيخ محمد عبده** عن هذا السؤال فقال: أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام، وما ورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن، إذا عُدّ اعتقادها من عقائد الدين، وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصِّل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية، أو عدم الثقة بها، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني.

1 محمد علي البار، الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة العهد القديم، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2011م، ص 68.

وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان، وأهل النظر في طبقات الأرض، وموضـــوع خلاف بين مؤرخي الأمم، وأما أهل الكتاب وعلماء الأمة الإســـلامية فعلى أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض، و وافقهم على ذلك كثير من أهل النظر، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصـــداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال؛ لأن هذه الأشياء مما لا تكون إلا في البحر، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض، ويزعم أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها، غير انه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز، بل على كل من يعتقد بالدين ألّا ينفي شـيئاً مما يدل على ظاهر الآيات والأحاديث التي صـــح ســـندها وينصـــرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غير المراد، والوصـــول إلى ذلك في مثل هذه المســـألة يحتاج إلى بحث طويل وعناء شـــديد، وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوي عليه، وذلك يتوقف على علوم شـــتى عقلية ونقلية، ومن هذيَ برأيه دون علم يقيني فهو مجازف لا يسـمع له قول، ولا يسـمح له ببث جهالاته، والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

- يقول **السيد محمد رشيد رضا**: وخلاصة هذه الفتوى أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عاماً شـــاملاً لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم، فيجب اعتقاده ولكنه لا يقتضـــي أن يكون عاماً في الأرض، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملؤون الأرض، وكذا وجود الأصـــداف والحيوانات البحرية في قمم الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك الطوفان، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوين الجبال وغيرها من اليابسة في الماء، فإن صعود

1محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، 4/ 97.

الماء إلى الجبال أياماً معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر منها، وكما قلنا: فإن هذه المسائل التاريخية ليســت من مقاصــد القرآن، ولذلك لم يبينها بنص قطعي، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصـوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية، فإن أثبت علماء الجيولوجية خلافه لا يضرنا؛ لأنه لا ينقض نصاً قطعياً عندنا[1].

- ويقول **الدكتور عمر إيمان أبو بكر**: لا خلاف بين أهل العلم أن جميع الكفار من قوم نوح قد أهلكوا غرقاً بالماء، ولم ينج منهم إلا من كان على ظهر الســفينة ممن آمن بدعوة نوح عليه السلام، ولكن يبقى السؤال: هل المياه عمت جميع أرجاء الأرض المعمورة منها وغير المعمورة ؟ أم إن الإغراق كان خاصاً بالقسم المعمور منها في ذلك الزمان؟ فإذا نظرنا إلى حمل اثنين من كل المخلوقات الأرضــية من غير الإنســان، ترجح لدينا أن المياه قد عمت جميع أرجاء المعمورة وغير المعمورة، لأن الغرض من حملها إنما هو خوف انقراضــها كلها، ولو كانت هناك مناطق أخرى ســلمت من المياه تكون بعض تلك المخلوقات موجودة فيها، وعليه فلا يكون لحمل بعضــها على السـفينة حاجة، وهذا هو الذي يفهم من كلام ابن كثير حيث قال: وعم الماء جميع الأرض طولها، وعرضــها، ســهلها وحزنها، وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، ولا صغير ولا كبير [2].

وإذا نظرنا إلى محدودية البشــر في زمن نوح عليه الســلام لكون زمنهم قريباً من زمن آدم، وأن كلهم كانوا في منطقة واحدة معينة، فإذا كان الامر كذلك فإن الذي يظهر أن الغرق لم يعم جميع القارات الخمســة بالمياه، علماً بأن بعضــها لم يكتشـف إلا قبل قرنين أو قريباً

1مهران، المرجع السابق، 97/4.

2 النجار، المرجع السابق، ص 65.

من ذلك، ثم إن النصـــوص وإن دلت على أن الغرق قد عم جميع الناس، لكن ليس فيها مـا يقطع أن الغرق عم جميع أهـل الأرض، ولكننـا لا نجزم برجحـان احـد القولين على الآخر، بل نكل علم ذلك إلى الله تعالى[1].

– وقال **الشـيخ محمد الطاهر بن عاشـور**: وعموم الطوفان هو مقتضـى ظواهر الكتاب والسـنة، ومن قالوا إن الطوفان لم يعم الأرض فإنما أقدموا على إنكاره من جهة قصـر المدة التي حددت بها كتب الإسـرائيليين، وليس يلزم الاطمئنان لها في ضـبط عمر الأرض وأحداثها وذلك ليس من القواطع، ويكون القصـر إضـافياً، أي لم يبق من قومه الذين أرسـل إليهم، وقد يقال: نسـلم أن الطوفان لم يعم الأرض، ولكنه عم البشـر لأنهم كانوا منحصـرين في البلاد التي أصـابها الطوفان، ولئن كانت أدلة عموم الطوفان غير قطعية فإن مستندات الذين أنكروه غير ناهضة، فلا تترك ظواهر الأخبار لأجلها[2].

– وقال **الشـيخ عبد الوهاب النجار**: إنَّ بعض العلماء يميل إلى عمومه، ويقول بعض علماء الجيولوجيا: إننا كلما بحثنا في أعالي الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التي لا تعيش إلا في الماء وهذا يسـتدعي وجود طوفان على هذه الجبال، بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف في عمر هـذه البقـايا، فلا مـانع من أن يكون طوفـان نوح أحـدهـا، ويكون قد عمّ، ويستأنس لذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ **[الصافات: 77]**.

ويميل فريق من العلماء إلى أن الطوفان لم يكن عاماً، بل طغيان الماء كان على الجهة التي كان يسـكنها نوح وقومه، وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان، ويسـتأنس لذلك بأن الهندوس كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد في الماضـي إلى تاريخ أبعد من

1عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 75.

2 محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، 125/12. وانظر: عمر إيمان أبو بكر، المرجع السابق، ص 75.

الذي قدرته التوراة لنوح وطوفانه، وأن عمرانهم متصـل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم، وأنتم تعلمون أني غير واثق من التاريخ الذي تقدره التوراة، فربما كان نوح أبعد من ذلك بعداً يشمل ما يدعيه أهل الهند.

وعلى كل حال فالمسألة ليس فيها نص من القرآن بل كل ما فيه من هذه الناحية: أن قوم نوح كفروا وعصـوا الرسـول فأغرقهم الله بالطوفان ونجى نوحاً ومن معه في الفلك وجعل ذريته الباقين، فالعموم محتمل والخصـوص محتمل، والذي أميل إليه أن يكون خاصـاً، وأن النوع الإنساني لم يكن منتشراً في جميع الكرة الأرضية، بل كانوا منحصرين في الناحية التي عمها الطوفان، وأنهم قد هلكوا وبقي نوح وذريته[1].

وقد اهتم بالحديث عن الطوفان وما يتعلق به مجموعة من الباحثين، ومن أهم الأبحاث:

- **قصة الطوفان بين الأسطورة والدين** (دراسة وصفية تحليلية مقارنة) للأستاذ هشام محمد مباركي.

- **طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام** لقسم الدراسات والبحوث بجمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

- **طوفان نوح عليه السلام في القرآن والأساطير القديمة**: لمنصور عبد الحكيم.

- **أنبياء القرآن**: عبد المجيد همو، وغيرهم من الباحثين والدارسين.

1النجار، المرجع السابق، ص 65.

3. اهتمام علم تاريخ الأديان بالطوفان:

شغلت قصة الطوفان العظيم حيزاً كبيراً في الفكر والتفكير، واسترعت اهتمام الكثير من الباحثين والمتخصصين في الحياة العلمية والمعرفية والإنسانية، كعلم الأديان أو علم مقارنة الأديان أو علم النفس أو علم الاجتماع، أو الانثروبولوجيا والتاريخ، مما يدل على أن حادثة الطوفان بشقيها الأسطوري والديني قد تركت وقعاً كبيراً في نفوس وعقول ووجدان الأمم اللاحقة[1].

وقد تضاربت المصادر والمراجع التاريخية في قصة الطوفان، وانفرد القرآن الكريم بالحقيقة الكاملة لقصة نوح عليه السلام والطوفان العظيم، لا يمكن أن تضاهيها أي مدرسة من المدارس الإنسانية التي اهتمت بالطوفان، فقد حفظ الله ما ينفع بني البشر من سيرة نبيه ورسوله نوح عليه السلام، ولن تجد ذلك لا في الآثار السومرية ولا البابلية، والتوراتية المحرفة ولا غيرها، فالنص القرآني بين بوضوح أن نوحاً كان رسولاً من رب العالمين وأنه قضى من الزمن ما شاء الله له أن يقضي في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار، وأن الله جلَّ وعلا لم يأت بالطوفان إلا بعد أن تحمل النبي الكريم في دعوته كل صنوف الأذى والاضطهاد، وإلا بعد أن جرب النبي الكريم كل سبل الإقناع دونما أية نتيجة، وأن الناجين من الطوفان في القصة القرآنية إنما نجوا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحكيم، وصدقوا بدعوة نوح عليه السلام، بعكس النصوص الأخرى التي جعلت نجاتهم إنما ترجع إلى أنهم من أهل الباطل ولكنهم نجوا لأنهم من ذوي قرباه، ويزيد القرآن الكريم الامر وضوحاً في هذه النقطة بالذات، فقص علينا حوار نوح مع ابنه، وموقف زوجته من دعوته، ويبدو واضحاً

---

1 هشام محمد مباركي، قصة الطوفان بين الأسطورة والدين، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015م، ص 139.

المبدأ القرآني العظيم:"من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد"، "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شـــراً يره".

إنَّ النصِّ القرآني هو النص الوحيد الذي تسامى عن مهاوي الشرك وضلال الوثنية، فهو يذكر وبصـراحة تامة أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم وانصـرفوا إلى عبادة الأوثان، وفي كل هذا يقدم لنا وصــفاً لله تعالى بما يتفق مع مقام الذات العلية، فلا غ يتنزل إلى الدرك الأسـفل من التفكير الوثني في قصـص العراق القديم، أو يصـف الله سـبحانه وتعالى بما وصفته التوراة المحرف من أوصاف لا يرتضيها عقل ولا يقودها منطق، بل دحض أوصاف لا يرتضيها عقلاء الناس لأنفسهم في كثير من الأحيان.

وهو الوحيد الذي نزه الله ســبحانه عن الندم عن إحداث الطوفان، بعكس النصـــوص الأخرى التي ذهبت إلى ندم الله أو الآلهة في النصــوص البابلية على الإتيان بالطوفان، بل ذهبت التوراة إلى أبعد من ذلك، حين زعمت أن الله – تعالى عن ذلك علواً كبيراً – قد عزم أن لا يحدث طوفاناً بعد ذلك، وانه قد وضـع علامة هي القوس في الســماء ليتذكر وعده، فلا يكون طوفان يغرق الأرض أبداً.

لم يعتمد النصِّ القرآني على غيره؛ لأنه وحي من عند الله، بعكس المصادر البشرية القديمة، فالســـومريون بعد أن كتبوا روايتهم عن الطوفان جاء البابليون من بعدهم وأخذوا منها ما أخذوا، ثم جاءت اليهود ونقلت ما نقلت عن الاثنين، وهكذا كانت كل رواية طوفانية تعتمد على رواية سبقتها في التدوين، ولكن الأمر جدّ مختلف بالنسبة إلى القصة القرآنية، والتي هي وحي من رب العالمين، ذلك في القرن الســـابع الميلادي وفي مكة المكرمة، وفي

غار حراء بدأ نزول الوحي على مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، ولم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه على دراية لقصة الطوفان هذه، وإلى هذا يشير القرآن الكريم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49].

ثم أليس كل ما جاء في هذه الدراسة يدل بوضوح على هيمنة القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية - فما بالك بالكتابات الإنسانية - مصداقاً لقوله تعالى مخاطباً الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 47]، ثم أليس هو الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:42][1].

4. روايات ضعيفة الإسناد:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو جعفر، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبيل عن أبي هريرة قال: مرّ النبي ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال: ما هذا الصوم؟ فقالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى وبني إسرائيل من الغرق، وغرق فيه فرعون، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي، فصامه نوح وموسى عليها السلام شكراً لله عز وجل، فقال النبي ﷺ: أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم، فأمر أصحابه بالصوم[2].

1 محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، 97/4 - 101.

2 ضعيف جداً ولمعناه شواهد إلا ما يتعلق بذكر السفينة فقوله: (وهذا اليوم الذي استوت فيه السفينة على الجودي لا يصح، والحديث أخرجه أحمد، 359/2 وغيره)، وفي سنده عبد الصمد بن حبيب الأزدي متكلّم فيه وأبوه مجهول.

قال الشيخ مصطفى العدوي: وهذا اليوم الذي استوت فيه السفينة على الجودي: ضعيف جداً، وأما سائر الحديث فمعروف وله شواهد في الصحيحين وغيرهما، وثم أخبار كثيرة تالفة في هذا الباب[1].

هو حديث ضعيف في شأن الطوفان مع قوم نوح أخرجه الطبري وغيره، وأورده ابن كثير في قصص الأنبياء من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي قال رسول الله ﷺ: مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله، وغرس الشجر مائة سنة، فعظمت وذهبت كل مذهب، ثم قطعها ثم جعلها سفينة، وقومه يمرون عليه ويسخرون منه ويقولون: تعمل سفينةً في البر! فكيف تجري!؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت به إلى أعلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي[2].

هذا وقد رويت عن رسول الله أخبار كثيرة ضعيفة الإسناد جداً في شأن نبي الله نوح عليه السلام، وكذا وردت عدة روايات إسرائيلية أعرضت عنها عن عمد وقصد حتى لا أثقل الكتاب بذكر أشياء لا تصح، وكذا لا يشغل بال المرء المسلم بأشياء غير ثابتة عن النبيﷺ والله تعالى أعلم [3].

---

1 مصطفى العدوي، قصص الأنبياء، 333/1.

2 هكذا أورده ابن كثير في قصص الأنبياء، وأخرجه الطبري، 21/12. وفي: والحاكم، 342/2 وغيرهم، وسنده ضعيف فيه موسى بن يعقوب وإبراهيم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان.

3 مصطفى العدوي، المرجع السابق، 333/1.

5. مصير الأطفال من قوم نوح:

يَســأل بعض الناس عن مصــير الأطفال وما ذنبهم حتى يعمهم الطوفان؟ وأجاب العلماء على ذلك: لقد جرت العادة أن النقمة إذا حلت بقوم عمتهم دون تمييز بين صــغير وكبير وبارّ وفاجر، وفي ذلك يقول جل شأنه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَــدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 25]، ولا شــكَّ أن أخذ الصــبية والأطفال بعموم المحنة فيه زيادة تعذيب ونكال لآبائهم، وأما هُمْ فإنهم ماتوا بآجالهم، وفي الوقت الذي حدده الله لهم وليس عليهم بعد الموت مساءلة ولا أخذٌ بما فعل آباؤهم[1].

على أننــا نرى الأطفــال يهلكون بمختلف الأمراض والآفــات والابتلاءات كــالزلازل والفيضـــانات والحروب وليس ذلك عقاباً للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها، ولكن ذلـك من باب الآجـال ومـا قـدره الله عليهم لحكم عـديـدة وفق علمـه وحكمتـه، ومشـــيئته وقضـــائه وقدره العادل "وما ربك بظلام للعبيد"، "إن الله لا يظلم مثقال ذرة" سبحانه وتعالى.

وما قاله بعض العلماء: إنَّ الله أعقم أرحام نســاء قوم نوح أربعين ســنة قبل الطوفان حتى كبر من كان صغيراً واشتركوا جميعاً في الإثم، فحل بهم غضب الله ونقمته، إن هذه الإجابة مجرد دعوى ينقصها الدليل، فلا كهانة في مثل هذه الموضوعات إلا بدليل[2].

1محمد السيد الوكيل، نظرات في أحسن القصص، دار القلم للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1 1994م، 101/1.

2 الوكيل، المرجع السابق، 101/1.

المبحث السادس: ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية

قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[هود: 48- 49]**.

1. ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾:

- "قيل يا نوح" بُني الفعل للمجهول دون حرف عطف؛ لينتقل السياق إلى ختام القصة، وفاعل القول هو: الله، وقد أوحى الله لنوح عليه السلام[1].

- "يا نوح اهبط" وكأن السفينة طائرة، فاستخدم كلمة "اهبط" فهي لارتفاع الموج كانت كأنها معلقة فقيل:"اهبط" ، وإما السفينة عالية فقيل: "اهبط"، والتعبير بالهبوط يصور لنا أن الخروج من السفينة من أعلاها، وأن الوصول إلى اليابسة قد كان على سلالم أو ألواح خشبية مائلة يهبط الهابط عن طريقها إلى الأرض، ولو كان سطح السفينة في مكان استوائها مساوياً لطرف من أرض الجبل لكان التعبير المناسب أن يقال: اخرج[2].

- "بسلام منا وبركات عليك": أي: اهبط أنت ومن معك وما معك، مصحوباً بسلام منّا عليك، وبركات منّا عليك.

1الميداني، المرجع السابق، ص 134.

2 الميداني، المرجع نفسه، ص 134. وفي: نوفل، تفسير سورة هود، ص 187.

- "بســـــلام منّا": أي: بأمنٍ منّا، وهذا يشـــــمل كل ما يطلب فيه الأمن، كالأمن من المهلكات، ومن كل ذي شرٍّ، وكالأمن من الموت جوعاً أو عطشاً ونحو ذلك[1].

"بسلام منّا" تشمل في ثناياها معاني متعددة، كالسكينة والأمن والاستقرار والهدوء، وهذه الحضارة الإنسانية الثانية من أُسسها العظيمة السلام "بسلام منا".

"بسلام منّا" على دينك وتوحيدك.

"بسلام منّا" على أتباعك.

"بسلام منّا" على مقومات الحياة الإنسانية الجديدة التي ستقودها.

"بسلام منّا" على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والعلاقة بين الإنسان لما بعد الطوفان العظيم، والكون والبيئة، وهذا لمن آثار اسـم الله عز وجل السـلام، فمن أسماء الله الحسنى السلام .

[السلام]: اسم الله السلام في اللغة يعني: البراءة من العيوب والنقائص، ويشمل في ثناياه معاني متعددة كالسكينة والأمن والاستقرار والهدوء[2].

والسـلام: هو الذي سـلمت ذاته وصـفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله، وكذلك من اسـم السـلام اشـتُقَّ الإسـلام، وهو دين الله[3]، مصـداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ **[آل عمران: 19]**.

---

1 الميداني، المرجع نفسه، ص 134.

2 محمد متولي الشعراوي، المرجع السابق، ص 149.

3 عقيل حسين، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط1 2010م، ص 79.

يقول ابن القيم: من اسم السلام جلَّ جلاله قولان: أحدهما: أنه مصدر، وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه، والمعنى: أنه ذو السلام، وذو العدل على حذف المضاف. والثاني: أن المصدر لمعنى الفاعل أي: السالم، كما سُمّيت ليلة القدر سلاماً، أي: سالمة من كل شرٍّ بل هي الخير لا شر فيه[1].

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: 23]، في هذه الآية كل اسم من أسمائه الحسنى يؤكد على الصفة التي تسبقه ويحتويها، فالملك هو الله، والقدوس هو الله، والسلام هو الله جلَّ جلاله؛ ولأنها هي الله تعالى، فهي بطبيعة الحال تحتوي كل صفات الكمال فيها، ولذلك فإن اسم الله يحتويها، ومع أن هذه الآية ثلاثية الأبعاد، إلا أنها نزلت وحدة واحدة متماسكة بنياناً مرصوصاً.

- **فالبعد الأول**:" هو الله الذي لا إله إلا هو" في هذا البعد ينفي وجود إله غيره، ويتم التأكيد على أنه الله الذي لا شريك له في الأمر، إنه الله الواحد الأحد، ولا وجود لإله غيره، وهذا يعني: إذا كان هناك من يعتقد بوجود إله غير الله تعالى فلا يجده ولن يجد له مكاناً، ولن يجد له صفات، ولذلك كفر الذين قالوا: إنَّ الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73].

- **البعد الثاني**: "الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر"، هذه الأسماء جميعها هي الله؛ الذي تمَّ التأكيد عليه بالبعد الأول بأنه لا إله إلا هو، وهذا يعني: أن

---

1 عقيل حسين عقيل، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، المرجع السابق، ص 82.

هذه الأسماء وغيرها من الأسماء الحسنى هي غير متعددة، بل هي صفات تتعدد لواحد لا يتعدد، ولذلك فإن القاعدة هي: تتعدد الصفات للواحد، ولا يتعدد الواحد في صفاته، فالكريم عندما يكون صادقاً وعادلاً يظل هو واحد وصفاته متعددة، ولهذا فإن الله واحد أحد، وصفاته متعددة، فالحمد لله الواحد المتعدد الصفات الحسان.

- **والبعد الثالث:** "سبحان الله عمَّا يشركون"، يؤكد هذا البعد بالتمام مقاصد البعدين السابقين بأن الله واحد أحد، وهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، أي: هو الذي له الأسماء الحسنى ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لينفي وجود الشريك، ويؤكد على الواحد الأحد متعدد الصفات[1].

والسلام سبحانه وتعالى هو الذي منه جاءت السلامة، ولذا فإن السلامة تابعة للسلام وأثر من آثاره، فهو تعالى الأول قبل كل شيء، وتحتوي السلامة البراءة من كل شر وسوء، ومن كل مرض وألم، ومن كل جهل وفقر، ومن كل حسد وعلة، وفي مقابل ذلك: فهي القوة التي تتضمن المقدرة والاستطاعة والسيطرة والعطاء[2].

فالله سبحانه وتعالى مصدر السلام والأمن، وكل من ابتغى السلامة عند غيره، سبحانه، فلن يجدها، وهذا معنى قوله ﷺ: "اللهم أنت السلام ومنك السلام"[3]، ولذلك سميت الجنة دار السلام؛ لأن من دخلها سلم من الآفات والشرور والمنغصات والأكدار، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ **[الحجر: 64]**.

1عقيل، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، ص 84.

2 عقيل، المرجع نفسه، ص 84 .

3 صحيح مسلم، رقم 591.

ومن ذلك تحية الإسلام التي حث الإسلام على إفشائها، وذلك في قوله ﷺ:"لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"[1]، وفي إفشائه إشاعة للأمن والودِّ والسلام بين الناس، ومن ذلك سلامه – عز وجل – على أنبيائه المرسلين وذلك في:

– قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 180- 182].

– وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 179].

– وقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 109].

– وسلامه سبحانه على عباده الصالحين كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: 59]، وغير ذلك.

لقد اعتمد نوح عليه السلام وأتباعه على مرتكزات عظيمة أسهمت في تحقيق السلام من الله تعالى له والمؤمنين به، ومن ثم انطلاق الحضارة الإنسانية الثانية، ومن هذه المرتكزات:

- التوحيد وعدم الشرك بالله
- إيمان أتباعه به كرسول ونبي
- والالتزام بحدود الله وشرعه في إحقاقا الحق وإزهاق الباطل وغير ذلك من الأمور[2].

1صحيح مسلم، رقم 54.

2 عقيل حسين، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، المرجع السابق، ص. ص84- 85.

2. ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

- "وبركات": البركة: الزيادة في كل خير عن قدر الحاجة والضرورة، فتشمل البركات الزيادة في خيرات الأرض من الزروع والثمار، والزيادة في خيرات مطاعم صيد البرِّ والبحر وغير ذلك من كل ما يستمتع به الناس في الحياة الدنيا، حتى الصحة النفسية وطمأنينة القلب وسعادته[1].

وباب "البركة" وباب "الطمأنينة" هما بابان يفتحهما الله على المؤمنين فحسب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، ولفظ البركة لا ينحصر في معناه الرخاء المادي، إنه أوسع، بل نكاد نقول إنه ليس الرخاء المادي أساساً – وإن شمله – إنما هو شيء ما في حياة الناس يجعلها مباركة طيبة وضيئة رفيفة غالية نظيفة تستروحها النفس. وهناك معانٍ للألفاظ يصعب تحديدها، ولكن من ذاقها عرفها.

فالثقة المتبادلة بين الناس نوع من البركة والحبّ المتبادل نوع من البركة والتعاون على البر والتقوى نوع من البركة وغيرة كل إنسان على عرض أخيه نوع من البركة والحفاظ على القيم العليا في المجتمع نوع من البركة والحرص على صلات الرحم نوعمن البركة وكفالة القادرين لغير القادرين نوع من البركة وطلب العلم لنفع الناس به نوع من البركة.

1الميداني، المرجع السابق، ص 135.

وهناك مئات ومئات من المشاعر والأعمال تجمعها هذه اللفظة المفردة، التي يضيفها الله عليها من رحمته فيجعلها "بركات".

وأما الطمأنينة فاسأل عنها الخائفين القلقين الحائرين المضطربين المتوجسين المرهقي الأعصاب من القلق والخوف والتوجس، إنهم يعرفون جيداً ما يبحثون عنه، إنهم يبحثون عن الطمأنينة، والله يبيّن لهم الباب الذي يؤدي إليها قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

ولعلّنا لا نحتاج أن نقول: إنَّ الجاهلية المعاصرة برغم كل أدوات التمكين المتاحة لها من القوة الحربية والقوة السياسية والقوة المادية والقوة الاقتصادية والقوة العلمية تفتقد الطمأنينة، وتفقد السعادة التي ينشدها الإنسان في حياته، والخمر والمخدرات والجريمة وحدها دليل على فقدان السعادة والطأنينة فضلاً عن القلق والانتحار والجنون والأمراض النسية والعصبية، فالخمر ومثلها المخدرات محاولة للهروب من الواقع، فلماذا يسعى الناس للهروب من واقعهم لو كانوا سعداء به!؟

والجريمة لون من الشعور المرضي نحو المجتمع، يعبر عن عدم الرضا في هذا المجتمع، فلماذا تنتشر الجريمة وتزداد نسبتها؟

وأما المرح المجنون الذي تغرق فيه الجاهلية المعاصرة في لحظات "الانفلات" في المراقص والملاهي والحانات وعلب الليل، فليس دليلاً على السعادة، بل هو أحرى أن يكون دليلاً على فقدانها ومحاولة التعويض المفتعل على الخواء النفسي الناشئ من فقدانها، وهذه هي

الصورة الكالحة للجاهلية التي تعجز عن إخفائها المصانع الضخمة والإنتاج المادي الكبير والصواريخ الذاهبة إلى القمر والمريخ[1].

وما يحدث الآن من تمكين الحضارة المعاصرة في صورتها الجاهلية هو من باب الاستدراج الذي يعطيه الله للكافرين حين "يريدون" الدنيا، ويبذلون الجهد المكافئ لتلك الإرادة، فيوفيهم جزاءهم في الحياة الدنيا، ويفتح عليهم أبواب كل شيء مما يتعلق بباب التمكين.

وتمكين الاستدراج تمكين مؤقت مهما طالت مدته، وينتهي دائماً بالدمار، بينما تمكين الرضا ممتد حتى يغير الناس ما بأنفسهم، ويحيدوا عن الطريق فيزيل عنهم التمكين، فإن لم يغيروا ما بأنفسهم امتد لهم التمكين[2].

فالحضارة الإنسانية الثانية التي أسسها نوح عليه السلام قامت على أساس من السلام والبركات الربانية، وفي قوله تعالى:﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أيّ؛ على أمم تتفرع وتتوزع في الأرض، وهم سلالات ممن معك من ذريتك؛ لأن الله جعل ذريته هم الباقين من قومه بعد الطوفان[3]، وهذا السلام والبركات عليك يا نوح وعلى أمم ممن معك، أولهم بطبيعة الحال من آمن معه ثم باقي المخلوقات المرافقة[4].

– وفي قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أيّ: وأمم أخرى هم أيضاً سلالات ممن معك لا يشملهم فضل السلام والبركات، ولكن "سنمتعهم قليلاً"، أيّ: متاعاً دنيوياً معجلاً على قدر أزمنة ابتلائهم في الحياة الدنيا، وهم مهما أصابوا منها

---

1 محمد قطب، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، ص 62.

2 محمد قطب، المرجع السابق، ص 61.

3 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 135.

4 تفسير سورة هود، ص 187.

فهو قليل بالنسبة إلى الآخرة، وقد دلَّت نصوص قرآنية متعددة على أن متاع الدنيا متاع قليل، كما دلَّت على أن الحياة الدنيا متاع الغرور، وبعد هذا المتاع القليل تأتيهم مناياهم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم مذيق للألم.

وإشارة النص هنا ودلالات نصوص أخرى تدلُّ على أن هذا العذاب الأليم يكون لهم؛ بسبب كفرهم، وفسقهم وظلمهم وما كانوا يعملون في الحياة الدنيا من سيئات[1].

إنَّ هذه الآيات التي تحدثت عن السلام والبركات على نوح عليه السلام والذين معه تُؤرخ:

- حلقة من تاريخ البشرية، وهي اللبنة الثانية بعد قصة آدم عليه السلام في معمار تاريخ الإنسانية، وهي حلقات تتكرر ولا أحد يتذكر إلا من رحم ربي.
- هؤلاء أي قوم نوح أول المهلكين بعذاب الاستئصال، ثم كرّت السلسلة بعد ذلك ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾.
- الأمن والسلام والبركات ثمرة الإيمان، وهي ملازمة له ملاصقة ملابسة مقترنة لا تنفك، وخارج دائرته لا يوجد كل هذا[2].

لقد نزل نوح عليه السلام بسلام من الله وبركات، وباشر مهمته الإيمانية في خلافة الأرض، ومعه مقومات الحضارة الجديدة التي حملها معه في الفلك من كل زوجين اثنين وفيها المؤمنون كلهم[3]، ولقد كان التدخل الإلهي لكي يصحح مسار قوم نوح من خلال

1 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 136.

2 نوفل، تفسير سورة هود، ص 191.

3 محمد متولي الشعراوي، المرجع السابق، 56/1.

الطوفان والغرق للجاحدين، والسفينة والنجاة للمعتصمين بالله؛ لكي ينطلقوا لتأسيس جديد للحضارة الإنسانية والرقي بها إلى رؤية أشمل لتحقيق العبودية لله ومفهوم الخلافة في الأرض، وبالتالي تكون دعوة نوح قد انتقلت من المكان الطبيعي إلى المكان التاريخي مستكملة رسالة آدم – عليه السلام – التي انتقلت من الزمان الطبيعي إلى الزمان التاريخي وأسست المؤسسة الأسرية، وها هي رسالة نوح تؤسس المؤسسة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتشريعية في إطار الرسالة الإلهية عبر التاريخ الإنساني[1].

3. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾:

هذه الآية تعقيب على قصة نوح، فكأنها الخلاصة منها والثمرة، والثمرة جزء من الشجرة، صحيح أننا نقطفها منها، ولكنها مرتبطة بها وهي منها. والمعنى: تلك: اسم إشارة إلى ما سبق من قصة نوح، واللام للبعد وهي كذلك أي: أنها مطابقة، فهي أي القصة موغلة في البعد الزمني والعمق التاريخي، وهي بعيدة عن ثقافة العرب كذلك، ومعلوماتهم، كما قال الله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾، وما في التوراة مخلوط أو خليط فيه قليل من الحق وكثير من الخرافات والأساطير، فليست قصة نوح على الحقيقة أو كما هي في الواقع، والتي أوجزها القرآن الكريم أكمل إيجاز، بل أكمل عرض مع الاختصار وهنا تكمن العظمة.

واستخدام اسم الإشارة أحياناً بصيغة المذكر "ذلك من أنباء الغيب"، وهذا النص من السورة التالية لهذه السورة، أعني من سورة يوسف في الآية 102، والتذكير باعتبار الخبر؛

1عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء؛ دين واحد وشرائع عدة: دراسة قرآنية، بيروت، مركز نماء للدراسات والبحوث، ط1 2015، ص 69.

لأنها تضمنت قصة نبي واحد. وصحيح أن التعقيب في سورة هود جاء على قصة أو عقب قصة نوح، لكنه يمتد إلى ما بعد هذه الآية من قصص هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب ثم موسى وفرعون فهي قصص في:

- "مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ" من تبعيضية، أي: بعض أنباء الغيب، والغيب: ما غاب عن السامع للقصة أو تاليها للبعد التاريخي، فقصة نوح غيب ماضوي، وهناك غيب مستقبلي وغيب حالي لا نطلع عليه كالملائكة والملأ الأعلى، وعوالم كثيرة لا نعلم عنها شيئاً، أعني علم مشاهدة لكنا نؤمن بها.

وهناك غيب موجود لم نطلع عليه، وقد نطلع على بعض دون بعض ككثير من العلوم الفلكية والأرضية، وهذا باب واسع بلا حدود.

- "والنبأ": الخبر العظيم ذو الشأن، والأنباء جمع نبأ، والنبأ قد يكون في داخله أنباء كقصة نوح - عليه السلام- فيها العديد من الأنباء، وكل نبأ منها مهم كدعوته قومه هذه المدة المتطاولة، هذا نبأ، وإصرار الملأ على الكفر والاستكبار طيلة هذه المدة هذا نبأ، وبناء السفينة نبأ، والطوفان نبأ، وهلاك القوم نبأ، وقصة ابنه ودعاء ربه نبأ، ونجاة المؤمنين نبأ، وهكذا.

- "والغيب": كل ما غاب عنا.

- "نوحيها إليك": نقصها عليك نوحي بها إليك ونرسلها عبر الوحي جبريل بهذا القرآن الجليل، فهي من ضمن وحينا إليك، والإيحاء: الإعلام بطريقة مخصوصة، والوحي أنواع ليس هذا محل تفصيلها وهي معلومة.

- "ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا": هذه الأنباء وهذه القصة وسائر قصص هذا الكتاب كانت غائبة عنك يا رسول الله وغائبة عن قومك، وحتى أمم الرسالات السابقة، فهي بهذا الوجه الحق الصافي غير المشوب بشوائب الوضع والدس والزيادة والنقص، هي غائبة عنهم كذلك وإن كانت معلومة اسماً، وتفاصيل قسم كبير منها غير صحيح ولا دقيق ولا مطابق.

- "من قبل هذا": أي من قبل هذا القصص ومن قبل هذا القرآن أو من قبل هذا النبأ الذي وصلك عن قصة نوح أو كل ذلك.

- "فاصبر إن العاقبة للمتقين": إنَّ الجملة الأخيرة والنتيجة النهائية لصالح الإيمان وأهله من المتقين، والمتقين كلمة شاملة، تشمل اتقاء الله واتقاء عذابه، واتقاء كل شر قد يوصل إلى عذابه، والمعنى واسع ومفتوح، أو هم المتقون الذين هذه صفتهم وهذه سمتهم وشخصيتهم وميزتهم، واللام في "للمتقين" للاختصاص والملك، فيقتضي ملك المتقين لجنس العاقبة الحسنة فهي ثابتة لهم لا تفوتهم[1].

وهذه الآية تبيّن:

- حقيقة الوحي التي ينكرها المشركون، فهذا القَصص غيب ما كان يعلمه النبي ﷺ ولا قومه ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ...﴾.
- حقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح – عليه السلام – على الرغم من الآيات والعبر والبينات التي لا تمنع جيلاً أن يردها، وقد بدت باطلة في جيل.
- حقيقة تحقق البشرى بالوعيد، كما يبشر النبي وهذا شاهد من التاريخ.

1نوفل، تفسير سورة هود، المرجع السابق، ص 193.

- حقيقة السنن الجارية لا تتخلف ولا تحابي ولا تحيد.
- حقيقة الرابطة التي تربط بين فرد وجيل و جيل، وإنها العقيدة الواحدة التي تربط المؤمنين كلهم بإله واحد ورب واحد يلتقون في الدينونة له بلا منازع ولا شريك[1].

قال ابن عاشـــور: في هذه الآية: امتنان على النبي ﷺ في قوله تعالى:" ما كنت تعلمها أنت ولا قومك"، وموعظة في قوله:" فاصـــبر"، وتســـلية في قوله:" إنَّ العاقبة للمتقين".

والدروس المستفادة من القصة:

- الدرس الأول المستفاد من القصص درس العبر.
- الدرس العظيم المهم الثاني "أنَّ العاقبة للمتقين".
- معرفة النتيجة سلفاً تطمْئن السائرين على طريق الإيمان.
- هذا القصص حكيم مليء بالدروس والعظات، وحرام أن تضيع الحكم وسط بحر التفعيلات المنقولة عن الإسرائيليات.
- هذه المعلومات الموجودة في القصص ليست من معلومات البيئة ولا حتى الكتب السابقة، فهي إذاً وحي يوحى[2].

أولاً: إسهام صفات نوح عليه السلام وأخلاقه في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية:

كان نوح – عليه الســـلام – من أولي العزم من الرســـل الذين حققوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ودعوا إلى ذلك وآمن بعض الناس برســالته، وربى الناس على أخلاق وصــفات حميدة كانت متجسدة في شخصه الكريم، وفاضت على من حوله من أتباعه، فقد كان

1نوفل، تفسير سورة هود، ص 194.

2 نوفل، المرجع السابق، ص 196.

كثير الشـكر لربِّه ومخلصـاً له، وطارقاً لأبوابه بالدعاء والتضـرع بين يديه، وشـديد الخوف من الجليل، ومتوكلاً على العزيز الرحيم، تائباً إلى الله وطالباً للمغفرة منه، صـــابراً على تكاليف الدعوة، صـادقاً في دعوته، شـجاعاً لا يخاف إلا الله، بارّاً بوالديه، وغير ذلك من الصـــفات والأخلاق الحميدة التي عاش بها في وســـط الناس ودعا إليها وعلمها لمن اسـتجاب لدعوته، وعمل على غرس تلك الصـفات النبيلة في قلوب أتباعه قبل الطوفان وبعده، وأســـهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأســـيس الأخلاقي للحضـــارة الإنسانية الثانية، ونذكر أهم تلك الصفات والأخلاق:

1. الإخلاص:

بيَّن نوح عليه السلام أهمية الإخلاص لله عزَّ وجل في مسيرته الدعوية، وجرد نيته من جميع الشـــوائب وحظوظ النفس والطمع في الدنيا، وإنما أراد بعمله ودعوته وجه الله عز وجل، وبين لقومه أنه لا يريد منهم على دعوته أجراً ولا ثناء، وليس له من وراء دعوتهم مصـلحة يرجوها منهم إلا ما كان من الله عز وجل.

- ففي ســـورة الشـــعراء قال: ﴿وَمَا أَسْـــأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: 109].
- وفي ســـورة هود قال: ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْـــأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: 29].
- وفي ســـورة يونس قال: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَـــأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72].

وهذا وحده كافٍ في إثبات صـدقه وإخلاصـه لله عز وجل، وأنه رسـول من عند الله وإلا فكيف يعقل أن يخرج نوح عليه الســـلام من مألوف قومه من عادات وتقاليد وأعراف وعبادات للأصـــنام، ويطالبهم بالتخلي عنها ثم يدعوهم، بدلاً من ذلك كله إلى الإيمان برسـالته التي هي على النقيض من ذلك كله، وهو يعلم مسـبقاً أنه يتعرض من قبل قومه؛ بسبب دعوته لكل صنوف العذاب بدءاً بالسـخرية به، وانتهاءً بالتهديد له بالرجم، وكان الأجدر بهم أن يتســـاءلوا فيما بينهم لماذا يتحمل نوح عليه الســـلام كل هذه المتاعب، ويتعرض لكل هذه المخاطر، ولو فعلوا ذلك لأدركوا أن هذا الأمر الذي يدعوهم إليه نوح عليه الســـلام أكبر من كل ما يتوهمون فيه من أنه أراد به تحقيق جاه، أو منصـــب أو مكسب من مال أو غيره من المصالح الدنيوية فيما يزعمون[1].

وبيَّن الله عز وجل من أسـباب نجاة نوح عليه السـلام، كونه من المخلصـين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِـينَ﴾ [الصـافات: 73- 74]، وقد تعلمت البشـرية المؤمنة بالله عزَّ وجل في ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية من نوح عليه السلام:

- أهمية أن يكون العمل القلبي والبدني والقولي خالصاً لله تعالى.
- أن يتجرد الإنســـان من الدنيا ويزهد فيها، ويجعل أعماله في عمارة الأرض وخلافتها، عبادة خالصة لله.
- أن يسـعى الإنسـان المؤمن لرضـى خالقه العظيم غير متأثر بمدح ولا بذم، كما رأوا في سيرة وقصة نوح عليه السلام.

1عمر إيمان أبو بكر، المرجع السابق، ص 39.

ولقد وجه نوح عليه السلام ضربة موجعة ومؤلمة لإبليس من خلال قيمة الإخلاص وصفة الإخلاص وخُلُق الإخلاص، ونجا من وساوسه، وكذلك من سار على هديه، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ **[ص: 82- 83]**، فقد اعترف إبليس سلفاً أنه لا سلطان له على الخلاصة الصافية من عباد الله تعالى المؤمنين الصادقين، ويئس منهم قبل أن يراهم[1].

ومما ساعد نوح عليه السلام في تحقيق هذه الصفة وهذا الخلق في نفسه وأتباعه الذين أنشؤوا الحضارة الإنسانية الثانية توفيق الله لهم ودوام المراقبة لله، واستشعار عظمته مما رأوا من أحداث جسام وطوفان عظيم، ونجاتهم في الفلك المشحون، وتذكرهم لليوم الآخر ومشاهده الرهيبة، ومحاسبة نفوسهم على الدوام وعدّ خطواتها وأنفاسها واستصغار شأنها واتهامها في أعمالها والتوبة والاستغفار على الدوام[2].

يعلمنا نوح عليه السلام أن الدعوة إلى الله عزَّ وجل وإلى توحيده وعبادته إن لم يصاحبها الإخلاص لله سبحانه وتعالى وابتغاء وجهه العزيز وعدم الطمع في الأجر من الناس أو نيل أي عرض من الدنيا، فإنها دعوة منزوعة البركة، عديمة الأثر على الناس فوق ما فيها من فوات الأجر والثواب من الله تعالى، وهذا أمر يجب أن يتفطن إليه الدعاة إلى الله سبحانه أفراداً وجماعات، والحذر من أن تتلوث النيات بهذه الدنيا الفانية، سواء كانت هذه الدنيا ملاً او جاهاً أو منصباً أو ثناءً أو شهرة أو غير ذلك، ويجب أن يكون لنا الأسوة الحسنة في نوح – عليه السلام – حيث أعلنها في بداية دعوته أنه لا يبتغي من الناس أجراً ولا مالاً على دعوته لهم، إنما أجره على الله عز وجل، ولقد قالها كل نبي لقومه

1الرقب، المرجع السابق، ص 142.

2 الرقب، المرجع نفسه، ص 142.

فصارت معلماً مهماً من معالم دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب الوقوف عنده ومحاسبة النفوس على ضوئه وهديه[1].

إنَّ إخلاص نوح عليه السلام لربه، وترفعه على الدنيا وزخرفتها، وإرادته وجه الله عز وجل في كل حركة وسكنة من حياته، معلم من معالم الاقتداء بنوح عليه السلام في حياته من الذين آمنوا به وكذلك بعد مماته، واستخراج ذلك من سيرته وقصته.

إنَّ قصة نوح عليه السلام إفادة لبني الإنسان الباحث عن الحقيقة، وإن الإخلاص للخالق العظيم له آثار على الفرد منها[2]:

- الخلاص من الكوارث الكبرى والطوفان العظيم.
- ولاية الله للمخلصين، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى، فالناس متفاضلون في ولاية الله بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى.
- حصول الأمن والاهتداء والنجاة من المخلوق.
- نزول السكينة في القلب.
- الثبات على الدين.
- السلامة من إغواء الشيطان.
- إجابة الدعاء.
- القبول في الأرض والذكر الحسن، وغير ذلك من الآثار.

1عبد العزيز ناصر الجليل، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، دار طيبة، الرياض، ط2 1998م، ص 156.

2حمد بن محمد الوهيبي، الإخلاص في القرآن الكريم، دار التوحيد، الرياض، السعودية، 2006، ص. ص 309، 363.

وأما آثاره على المجتمع الجديد الذي كان نواة الحضارة الإنسانية الثانية، فقد تغلغلت هذه الصفة في نفوس أفراده الذين كانوا في سفينة النجاة، وغرست في الأبناء الجدد، وتوارثتها الأجيال، فمن آثار الإخلاص على النواة الجديدة الإنسانية:

- دخول أفراده في ركب أهل الإيمان.
- حلول السلام والبركات و كثرة الخيرات.
- النصر والتمكين في الأرض.
- حصول الأمن والهداية للمجتمع الناجي من الطوفان وغير ذلك من الآثار.

وأما في الآخرة فالنجاة من النار ودخول الجنة وحصول رضا الله عز وجل.

2. الصبر:

قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **[الأحقاف: 35].**

ويتفاوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويتفاضلون في الصبر، فصبر أولي العزم من الرسل هو أعظم الصبر؛ لأنهم واجهوا من الأذى والصد ما لم يواجهه نبي قط، وقد جاء التنويه بذكر صبرهم في قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾، فنوح عليه السلام من أولي العزم، صبر في دعوته لقومه صبراً عظيماً[1].

فما أصبر نوحاً عليه السلام على قومه، فقد أنذرهم لأجل أن يتعظوا ويخشوا الله فيما يفعلونه فلم يستجيبوا، ومع ذلك صبر على أنهم لم يستجيبوا لدعوته التي دعاهم إليها أن

1الجليل، المرجع السابق، 107/3.

يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، ولقد استمر فيهم داعياً ومبيناً لهم خطورة كفرهم وشركهم بالله، ومع ذلك فلم يستجيبوا أيضاً، وأعاد الكرة عليهم مرات عديدة؛ لأجل أن يتقوا الله ويؤمنوا به فلم يستجيبوا، وأنبأهم ليلاً ونهاراً بمغفرة الله لمن يؤمن منهم ويتوب ويتقي، فازدادوا ضلالاً وإصراراً واستكباراً، ومع ذلك صبر ولم يستسلم لرفضهم واستكبارهم فازدادوا إصراراً، وهكذا كلما ازدادوا إصراراً ازداد نوح صبراً[1].

عاش نوح عليه السلام عمراً مديداً ودهراً طويلاً منها ألف سنة إلا خمسين عاماً لبثها في دعوة قومه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له والحث على تقواه وطاعته، لا يكل ولا يمل، ليلاً ونهاراً، سراً وإعلاناً وجهاراً، وهذا من شدة حرصه على قومه، والتزامه أوامر في تبليغ دعوته.

إنَّ دعوة نوح عليه السلام والرسالة التي كلفه الله تعالى بتبليغها إلى قومه كانت تؤسس منهجاً عاماً للأنبياء والرسالات بعد نوح عليه السلام؛ وذلك لأنها:

- أول دعوة تحمل شريعة بعد آدم عليه السلام.
- طول المدة التي استغرقتها.
- الإيمان هو الأصل.
- الشرك والكفر هما طارئان.
- إظهار أسلوب الدعوة.
- توضيح طريق الدعوة.

---

1 عقيل حسين عقيل، نوح عليه السلام من وحي القرآن، دمشق، دار ابن كثير، ط1 2011م، ص 89.

- الدعوة من حيث الزمن {ألف سنة إلا خمسين عاماً}.
- الدعوة من حيث الوقت {ليلاً ونهاراً}.

أسست نبوة نوح عليه السلام ودعوة قومه – هذه المدة الطويلة – للأنبياء: النهج، الفكر، الأسلوب، المطاولة، الجدل، الحوار، الصراع، الابتلاء، العبر، وما من نبي جاء بعد نوح إلا وكان له في نوح أسوة حسنة[1].

وكذلك لمن حوله من أتباعه الذين آمنوا به، فهل هناك أعظم من صبر نوح عليه السلام الذي بقي يدعو قومه قرابة عشرة قرون من الزمن، ثم بعد ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، ولذا أخبر الله تعالى أن نوحاً بقي في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً، تسعة قرون ونصف قرن، ومع هذه المدة الطويلة قال تعالى: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ **[هود: 40]**، فهذه دلالة على عظيم صبر نوح عليه السلام، ذلك الزمن الطويل وهذه الفترة المديدة في دعوة قومه إلى الله.

وكيف لا يكون نوح من الصابرين وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ **[البقرة: 153]**، فكان الله معه في كل لحظة من حياته ومن خلال دعوته، فقد قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ **[هود:37]**، وعندما صنع الفلك برعاية الله تعالى وعنايته ووحيه، كان نوح عليه السلام صابراً على كل ما يلاقيه من أذى قومه، محتسباً ذلك عند الله عز وجل[2].

---

1 عقيل، المرجع السابق، ص 246.

2 عقيل، المرجع السابق، ص 248.

إنَّ نوحاً عليه السلام تميَّز في حياته بصفة الصبر، والتي كانت من أسباب الثبات والنصر على الأعداء وهو محل قدوة وأسوة إذ صبر على تكذيب قومه وما لقيه من الإيذاء والسخرية إلى أن جاء نصر الله المبين ونصره على القوم الكافرين، وهذا يدلُّنا على حسن عاقبة الصبر، فمن كان أصبر كان أجدر بالنصر.

لقد كان نوح عليه السلام مدرسة فريدة من نوعها في الصبر والتحمل، وقد غرس هذا الخلق في أتباعه، فكان المجتمع الجديد بعد الطوفان في أشد الحاجة إلى التخلق بهذه الصفة في أفراده وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية والحضارية، وللصابرين درجات وفضائل تترى بيّنها الله عز وجل في كتابه، فقد ترتب على الصبر خيرات الدنيا والآخرة:

أ- اختصهم الله بمعيته: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ **[البقرة:153]**.

ب- وفي سياق الفئة الثابتة مع طالوت يأتي الثناء عليهم: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ **[البقرة: 249]**، وهي معية خاصة تتضمن الحفاظ والرعاية والتأييد.

ج- محبة الله تعالى لهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ **[آل عمران: 146]**.

د- إطلاق البشرى لهم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ **[البقرة:155-157]**، وكان عمر بن الخطاب يقرؤها ويقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين، ويعني بالعدلين: الصلاة والرحمة، وبالعلاوة: الهدى.

هـ- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم وتوفيقهم أجورهم بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:10]. قال الإمام الغزالي رحمه الله فما من قربة إلا وأجرها بتقديرٍ وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر، قال الله في الحديث القدسي: الصوم لي وأنا أجزي به، فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات[1]. وقال العلامة ابن القيم: الصبر نصف الإيمان، فإن الإيمان نصف صبر ونصف شكر[2].

و- الحصول على درجة الإمامة في الدين، نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية قوله: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين[3]، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]. وقرأ سفيان بن عيينة الآية فقال: أخذوا برأس الامر – يعني الصبر – فجعلهم رؤساء[4].

إن خُلق الصبر وقيمته أصيلة في نشأة الحضارات الإنسانية، ولا يمكن أن ترتقي على المستوى المادي والمعنوي إلا بخلق الصبر على مستوى القيادة والأفراد والمجتمع، فمن ملامح ومعالم الحضارة الإنسانية الثانية خلق الصبر الذي تميز به نوح عليه السلام وربى عليه أتباعه.

1 الغزالي، إحياء علوم الدين، 310/4.

2 ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، 115/2.

3 المرجع نفسه، 115/2.

4 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح، ص 159.

3. التقوى:

من صـفات نوح عليه السـلام أنه تقيٌّ لله، وقد اهتمَّ بدعوة قومه إلى توحيد الله عزَّ وجل وإفراد العبودية لله عزَّ وجل والحث على تقواه؛ لأن تقوى الله عزَّ وجل هي الضـــمانة الحقيقية لاســـتقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التخلف عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه، كما أنها مبعث الخلق الفاضـل المنظور فيه إلى الله بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة، فقد كان نوح عليه السـلام قوي العلم بالله عز وجل وأثر ذلك في صدق إيمانه وكمال توحيده وخشيته وتقواه لربه.

فكلما كان العبد أعلم وأعرف بربّه ســبحانه كان أشــد خوفاً وتعظيماً وعبادة ومحبة وإخلاصـاً له والعكس بالعكس، فقد قال نوح عليه الصـلاة والسـلام أنه قال لقومه: ﴿أبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ **[الأعراف62]**، أي أعلم من أمر الله ما لا تعلمونه، فأعلم من صفات الله وقدرته الباهرة، وبطشه بأعدائه ما جهلتم وأعلم أن العاقبة للمتقين وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين[1].

ومن تقوى نوح عليه السـلام لربه شـدة تعظيمه وخوفه من الله، وقد جاء ذلك في قصـة نوح مع قومه في ســورة هود كما مرَّ معنا، حيث يقول الله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ* قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ* قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ **[هود:45- 47]**.

1وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، 54/3.

ويظهر من هذه الآيات عِلمُ نوح عليه السلام بربه عزَّ وجل، والذي أثمر عنده هذا الأدب العظيم مع ربِّه، والخوف منه سبحانه، فتراه وهو يدعو ربه بشأن ابنه الهالك مع الكافرين، يختم دعاءه بقوله:﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِين﴾، ولم يقل: وأنت أرحم الراحمين، وهذا من كمال علمه عليه الصلاة والسلام بأسماء الله عز وجل وصفاته وآثارها؛ لأن المقام مقام تفويض واستسلام لحكمة الله البالغة التي اقتضت أن يكون ابن نوح مع الهالكين، ولم يكن مع الناجين، ولذلك ختم نوح عليه السلام دعاءه بقوله:﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِين﴾.

كما يظهر في هذه المناجاة خوف نوح عليه السلام من ربه، واتهامه لنفسه بالظلم وطلبه المغفرة من ربه سبحانه، وذلك في قوله:" وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ " الله أكبر، هذا نوح عليه السلام الذي أمضى مئات السنين في دعوة قومه، وصبر وصابر وناله من الأذى والاستهزاء الشيء العظيم ومع ذلك يختم دعوته بطلب المغفرة والرحمة من ربه سبحانه: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ **[نوح: 28]**[1] .

وكان نوح عليه السلام عبداً متقياً لربه في كل ما يجب أن يُتقى الله فيه، وهو اتقاء كل ما تفسد العقائد والأخلاق والعبادات والروابط العامة والخاصة، وكان على يقين من ربِّه بأن "العاقبة للمتقين"، وقد علم نوح عليه السلام أتباعه تقوى الله، وزكى نفوسهم بالتربية على هذا الخلق العظيم.

1وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، المرجع السابق، 57/3.

ومن ثمرات التقوى الهادية إلى بناء المعرفة والقوة وحصـــول الســـيادة والتمكين في الأرض:

أ- أن جعل للمتقين ملكة من العلم، وهداية ونوراً في قلوبهم، وفرقان يفرقون به بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الطيب والخبيث، ومخرجاً لهم من الشبهات وتكفيراً للسيئات، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ **[الأنفال:29]**.

ب- يجعل الله عز وجل للمتقين مخرجاً من كل شدة، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون ولا يأملون، ويبارك لهم فيما آتاهم ويكفيهم ما أهمهم: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ **[الطلاق:2-3]**.

ج- للمتقين معية خاصة، فالله تعالى معهم بتأييده ومعونته وهديه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ **[النحل:128]**.

د- يحصل بالتقوى الرخاء والخصب، فمن سنته تعالى في خلقه حين يتركون ما نهى الله عنه وحرمه، حصول الخصب والوفرة في الإنتاج، وسعة العيش بكثرة الأمطار التي هي سبب كل خير من زرع وضرع، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ **[الأعراف:96]**.

هـ- المتاع الحسن للمتقين: ومن سنته تعالى تيسير سبل العيش الرغيد الهنيء، والحياة المريحة والنفسية المطمئنة لأهل الإيمان والتقوى، وإفاضة نعمه الحسية والمعنوية عليهم، وهذا المتاع الحسن هو ثمرة عبادتهم لله، وتقواهم له، واستغفارهم وتوبتهم

إليه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ* وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:2-3].

وهكذا فإن العاقبة الحسنة ثابتة للمتقين لا تفوتهم أبداً وفق سنة الله في خلقه، فقد صبر نوح عليه السلام وأتباعه على: مشاق التكليف، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي[1].

4. مستغفر وتوّاب:

أخبر القرآن الكريم عن طلب نوح – عليه السلام – المغفرة من الله تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47].

وطلب هذه المغفرة والرحمة من الله تعالى يوحي أنه صدر منه عليه السلام مخالفة، وبعض العلماء يجسد هذه المخالفة ويفتحها، والبعض الآخر يتلطف في عرضها[2]،وسأورد شُبههم مقرونة بالردِّ عليها:

- **الشبهة الأولى: دعاؤه على قومه بالهلاك:**

إنَّ نوحاً عليه السلام قد دعا على قومه بالهلاك، وفي دعائه عليهم دعاء على أطفالهم ولا ذنب لهم، يقول الله حاكياً ما وقع منه عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا* إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

---

1 السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، 398/1.

2 د. إكمال صالح، التوبة في ضوء القرآن الكريم، ص197.

[نوح:26- 27][1]، وفي هذا تحكم على الله، إذ قد يولد منهم من هو مؤمن بالله سبحانه وكان عليه أن يصبر على أذاهم ولا يدعو عليهم بالهلاك[2]، وظل قلب نوح يرتجف من هذه الدعوة حتى أنه اعتذر عن الشفاعة من أهل الموقف يوم القيامة، كما ورد في صحيح البخاري وفيه: فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب: سؤاله ربه بغير علم.

ورد هذه الشبهة: أنَّ نوحاً عليه السلام لم يقدم على الدعاء على قومه إلا بعد أن علم أنهم لن يؤمنوا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه لبث فيهم مدة طويلة فخبرهم وخبرهم، وعرف طباعهم وجربها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:14]، ولم يؤمن به إلا قليل، قال تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:40]، ومن أجل هذا، حكم عليهم هذا الحكم[3].

وأما عن دعاء نوح على أطفال هؤلاء الكفار وأعقم أرحام نسائهم، فلا إشكال في دعاء نوح عليه السلام عليهم لعدم وجود أطفال فيهم[4]، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا* يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا* وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح:10-12].

---

1 ديّاراً: من يسكن الديار.

2 تفسير الرازي، المرجع السابق، 3/18.

3 تفسير الألوسي، المرجع السابق، 100/29.

4 تفسير القرطبي، المرجع السابق، 18/ 312.

وأما القول الثاني: فمن رأى أن الأطفال موجودون وقت دعاء نوح عليه السلام ولا ذنب لهم حتى يقع عليهم الهلاك كما سيقع على آبائهم، فإن انضمامهم في العقوبة لآبائهم، في ذلك زيادة تعذيب لهم إذا أبصروا أطفالهم يعذبون، هذا القول غير مسلَّم به؛ لأن نوحاً – عليه السلام – لم يدع عليهم إلا بعد أن أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فالله تعالى أطلعه على حال قومه، ومنهم هؤلاء الأطفال وإنهم سيكونون كافرين، وليس في دعاء نوح عليهم أي ذنب، وكلا القولين معقول، والله أجلّ وأعلم؛ لأن القول تؤيده الآية، إذ إن نوحاً عليه السلام يحث قومه على الاستغفار الذي من نتائجه أن يرزقهم الله ما يفقدونه، وهم بحاجة إليه كإنزال الأمطار وحصولهم على الأموال والأولاد[1].

الشبهة الثانية: طلبه نجاة ولده الكافر:

إنَّ نوحاً عليه السلام قال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ **[هود: 45]**، وقد ردَّ الله عليه بقوله: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ **[هود: 46]**، فيأخذ المعارضون من هذا أن نوحاً عليه السلام كذب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه كان يعلم أن زوجه وولده ممن سبق عليهما القول حيث هلكا مع الهالكين، فكيف يسأل ربه نجاة كافر[2].

ويستدلون على أنه ارتكب ذنباً بأن الله تعالى زجره زجراً شديداً فقال: ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ **[هود:46].**

1التوبة في ضوء القرآن الكريم، د آمال بنت صالح نصير، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1998م، ص199.

2 محمد عمر الرازي، عصمة الأنبياء، ص 23.

ثم إن تعوذه عليه السلام من سؤاله ربه مالا علم له به إيذان بصدور الذنب عنه، قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ **[هود:47].**

ورد هذه الشبهة: كون نوح عليه السلام يقول: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ **[هود: 45]**، هذا لا يعدُّ ذنباً؛ وذلك لأنه إما أن يكون ظن أن أهله الذين وعدهم الله سبحانه بنجاتهم هم قرابته وعلى رأسهم ابنه، أو أن يكون حين رأى ابنه في معزل عن الكافرين فلربما ظن أن ابنه رجع عن الكفر، فرجى أن يكون هذا الاعتزال سبيلاً إلى دخوله في زمرة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ **[هود:42].**

يقول صاحب كتاب المنار: يحتمل أن يكون عليه السلام حين رأى ابنه بمعزل عن الكفار ظن أنه قد بدا له في كفره فكرهه وجنح للإيمان، ويحتمل أن يكون قد فهم أنه غير داخل في عموم قوله تعالى له: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ **[هود:36]**؛ لأنه تعالى جعل الناجين قسمين: أهله إلا من استثنى، ومن آمن من قومه، فجاز في فهمه أن يؤمن من اهله من كان كافراً لأنهم قسيم من لقومه لا قسم منهم، فالله عز وجل بين لنوح عليه السلام أن الأهل عنده تعالى في دينه وميزانه، ليسوا قرابة الدم، وإنما هم قرابة العقيدة، وأما كونه عليه السلام قد سأل وزُجر عن ذلك: فلان الله تعالى أراد أن يعرفه أنه يسأل فيما ليس له به علم صحيح[1]، ويَقول: أيّ فلا تسألني في شيء ما، من الأشياء ليس لك به علم صحيح أنه حق وصواب[2].

---

1 آمال بنت صالح نصير، التوبة في ضوء القرآن الكريم، دار الأندلس الخضراء، السعودية، ط1 1998م، ص 201.

2 تفسير المنار، 85/12.

وكان الأولى به عليه السـلام ألا يسـأل هذا السـؤال بعد هذا الاسـتثناء في قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنهُمْ﴾ [المؤمنون:27]، فقد علم نوح عليه السـلام أنه ما دام قد أغرق ولده فهو ليس من اهله، وإلا فإن الله لا يخلف وعده، وكان عليه أن يعلم أن أهله هم المؤمنون بعد أن تبين له نجاة المؤمنين[1].

إنَّ عذر سيدنا نوح عليه السلام أنه اندفع إلى هذا السؤال بدافع الشفقة وعاطفة الأبوة، فأراد الله عزَّ وجل أن يعلمه درسـاً في الموالاة، وأنها لا تكون إلا للمؤمنين، ولا موالاة للكافرين، وهذا معنى قوله سـبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:46]، إني أعظك خشـية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشـائج والروابط، أو حقيقة وعد الله وتأويله، فوعد الله قد أول وتحقق ونجا من أهلك الذين هم أهلك على التحقيق[2].

وهذا هو الأنسب بالأنبياء عليهم السلام، وفي ذلك يقول الإمام ابن حزم: وهذا لا حجة لهم فيه؛ لأن نوحاً عليه السـلام تأول وعد الله تعالى أن يخلصـه وأهله، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة، وهذا لو فعله أحدٌ لكان مأجوراً، ولم يسأل نوح تخليص من أيقن أنه ليس من أهله فتفرع عن ذلك نهي أن يكون من الجاهلين، فتندم عليه السـلام من ذلك ونزع، وليس هاهنا عمد للمعصية البتة والله أعلم[3].

وأما عن اسـتغفار نوح عليه السـلام وطلبه الرحمة من الله تعالى، فإن ذلك لشـعوره بعظم قدر الله تعالى وعلو مقامه الكريم وأنه قد خالف الأولى والأفضـل،[4] وهو عدم السـؤال،

1 نصير، التوبة في ضوء القرآن الكريم، المرجع السابق، ص 201.

2 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 1880/4.

3 ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، 6/4.

4 تفسير الخازن، 157/7. وانظر: نصير، المرجع السابق، ص 202.

فعد ذلك خطأ منه، فسارع إلى الله تعالى بالاستغفار، والذي يدل على أنه عليه السلام لم يرتكب ذنباً أنه جاء على لسان قوله:" رب اغفر لي " ولم يقل:" تبت إليك "، وذلك للمبالغة في تأكيد أسفه وندمه على هذا السؤال الذي بدر منه[1].

إنَّ في استغفار نوح عليه السلام وطلبه الرحمة من الله لفتاً للأنظار إلى ما كان عليه نوح عليه السلام من العبودية والتذلل لله تعالى، وأنه بلغ منتهاه في ذلك، إذ لمجرد مخالفته للأولى ارتعش فؤاده ووجل قلبه خوفاً من أن يكون بذلك قد أغضب المولى جل وعلا، فسارع يتذلل ويخضع منادياً: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: 28]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47].

كما ألمس من تكرار هذا الطلب وإلحاحه عليه السلام في قبوله اعتذاره أنه إذا كان هذا هو حال نبي الله الذي اصطفاه الله تعالى لرسالته، فالأجدر بأهل الذنوب والمعاصي المسارعة واللجوء إلى الله تعالى والإلحاح عليه في الطلب لما يقع منهم من أخطاء مقصودة وغير مقصودة، كي يظفروا بقبول توبتهم وعفو الله عنهم.

وألمح في توبة نوح استعماله للفظ الربّ، وقوله عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ﴾ [هود:47]، وبدأ اعتذاره بالاستعاذة بالله مبالغة في التوبة وإظهاراً للرغبة فيها، وتبركاً بذكر ما لقنه الله تعالى وهذا أبلغ من أن يقول: أتوب إليك أن أسألك، لما فيه من الدلالة على كون ذلك الأمر هائلاً محذوراً لا محيص منه إلا بالاستجارة بالله تعالى، ثم ختم اعتذاره

---

1 نصير، المرجع نفسه، ص 202.

برجائه لله أن يقبل هذا الاعتذار والأسف، وإلا سيكون من الذين خسروا أعمالهم﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47][1].

لقد دعا نوح عليه السلام الله عزَّ وجل وسأله المغفرة والرحمة، ومن أسماء الله الحسنى الغفور الرحيم، ولها آثارها على الأفراد والأمم والشعوب والأكوان والمخلوقات:

أ- "وإلا تغفر لي": طلب نوح عليه السلام المغفرة من الغفار سبحانه وتعالى: الساتر لذنوب عباده والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته، ومعنى الستر في هذا: أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم[2].

والله سبحانه وتعالى من أسمائه الغفور : الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب[3]. ومن آثار الإيمان بأسمائه سبحانه: الغفور، الغفار، غافر الذنب:

- محبة الله عز وجل وحمده وشكره على رحمته لعباده، وغفرانه لذنوبهم، وهذا الأثر يثمر في قلب المؤمن توقي معاصي الله تعالى قدر الطاقة، وإذا زلت القدم ووقع المؤمن في الذنب، فإنه يتذكر اسمه سبحانه وتعالى الغفور الغفار، فيسري الرجاء في قلبه ويقطع الطريق على اليأس من رحمة الله تعالى ويحسن الظن بربه الذي يغفر الذنوب جميعاً[4].

- سؤال الله عز وجل بهذا الاسم الكريم مغفرة الذنوب ووقاية شرها؛ لأنه وحده الذي يملك غفران الذنوب ولا يملك ذلك أحد سواه، وما أكثر الأحاديث التي تحث على

1عبد الهادي الشمراني، الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، دار ابن الجوزي، 2006، ص 139.

2 الخطابي، تفسير الأسماء، ص38.

3 عبد الرحمن السعدي، الحق الواضح المبين، ص 73.

4عبد العزيز الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص 570.

أفضيلة الاستغفار، وما أكثر الأدعية النبوية التي فيها الاستغفار، ومن أشهرها سيد الاستغفار المذكور والذي منه: ... وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت[1].

ولما سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه الرسول ﷺ دعاء يدعو به في صلاته قال: {اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم}[2].

إن نوحاً عليه السلام كان من المستغفرين والتائبين إلى الله، وعلم أتباعه كيفية الاستغفار الذي يجعل من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه الله لزام ذلك من حيث لا يحتسب.

ب- "وترحمني ": طلب نوح عليه السلام الرحمة من الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى، وآثار رحمة الله عزَّ وجل قد وسعت كل شيء، فكما أن علم الله عزَّ وجل قد وسع كل شيء ولم يخف عليه أي شيء، فكذلك رحمته سبحانه قد بلغت كل شيء بلَغهُ علمُه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ **[الأعراف:156]**، وقال عن دعاء الملائكة للمؤمنين:﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ **[غافر:7]**، فقد عرف نوح عليه السلام كيفية استمطار رحمة الله عليه بدعائه وانكساره بين يدي مولاه، فهو عليه السلام من آثار رحمة الله على خلقه، ورحم الله به البشرية وحفظ ذريتهم في الفلك المشحون.

---

1 صحيح البخاري، رقم 531.

2 صحيح مسلم، رقم 6839. وانظر: صحيح البخاري، رقم 790.

ومن أعظم آثار رحمة الله سبحانه إرساله الرسل وإنزاله الكتب هداية للناس وإخراجاً لهم من الظلمات إلى النور، فالرسل رحمة من عند الله عز وجل لعباده؛ لتعريفهم بربهم سبحانه وأسمائه وصفاته وكيفية عبادته لينقلهم برحمته من الجهالة إلى العلم، ومن الغيِّ إلى الرشد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة، فسبحان الله أرحم الراحمين[1].

ومن أعطى اسم الرحمن حقّه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبين إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك[2].

وقد تجلت رحمة الله عزَّ وجل في رحمته الخاصة بنوح عليه السلام بتوفيقه وتسديده، وحفظه وتيسير أموره، وإجابة دعائه ونصره على أعدائه الكافرين وتمكينه في الأرض، وإغاثته وكشف الكروب عنه، وتسهيل أموره لقيادة الحضارة الإنسانية الثانية، حضارة السلام والبركات[3].

1 عبد العزيز الجليل، ولله الأسماء الحسنى، ص 133.

2 الجليل، المرجع السابق، ص 134.

3 المرجع نفسه، ص 39.

5. الدعاء:

ومن صفات نوح عليه السلام كثرة الدعاء لربه، وقد بيَّنتها في مواضعها، ومن دعاء نوح عليه السلام التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية:

- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء:76].
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:117، 118].
- وطلب من الله أن يمده بالنصر على قومه: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:39].
- وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر:10].
- وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47].
- وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:29].
- وقال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28].

إنّ من أسباب النعيم والرخاء ودفع الشدة والبلاء: التوجه إلى الله عز وجل بذلك؛ لأنه أمر عباده بدعائه، ووعدهم بالإجابة ووعده حق، يقول تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:60]، فهو سبحانه وتعالى

أمر بتوجيه رغائبنا إليه والتعويل عليه، وكفل لنا الإجابة بإعطائنا ما نريد فهو الكريم المطلق الذي يجيب دعوة الداع إذا دعاه[1].

وفي قصة نوح عليه السلام يظهر تعلقه بدعاء ربه عز وجل، حيث كان الدعاء من أهم الأسلحة التي استخدمها نوح عليه السلام لتحقيق نصر الله عز وجل، فقد لجأ إلى الله واحتمى بحماه ولم يركن إلى الأسباب وحدها، فتوجه إلى الله بالدعاء لعلمه أن الدعاء أهم أسلحة النصر، وسجل لنا القرآن الكريم صيغ الدعاء التي دعا بها نوح عليه السلام وكيف أن الله استجاب له[2].

6. العبودية:

من صفات نوح عليه السلام أنه كان عابداً لله، ومحققاً معنى العبودية لله في أعلى درجاتها:

- قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: 9].
- وقال تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم:10].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:81].
- وقال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات:40].

---

1 السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، 474/1.

2 السيد عبد المقصود عسكر، في صحبة الرسل الكرام، دار البشير، طنطا، مصر، ط1 2000م، ص 48.

ومظاهر العبودية عنده عليه السلام بادية ظاهرة، فمن ثمراتها:

أ- **الشكر الجزيل:** فنوح عليه السلام ترقى إلى مقام العبد الشكور ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ **[الإسراء:3].**

ب- **كثرة السجود والبكاء من خشية الله:** ويظهر هذا غي سياق الآية الكريمة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ **[مريم:58].**

ج- **دوام الدعاء واستمراره** (صاحب دعوة مستجابة): ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ **[القمر:10]**، وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ **[الأنبياء:76]**، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ **[المؤمنون:26].**

د- **التوكل:** ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ **[يونس:71].**

هـ- **التجرد وتفويض الأمر إلى الله تعالى:** ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود:31]**، وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ **[هود:32-33]**، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي

إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَـــحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:34].

و- **العبد الذاكر**: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْـمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَـاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:41].

ز- **اليقين**: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود:38 – 39].

ح- **المبادرة إلى التوبة والاستغفار**: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:47].

ط- **الإيمان والإحســـان**: هما من مراتب الترقي، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْـــحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُـــلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام:84]، ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَـالَمِينَ* إِنَّا كَـذَٰلِـكَ نَجْزِي الْمُحْسِـــنِينَ* إِنَّـهُ مِنْ عِبَـادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:79-81].

ي- **الإخلاص**: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِـــينَ﴾ [الصافات: 73- 74].

ك- **الصلاح (العبد الصالح)**: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ [التحريم:10].

ل- **الابتلاء**: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـــالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:10]، ابتلي في أقرب الناس إليه.

7. العلم:

- قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:28].
- وقال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:61-62].

8. العفة:

- ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:109].
- ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ [يونس:72].
- ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا﴾ [هود:29].

9. الأمانة:

- ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء:107].

10. الثبات:

- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:114].
- ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ* وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:29-30].

11. بر الوالدين:

- ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28]. وغير ذلك من الصفات والأخلاق الكريمة والقيم الرفيعة.

وتتضح شخصية نوح عليه السلام من خلال صفاته وأخلاقه وسيرته فمن معالمها:

- **العبودية لله**: ومن ثمراتها: الشكر الجزيل لله وكثرة السجود والبكاء ودوام الدعاء والتوكل والتجرد واليقين والذكر والتوبة والاستغفار والإيمان والإحسان والإخلاص والصلاح والابتلاء.

- **العلم**: ومن ثمراته: الوضوح وقوة الحجة، وسلامة الطريق وصفاء المنهج، والقناعة العقلية والمنطقية والوجدانية.

- **العفة والأمانة والثبات**: من ثمراته: حبُّ المؤمنين والحرص على فقرائهم وضعفائهم.

- **بر الوالدين والصبر الجميل**[1]: لا شك أن نوحاً عليه السلام غرس هذه الصفات والأخلاق في أتباعه، وساهمت في نهضة الإنسانية في دورتها الحضارية الثانية بعد الطوفان العظيم.

1 أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، المرجع السابق، إلى الله في سورة نوح، ص 128: 132.

ثانياً: فقه نوح عليه السلام في التعامل مع السنن الربانية:

إنَّ قيادة الحضارات وتربية الناس والنهوض بها، يخضع لقوانين وسنن ونواميس، تتحكم في مسيرة الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم، وعند التأمل في سيرة نوح عليه السلام نراه قد تعامل مع السنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة وتوفيق من الله عظيم.

إنَّ السـنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، وعلى الإنسـان في كل زمان ومكان وهي كثيرة جداً.

إنَّ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سـنن الله تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها واستخراج العبر منها، والعمل بمقتضياتها، لتكوين المجتمع السعيد المستقيم على أمر الله.

وحينما يوجِّه القرآن الكريم أنظار الناس إلى سـنن الله تعالى في الأرض وفي حركة التاريخ وسـير المرسـلين، فهو بذلك يردهم إلى الأصـول التي تجري وفقها، فالنواميس التي تحكم الكون والشـعوب والأمم والدول والأفراد، جارية لا تتخلف والأمور لا تمضـي جزافاً، والأمور لا تجري في الأرض عبثاً، وإنما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسـلمون هذه السـنن وأدركوا مغازيها، تكشـفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة من وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسـلمين؛ لينالوا النصـر والتمكين بدون الأخذ بالأسـباب

المؤدية إليه، والسنن التي تحكم الحياة واحدة، فما وقع منها في زمان مضى، سيقع في كل زمان[1].

إنَّ أول شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية، والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم، هو أن نفهم بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـ "فقه السنن"، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية[2].

إنَّ حركة نوح عليه السلام نحو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والحثِّ على تقواه، وعمارة الأرض على شريعة رب العالمين اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، والتعامل مع فقه السنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته وقصته:

- أهمية القيادة في صناعة الحضارة.
- أهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في عمارة الأرض وخلافتها.
- أهمية الوحي الذي يبيّن المنهج الرباني في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتصورات.
- أهمية سنة التدرج وهي من سنن الله في خلقه وكونه، وهي من السنن المهمة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

1السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 478/1.

2 المشروع الحضاري لنهضة الأمة، ص 58.

وقد اتّضح في سيرة نوح عليه السلام منطلق هذه السنة بما أن الطريق طويل، فقد سار باتزان وتريُثٍ وصبرٍ عظيم، وأوغل فيها برفق نحو الأهداف المرسومة، من ترفق بالناس واختيار المؤمنين بدعوته، ومقاومة خصومه، ثم مرحلة النصر والتمكين بعد الطوفان العظيم.

لقد تعامل نوح عليه السلام مع سنة التدرج بحكمة وذكاء وبُعْد نظر، ورعى هذه السنة في سياسة الناس وتربية الجيل المؤمن، الذي حمل عبء الحضارة الإنسانية الثانية في منطلقاتها الروحية والعقلية والمنطقية والوجدانية. ومن أهم السنن التي تعامل معها نوح عليه السلام بعد سنة التدرج:

1. سنة الله في التغيير وعلاقتها بالبناء العقدي:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد:11].

تعامل نوح عليه السلام بوضوح وصدق وإخلاص، فقد قاد التغيير بمنهج الله ووحيه، وبدأ بالنفس البشرية، وصنع من القلة التي آمنت به عظماء في صناعة الحضارة من بعد الطوفان، وأحدث بهم تغييراً في شكل المجتمع ومفاهيمه وأخلاقه وقيمه، ونقل الناس الذين آمنوا به من الظلمات إلى النور ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشأ بهم حضارة إنسانية ثانية رائعة، حضارة السلام والبركات.

لقد قام نوح عليه السلام بما أوحى الله إليه بتغيير العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه، فتغير ما حولهم في دنيا الناس فتم تعريفهم وتربيتهم على التوحيد، وهو الأساس الذي قام عليه البناء في الحضارة الإنسانية الثانية، وقد آتت تربيته

المباركة ثمارها، فتطهر أتباعه الذين نجوا معه مما يضـــاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصـفات، فلم يحتكموا في مجتمعهم الجديد إلا إلى شـريعة نوح – عليه السـلام – التي نزلت من عند الله عز وجل، ولم يطيعوا غير الله ولم يتبعوا أحداً على غير مرضـاة الله، ولم يحبوا غير الله كحب الله، ولم يخشـوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا على الله، ولم يلتجئوا إلا لله، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده، ولم يركعوا إلا لله أو يسجدوا ...إلخ، وآمنوا باليوم الآخر واستعدوا له غاية الاستعداد من خلال مفهوم التوحيد والعبادة وعمارة الأرض وخلافتها.

وآمنوا بقضـــاء الله وقدره، وأن العاقبة للمتقين، وآمنوا بأركان الإيمان التي دعا إليها نوح عليه السلام، ولم يقتصر في تربيته لهم على تعليمهم أركان الإيمان، بل صحح عندهم كثيراً من المفاهيم والتصورات والاعتقادات عن الإنسان والحياة والكون والعلاقة بينهما؛ ليسيروا على نور من الله، ويدركوا هدف وجودهم في الحياة، ويحققوا ما أراد الله منهم غاية التحقيق، ويتحرروا من الوهم والخرافات، فاتضح تصورهم عن:

- قصة آدم والحضارة الإنسانية الأولى وعداوة الشيطان لآدم وبنيه.
- أهمية العبادة والأخلاق لبني الإنسان والمجتمع الجديد.
- أهمية إعمال العقل في الآفاق والأنفس والكون واكتشاف سنن الله فيه والدلالة على الله وغير ذلك من الأمور المتعلقة بســنة الله في تغيير النفوس، لقيمة الإيمان بالله وتوحيده وما يفتح الله لعبده من خلال إيمانه به من آفاق وعوالم عقلية وروحية وفطرية ووجدانية ونفســية... يرتقي بها لتحقيق العبادة القولية والوجدانية والعملية لخالقنا العظيم سبحانه تعالى.

إنَّ نوحاً عليه السـلام بدأ بالتغيير الداخلي للأنفس، وذلك من خلال الدعوة إلى الإيمان بالله عز وجل وتوحيده، فهذه هي الطريقة الوحيدة لتنشـئة الأفراد والأتباع على سـيرة محكمة من الدرجة الأولى، وهو الذي يطبع الأفراد على الصـدق والإخلاص والأمانة والعفاف ومحاسـبة النفس وضـبط نوازعها وإيثار الحق وسـعة النظر والقلب وعلوّ الهمة والكرم والسخاء والتضحية والتواضع والشعور بالواجب، والاستقامة والشجاعة والبسالة والقناعة والاسـتغناء وعاطفة السـمع والطاعة واتباع القانون، ويؤهلهم لأن يبرز بهم إلى حيز الوجود أحسن مجتمع وأطهر[1].

إنَّ الحضـارة الإنسـانية الثانية التي قادها نوح عليه السـلام قامت على توحيد الله واتباع شـرعه ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِـلُّ وَلا يَشْـقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَـةً ضَنكًا﴾ **[طه:123- 124]**، فبين لأتباعه من خلال عقيدة التوحيد حقيقة الوجود، ورسم غاية الحياة التي بنى عليها الحضارة الإنسانية الثانية التي خضعت لمفاهيم وتصورات وأفكار وقيم ومبادئ مرجعيتها الإيمان بالله وتوحيده، فجوهر الحضـارة الإنسـانية الثانية هو التوحيد الذي أعطاها هويتها الربانية في تأسـيسـها، وربط بين أجزائها التشـريعية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والشخصية ببعدها الإنساني والإيماني، وجمعت بين البعد الروحي والمادي في انطلاقتها الجديدة بعد الطوفان العظيم.

وكان لقصـة نوح عليه السـلام في التعامل مع سـنة الله في تغيير النفوس الدور الأكبر من خلال الجهد الكثير والعمل المثابر الذي قام به مع أتباعه الذين يعتبرون النواة الصـلبة

1 أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية، ص. ص 290 – 291.

المؤثرة في المشـهد الحضـاري الجديد، وتكونت منهم الشـعوب والمجتمعات والأمم البشـرية فيما بعد.

2. سنة الله في الابتلاء:

في قصــة نوح عليه الســلام ألوان من الابتلاء، له ولقومه ولأبنائه القادمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون:30].

- "إن في ذلك لآيات": المشـار إليه بلفظ "ذلك" كل قصة نوح عليه السلام وقومه التي ذكر منها هذا النص من سـورة المؤمنون، وقد أكدت الآية الكريمة في قصـة نوح ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون:30].

إن في قصة نوح عليه السلام وقومه آيات عديدات دالات على طائفة من صفات الرب الخـالق وحكمته في امتحـان خلقه وحكمته في مجازاتهم بالعدل والفضـــل، فالكافرون الظالمون المجرمون لهم الجزاء بالعدل، والمؤمنون المتقون والأبرار والمحســنون لهم الجزاء العظيم بالفضـــل، والآية هي العلامة ذات الدلالة على أمر من الأمور ســـواء كانت مرئية أو محسـوسـة بأية حاسـة أخرى من الحواس الظاهرة أو الباطنة، وقد يتوصـل إلى إدراك الأمر الذي دلت عليه الآية عن طريق اللوازم الفكرية أو الاسـتنباط العقلي، أو دقائق الدلالات اللغوية في الكلمات والجمل، وصـور تراكيب مفردات الجمل وتنظيم وتصـفيف الجمل في عموم النصِّ.

ونســتطيع أن نســتنبط من الآيات التي اشــتملت عليها فقرات هذه القصــة التي عرضتها سورة المؤمنون ما يأتي:

- إرســال الله نوحاً إلى قومه هو إحدى ســنن الله في البشــر، فما من أمة انحرفت عن شريعة الله ومنهجه، وانمحت من ذاكرتها تعاليم الدين الرباني الصحيحة، ولم يبق لديها إلا تحريفات وتخريفات وضلالات، إلا بعث الله لها نبياً رسولاً بشيراً ونذيراً يبلغها عن دين الله، وشرائعه ومنهاجه ويدعوها إلى الإيمان والعمل الصالح ويبين لها مسؤوليتها في الحياة الدنيا، وأن بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى يبعث الناس إليها بعد الموت والفناء للحساب والجزاء.

- عبادة الله وحده لا شريك له، بعد الإيمان به واحداً في ربوبيته، واحداً في ألوهيته، هي من أعظم المطالب الدينية التي على الإنســان أن يؤديها؛ ليجتاز رحلة امتحانه بنجاح بعده، لأن يكون من أصحاب جنات النعيم[1].

- عقاب الله وعذابه هو الأمر الذي أعده الله لمن كفر به جاحداً له أو مشــركاً به، ولمن عصاه فاستكبر عن عبادته، كل بحسبه.

- من الظواهر البشرية، أن رؤساء الأقوام وقادتهم يتعللون ببشرية الرسل، لرفض دعواتهم، ويتهمونهم أيضاً بأنهم طلاب رئاسة وزعامة على أقوامهم، لذلك فهم يدعون لتغيير ما عليه أقوامهم من عقائد ومفاهيم وعادات، ليكونوا هم أئمتهم فيما يقدمونه لهم من جديد باسم الدين، الذين يدعون أنهم رسل الله فيه، ويتهمونهم أيضاً بالجنون لصدِّ جماهير قومهم عنهم، ويجادلون بغير ذلك.

- من الظواهر البشرية أن يفرض أكثر الناس آراءهم الخاصة على حكمة الله، ومن ذلك مطالبتهم بأن يكون الرسل إلى البشر من البشر أنفسهم.

1الميداني، المرجع السابق، ص 286.

- من سنة الله في عباده أن ينصر رسله وأن ينزل نقمته بالظالمين من أقوامهم.

- أنَّ المؤمنين مطالبون بأن يذكروا الله عند كل مناسـبة، مسـتعينين به، وحامدين له، وداعين في كل مناسبة بحسبها.

- أنَّ ظروف الحياة الدنيا هي ظروف امتحان لكل مستوفٍ لشروط الامتحان من الناس فيها، فالرسـل مبتلون، وأنواع الابتلاء مختلفة، منها ابتلاء بالتكاليف، ومنها ابتلاء بالنعم، ومنها ابتلاء بالمصائب، ومنها ابتلاء الناس بعضهم ببعض .

- من الآيات ما في القصـة من عظات، وعلى الذين كفروا أن يتعظوا بها، ويعتبروا بما جرى لمن قبلهم من الكافرين والظالمين من عقاب رباني، وأن يسـتدلوا من ذلك على أن الربَّ الذي أوعد بالعقاب المعجل ثم نفذه سيحقق يوم القيامة عقابه المؤجل الذي أوعد به.

- من الآيات ما في القصة من تطمين للرسل والمؤمنين أن الله معهم وناصرهم إذا صدقوا وصبروا ، وأن الله لا بدَّ أن يحقق وعده لهم في الدنيا والآخرة، كلما حققوا في أنفسهم الشروط المطلوبة منهم.

- من الآيات ما دلَّ على أن من حكمة الله أنه متى أمسـى القوم قوم فسـاد عام غير قابل للإصـلاح بمقتضـى مؤثرات البيئة وضـغوطها التي لا تسـمح بأن يندَّ عنها مسـتقيمون صـالحون، كان إهلاكهم إهلاكاً عاماً شـاملاً باسـتثناء المؤمنين، أمراً لا مناص منه[1].

1الميداني، المرجع السابق، ص 286.

- "وإن كنا لمبتلين": الابتلاء هو الامتحان والاختبار؛ لإظهار ما في النفوس والضـــمائر من عمل إرادي، إيمان أو كفر، طاعة أو معصية، فضائل أو رذائل، خير أو شر.

وجاء التعبير بضـــمير العظمة "كنا"، وبصـــيغة الجمع " لمبتلين "؛ لأن الموقف الذي يجري التعبير عنه هو موقف عظمة وجلال، يفرضـــه ســـلطان الرب الخالق، المبتلي لكل عباده، وفي مقدمتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام[1].

ويفيد تأكيد الجملة "وإن كنا لمبتلين" أي: وإننا لمبتلون، وفعل الكون هنا للدلالة على السنة الدائمة الثابتة مع الزمن في الماضي والحاضر والاستقبال[2].

والابتلاء ألوان: ابتلاء للصـــبر، وابتلاء للشـــكر، وابتلاء للأجر، وابتلاء للتوجيه، وابتلاء للتأديب، وابتلاء للتمحيص، وابتلاء للتقويم،... إلخ[3]. ومن ابتلاءات نوح – عليه السلام – الآتي:

- ابتلاؤه بقومه الذين لم يهتدوا ولم يؤمنوا به وبرسالته إليهم وتكذيبهم له.
- ابتلاؤه بابنه فهو عمل غير صالح لأسباب لا يعلمها يقيناً إلا هو جلَّ جلاله.
- ابتلاؤه بزوجته وعدم إيمانها به.

---

1 الميداني، المرجع السابق، ص 286.

2 الميداني، المرجع نفسه، ص 287.

3 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 4/ 2466.

- سخرية قومه منه: السخرية استهزاء بمن يستوجب احترامه، ويقصد من ورائها التقليل من شأن المستهزأ به، وهذا المستهزأ به هو من ينال رضا الله عزَّ وجل وينال التقدير والاعتراف من الصادقين المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربِّ العالمين[1].

إنَّ نوحاً عليه السلام تعرض لسنة الابتلاء، وأصبح نموذجاً يقتدي به المبتلون على مر العصور والدهور وتوالي الأزمان في تحمل الشدائد والمصائب في سبيل الحق.

ومن الآيات المحكمات التي تكشف عن هذه السنة قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ **[البقرة:214]**.

فهذه الآية الكريمة تستنكر على المخاطبين بها أن يكونوا طامعين في الاستثناء من سنن التاريخ، وأن بإمكانهم تحقيق النصر دون أن يصيبهم ما أصاب السابقين قبلهم، إذ يخبر سبحانه وتعالى أنه لا بدَّ أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنة جارية لا تتغير ولا تتبدل، وإن من يحمل لواء دينه وشرعه لا بدَّ له أن يبتلى، فليس الإيمان بالتحلي والتمني ومجرد الدعاوى، بل لا بدَّ أن تصدقه الأفعال أو تكذبه، إنها سنة مضت في الأولين، جارية في الآخرين[2].

3. سنة الله في الأخذ بالأسباب:

تعامل نوح عليه السلام بسنة الأخذ بالأسباب؛ لنشر دعوته والتمكين لدينه، ويظهر ذلك في أمور عديدة:

1عقيل، نوح عليه السلام من وحي القرآن، المرجع السابق، ص 133.

2محمد أمحزون، السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، المرجع السابق، 1/ 196.

أ- في أسلوب الدعوة:

مرة بالليل ومرة بالنهار، وأخرى بالسرِّ وأخرى بالعلن، واستخدم خطاب العقل والمنطق والوجدان، واستطاع أن يقنع بعض الأشخاص بسمو دعوته، وقدسيتها وصدقها وتحقيق ما ينفعهم في الدارين.

ب- اهتمامه بمن آمن معه:

"وما آمن معه إلا قليل"، فقد عمل نوح – عليه السلام – على تكوين لحمة واحدة منهم، وأن تكون قوّة متماسكة ينصهر بعضها في بعض، فتشكل النواة القلبية وتحمل معها تكاليف الرسالة، ويحرص كل منهم على الآخر، وقام نوح – عليه السلام – بنصحهم وإرشادهم وتهذيبهم وتربيتهم، فكانوا نعم العون له في مناصرة دعوته، وكان هذا القليل الذي نجح نوح – عليه السلام – في إقناعه بالدعوة والذي آمن بها ينفذ أوامر الله بدون تردد، فقد شكل نوح عليه السلام قاعدة صلبة من هؤلاء المؤمنين وعاشوا معه المحنة والمنحة، والبلاء والعطاء، وحققوا أصولاً جامعة لقضية السننية في القلة منها:

- أنهم السابقون إلى الإيمان بالله وتوحيده والصابرون على ابتلاءاته.
- أنهم الثابتون في الأزمات والاختبار.
- أنهم يختارون بعد ابتلاء واختبار.
- أنهم الناصرون للحق ودعوة التوحيد.
- أنهم المستغفرون لله الشاكرون له قولاً وعملاً.
- أنهم على مستوى فقهي وعلمي وإنساني يؤهلهم للمساهمة في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية.

- أنهم على معرفة بالسنن والنواميس الجارية والخارقة في الحياء والأحياء، تعلموها من نوح عليه السلام.
- أنهم الراضون بعطاء الله وقضائه.
- أنهم عادلون في الشركة لا يبغون في الخلطة.
- أنهم خلاصة زمانهم وبقية جيلهم.
- أنهم المنصورون المؤيدون.
- أنهم أصحاب العزم
- شدة صلتهم بالله، أمورهم تبدأ باسم الله وكثيري الحمد لله والدعاء له.
- أنهم أقدر الناس على الثبات والسمع والطاعة لنوح عليه السلام.
- لا يحتنكهم الشيطان[1].

تلك بعض الأصول الجامعة التي وصف بها أتباع نوح – عليه السلام – الذين أسهموا في تأسيس حضارة السلام والبركات مع نوح عليه السلام.

ج- صناعة الفلك:

ومن فقه نوح – عليه السلام – في سنة الأخذ بالأسباب، شروعه في صناعة السفينة بأمر ربِّه، وقد خضع مشروع الصناعة لخطة عمل وهندسة بناء وتحديد مواد وطريقة تنفيذ وأيدي عاملة مساعدة تستحمل سخرية قومه والذين كانوا يمثلون الكثرة والغلبة ما قبل الطوفان ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا

1رمضان خميس، سنة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن الكريم في ضوء القرآن، نقل بالتصرف، ص. ص 103 – 104.

فَإِنَّا نَسْــخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْــخَرُونَ * فَسَــوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ **[هود:38 – 39].**

إنَّ من سـنن الله في كونه وشـرعه تحتم علينا الأخذ بالأسـباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله ﷺ، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصـي بالجهاد، وكان يسـتعيذ بالله من الهمِّ والحزن والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السـماء، وقال للذي سـأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل[1]، وقال ﷺ: "وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد"[2].

وما غزوات الرسـول – ﷺ– المظفرة إلا مظهراً من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسـب مشـيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش وبعث الطلائع والعيون، وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسـه، وأقعد الرماة على جبل الرماة، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشـة وإلى المدينة، وهاجر بنفسـه، واتخذ أسباب الحيطة في هجرته، وأعد الرواحل التي يمتطيها والدليل الذي يصحبه، وغير الطريق واختبأ في الغار[3]، وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد وهو سيد المتوكلين[4].

---

1 رواه ابن حبان بإسناد صحيح.

2 صحيح البخاري، 5380/5.

3 سـعاد ميسـر، عقيدة التوحيد، ص 212، وانظر: علي محمد الصـلابي، الإيمان بالقدر، دار ابن كثير، ط4 2014م، ص 164.

4 الصلابي، الإيمان بالقدر، المرجع نفسه، ص 164.

إنَّ قدر الله حق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السـنن التي قام عليها نظام الكون من خلال الأسـباب التي خلقها سـبحانه وسـرعها، وليسـتقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط[1].

إنَّ قصة نوح عليه السلام تعلمنا الأخذ بالأسباب والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصـول إلى المراد خاصـة بالمواقع الصعبة التي تواجه الأفراد والشعوب والأمم، وقد جعل الله نجاة نوح ومن آمن معه بصـناعة السـفينة وبإتقان علم صـناعة السـفن وقوانينها في البحار، وكان لنوح عليه السـلام والذين معه همة وعزيمة في اسـتيعاب العلوم الربانية التي ساعدتهم على إنتاج هذا الصرح الحضاري الكبير.

د- بذور الحضارة الإنسانية الثانية:

حمل نوح – عليه السـلام – في سـفينة الحياة من أنواع الحيوان والطيور والنبات المعروفة لنوح عليه السـلام في ذلك الزمان والميسـرة كذلك لبني الإنسـان "قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ"، فجاءت "قلنا" بنون العظمة، ولا ريبّ أن الحادث جلل وضـخم وعظيم، فناسب نون العظمة.

لقد أخذ نوح – عليه السلام – بتوجيه الله تعالى له وحمل من كل زوجين اثنين معه، وكان ذلك سبباً في انطلاق الحضارة الإنسانية الثانية وازدهارها.

ويظهر لنا تعامل نوح – عليه السلام – بسنة الأخذ بالأسباب في أمور كثيرة من أهمها:

- أسلوبه في الدعوة إلى الله.
- اهتمامه بمن آمن معه.

1القرضاوي، الإيمان بالقدر، ص 165.

- صناعة السفينة.

- حمله لبذور الحضارة الإنسانية في السفينة.

4. سنة الله في التدافع:

تعامل نوح – عليه السلام – مع سنة التدافع، وقد ظهرت بينه وبين قومه جلية واضحة، وكان من أسباب التدافع بينه وبين خصومه الذين كفروا أمور منها:

- كونه بشراً مثلهم وليس ملكاً، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ **[الأعراف:63]**.

ورد عليهم نوح عليه السلام من أن البشرية لا تمنع من تلقي الوحي والاصطفاء من الله العليم الحكيم.

- اتهامهم له بالضلالة والسفه، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **[الأعراف:60-61]**.

دافع نوح عليه السلام بنفي ما وصف به من الضلال المبين، بما قصه الله تعالى" قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ"، قال الألوسي في تفسيره: ناداهم بإضافتهم إليه"يا قوم" استمالة لهم[1]. وذكر لهم أنه رسول من رب العالمين، ووصف نفسه بأربع صفات[2]:

- **الأولى**: أنه صاحب رسالة ورسول مرسل من رب العالمين.

---

1 وفاء محمد سعيد، فقه السنن الإلهية، ص 185.

2 عادل صالح أبو العلا، الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، رسالة دكتوراة جامعة أم القرى، 1416هـ، فرع الكتاب والسنة.

- **الثانية:** أنه بلغ عن الله ما فيه هدايتهم"أبلغكم رسـالات ربي" أيّ: أبلغكم ما أرسلت به من الأوامر والنواهي في العبادات والمعاملات.

- **الثالثة:** "إني ناصح لكم "وعبر بالفعل المضارع ليدل على عظيم صبره على قومه كلما جددوا عناداً جدد لهم نصحاً.

- **الرابعة:** أنه خصَّ من بينهم بإحاطته بعلوم غيبية لا يعلمونها، قال تعالى:"وأعلم من الله ما لا تعلمون".

- كبر الملأ واسـتعلاؤهم: قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ **[هود:27]**، علل الملأ من قوم نوح امتناعهم عن اتباع نوح عليه السلام؛ بسبب متابعة ضعفائهم له الذين سموهم بالأراذل أي: الذين لا عقل لهم ولا علم ولا شرف ولا مال، وسبب ذلك البر الذي جعلهم يقلبون الحقائق، ويأنفون عن الحق بحجة أن الأراذل اتبعوه، وفي الحقيقة أن اتباع الحق هم الأشـراف ولو كانوا فقراء، وأن الأرذال هم المعاندون المخالفون للحق ولو كان في أعين الناس من الأشراف.

- دعواهم أن ما جاء به نوح عليه السـلام لم يسـمعوا به في آبائهم الأولين: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ **[المؤمنون: 24]**.

- هذا القول إما أن يكون صـدر عنهم أول الدعوة في الذين مضـوا قبلهم على عبادة الأصـنام، أو أنهم كانوا يعلمون أن آباءهم الأولين بين آدم ونوح كان أثرهم موحدين، لكنهم جحدوا ذلك تكذيباً وعناداً، فقد روي عن ابن عباس رضـي الله عنه أنه كان بين

آدم ونوح عشـــرة قرون كلهم على شـــريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشـــرين ومنذرين[1].

– تكذيبهم نوح وأتباعه من المؤمنين: قال تعالى في ذكر صـــراعهم لنوح ومن اتبعه: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ **[هود: 27]**، فأســاس صـراعهم وصـدهم عن دعوة نبيهم نوح عليه الســلام ظنهم، وهذا في تصورهم يكفي عن متابعة نوح ومن آمن معه ومع طول الفترة التي دعاهم فيها نوح عليه السلام بكل الوسائل لم يؤمن إلا قليل[2].

وقد تعامل نوح عليه الســلام مع سـنة التدافع بموضـوعية واتزان، حقق من خلاله ما كان يرجو إليه من رضـــا ربِّه عزَّ وجل، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـــهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ **[البقرة:251]**، فالتدافع والصراع في عالم الأفكار والعقائد والثقافات والسياسة والاقتصاد ...إلخ هو سبيل الحيوية والنمو، وعلامة الحياة والاستمرار، وهو أحد محركات الحياة[3].

وكانت العبرة في قصـــة نوح في ســـنة التدافع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، والهدى والضلال في انتصار نوح عليه السلام والذين آمنوا معه لأنه:

– لن يقف شـــيء أمام قدرة الله العظيمة وإرادته النافذة، فهذا الطوفان دمر كل من كفر بالله ممن كذب نوحاً عليه السلام.

---

1 وفاء محمد سعيد، المرجع السابق، ص 186.

2 سعيد، المرجع نفسه، ص 187.

3 جمال نصار، السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري للأمة، ط1 1438هـ- 2017م، إسطنبول، دار الأصول العلمية، ص. ص 35 – 36.

- أن الله تعالى يجزئ الناس في الدنيا والآخرة بأعمالهم وإيمانهم وصـــلاحهم وتقواهم لا بأنسابهم، ولا علاقة للصلاح بالوراثة والأنساب، ولا محاباة لأحد في ميزان الحساب، فهذا ابن نوح وزوجته كانا من الهالكين.

- أهم ما ينتظره الناجون من بلاء عام هو وجود الأمن والاستقرار والسكينة.

- الإخبار عن قصـــة نوح وغيره من الأنبياء لا يعرفه النبي ﷺ ولا قومه، وهو إعجاز للقرآن وتصديق لرسالته وتثبيت له[1].

- أن الناس إذا غلب عليهم الجهل استغلتهم الشياطين وزينت لهم عبادة غير الله، فعبدو ا الأصنام والأوثان وقبور الصالحين.

- الصـــبر على الدعوة والاســـتمرار فيها، ولو لم يســـتجاب لها ولم يقبلها إلا القليل من المدعوين[2].

5. سنة الله في النصر والتمكين:

- قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُـرُ رُسُـلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْـهَادُ﴾ **[غافر:51].**

- وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[الروم:47].**

- وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُـورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ **[الصافات:171: 173].**

1وهبة الزحيلي، القصة القرآنية هداية وبيان، دار الخير، دمشق، ط1 1992م، ص 48.

2 أبو بكر الجزائري، قصص المرسلين في كلام رب العالمين، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، 1420هـ، ص 8.

إنَّ هذه الآيات وأمثالها تشير إلى نصر الله وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون على الدعوة، ويتحملون المشاق في سبيلها، سواء كان الداعية رسولاً كريماً أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار و التمكين يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة[1]،كما أن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عدة، وصور متنوعة من أهمها:

أ- تبليغ الرسالة وأداء الامانة واستجابة الخلق لهم، كأصحاب القرية التي جاءها المرسلون، وأصحاب الأخدود.

ب- المشاركة في الحكم، كالتمكين ليوسف عليه السلام في الحكم لمصر بعد ما مكنه الملك في ذلك.

ج- وصول أهل التوحيد إلى سدة الحكم وتوليهم لمقاليد الدولة، كالتمكين لداود وسليمان والنبي ﷺ بعد فتح مكة.

د- نصر الله لأوليائه والتمكين لهم بهلاك الكفار ونجاة المؤمنين، كقصة نوح وهلاك قومه.

إنَّ التمكين الفعلي والانتصار العظيم والإعزاز الكريم عندما تمكَّن منهج رب العالمين من نفوس أهل الإيمان وإن كانوا قلة، فالعبرة ليست بكثرة المؤمنين والمستجيبين للحق، وإنما في صفاء المنهج الرباني الذي يعتقده أولئك الأفراد سواء قلة أم كثرة، فقد مكَّن الله لنوح عليه السلام ومن آمن به على وجه الأرض لأنهم حققوا شروط التمكين، وعرف نوح عليه السلام كيف يتعامل معها، وحقق شروط الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله عز وجل من:

1 علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط5 2009م، ص 23.

- الإيمان بالله بكل معانيه وبكافة أركانه.
- وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه.
- والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البرّ.
- وتحقيق العبودية الشاملة.
- ومحاربة الشرك بكل أنواعه وأشكاله وخفاياه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:55-56].

ولقد تحقق على يدي نوح عليه السلام سنة الاستخلاف للمؤمنين الصالحين العاملين وتوارثتها أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، بواسطة هذه الشروط، الإيمان بالله وتوحيده والعمل الصالح وتحقيق العبودية ومحاربة الشرك، وقد تحقق في الأرض مع بزوغ الحضارة الإنسانية الثانية ماشاء الله عز وجل من عدل وحق وإزهاق باطل، وسارت البشرية خطوات رشيدة نحو الكمال والسعادة والهناء والحرية، والمساواة في الحقوق والواجبات وتحقيق القيم الرفيعة التي دعا إليها نوح عليه السلام ومن تتلمذ على يديه، وقد كان هذا التمكين بامتثال نوح عليه السلام لأوامر الله وطاعته والوقوف عند حدوده ومراعاة سننه الحاكمة في حركة المجتمعات والشعوب والأمم وحسن التعامل معها، كالصبر والتقوى والأخذ بالأسباب والتدرج وغيرها.

وقد تمكن الدّين في قلب نوح عليه السلام وجوارحه ولسانه، وبعد نجاته ومن معه من الطوفان العظيم أصبحت شريعة الله حاكمة في شؤون الحياة وأمور الناس وإعمار الأرض

والانتفاع بكل ما أودعه الله عز وجل فيها من ثروة، مع التوجه بكل نشـــاط فيها إلى الله عزَّ وجل، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَـــلَاتِي وَنُسُـــكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **[الأنعام:162]**.

وكان هذا التمكين مصحوباً بالذكر الحسن لنوح – عليه السلام – والنصر على الأعداء والانتقام منهم، والحفظ والنجاة له ولأتباعه، وعطاء رباني كبير مؤيد بســـلام من الله وبركات عليه وعلى من معه بعد كشف همٍّ وإزالة غمٍّ.

ثالثاً: عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية:

يعتمد مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية على تحليل عميق للقصص القرآنية، واستنباط فهم حقيقي لمفهوم الحضـــارة، ويَعتمد على الازدهار الإنســـاني بخصـــائصـــه الفكرية والروحية والوجدانية والســـلوكية؛ تحقيقاً لعبودية الله في الأرض وعمارتها وفق مراد الله عزَّ وجل على مستوى الأفراد والشعوب والأمة.

وأفضل من رسم فقه الحضارة الربانية لمسيرة الإنسانية على مرِّ تاريخها الطويل، هم الأنبياء والمرســـلين، وبالتالي هم قادة حضـــارات إنســـانية عظيمة أصـــلت لمفهوم التوحيد والعبادة والقيم والعمارة والاســـتخلاف والارتقاء الســـياســـي والاجتماعي والاقتصـــادي والروحي والنفسي والعمراني والمادي المنبعثة؛ قيم مستمدة من الوحي الرباني وجمعت بين جانبَي:

- مظاهر الرقي المادي الذي يشمل جوانب الحياة من صناعة وتجارة وزراعة وفنون.
- مظاهر الرقي المعنوي الذي يتصـــل بالقيم الروحية والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكري والإبداع الأدبي الرفيع.

ولا تكون الحضارة ذات طابع إنساني لدى الحضاريين حتى تتصف بالرقي المادي والمعنوي على حد سواء؛ لأن الحضارة تقاس بالتقدم العلمي والصناعي أو الآلي والعمراني عندما تُعبر عن مقاصد إنسانية صالحة، وتجسد لمبادئ خلقية فاضلة، وقمة هذا الفهم الحضاري الإنساني الرفيع نجده في قيادة الأنبياء والمرسلين للأمم والشعوب:

- الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السلام.
- أو التي حدثت في عهد داود وسليمان عليهما السلام.

وقد تحدث الدكتور عبد الله محمد الأمين عن المفاهيم الحضارية والرؤية الغربية لعوامل قيام وسقوط الحضارات، والرؤية الإسلامية لعوامل قيام وسقوط الحضارات والعلاقة بين الحضارات في رؤى العالم في كتابه "الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة ومقارنة" وخرج بالنتائج الآتية:

- إنَّ من الخطأ البيِّن محاولة تفسير الحضارة بأنها المدنية أو الرقي والتقدم، ومن ثم يتم تغييب السبق العقدي الذي يحدد طبيعة العلاقة مع الله والغيب والكون والإنسان، ولعلَّ مصدر الخلاف الأساس في مفهوم الحضارة بين النموذج العلماني يرى التقدم مادياً خالصاً، بينما يرى الإسلام أن التقدم معنويٌّ وماديٌّ، وأنه إنساني أصلاً وتوحيدي أساساً، فكل تقدم في مفهوم الإسلام يحث على التحرر من عبودية غير الله. وهذه النقطة تقود إلى نقطتين هما:

أ- أن هناك حضارات قامت على أساس استبعاد الله والبعد الغيبي، وعاملت مع عالم الشهادة، واقتصر علمها وقوانينها وتمثلاتها للوجود على المفاهيم الوضعية القائمة

على الصـــراع ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم:7].

هذه الحضـــارة مآلها أن تحمل بذور فنائها من داخلها بحكم تناقضـــها مع النظام الكوني القائم على الحق فتكون الأزمات الداخلية الاقتصـــادية والاجتماعية والأخلاقية، وتكون الحروب وكافة أشـــكال إهلاك الحرث والنســـل: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِـــهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَـــمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أَوَلَمْ يَسِـــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَـــدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُـــلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَـــهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَـاءُوا السُّـوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْـتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم:7-11].

ب- وهناك حضارات دينية قامت في أصل نشأتها على أساس ديني، وظلت في تطورها التاريخي في ضعفها وقوتها مرتبطة ارتباطاً جدلياً بمدى التزامها وابتعادها عن التوجيه الديني وحضوره أو غيابه داخل المؤسسات الاجتماعية، فكل حضارة لها منطلقها الخاص، ومعنى هذا: أنَّ الحضارات الدينية تجعل من الوحي الإلهي مصدراً أساسياً للمعرفة وتتعامل مع عالمي الغيب والشهادة.

- إنَّ الحضارة المعاصرة التي تمثل المركز، حضارة مادية تتعامل مع المحسوس، ومن ثم فلا ينبغي أن تكون أنموذجاً تحتذي به بقية الحضارات؛ ذلك لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون معرفة بطبيعتها الحقيقية إذ إنها تولدت من خيالات الاكتشـــافات العلمية

وشـهوات الناس وأوهامهم ونظرياتهم ورغباتهم، وعلى الرغم أنها أُنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا.

- على الرغم من أن الحضارة المعاصرة تعيش مأزق تعاملها مع المحسوس واقتصارها على عالم الشـهادة وعجزها عن الإجابة عن الأسئلة الكلية، إلا أن هناك من نظر إلى بقية الإشـعاعات اللاهوتية الكامنة فيها، فقرر أن الحضـارة الغربية باقية أزلية؛ وذلك لأن كل مادة وكل وقود يتحول إلى إشـعاع، أما بقية الحضـارات فهي إما مهددة بالزوال والانقراض، أو الذوبان في الحضارة الغربية.

- تطورت نظرية تمجيد الحضـارة الغربية لتنتهي على يد (فرانسـيس فوكوياما) إلى إعلان نهاية التاريخ بالانتصـار السـاحق للنمط الحضـاري الغربي، وبانتصـار المعسـكر الغربي وسقوط الاتحاد السوفييتي وانتهاء الحرب الباردة تنتهي التناقضات الأساسية في العالم بانتصار الليبرالية الاقتصادية، والسياسية والديمقراطية الليبرالية، ومن ثم تعلن الحضـارة الغربية هيمنتها على بقية الحضـارات، كما أعلن (صـمويل هنتفتون) أنه بنهاية الحرب الباردة يبرز صراع من نوع جديد بين الحضارات هو صدام الحضارات.

- إذا كانت الحضـارة تعني الشـهادة أو حضـور النموذج الذي تكون فيه صبغة الله هي الموجهة لعمل الإنسـان وتكون فيه غاية الحياة مربوطة بالآخرة وعمارة الأرض التي هي دائرة التكليف، سعى للإصلاح فيها لا للإفساد، فإن الحضارة بهذا المعنى هي الإسلام أو حضارة الإسلام، وهي الموعودة بالانتصار في مرحلة الظهور الكلي للدين.

- إنَّ جوهر حضـارة الإسـلام الذي قامت عليه مؤسسـاتها وحدد امتدادها التاريخي وشـكل تفاعلها الخارجي وحدد أهدافها، هو التوحيد، وفي ضـوء هذا التصـور فقط

يمكن أن نتحدث عن واقع الأمة الإسلامية وعن ماضيها ومستقبلها، وإن توحيد الله عز وجل هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، وهو الذي يربط بين أجزائها، وهو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويطهرها من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها[1].

- ليس التحضر وضعاً مجبولاً في فطرة الإنسان، وإنما هو وضع كسبي يستحدثه الإنسان بإرادته الحرة وفق عوامل ذاتية وموضوعية، تفضي إليه، وعلى رأسها عامل الفكرة متمثلة في ذلك التصور الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود، وغاية الحياة بالغة في الفعل الحضاري ذروته حينما تكون فكرة دينية الصبغة، فالتحضر بما هو جهاد جماعي لإنجاز الترقي المادي والمعنوي ليس في حقيقته إلا جهاداً مدفوعاً بالتصور لحقيقة الوجود وموجهاً بالغاية من الحياة، فهو في مبدئه واطراده محكوم بتلك الغاية، وقائم من أجل تحقيقها، ومن ثم فإن قوماً لا يملكون تصوراً بيناً لغاية الحياة لا تنمو حياتهم إلى وضع من التحضر، بل يبقون على حال من البداوة أو ما هو شبه بحال البداوة.

إن ما نود أن نختم به هذا البحث هو أنه من الصعب تصور ثقافة مجردة ومحايدة، أي لا ترتبط بخلفيات تاريخية أو مذهب عقدي، أو إيديولوجيا لها فلسفتها في الوجود تقيم عليها تصوراتها وباعتبار أن الثقافة أو الفكرة هي التي ترفد الحضارة بالأفكار فكذلك من الصعب تصور حضارة بدون فلسفة ما في الوجود تقيم عليها تصوراتها.

فالحضارة الغربية المعاصرة تنطلق إما من مثالية، تجعل من الإنسان مركزاً للكون أو إلهاً أو من واقعية تؤله المادة وتجعل من اللذة والمنفعة هدفاً وغاية، ولعلَّ مكمن القصور في هذه

1عبد الله محمد الأمين، المرجع السابق، ص 146.

الحضارة أنها تستمد أنموذجها المعرفي من فكر بشري قاصر، لا يجعل الوحي مصدراً معرفياً لها.

وعلى العكس من ذلك، فإن من أبرز خصائص الحضارة الإسلامية أنها تسترفد الوحي من سيرورتها، فهي حضارة تقوم على منهج الحق، وتأسيساً على ما سبق فإن رؤية العالم حاضرة في دراسة الحضارات[1].

لقد استطاع نوح – عليه السلام – أن ينشئ حضارة إنسانية جديدة تلبي حاجات الحياة والمجتمع الوليد من نواحي فكرية ونفسية وروحية وجسدية ومادية واجتماعية في جميع المجالات العلمية والعملية لذلك الجيل الذي هبط بسلام الله وبركاته على الجودي.

فقد قامت الحضارة الإنسانية الثانية على خصائص مهمة، من أهمها:

- قامت على أساس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك ل، في حكمه وملكه، وهو وحده الذي يعبد، وهو وحده الذي يقصد، وهو الذي يعز ويذل ويعطي ويمنع، وما من شيء في السموات والأرض إلا وهو تحت قدرته وفي متناول قبضته.

هذا السمو في فهم الوحدانية كن له أثر كبير في رفع مستوى الإنسانية وتحرير الجماهير من طغيان الملأ والأقوياء، وتصحيح العلاقة بين القيادة والأتباع، وتوجيه الأنظار إلى الله وحده وهو خالق الخلق ورب العالمين وكانت لعقيدة التوحيد أثر كبير في الحضارة الإنسانية الثانية فجردتها من كل مظاهر الوثنية وآدابها وفلسفتها في العقيدة والحكم والفن والشعر والأدب.

1الأمين، المرجع السابق، ص 147.

- ثاني خصائص الحضارة الإنسانية الثانية أنها: إنسانية النزعة والهدف، وتلبي احتياجات بني الإنسـان الروحية والعقلية والمادية، فالنوع الإنسـاني عند نوح عليه السـلام وكذلك الأنبياء والمرســـلين واحد، وهذا ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُـــعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ **[الحجرات:13]**.

وقد سارت الدعوة الإسلامية المحمدية على نفس النهج الحضاري الذي أسسه نوح عليه الســـلام في هدفه الإنســـاني، ونزعته البشـــرية، فالقرآن الكريم حين أعلن هذه الوحدة الإنسـانية العالمية على صـعيد الحق والخير والكرامة، جعل حضـارته عقداً تنتظم فيه جميع العبقريات للشـعوب والأمم خفقت فوقها راية الفتوحات الإســلامية، ولذلك كانت كل حضـــارة تســـتطيع أن تفاخر بالعباقرة من أبناء جنس واحد وأمة واحدة، إلا الحضـــارة الإســـلامية فإنها تفاخر بالعباقرة الذين أقاموا صـــرحها من جميع الأمم والشـــعوب، فأبو حنيفة ومالك والشـافعي وأحمد والخليل وسـيبويه والكندي والغزالي والفارابي وابن رشـــد وأمثالهم، ممن اختلفت أصـولهم وتباينت أوطانهم، ليسـوا إلا عباقرة قدمت منهم الحضـارة الإسلامية إلى الإنسانية أروع نتاج للفكر الإسلامي السليم.

- ثالث خصـائص الحضـارة الإنسـانية الثانية التي أسـسـها نوح عليه السـلام: جعلت للمبادئ الأخلاقية مكانة رفيعة في كل نظمها، ومختلف ميادين نشـــاطاتها العلمية والتشـريعية والاقتصـادية والاسـرية، وروعيت المبادئ الأخلاقية تشـريعاً وتطبيقاً، قال تعالى:﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فكانت المبادئ الأخلاقية – التي هي من ثمار التوحيد – متجســـدة في شـــخص نوح عليه الســـلام وفاضت على من حوله تعلماً وتربية وسلوكاً.

- رابع هذه الخصـــائص أنها: تؤمن بالعلم في أصـــدق أصـــولها ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وترتكز على العقيدة في أصـفى مبادئها، فقد خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد، وهي ميزة تميزت بها الحضــــارات التي قادها الأنبياء والمرسلون، فقد كان الوحي السماوي من أكبر عوامل الرقي فيها[1].
- خامس هذه الخصــائص أنها: قامت على حرية المعتقد، وعلى البينة والدليل والبرهان، وحرية الاختيار العقلي والفطري والمنطقي والوجداني، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ **[هود: 28]**، فالدين والعقيدة والفكر المستنير بالإقناع والنظر والتدبر لا بالقهر والســلطان والإخضــاع، فحرية الاختيار في المعتقد والتوحيد قامت عليها الحضـــارة الإنسانية الثانية. وأما عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية، فهي:

1- العامل العقدي:

لقد كان أول شـيء بدأ به نبي الله نوح عليه السـلام قومه، أن دعاهم إلى عبادة الله وحده ولا عجب، فإن الدعوة إلى التوحيد هي أساس كل رسالة وقيام كل حضارة ربانية.

وبملاحظة الآيات التي أشارت إلى دعوة نوح عليه السلام نلحظ فيها تكرار الفكرة الكلية للأهمية، حيث بدأ الحديث فيها عن دعوته قومه لعبادة الله وحده لإشـــفاقه عليهم من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَــلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ **[الأعراف:59]**.

1وفاء محمد سعيد، المرجع السابق، ص 304.

من ثم نلحظ أن القرآن لا يكرر المعاني الفرعية، وإنما يكرر الحقيقة أو ما يسمى في الأدب: الفكرة الكلية، أو الموضوع، وعندئذ نقول: إن الأحداث التي يكررها القرآن هي ذات الحقيقة الكلية الهامة، كأحداث العقيدة، فالعقيدة هي أساس الدين كله، وكل ما في الدين جملة وتفصيلاً إنما يرتبط بالعقيدة، إما مباشرة وإما بصورة غير مباشرة، ولذلك فحقيقة العقيدة بحاجة إلى تكرار متواصل لأهميتها الخاصة، ولذلك نجد هذا المعنى يتكرر في محاورات نوح مع قومه لتأكيد العقيدة وتثبيتها في نفوسهم، فلا حضارة بدون عقيدة راسخة في قلوب متبعيها[1].

2- العامل الصناعي والاقتصادي:

يظهر هذا العامل في صناعة السفينة، فقد أمر الله عز وجل نوحاً عليه السلام بصناعة السفينة، وقد امتثل الأمر وصنع السفينة بيديه، إذ كانت سفينة نوح مؤلفة من أخشاب وحبال ومسامير ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:13]، وهذا يعني أن نوحاً عليه السلام قد استحضر موادها الأولية وألف بينها – وفق العلم الإلهي الموحى إليه في صناعة السفن – حتى صارت سفينة صاله للإبحار، ولسنا بصدد الدخول في الروايات الإسرائيلية عن حجم السفينة، بل إن الذي يعنينا أن هذه السفينة من الضخامة بمكان، بحيث صمدت أمام الأمواج المتلاطمة كما صورها القرآن ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:42]، وكانت مهمة السفينة أن يركب فيها الناجون؛ ليسلموا من الطوفان، وفي ذلك إشارة إلى أن النجاة يصنعها الإنسان بيده، ثم يتوكل على الله، وأن الأمة مطلوب منها أن تصنع سفينة نجاتها بيدها وأيدي أبنائها، لا أن تعتمد في نجاتها على سفن غيرها، ولا أن

1الأساليب التربوية في دعوة الرسل من خلال سورة الأعراف، المرجع السابق، ص 131.

تقف مكتوفة اليدين أمام طوفان الباطل والظلم؛ لتغرق فيه أو تنتظر ممن يريد إغراقها أن ينجيها، وأن الأمة التي لا تصنع ركب نجاتها بيدها، هي عرضة للهلاك والغرق والطوفان[1].

كما أن إتقان صـناعة السـفن يشـير إلى قدرة نوح عليه السـلام ومن معه على قدرتهم الصناعية في مجالات عديدة من السرائر والكراسي والأبواب والشبابيك والسلالم، وبناء البيوت للسكن وفق ما يناسبهم من مقاييس واحتياجاتهم الإنسانية من صناعة الخشب والحديد وغيرها من المعادن، ولقد ثبت مزاولة الأنبياء حِرفاً وألواناً من النشـــاطات الاقتصادية والصناعية زيادة على مهمتهم الأولى، وهي تربية الأمم ورعايتها وتعبيدها لربها، هذه المهمة التي تخرج الإنســان الذي يبني الحياة في مختلف جوانبها الحضــارية، وقد كان نوح عليه السلام رائداً في استخدام الخشب والحديد في صناعة السفن، وفعل ذلك يأمر به[2]. وكانت السفينة تحمل:

- بذور الثروة الحيوانية.
- بذور الثروة النباتية.
- الطيور بأشكالها وأنواعها.
- مقومات الحياة الاقتصادية والصناعية الجديدة.

وكان نوح عليه الســلام ومن معه متجهين نحو العمل بجدية ومثابرة، وكانت حركتهم الصناعية والاقتصادية قوية ومزدهرة مما حققوا به ازدهاراً حضارياً متميزاً، فقد أزاح عنهم

1وفاء محمد سعيد، المرجع السابق، ص 306.

2 هيشور، سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص 66.

المعوقات والعراقيل، وسهل لهم الأمور ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[هود:48]**.

ومعنى"على أمم ممن معك" أي على أمم ستكون على الإيمان من بعدك، و"وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم" أي: هي أمم الكفر التي يمتعها الله متاعاً قليلاً في الحياة الدنيا، وهي سنة من سننه تعالى، ثم يكونوا من الأشقياء وبهذا يكون الوعد في الآية بالسلام والبركات لكل مؤمن في أي زمان ومكان[1].

وكانت البركات التي صاحبت نوح عليه السلام في حياته الصناعية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية وفي المشاعر والعواطف والأرزاق وطيبات الحياة كلها، وليست البركة وفرة الماديات فقط[2].

وكانت الحياة الاقتصادية بعيدة عن الغشِّ والتطفيف وبخس الناس أشياءهم، وبعيدة عن الطمع والجشع، وكانت شريعة نوح عليه السلام حاكمة في الحياة الاقتصادية، فكانت العلاقات الاقتصادية سليمة وفق شرع الله عزَّ وجل:

- إعطاء كل ذي حق حقه.
- الوفاء بالكيل والميزان.
- تحري الحلال والحرام.
- والجميع يتقي الله في أقواله وأفعاله ونواياه.

---

1 هيشور، المرجع السابق، ص 183.

2 هيشور، المرجع نفسه، ص 184.

3- عامل البيئة:

هيأ الله أمور البيئة الجديدة لنوح عليه السلام، ونستنتج ذلك من قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]، فالبيئة كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر يرتبط معها بعلاقات متبادلة[1].

والبيئة في المدلول القرآني هي: الأرض بما عليها من مكونات وما في جوها من مسخرات[2]، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:13]، فمن مكونات البيئة التي ساعدت على نشوء الحضارة الإنسانية الثانية: السماء والأرض، والماء والهواء والنبات والحيوانات وغيرها، وكانت ولا زالت مسخّرة للإنسان.

فالمكونات في حالتها الطبيعية التي خلقها الله عليها طاهرة نقية، مباركة مستعدة لتلبية نداء العمارة، فكانت البيئة التي عاش فيها نوح عليه السلام وأتباعه بعد الطوفان تساعد على التأمل والتدبر، وهي ناطقة بوحدانية الله وصفات كماله وهي مسخرة بكل مظاهرها من قبل الله لخدمة الإنسان وتدبير أسباب عيشه وتحقيق رفاهيته وأمنه، فالمخلوقات في هذه البيئة مسخرة ومذللة للإنسان، فسبحان القائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:15]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:10].

1 صفاء موزة، حماية البيئة الطبيعية، دار النوادر، لبنان، سوريا، الكويت، الطبعة الأولى، 1431هـ- 2010م، ص 26.

2 المرجع نفسه، ص 30.

ولقد وقف نوح عليه السلام ومن معه للتأمل، والبحث واستخدم فكره وقدراته للاستفادة من مكونات البيئة، وقطف ثمار إخضاعها، فقام نوح عليه السلام بأداء مهمته في عمارة الأرض والخلافة فيها بعد أن منحه الله العقل والهداية السماوية، وعمارتها تكون بالزرع والغرس والأبنية، كما تكون بجميع وجوه التعامل المتزن الإيجابي مع مكوناتها استغلالاً وإبداعاً.

وقد دعا نوح عليه السلام في دعوته للتأمل والتفكر في مكونات البيئة التي يعيش فيها ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا* وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا* وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا* لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ **[نوح:15-20]**.

فقد كانت علاقة نوح عليه السلام بالبيئة من منطلق الحب والتقدير؛ لأنه يعلم أنه في عبادة عمارته للأرض والاستفادة من مكونات البيئة التي سخرها الله للإنسان، كما أنه هو والذين معه مع مكونات البيئة يشتركون في تسبيح الله وتمجيده، وأداء المهمة الموكلة إليه، وهي قائمة على سنن وقوانين أوضحها الله لأنبيائه ورسله، وبينها في كتابه الخاتم القرآن الكريم.

ويعدُّ نوح عليه السلام من أصدقاء البيئة حيث أسهم في تطهيرها من رجس الكفر والظلم، بدعواته المباركة وحافظ على مخلوقاتها وحمل معه من كل زوجين اثنين، فحافظ على الحيوانات والطيور والنبات من غمرة الطوفان العظيم.

4- العامل الاجتماعي:

كان المجتمع الجديد قائم على أخلاق ربانية رفيعة، فنوح عليه السلام، كان باراً بوالديه ومحباً لأتباعه وداعياً لله لهم بالمغفرة، قال تعالى: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ **[نوح: 28]**.

هو يرى النبوة بالوالدين المؤمنين "ولوالدي" وهذه التعاليم في بر الوالدين كانت مهيمنة ويتقربون بهذا البر لله، ودعاؤه "للمؤمنين والمؤمنات" يدلُّ على رحمة بينهم، ورابطة العقيدة هي التي توجه سلوك هذا المجتمع.

وكان المجتمع الجديد عميق الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، مطبقاً لتعاليم الوحي بجدية والتزام، وبأقل قدر من المعاصي، فالدين بالنسبة له هو الحياة وليس شيئاً هامشياً يفيء إليه بين الحين والحين، وإنما هو حياة الناس وروحهم، ليس فقط فيما يؤدونه من شعائر تعبدية يحرصون على أدائها بالوجه الصحيح، وإنما من أخلاقهم وتصوراتهم واهتماماتهم وقيمهم وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار والبيع والشراء والضرب في مناكب الأرض والسعي وراء الأرزاق وأمانة التعامل، وكفالة القادرين لغير القادرين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يعني هذا بطبيعة الحال أن كل أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقق بالحياة الدنيا ولا في أي مجتمع من البشر[1].

إنَّه المجتمع الذي تحقق فيه أعلى مستويات المعنى الحقيقي للأمة، فليست الأمة مجموعة من البشر جمعتهم وحدة اللغة، ووحدة الأرض ووحدة المصالح، فتلك هي الروابط التي تربط البشر في الجاهلية، فإن تكونت منهم أمة فهي أمة جاهلية، وأما الأمة بمعناها

1محمد قطب، كيف نكتب التاريخ؟، ص 100 بتصرف. (ومقارنة مع مجتمع الصحابة رضي الله عنهم ومحاولة للفهم).

الرباني، فهي الأمة التي تربط بينهم برابطة العقيدة بصـــرف النظر عن اللغة والجنس واللون ومصـــالح الأرض القريبة، فكان المجتمع مرتبط برابطة العقيدة على أســـاس الأخوة الكاملة في الدين، مما ســـاعد هذا العامل في نشـــأة الحضـــارة الإنســـانية الثانية على أســـس متينة وسليمة[1].

5- العامل الأخلاقي:

إنَّ الأخلاق الرفيعة جزء مهم من العقيدة، فالعقيدة لصـــحيحة لا تكون بغير خلق، وقد ربى نوح عليه السلام أتباعه على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة، وقد كان عليه السلام مدرسة إنسانية كبرى، كمرجعية أخلاقية رفيعة المستوى وتمثلت شخصيته بحمله الخصال الحميدة والصـــفات العلية فاضـــت على من حوله تربية وتعليما، وتزكية، فقد اشـــتهر بالعبودية الخالصة لله والشكر الجزيل وكثرة السجود والبكاء من خشية الله، ودوام الدعاء واستمراره والتوكل على الله والتجرد له وتفويض الأمر لله، وكثرة الذكر والتوبة والاستغفار والإحســان والإخلاص والصــلاح والعلم والأمانة والعفة والثبات والشــجاعة والصــبر وبرِّ الوالدين، وقد أسهمت تلك الأخلاق على التأثير على من آمن معه.

وليست الأخلاق شيئاً ثانوياً في مجتمع نوح عليه السلام، وليست محصورة في نطاق معين من نطق السلوك البشري إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله، كما أن المظاهر السلوكية كلها ذات الصبغة الخلقية الواضحة هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح؛ لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب، إنما عمل

1 محمد قطب، كيف نكتب التاريخ؟، ص 102؛ أبو بكر الصديق للصّلابيّ، ص 267.

سـلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السـلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل :أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك؟[1]

لقد تربى أتباع نوح – عليه السـلام – على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله والشـكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق، فكانت أخلاق ذلك المجتمع الجديد ربانية باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة، وغرضها رضوان الله ومثبوته.

إنَّ الأخلاق عند الأنبياء والمرسلين – ومنهم نوح عليه السلام – شيء شامل، يعمُّ كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق هي: الخشوع، والكلام له أخلاق هي: الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق وهي: الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق وهي: التوسـط بين التقتير والإسـراف، والحياة الاجتماعية لها أخلاق وهي: أن يكون الأمر شـورى بين الناس، والغضـب له أخلاق وهي: العفو والصفح، ووقوع العدوان على الأعداء تستتبعه أخلاق وهي: الانتصار، أي رد العدوان وهكذا لا يوجد شـيء في حياة المؤمن ليسـت له أخلاق تكيفه، ولا شـيء واحد ليست له دلالة واحدة أخلاقية مصاحبة.

إنَّ الله سـبحانه وتعالى قد جعل التوحيد أي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخلقي الذي رسمته آيات سـورة الإسـراء (23-38) مدحاً وذماً؛ لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق

---

1 محمد قطب، دراسات قرآنية، ص 130 بتصرف

في المقام الأول مثل: الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غروراً وأنفة أو الولوع بالمرء، والجدال بالباطل مغالبة وتطلعاً للظهور أو تقليد أو جمود على الإلف والعرف، مع ضلاله وبهتانه، وكلها – وأمثالها – أخلاق سوء تهلك أصحابها وتصدهم عن الحق بعدما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها[1].

كانت نقطة البدء في حركة التربية الربانية للحضارة الإنسانية الثانية، لقاء الأتباع بنوح عليه السلام فيحدث لهم تحول واهتداء، فيخرج ببركة الوحي المدعو من دائرة الظلام إلى دائرة النور ويكتسب الإيمان ويطرح الكفر ويقوى على تحمل الشدائد والمصائب في سبيل دينه وعقيدته وعمارة الأرض وخلافتها لمفعوم العبادة لله رب العالمين.

ولقد كانت شخصية نوح – عليه السلام – المحرك الرئيس لأفراد الحضارة الإنسانية الثانية، فشخصيته تملك قوى الجذب والتأثير على الآخرين، فقد اصطفاه الله واختاره لرسالته وقيادة البشرية في دربها الجديد بعد الطوفان العظيم، وألقى الله عليه من المحبة والمهابة والاحترام والعظمة، فدائماً يُحَب ويحاط من الناس بالإعجاب، ويلتف حوله المعجبون يلتصقون به التصاقاً بدافع الإعجاب والحب، ويضاف إلى ذلك كونه رسول الله متلقي الوحي من الله ومبلغه إلى الناس، وذلك بُعدٌ آخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه، فهو لا يحبه لذاته فقط كما يحب العظماء من الناس، ولكن أيضاً لتلك النفحة الربانية التي تشمله من عند الله المكرم بالوحي الإلهي، فارتبط به الأفراد والأتباع برباط الله في الله مع السمع والطاعة للرسول الكريم، فكانت تلك نقطة الارتكاز في

1 السيرة النبوية للصّلابيّ، ص 115.

المشـاعر كلها ومحور الحركة الشـعورية والسـلوكية كلها، فكان هذا الحب هو مفتاح التربية السـلوكية والأخلاقية، ونقطة ارتكازها ومنطلقاتها التي انطلقت بها الحضـارة الإنسـانية الثانية[1].

وكان من عوامل نشـوء الحضـارة الإنسـانية الثانية عامل الأخلاق، فقد قام المجتمع على قاعدة أخلاقية واضـحة مستمدة من أوامر شـريعة الله وتوجيهاته، وهي قاعدة لا تشـمل علاقة الجنسـين وحدها وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خالٍ من كل ما يخدش الحياء من فعل أو قول أو إشـارة، وخال من الفاحشـة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسـع بكثير من علاقات الجنسـين، فهي تمثل السياسـة والاقتصـاد والاجتماع والفكر والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات شـريعة الله، وعلاقات الناس في المجتمع قائمة على الصدق والأمانة، والإخلاص والتعاون والحب، فلا غمز ولا لمز ولا نميمة ولا قذف للأعراض[2].

ويمكننا أن نثبت دور الأخلاق في بناء الحضارة الإنسانية الثانية ونبين أن الروح الأخلاقية منحة من الله عزَّ وجل لنوح عليه السـلام وأتباعه، فقد ارتبطوا ببعضـهم البعض بروابط الحب في الله، ووشـائج عقيدة الوحدة، وألف الله بين قلوبهم، فأحدث بينهم التواد والتحاب ونزع التباغض، ولم يحدث هذا بالقوّة وقهر القانون ولكن برضـاء وطواعية داخلية، تلك هي الأخلاق الربانية يأتي بها الوحي ويغرسـها السـادة الأنبياء بقدوتهم الأخلاقية ذاتها، ويبرزون دورها في توحيد الشـعوب، والاتحاد قوّة مادية ومعنوية، والقوة

1محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، ص 34- 35 بتصرف. وانظر: علي الصلابي، السيرة النبوية، بيروت، دار ابن كثير، 2019، ص 98.

2 أبو بكر الصديق للصلابيّ، ص 268 بتصرف.

الأخلاقية من أكبر الوسـائل في تطوير الأمم، وأشـدها أثراً في بناء المجتمعات وقيام الحضـارات وتماسـكها، وكل القيم الأخلاقية قوة؛ فالصـبر قوة وصـفة للأبطال الرواد، والضـعيف لا يسـتطيع أن يتحمل، ويجزع وينهزم أمام الأحداث، والشـجاعة قوة؛ لأن صاحبها يرفض الجبن والذل، ويقاوم الظلم، والعدل قوة؛ لأنه يمثل غلبة نوازع الحق والخير على نوازع الباطل والشر داخل الإنسان ذاته، والعفة قوة؛ لأنها تقاوم الشهوات والأهواء والإغراءات، وهكذا تقام كل القيم الأخلاقية الحميدة على هذا القياس، وتثبت أنها عناصر بناء وضع للتاريخ الحضاري[1].

لقد انبثقت القيم الأخلاقية التي أسهمت في ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية عن عقيدة صحيحة قائمة على أساس من الوحي.

وقامت الحضـارة الإنسـانية الثانية على روابط أخلاقية مدعومة بحزمة من التشـريعات الربانية، وكان للمنظومة الأخلاقية الدرجة الأولى من السلوك الاجتماعي لدى الحضارات، والدارس لطبيعتها وسنن قيامها وازدهارها يتبيّن له أن جوهر الحضارة الأخلاق، وإن كان تقرير هذه الحقيقة يدهش الذين اعتادوا التعلق بالاعتبارات المادية، بل قد يثير الاشمئزاز في نفوسهم من الذين يؤمنون بدور الأخلاق في التماسك والازدهار الحضاري، وجوابنا لهم هو أنه شهد شاهد من أهل الذين جعلوهم قدوة لهم في تصورهم الحضاري وسلوكهم الاجتماعي، ولا شكَّ أن هذا حجة بالغة بالنسبة لهم[2].

ويتوقف الجوهر الأخلاقي على قدرة الاسـتعدادات النفسـية والعقلية لدى الأفراد والجماعات، والتاريخ الحضاري صريح وواضح عند الحديث عن الأوضاع الاجتماعية

---

1 عباس محمود العقاد، فلسفة القرآن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1947م، ص 25.

2 ألبرت إشفيتسر، فلسفة الحضارة: ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس للطباعة والنشر، ط1 1983، ص3.

والقضـــايا الحضــارية العامة، فهو يبين بالأمثلة والحقائق الصــارخة أن الأســس الأخلاقية ومبادئ النبل والشـــرف والتضـــحية وتجنب الإباحية ووجوب الأخذ بإملاءات الوجدان الأخلاقي وقواعد الحكمة والاعتدال ونبذ العدوان والاستغلال، وما أشبه ذلك من معانٍ وشمائل كانت دعائم تحضـــرٍ عبر التاريخ، وأركان تقدمِ الفلاح في كل الأمم، وكانت الأخلاق ميزة صـفوة الشـعوب من الأبطال والعظماء والعلماء، وأي إنســان لا تكون له قيمة حقيقية وشـخصـية إنسـانية إلا إذا كان ذا أخلاق حسـنة وخلال طيبة، وتحت تأثير القيم الأخلاقية تكونت العلاقات الإنسانية على مستوى الجامعات والأمم، وما اضمحل المبدأ الأخلاقي في النفوس إلا وتداعت الحضارة[1].

وهذه سنة من سنن الله تعالى ستظل قائمة وإن كان دور المبدأ الأخلاقي محل احتقار في نظر أهل الحلول المادية لقضـــايا التحضـــر، ويكون نظرة غريبة لدى كثير من الدارســـين والمثقفين، فإن هذا لا ينفي دوره، ولا يوقف تأثيره في الحياة، والذين تعرضـــوا للضـــعف والانحلال وأصيبت مدنياتهم بالانهيار والسقوط إن كان في الماضي القريب أو البعيد، إنما سلكوا خلاف سنن الله وما تقتضيه أبسط قواعد العدالة، ونبذوها وراء ظهورهم، وسخروا منها ومن الداعين إليها، فتلك هي قصة عاد وثمود والرومان والإغريق، منذ انتشرت فيهم الإباحية والنفعية والجرائم وغيرها من سنن السقوط الحضاري، وتلك هي قصة الدول التي أخذت تنحدر في كل من أوروبا وأمريكا، إنها القصـة التي تنتهي دوماً بالنتيجة المأسـاوية المعروفة[2].

---

1 ألبرت إشفيتسر، المرجع السابق، ص 4.

2 عبد اللطيف شرارة، الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، لبنان، ط2 1983م، ص 83.

ويبدو أنه من أكبر منزلقات الحضـــارات المادية انســـلاخها عن المبدأ الأخلاقي، التي لا تكاد تفارقه قليلاً حتى تلقى حتفها.

إنَّ حيوية حضـارة السـلام والبركات اسـتمدت قوتها من عوامل عديدة: عقدية وصـناعية واقتصادية واجتماعية وكذلك أخلاقية.

لقد كان لعامل الأخلاق أثر كبير في نشأة وريادة وقدوة الإنسانية في الحضارة الثانية، ولا يقوم صرح المجد والنهوض الإنساني المادي والمعنوي إلا على أساس من الأخلاق والآداب القويمة، ولذا جاءت الرسـالات السـماوية آمرة المؤمنين بالتحلي بمكارم الأخلاق ونبذ كل ما يؤدي إلى تدهور القيم وفك روابط المجتمع[1].

إنَّ المجتمع الفاضـل الذي أسسه نوح عليه السـلام له أدب رفيع وقيم نبيلة وأخلاق رفيعة ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس.

وأخيراً .. أودُّ أن أؤكد ســـنة من ســـنن الله، وهي أن الإحاطة بقوانين الفلك في أمرٍ كالكســوف والخســوف تنبئ بوقوعه قبل فترة من حدوثه، فلا جدال إذن في معرفة مآل أحداث الأمم ومصائر الدول والحضارات بدراسة ومعرفة قوانين وسنن الاجتماع البشري، ومن السنن الثابتة في هذا الموضوع، موضوع مصائر الحضارات، أن تفشي الظلم وسعي الناس في الأرض فساداً، مؤذن ومؤشر بخراب الأمم والدول، وعن طريق المقابلة نعرف أن للاسـتقامة وللالتزام بموجبات الصــلاح والحق والعدل والأخلاق والعمل المخلص، ســنناً لازدهار الحضارات وسيادة الأمم[2].

---

1 سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص 198.

2 المرجع نفسه، ص 201.

6- العامل السياسي:

تُعرف السياسة بأنها فن قيادة المجتمعات في دفع المفاسد وجلب المصالح، وكان نوح - عليه السلام - على مستوى عظيم في القيادة الروحية والاجتماعية والسياسية...إلخ، وتوفرت الأسباب التي ساعدته على تنظيم الحياة الجديدة على أسس وقيم ومبادئ العدل والحرية والمساواة وحقوق الإنسان، وفق الشريعة التي أوحاها الله إليه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:13]، فالشرائع بدأت بوصايا الله عزَّ وجل لنوح عليه السلام، وهي قائمة على دفع المفاسد وجلب المنافع لبني الإنسان في الحياة.

إنَّ الله عز وجل اختار للإنسانية نوح عليه السلام لنبوته ورسالته وإقامة الدور الجديد للخلافة في الأرض بعد الطوفان العظيم، ولكي ينظم أمور الحياة للأمم التي معه ويرعى مصالحها ويصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متنوع، ولقد واجه نوح - عليه السلام - التحديات والصعوبات بحكمة ودراية وعمل على حماية حقوق الناس ورفع الظم وتوفير الحاجات الضرورية لكل فرد على مقتضى النظر الشرعي وجمع بين تنفيذ أحكام الشريعة الربانية وسياسة الدنيا وفجر طاقات مجتمعة وجعله جاداً مشغولاً بمعالي الأمور لا بسفاسفها، وبعث روح الهمة في الناس، وحثهم على النشاط والعمل؛ والحركة ولا يشعرون إلا بالسعادة والحياة الطيبة في أعمالهم الدنيوية والأخروية، تلمس روح العبادة بمفهومها الصحيح في حياة ذلك المجتمع وتصرفاته ليس فقط في أداء الفرائض والتطوع بالنوافل ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل، ولكن في أداء الأعمال جميعا فالعمل في حسه عبادة يؤديه بروح العبادة:

- فالحاكم يسوس رعيته بروح العبادة.

- والمعلم يعلم تلاميذه بروح العبادة.

- والتاجر يراعي الله في بيعه وشرائه ويفعل ذلك بروح العبادة.

هذه من أهم سمات الحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السلام، ولا شكَّ أنها فترة مثالية في تاريخ الإنسانية تحتاج إلى دراسة بعمق وسبر، تساعد البشر في وضع طريقهم على السكة الصحيحة بعدما غابت عنهم المرجعيات الكبرى في العقائد والأفكار والعبادات والأخلاق والمعاملات، وتخطفق الشياطين في صحاري موغلة في الضلال.

7- عامل العمال:

كانت دعوة نوح – عليه السلام – مهتمة بالتأمل والتفكر والتدبر في الطبيعة وهذا الكون، وهذه دعوة كل الأنبياء والمرسلين، ولم تكن دعوتهم هذه تنصب على الجانب التجريبي العملي من أجل إدراك عظمة الله واكتشاف كنوز الأرض فقط، بل رافق هذا التوجيه إلى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشري ورفعه إلى مستوى السمو الروحي والأخلاقي للإنسان باعتبار هذه الدعوة المزدوجة والنظرة الثنائية تحرك في الإنسان كل مكوناته الفطرية، ولقد كان هذا أسلوب القرآن حتى في عرض وبيان القوانين والسنن الاجتماعية، وكل هذا يقود الإنسان إلى تكوين حاسة الإيمان بالله وعدالته ورحمته وجبروته وبطشه، وقد شاء الله سبحانه أن تكون الطبيعة بمكوناتها وقوانينها وأسرارها التي أودعها الله فيها مصدر عطاء لبناء الإنسان، سواء كان عالماً أو فناناً، فالعالم يتفحص ويجرب ويكتشف ويبدع من أجل الرقي الاجتماعي، والفنان يتذوق ويتأثر ويحس ويعاني، فيهز المشاعر حباً وعشقاً، فتحدو العواطف العزائم وتشحذ القدرات،

فتنطلق إلى ما وراء الأشـــياء للتعامل مع خبايا النفس ومكونات الوجود بالحب والتعاون والتعاطف، لا بالصراع والتجارب، كما يصور بعض المذاهب الفكرية[1].

وعامل الجمال في الحضـارة الإنســانية الثانية يظهر جلياً على مسـتوى صـاحب الرسـالة ومكونات الطبيعة:

- جمال المنطق واضحاً في دعوة نوح عليه السلام.
- جمال الأخلاق يظهر في تحمله.
- جمال الحرص على قومه.
- جمال أساليب الدعوة والحجج العقلية والمنطقية والوجدانية التي استخدمها.
- جمال عاطفة الأبوة الملتهبة مع ابنه.
- جمال صناعة السفينة وإتقانها.
- جمال التصوير الفني للسفينة "وهي تجري بهم في موج كالجبال" روعة وهيبة وجلالاً.
- جمال ترتيب الأمور داخل السفينة.
- جمـال الاعتـذار وطلـب المغفرة والرحمـة من ربـه" وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين".
- جمال نزول المخلوقات من السفينة في أسرابها للانطلاق في هذا الكون الفسيح ومراعيه الخصبة وأشجارها المثمرة وغاباتها الكثيفة.

1المسلمون والعصر، كتاب العصر، العدد (14)، ص 145.

- وجمال انكشاف الغمة والكرب العظيم في المشهد الكوني والنفسي في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود:44].

فعامل الجمال له حضوره وشهوده على كل مكونات الحياة في الحضارة الإنسانية الثانية وتعامل معها نوح – عليه السلام – على أعلى المستويات الذوقية الجمالية الإنسانية الرفيعة.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تعبر عن حقائق علمية وعقدية في صور تفيض بالروعة والجمال، ولنتأمل مركزي الجانب الجمالي لنعرف هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ* فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ* وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ* وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:95- 99].

تعرض هذه الآيات بعض مظاهر الحق والخلق في الحياة، فتوجه الأنظار إلى كيفية الخلق وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، والسمة البارزة المهيمنة على هذه الحقائق هي الجمال فكل المدلولات تدل على حقيقة من الزاوية الجمالية، فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنها

تتلألأ، ومما يوحي بالســمت الجمالي الصــانع لذلك التوجيه الرباني إدراك دور الجمال في ازدهـار الحياة "انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه"، " إن الله فـالق الحـب والنوى"، إنها معجزة الخلق في تزيين الحياة، وهي الظاهرة التي يجب أن تقتدى في صنع الحضارات[1].

هذه بعض عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية، وقد استطاعت أن تحقق:

- الإخاء والمحبة.
- التعاطف والتراحم.
- التساند والتعاون.
- التكافل والتضامن.
- التواصي والتناصح.
- التطهر.
- العدالة والإنصاف.
- والتقدم العقلي والمنطقي والروحي والنفسي والمادي.

وحققت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية من أبرزها:

- **العبادة لله:**

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ **[الذاريات: 56].**

- **خلافة الله في الأرض:**

1 سنن الله في قيام الحضارات وسقوطها، ص 205.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس: 73]، فقد استخلفها في الأرض لإعادة تعميرها، وإعادة الحياة فيها لتأدية الدور المنوط بالحضارة الإنسانية الثانية.

- **عمارة الأرض:**

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:61]، طلب عمارتكم لها[1].

لقد استطاع نوح عليه السلام أن يؤسس للحضارة الإنسانية الثانية بين الروائع المادية المقيدة بالفترة الزمانية التي عاش فيها، وبين المعاني الإيمانية والروحية والأخلاقية التي كانت هي الدوافع الحقيقية من وراء الإبداع الحضاري الثاني في مسيرة البشرية في روعة الإيمان والأخلاق والربانية.

رابعاً: تفسير الآيات التي تحدثت عن الجارية والفلك المشحون:

1. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ* لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:11- 12].

هذا خطاب من الله تعالى موجه إلى البشر من بعد نوح وحتى قيام الساعة باعتبار أن الذين حُملوا مع نوح عليه السلام في السفينة هم الأصول التي انحدر منها أهل الأرض من بعد نوح إلى اليوم، وذلك لكي يجعلها ربنا تبارك وتعالى تذكرة {أيّ: عبر وعظة} للناس جميعاً، لما كان فيها من نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين، ولكي تحفظها كل أذن حافظة لما تسمع من تلك الأخبار من "الوعي" بمعنى الحفظ في الذاكرة.

1يوسف القرضاوي، الإسلام حضارة الغد، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1 1995، ص 176.

- "الجارية" هي سفينة نوح عليه السلام، التي جرت في ماء الطوفان الذي أغرق المنطقة فيما بين دجلة والفرات بماء المطر وتفجير عيون الأرض بالمياه بعدد هائل من العيون، وقد علا الماء الأرض فأغرق كل من في منطقة ما بين النهرين إلا نبي الله نوح عليه السلام ومن حملهم معه من البشر والحيوان والنبات في السفينة.

فقد أثبت الأثري الدكتور (تشارلز ويلليس) في سنة 1980م أن بقايا سفينة نوح قد تم اكتشافها فوق جبل الجودي على بعد 250 ميلاً إلى الجنوب الغربي من جبل (أرارات) وجبل الجودي يمثل أعلى قمة في سلسلة جبال جنوب تركيا، إذ يزيد ارتفاعه على سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، وقد وجدت بقايا السفينة مطمورة في رسوبيات تواضعت من مياه عذبة تعلو سطح ذلك الجبل[1].

كذلك فإن سهول ما بين النهرين دجلة والفرات والتي كانت مهداً لعدد من الحضارات القديمة سجلت خبر الطوفان الذي وجدت آثاره على هيئة سمك من رسوبيات الماء العذب تغطي المساحة ما بين النهرين، وقد تم الحفر عليها في أربعة مواقع على الأقل هي: "أور"، و"إيريك"، "كيش" أو تل الأحمر، و"شورواياك" أو تل العقدة، ويتراوح عمر هذه الرسوبيات بين ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وسبعة آلاف سنة قبل الميلاد، وقد قام بدراسة هذه المواقع مجموعات متتابعة من العلماء منهم: هول وليونارد وولي، في مشروع مشترك بين المتحف البريطاني بلندن وجامعة بنسلفانيا، وقد استمرت هذه البحوث في الفترة من 1922م إلى 1934م، وكشفت عن بقايا حضارات قديمة على عمق عشرة أقدام تتكون من رواسب الماء العذب، كالغرين والصلصال والرمل التي تمتد افقياً للآلاف

1زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، 1/ 197.

الكيلومترات المربعة والتي لا يمكن أن تنتج إلا عن طوفان غامر، وقد تأكد ذلك بدراسة تمت في كهف يقع في شمال العراق يعرف باسم "كهف شانيدار العظيم" يحوي قطعاً من الرسوبيات يعود عمرها إلى مائة ألف سنة مضت، ويحوي بقايا إنسية قام بدراستها الدكتور "رالف سونسكي"[1].

وقد حملت كل رسالات السماء التي أنزلت من بعد نبي الله نوح على نبينا وعليه من الله السلام أخبار هذا الطوفان حتى تكون فيه العبرة لبني الإنسان، ويكون فيه التحذير من الوقوع في أحوال الشرك دون جدوى[2]، ويبقى وصف طوفان نوح كما جاء في القرآن الكريم هو المرجع الحق عن هذه الواقعة الكبرى في تاريخ الإنسانية، وقد لخصها القرآن الكريم في عشرات الآيات، وقد شرحتُها في هذا الكتاب:

– وفي قوله تعالى:" حملناكم في الجارية "، الضمير في حملناكم يعود إلى البشرية كلها من بعد طوفان نوح عليه السلام، وذلك منه ومن ذراريه أي: إلى البشرية كافة من بعد طوفان نوح إلى اليوم وحتى قيام الساعة؛ وذلك لأن الآية الكريمة تشير إلى حمل أصول تلك البشرية الثانية في صلب نوح ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ **[الصافات:77]**.

وإنَّ الناجين من الغرق هم أولاده وغيرهم كما هو ظاهر القرآن الكريم، وعلى هذا فمن آمن بدعوة نوح عليه السلام من غير أهله وإن نجا من الغرق إلا أنهم انقرضوا فيما بعد، ولم يبق منهم نسل، وإنما الذي بقي منهم نسل نوح عليه السلام، وبهذا صح أن نوحاً هو أبو البشر جميعاً بعد آدم[3].

1زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، 197/1.

2 المرجع نفسه، 198/1.

3 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 24.

قال ابن جرير الطبري: قالوا إنما الذين كانوا معه في الفلك قوم كانوا آمنوا به واتبعوه غير أنهم بادوا وهلكوا، فلم يبقَ لهم عقب، وإنما الذين هم اليوم في الدنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:77][1].

وتؤكد المعارف المكتسبة في علم الوراثة أن البشرية كلها من لدن أبينا آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة كانت في صلبه لحظة خلقه، ثم بدأت في التوزع إلى زوجه حواء عليهما السلام، ثم إلى أبنائهما وأحفادهما الذين مثلوا الموجة الأولى من بني آدم، ولما انحرف الناس عن منهج الله بعد عشرة قرون من خلق آدم أرسل الله تعالى إليهم عبده ورسوله نوحاً عليه السلام واستعصى على غالبية قومه قبول هدايته، فعاقبهم الله بالطوفان الذي قضى عليهم، وبقيت فضلة من مجموع المورثات التي خلقها الله الخالق البارئ المصور في أول الأمر، وأودعها أبينا آدم – عليه السلام – حتى وصل جزء منها إلى أصلاب كل من نوح عليه السلام والناجين معه؛ ليخلق الله تبارك وتعالى من تلك الأصلاب موجة البشرية الثانية إلى قيام الساعة.

ومن هنا كان الخطاب في الآية الكريمة التي نحن بصددها موجهاً إلى تلم الموجة الثانية من البشرية التي نجت من طوفان نوح، واستمرت في التكاثر إلى اليوم، وستبقى مستمرة في ذلك إلى قيام الساعة بانقسام الشيفرات الوراثية عندما تكون الخلايا التناسلية وتكاملها بالتزاوج وبالرجوع بعمليات انقسام الخلايا التناسلية إلى الوراء مع الزمن، فإن جميع الشيفرات الوراثية في خلايا السبعة ملايين إنسان الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، وفي خلايا ذراريهم إلى قيام الساعة، تلتقي مع الشيفرات الوراثية التي كانت في صلب نوح

1 أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري المسمى "تاريخ الرسل والملوك"، دار سويدان، بيروت، 1964م، 71/1.

عليه السلام وفي أصلاب الناجين معه، ومن هنا كان الخطاب لجميع أفراد موجة البشر الثانية، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ **[الحاقة:11- 12]**.

ولما كان علم الوراثة من أحدث المعارف المكتسبة؛ لأن قوانين الوراثة لم تتبلور إلا في أوائل القرن العشرين، ولما كان مرسى سفينة نوح لم يجدد إلا في نهاية القرن العشرين، كانت الومضتان المبهرتان في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة الحاقة تمثلان حقيقتين علميتين صحيحتين تشهدان للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، وهاتان الآيتان الكريمتان تمثلان كذلك وجهاً من أوجه الإعجاز الإنبائي في كتاب الله؛ لأن أحداً من الخلق لم يكن يعلم شيئاً عن تلك الحقائق في زمن الوحي ولا لقرون طويلة من بعده.

كذلك فإن في الآية الثانية عشر من هذه السورة المباركة إعلام من الله تعالى بأن كشف سفينة نوح سوف يتم في المستقبل، وقد تمَّ ذلك بالفعل في سنة 1948م ،حتى يبقى الحادث الجلل تذكرة للبشر جميعاً تعيه عقولهم، وتستوعبه آذانهم، وهو من أوجه الإعجاز الأنبائي في كتاب الله[1].

وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ **[الحاقة:11- 12]**.

وتصوّر الآية الكريمة مشهد الطوفان والسفينة الجارية، حيث يشير هذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا، وممتناً على البشر بنجاة أصولهم التي انبثقوا منها، ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغي كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها، وجرس

1زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، 199/1.

اللفظين (الجارية – واعية) يتمشـــى كذلك مع إيقاع القافية، وهذه اللمســـة ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ تلمس القلوب الخامدة والآذان البليدة ،التي تكذب بعد كل ما سبق من النذر، وكل ما سبق من المصائر ،وكل ما سبق من الآيات، وكل ما سبق من العظات، وكل ما ســـبق من آلاء الله ونعمه على أصـــول هؤلاء الغافلين، وكل هذه المشـاهد المروعة الهائلة القاصـمة تبدو ضـئيلة صـغيرة إلى جانب الهول الأكبر هول الحاقة والقارعة التي يكذب بها المكذبون، وقد شـــهدوا مصـــارع المكذبين، إن الهول في هذه المصارع على ضخامتها – محدود – إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخرة لذلك اليوم المشهود[1].

ارجع أخي القارئ واقرأ ســـورة الحاقة من البداية؛ لترى العجب العجاب والأهوال التي عليها البشرية وبني الإنسان قادمة.

2. قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:41].

في مجموعة من الآيات الكونية المبهرة التي ســاقتها ســورة يس للاســتدلال على حقيقة الألوهية وعلى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق وشـــهادة ذلك على إمكانية البعث وحتميته جاءت هذه الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾.

والخطاب في هذه الآية الكريمة موجَّهٌ إلى الناس كلهم بأن ذريتهم جميعاً من البلايين التي عاشـــت وماتت من بعد طوفان نوح إلى اليوم، والبلايين التي تملأ جنبات الأرض حالياً، وممن ســوف يخلفوننا إلى قيام الســاعة، كل هؤلاء كانوا محمولين في الفلك المشــحون في

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 3679/6.

صلب عبد الله ونبيه نوح على نبينا وعليه من الله السلام، فالموجة الثانية من ذرية آدم إلى آخر من يعقّب كانت في ســـفينة نبي الله نوح عليه الســـلام، وعلى ذلك فإن هذا النبي والذين معه في الفلك من صلب نوح يمثلون الأبوة الثانية للبشرية بعد هلاك جميع من كفر من قوم نوح بالطوفان[1].

إنَّ البلايين من بني آدم الذين سوف يخلقون من بعدنا إلى قيام الساعة كل هؤلاء كانوا في صـلب أبينا آدم عليه السـلام لحظة خلقه، فالمعارف المكتسـبة من علم الوراثة تؤكد على حقيقة أن بني آدم جميعاً كانوا في صـــلب أبيهم آدم لحظة خلقه، أي في شـــيفرته الوراثية المتخلقة في خلاياه التكاثرية والتي يخلقها ربنا تبارك وتعالى من موضع دقيق في صلب أبينا آدم عليه السـلام، شـاركته فيه أمّنا حواء التي خلقها الله عزَّ وجل من نفس الأصـل الذي خلق منه أبانا آدم عليه السلام؛ لأن الله خلق كل شيء في زوجية واضحة، حتى يبقى – ســـبحانه – منفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ثم جعل بنا تبارك وتعالى من التزاوج بين بني آدم سـنة من سـنن الحياة وسـبباً في تكاثر وعمارة الأرض، ولذلك جعل هذا الخالق العظيم الحكيم العليم الشيفرة الوراثية للإنسان في معظم خلاياه[2].

ومن المخزون الوراثي الأول الذي كان في صـــلب أبينا آدم عليه الســـلام انتقل جزء إلى صـلب نوح عليه السـلام وإلى أصـلاب من آمن به ونجا معه، وهذا الجزء يشـكل المخزون الوراثي الثاني الذي خلق منه ولا يزال يخلق منه، وسوف يظل يخلق منه كل البشر من بعد طوفان نوح إلى قيام الساعة، ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى مخاطباً الناس من بعد نوح:

---

1 زغلول النجار، من آيات الإعجاز الإنبائي والتاريخي في القرآن الكريم، 200/1.

2 النجار، المرجع السابق، 201/1.

- ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:41].

- وقال عزَّ من قائل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:11].

- وقال وهو أصدق القائلين: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3].

ومن معاني هذه الآيات القرآنية الكريمة الثلاثة، أن جميع أفراد الدورة الثانية للبشرية من لدن نجاة عبد الله ونبيه نوح عليه السلام والذين آمنوا معه من نازلة الطوفان إلى قيام الساعة كانوا جميعاً في الفلك المشحون أي: في سفينة نوح عليه السلام، ولم يكن ممكناً تصور هذه الحقيقة إلا بعد التطور الهائل والمذهل في علوم الوراثة مع بداية القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالإشارة الضمنية إلى هذه الحقيقة، والتأكيد على أنها من آيات الله في الخلق، يشهد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة، كما يشهد للآية الحادية والأربعين من سورة يس بأنها وجه من أوجه الإعجاز العلمي والإنبائي في كتاب الله القائل:﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ* إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يس:41-44].

3. قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:78-79].

بعد ذلك العمر الطويل لنوح – عليه السلام – والصراع المرير مع قومه، وما تبع ذلك من الأحداث الجسام ختم الله قصة نبيه نوح عليه السلام في سورة الصافات بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا

عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ* سَــلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ* إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِــنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ **[الصافات:78-83]**.

- قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾:

يعني أن الله تعالى أبقى له ذكراً حســـناً في الناس الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة من الأمم، وســنة الله في المحســنين أن يخلد لهم بعد ذهابهم من الدنيا الثناء الحســن والذكر الجميل يستمر لهم ذلك إلى يوم القيامة.

- قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾:

قال ابن جرير في تفسيرها: أمنة من الله لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء[1]، فقد رفعه الله إلى تلك المكانة العالية جزاءً على ما صـــبر في ذات الله على أذى قومه طويلاً، وهو أول من أوذي في الله، فبذلك يكون نوح عليه الســـلام قد ســـنَّ لكل من أوذي في الله التضحية بكل شيء في سبيل الدعوة إلى الله، ولا عجب في ذلك فهو أول الخمسة من الرسل أولي العزم[2].

وقد قدر الله بأن يجعل من ذرية نوح عماراً لهذه الأرض وخلفاء، وأن يبقى ذكره في الأجيال الآتية إلى آخر الزمان "وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ"، وتجلى في الخافقين ســـلام الله على نوح جزاء إحسانه، وأي جزاء بعد سلام الله والذكر الباقي مدى الحياة؟[3]

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾:

1تفسير الطبري، 60/21.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 81.

3 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، 2991/5.

تدلُّ هذه الآية على أن نوحاً – عليه السلام – قد بلغ الغاية في تحقيق عبوديته لله، حتى وصل منها إلى درجة الإحسان، وهو أي الإحسان كما أخبر به النبي ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه فغن لم تكن تراه فإنه يراك[1].

وقد خرج نوح عليه السلام من هذه الدنيا وهو متوج بتاج الكرامة، فصار بذلك مثالاً للمحسنين في جزائهم على إحسانهم[2].

قال الرازي: والمعنى أنا إنما خصصنا نوحاً عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوءة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن في ألسنة جميع العالمين لأجل أنه كان محسناً، ثم علل كونه محسناً بأنه كان عبداً لله مؤمناً، والمقصود منه بيان أن أعظم الدرجات وأشرف المقامات الإيمان بالله والانقياد لطاعته[3].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾:

وهذه الجملة بمثابة التعليل لما قبلها أي أن نوحاً عليه السلام حاز على تلك المناقب العالية لإتصافه بالإيمان الذي أهّله أن يكون من عباد الله المؤمنين، وكثيراً ما يمدح الله خواص عباده بالإيمان، فنوح عليه السلام قد حقق الإيمان في نفسه، وأرخص نفسه في سبيل نشره بين الخلائق، فوصل بذلك إلى أرفع المنازل وأعظمها عند الله.

- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾:

---

1 البخاري، رقم 48، وفي: صحيح مسلم، رقم 9.

2 عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 82.

3 تفسير الرازي، 130/13.

وهذه نعمة أخرى تضاف إلى تلك النعم السابقة، فالله سبحانه وتعالى يخبرنا في هذه الآية أنه امّتنّ على نوح عليه السلام ومن آمن به بأن أغرق جميع أعدائه الذين آذوه، واعترضوا سـبيله وكانوا مدة حياتهم حجر عثرة في طريق دعوته وتحقيق أهدافه، فأراحه الله منهم بإنزال العذاب عليهم بطريقة تشفي صدور المؤمنين بدعوته، حتى صار عدوهم بالأمس القريب عبرة للمعتبرين، وانتهى الصـراع المرير بين داعية الحق ودعاة الباطل إلى تلك النتيجة المؤلمة للمعاندين بما لم يكن في حسبانهم[1].

وليس هذا خاصاً بنوح – عليه السلام – وقومه، بل هو وعد من الله قطعه على نفسه لكل المؤمنين بالنصر الذي لا يتخلف، كما أنه وعيد منه لجميع المكذبين بالعذاب الذي لا يتأخر عن موعده، وتلك هي سـنة في عباده لا تتغير ولا تتبدل في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:47][2].

- قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾:

وختم الله عز وجل هذا النصّ بما يدل على أن العقائد والشرائع التي جاء بها نوح – عليه السلام – قد بقيت منها بقايا صحيحة في القرون من بعده حتى أيام إبراهيم عليه السلام وأنه اطلع عليها رغم انتشـار الوثنية في قومه فآمن بها، واتبعها إيماناً بنوح عليه السـلام واتباعاً له قبل أن يتخذه الله نبياً ويبعثه إلى قومه رسولاً فقال عز وجل:" وإن من شيعته لإبراهيم "، والآية تبين الصـلة بين نوح وإبراهيم عليهما السـلام في العقيدة والدعوة والطريق، فهو من شيعة نوح على تباعد الزمان بين الرسولين والرسالتين، ولكنه المنهج

---

1 أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، ص 82.

2 أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، المرجع السابق، ص 83.

الإلهي الواحد الذي يلتقيان عنده ويرتبطان به ويشـــتركان فيه[1]، فقد أكد الله عزَّ وجل – {إن واللام المزحلقة والجملة الإسمية} – أن إبراهيم عليه السـلام قد كان من شـيعة نوح، أي: من اتباعه عقيدة وشريعة[2].

خامساً: وصية نوح ووفاته:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل من أهل البادية عليه جبة سـيجان[3]، مزرورة بالديباج، فقال: ألا إن صـاحبكم هذا قد وضـع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسـول الله ﷺ بمجامع جُبَّته، وقال: ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟ ثم قال إنَّ نبي الله نوحاً عليه السـلام لما حضـرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين:

- آمرك بلا إله إلا الله، فإن السـموات السـبع والارضـين السـبع لو وضـعت في كفة ووضـعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السـموات والسـبع والأرضـين السـبع كن حلقة مبهمة[4] قصـمتهنّ[5] لا إله إلا الله وسـبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق.
- وأنهاك عن: الشـرك، والكبر. قيل يا رسـول الله هذا الشـرك قد عرفناه، فما الكبر؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسـنتان؟ قال: لا. قيل: هو أن يكون لأحدنا حلة حسـنة؟

---

1 السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، (2993/5).

2 الميداني، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، المرجع السابق، ص 148.

3 السيجان: جمع ساج، وهو الطيلسان الأخضر وقيل: هو الطيلسان المقوّر ينسج كذلك، كأن القلانس كانت تعمل منها أو من نوعها ومنهم من يجعل ألفه متقلبة على واو ومنهم من يجعلها على ياء، انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 2/ 432.

4 مبهمة: محرمة مغلقة، قالها الألباني في السلسلة الصحيحة،260/1.

5 قصمتهنّ: كسر الشيء وإبانته.

قال: لا. قيل: أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: لا. قيل: أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحقِّ وغمط الناس[1]. قال ابن كثير: إسناده صحيح[2].

وتوفي عليه السلام بعد أن دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، واختلف المؤرخون في سن وفاته، ولم يتعرض القرآن لذلك ، وقيل: إنه دُفن في المسجد الحرام، وقيل: إنه دُفن في بلده البقاع كرك نوح[3]، ولا دليل على ذلك.

ويروى أنَّ نوحاً عليه السلام بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل فقيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيت له بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر[4].

وبهذا نكون قد أنهينا هذا الكتاب بتوفيق الله وتسديده وترشيده وفضلة ومنّه ورحمته وإحسانه، إنني أدعو القارئ الكريم أن يقف على هذه المقاصد من قصة نوح عليه السلام:

1. الهدف الأول:

أن يشحذ عقله وفكره، "فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"، فمن هدف القصص القرآني تفكر الناس واتعاظهم؛ لأنَّ الأصل أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لما يسمعون من حوادث القصص القرآني، وأن يعتبروا بما جرى للهالكين، وأن يقتدوا بالصالحين. والتفكير

1 غمط الناس: احتقارهم والطعن فيهم.

2 البداية والنهاية، 280/1. وانظر: أبو أسامة سليم الهلالي، صحيح الأنباء المسند من صحيح الأنبياء، 2281/1.

3 عبد الله محمد، أولو العزم من الرسل نوح عليه السلام، ص 49.

4 عثمان الخميس، فبهداهم اقتده، المرجع السابق، ص 49.

واجب قرآني وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكر ويتعظ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة[1].

قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ **[الحج:45-46]**.

2. الهدف الثاني:

الاعتبار بما جرى للسابقين، والاستفادة من ذلك ولا يعتبر بهذا إلا أولو الألباب والأبصار، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ **[يوسف:111]**.

وهذه الآية الأخيرة من سورة يوسف، وهي تعقيب على قصة يوسف في السورة وتبين الهدف من ذكر القصة، وهو ليس التسلية أو المتعة القصصية أو السرد التاريخي، وإنما هو العبرة والعظة[2].

ويكون الاعتبار بقصص القرآن لأولي الألباب، وهم أصحاب العقول الواعية، والبصائر المنيرة الذين يحسنون استخدام عقولهم وحواسهم، ويستفيدون من كل ما يشاهدون أو يسمعون أو يقرؤون ويطالعون، هؤلاء المتيقظون عندما يسمعون أو يقرؤون القصص القرآني وكلامه على الأمم السابقة يعتبرون، حيث يقيسون الأحداث الماضية على حياتهم وواقعهم فيستفيدون من ذلك، ويكون الجانب الإيجابي في القصص القرآني قدوة ودرساً لهم، يقتدون فيه بمواقف الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من الصالحين العاملين ويكون الجانب

---

1 الخالدي، القصص القرآني، 1/ 33.

2 الخالدي، المرجع نفسه، 33/1.

السلبي منه المتمثل في مواقف الكفار تحذيراً لهم، فيحذرون السير على طريق أولئك، لئلا يصيبهم ما أصابهم، لكن الغافلين اللاهين لا يعتبرون من القصص القرآني، ويمرون على آياته وهم معرضون؛ لأن عقولهم معطلة وبصائرهم مطموسة[1].

3. الهدف الثالث:

إنَّ الله أراد من إيراد القصص القرآني تثبيت فؤاد النبي ﷺ وقلوب أصحابه وأتباعه وقلوب امته في أي زمان ومكان، وجاء هذا في صريح قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[هود:120]**.

وهذه الآية من أواخر آيات سورة هود، جاءت تعقيباً على ذكر مجموعة من قصص الأنبياء في السورة، والقصص المذكورة في هذه السورة هي: قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة إبراهيم، وقصة لوط، وقصة شعيب، وقصة موسى، عليهم الصلاة والسلام.

وبعد سرد القصص جاء ذكر الهدف من ذلك: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:120]، فقصص الأنبياء في القرآن تثبيت لقلب النبي محمد ﷺ؛ لأنه ليس وحده على طريق الدعوة والرسالة، وإنما سبقه على هذه الطريق إخوة أنبياء كرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام وهو يواجه كما واجهوا، ويسمع كما سمعوا، ويؤذى كما أوذوا، فعليه أن يصبر كما صبروا، لينتصر كما انتصروا.

وإنَّ قصص الأنبياء يزيد يقين رسول الله ﷺ أنه على حق، وأن أعداءه الكفار على باطل، وأنه سيظهر وسينتصر، وأن دينه سيعلو وينتشر وأن أعداءه سيهزمون ويخسرون،

1 الخالدي، المرجع السابق، 35/1.

والقصــص القرآني تثبيت لأفئدة أصــحاب رســول الله ﷺ على الحق وزيادة مواجهتهم وتحديهم وجهادهم لأعدائهم.

ويحقق القصص القرآني – ومنها قصة نوح – هذا الهدف الرائع لكل من سار على طريق رسول الله ﷺ في التربية، والدعوة وفي الإصلاح والجهاد والمواجهة، كل الدعاة والمصلحين وأبناء الأمة الغيورين تثبت أفئدتهم وقلوبهم على الحق عندما يقفون مع القصــص القرآني ويتدبرونه ويفهمونه، ويقدم لهم هذا القصــص الزاد والعدة، ويقدم لهم المعرفة والفائدة ويمنحهم الوعي والبصــيرة، ويشــحذ هممهم ويرفع معنوياتهم ويســمو بنفوســهم ويصــوب مسيرتهم وحركتهم[1].

1الخالدي، المرجع السابق، 36/1.

الخلاصة

1. كان بين آدم ونوح عشـــرة قرون كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بعث فيه نوح عليه السلام.

2. إنّ أول نبي أرسله الله إلى قوم بالإنذار والدعاء إلى توحيده نوح عليه السلام.

3. قال ابن كثير: فإن كان المراد بالقرن مائة ســـنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس فبينهما ألف ســنة لا محالة، ولا ينفي أن يكون أكثر من ذلك باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسـلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الإسـلام، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء:17]. فقد كان الجيل قبل نوح يعمَّرون الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين، والله أعلم.

4. قال الإمام الأكبر للأزهر الشـــريف د. عبد الحليم محمود: إن جميع ما يقال في ذلك ضــرب من التخمين، وإن الآثار التي رُويت في ذلك يمكن تأويلها على أنحاء شــتى، فتكون ألفاً وتكون آلاف من السنين، ولا يقين في الموضوع.

5. إن المجتمع الأول على الكرة الأرضـــية ما بين آدم ونوح عليهما الســـلام كان مجرد مجتمع فرديّ، تكوّن من بني آدم وزوجته حواء، ومنهما انبثقت أسـرة فعشـيرة وجماعة بشـــرية، أخذت في التطور وتلقي التعليم حتى وصـــلت إلى تعلم القراءة والكتابة والخياطة والطب، أي المبادئ الأساسية ليتعلم الفرد أسلوب تطور حياته، وخاصة لو علمنا بأن أول من عرف مهنة النجارة ومن ثم صناعة السفن كان نبي الله نوح.

6. إن أية حضارة بشرية كانت موجودة قبل الطوفان لم تكن أي شيء عن أعمال بناء السفن فالنشاط البشري حتى هذه المرحلة لم يكن نشاطاً بشرياً لمجتمعات منفصلة، بل هو نشاط بشري لجماعة بشرية واحدة، وهي ذرية نبي الله آدم فيما قبل الطوفان.

7. كانت أعمار الناس في بداية تاريخ البشـــرية طويلة، حيث كان يعمر أحدهم مئات السـنين فها هو نوح عليه السـلام يعيش مع قومه نبياً رسـولاً قبل الطوفان تسـعمائة وخمســين سـنة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَـنَةٍ إِلَّا خَمْسِـينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]. وهذا يعني أن نوحاً عليه الســلام عاش ألف ســنة أو أكثر، وهذا يعني أن متوسط الأعمار بين آدم ونوح عليهما السلام ألف سنة، بينما أعمار الناس في زماننا ما بين الستين والسبعين، وقلّ من يتجاوز الثمانين سنة، فمدة القرن لأبناء الجيل الواحد بين آدم ونوح عليهما الســلام هي ألف ســنة، بينما مدة القرن لأبناء جيلنا هي سبعون سنة، فالعشرة قرون بين آدم ونوح عليهما السلام كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: حوالي عشرة آلاف سنة والله أعلم.

8. ليس بين نوح وآدم رسول، وقد أدخل بينهما إدريس عليه السلام كما فعله كثير من المؤرخين، وهذا لا دليل يعتمد عليه في صـــحته، بل إن هناك جملة من الأدلة تدل على أن نوح عليه السلام هو أول الرسل بعد آدم عليه السلام، ومن تلك الأدلة:

-﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: 26].

- ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا* وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ

وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا* رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 163- 165].

9. ثبت من خلال الدراسة خطأ من قال إن إدريس بين نوح وآدم، وثبت أن نوحاً عليه السلام هو أول الرسل، كما أن الاختلاف في تقديم نوح على إدريس أو إدريس عليه لا يترتب عليه محذور شرعي طالما أن الجميع متفقون على أنهما من الأنبياء والمرسلين، ولكن لا يليق بعالم أن لا يلتفت إلى كل الأدلة من النصوص الشرعية في تقديم نوح على إدريس ثم يعتمد على ما ذكره المؤرخون الذي جلّ اعتمادهم في ترتيب الأنبياء على كتب بني إسرائيل المحرفة.

10. إن الأصل في الإنسان هو التوحيد، وإن الشرك طارئ عليه، ويستدل عليه من وجوده: إن الإنسان الأول هو آدم عليه السلام كان نبياً يَعبد الله وحده لا شريك له، وعلّم أبناءه التوحيد حيث سئل الرسول ﷺ عن آدم: أنبي هو؟ قال نعم، نبي مكلم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه.

وقد بين الله سبحانه أن البشرية كانت في أول أمرها على التوحيد، ثم طرأ عليها الشرك، وتعدد الآلهة لقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: 213].

كما أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أن الفطرة التي فطرت عليها البشرية كلها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص، في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

- قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

11. يبين الله في كتابه أن التوحيد هو أصل دعوة الرسل وإليه دعوا أقوامهم وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].
12. إن الأصل في الإنسان التوحيد وهو أول ما عرفه الإنسان، ثم بدأ الانحراف فتدرج أمره حتى وقع في الشرك وذلك هو الحق الذي لا ريب فيه، ثم إن هذا القول الموافق للقرآن والسنة والفطرة، والعقل الصريح الموافق للنقل الصحيح قد اهتدى إليه بعض علماء الآثار والباحثون في الأديان الغربيين وغيرهم منهم: أدميسون هيوبل، آندري لانج، أوانج كاي.
13. إنَّ الأصل في الإنسان التوحيد، وهذا يدحض افتراءات القائلين بأن التدين من صنع الإنسان وأول العبادة عند الإنسان كانت الآلهة المتعددة، ثم ترقت إلى عبادة إلهين، كإله النور، وإله الظلام، وإله الخير، وإله الشر، ثم ترقى إلى عبادة الله وحده.
14. إن التوحيد هو الأصل، ومغروس في الفطرة الإنسانية، وأيقنت به العقول الرشيدة، وأثبتته التجارب التاريخية الصادقة التي كان زعماؤها سادة البشر من الأنبياء والمرسلين.
15. بدأت الإنسانية بالتوحيد ثم انتهت شيئاً فشيئاً إلى الشرك والتعدد، وهذه هي الحقيقة العلمية المؤيدة بالدليل العقلي والنقلي والمنطقي والبحث العلمي.

16. إن الحقائق الدامغة حول أصـــل الإنســـان وتوحيده ربه، تقلب نظرية «أوغســـط كونت» رأســاً على عقب، فقد كان «أوغســـط كونت» يرى أن الإنســـانية بدأت التعدد والشرك ثم التوحيد خاتمة المطاف فيها، وهذه النظرية لــ «أوغسط كونت» لم تقف أمام الأبحاث الحديثة، فانهارت كما انهار غيرها من نظريات هذا المفكر الذي كان يحتل يوماً مكان الصدارة بين المفكرين، والذي أصبحت آراؤه تدرس الآن على أنها أثر تاريخي فحسب.

17. إن أول شرك وقع في بني آدم هو في قوم نوح عليه السلام، وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة المشهور، حيث ورد فيه: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض. وكما جاءت الآية التي تكلمت على الرسل بتصديره، مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْـــحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ **[التوبة: 70]**.

18. زين الشيطان لقوم نوح وجوب تعظيم الرجال الصالحين بعد موتهم، وأوحى إليهم أن انصـــبوا إلى مجالســـهم، وسموها بأسمائهم، وجاء آخرون من قوم نوح فأوحى إليهم الشيطان أن من كان قبلكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فعبدوها.

19. تعرض القرآن الكريم لمعبودات قوم نوح في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ **[نوح: 23]**.

20. إن عبادة الأوثان لم تتسرب إلى عقائد البشر بين عشية وضحاها، بل استغرقت شـوطاً من الزمن منذ الانحراف الأول، وكان للطبيعة المادية وتسلط الشيطان على الإنسـان أثر في تنمية هذا الأمر واتساعه، ولا يظن أحد أن تطور البشرية في العلوم

وتقدمها في الميدان الحضـاري لن يعيد الإنسـانية إلى مرحلة الوثنية تلك، فإننا ما زلنا نرى صوراً مختلفة في الوثنية الحديثة التي تذكرنا بالجاهلية الأولى.

21. إن الإسلام سدّ منافذ الشرك، ودعا إلى التوحيد الخالص قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ* أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ **[الزمر: 2-3]**.

22. يُقدم لنا كتاب الله العزيز معلومات هامة عن طريق القصـص القرآني عن عصـور ما قبل الإسـلام، وأخبار دولها، أيدتها الكشـوف الحديثة كل التأييد، فيقدم لنا – عن طريق قصـة موسـى عليه السـلام – كثيراً من المعلومات عن الملكية الفرعونية المتألهة وعن الأحوال السـياسـية، والاقتصـادية والاجتماعية، والأمر كذلك في قصـة إبراهيم عليه السلام، حيث تُقدم لنا الكثير عن العراق القديم.

23. إن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتا إبراهيم وموسى عليهما السلام، فهما قصـتان مسـهبتان في أجزائهما؛ ربما لأنهما ترويان نبأ الرسـالة بين أعرق أمم الحضـارة الإنسـانية، وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل، وكانت الثورة فيهما على ضـلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم.

24. إنّ هدف القرآن الكريم في قصصه ليس التاريخ فقط لهذه القصص، وإنما لتكون عبراً تفرض الاسـتفادة بما حلّ بالسـابقين، وزجراً لخصـوم الإسـلام من قريش، ثم تثبيتاً لقلب النبي ﷺ أمام أذى الكافرين، حيث شـاءت رحمة الله بالمصـطفى المختار أن تخفف عن الشـدائد، والآلام عن طريق قصـص الأنبياء والمرسـلين، حيث يذكره الله جلا وعلا بما لاقاه أخوة كرام له من عنت الظالمين، وبغي الكافرين، فما وهنوا وما استكانوا وما ضعفوا وما تخاذلوا ولكنهم صبروا وصابروا.

25. إذا قرأت ما ورد في القرآن الكريم من قصص، فإنك لن تجد شيئاً من المبالغات التي وصلت إلينا في كتب التاريخ، أو في توراة اليهود المتداولة اليوم فضلاً عن أن ما ذكره القرآن الكريم صحيحاً تؤيده الاكتشافات الحديثة، كقصة عاد وثمود الذين تبين أنهما مذكورتان في جغرافية بطليموس، وأن هناك الكثير من النصوص التاريخية التي تتحدث عن ثمود – فضلاً عن أن الكتّاب اليونان والرومان– إنما ذكروا اسم عاد مقروناً باسم إرم كما جاء في القرآن، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ **[المائدة: 48].**

26. معنى النبي: من بعث لتقرير شرع من قبله من الرسل.

27. معنى الرسول: من بعث بشرع جديد.

28. الحكمة من بعث الرسل: تبليغ وحي الله للبشر، ودلالة الناس على عبادة الله وتوحيده، وإقامة الحجة على البشر، وحاجة الخلق إلى القدوة الحسنة، وإصلاح نفوس الناس وتزكيتهم وتطهيرها، وإقامة الحجة على البشر...إلخ.

29. إن الأمور التي تفرد بها الأنبياء: الوحي، الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، لا يورثون، تخيير الأنبياء عند الموت، لا تأكل الأرض أجسادهم، العصمة.

30. نوح عليه السلام مع كونه نبياً رسولاً، هو أيضاً من أولي العزم من الرسل، وهذه مرتبة عالية لا ينالها إلا قلة من المرسلين، وهم خمس: محمد وإبراهيم ونوح وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام.

31. نوح عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض بعدما وقع الاختلاف بين البشر في التوحيد، فكفر بعضهم وبقي البعض الآخر على الإيمان.

32. الأولية المذكورة في حق نوح عليه السـلام مقيدة بما بعد وقوع الاختلاف، فلا ينافي في ذلك نبوة آدم عليه السلام، فإنه عليه السلام أرسل إلى أولاده، ولم يكن بينهم خلاف في توحيد الله وعبادته وحده دون غيره.

33. نوح عليه السلام أرسل إلى قومه وهم في ذلك الوقت أهل الأرض جميعاً بعد وقوع الشرك في الأرض، وبذلك لا يبقى تعارض بين كون آدم رسولاً وبين كون نوح هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض.

34. نوح عليه السلام الأب الثاني للبشر وهذا محل اتفاق بين العلماء من أهل الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: 77].

35. ولئن تشرف نوح عليه السلام بالأبوة للبشر بعد آدم، فلقد تشرف أيضاً بأبوته للأنبياء والمرسلين.

36. إن نوحاً عليه السلام هو الجد الأعلى لإبراهيم خليل الرحمن ومن بعده من الأنبياء، كما أن إبراهيم عليه السلام جد لجميع الأنبياء والمرسلين بعده، فهؤلاء ذرية بعضها من بعض.

37. لم يرد في الكتاب العزيز ولا في السنة الصحيحة المباركة فيما وقعتُ عليه نسب نوح عليه السلام، ولم يرد لأبيه ذكر وإن كان الحافظ ابن كثير قد ذكر في كتاب قصص الأنبياء نسب نوح عليه السلام والله أعلم بصحة ذلك.

38. نوح عليه السلام كثير الشكر لربه وهذه الصفة من الصفات التي اشتهر بها نوح عليه السلام لكونه كان يكثر منها حتى صار معروفاً بها من بين إخوانه من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى في حقه: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُوراً﴾ [الإسراء: 3].

39. إن الناس في زمن نوح ومن كان قبله إلى آدم عليهما السـلام كانوا يعمرون مدداً طويلة من العمر حتى كان عمر الواحد منهم يقترب من الألف أو يزيد، ثم إن الناس لم يزالوا في نقصان أعمارهم من ذلك الوقت إلى يومنا هذا.

40. إن دعوة الأنبياء والمرسـلين واحدة في أصـولها على مرّ الزمان والمكان، والكل منهم كان يبذل غاية جهده وأقصـى طاقاته لربط الناس بخالقهم وتوجيههم الوجهة الصـحيحة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّـلَالَةُ فَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ **[النحل: 36]**.

41. إن أساس دعوة الأنبياء والمرسلين تعبيد الناس لله تبارك وتعالى وتحقيق التوحيد له عز وجل، فلا تعلو قضـية أخرى مهما كانت أهميتها على قضـية التوحيد، وكان الأنبياء في دعوتهم للتوحيد يدعون قومهم إلى ترك المنكرات، كالتطفيف في الميزان والبغي على الناس، وهكذا الدعاة إلى الله تعالى يجب أن يكون التوحيد أسـاس دعوتهم ومنطلقها، ومع ذلك يعنون بعلاج المشكلات المتفشية في عصرهم.

42. حينما انحرفت الإنسـانية في عقيدتها شـاءت رحمة الله أن يرسـل نوحاً عليه السـلام مبشراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدالة في مجال التشريع.

43. قام نوح عليه السلام بالدعوة إلى عبودية الله وتحقيقها في نفسه حق القيام، وأخلص له في أعماله كلها، فلم يصرف شيئاً من العبادة لغير الله عز وجل، بل وجهها لخالقه سبحانه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فقد كان: « عبداً شكوراً».

وكان يسـتعيذ بالله ويحرص على طلب المغفرة والرحمة منه سـبحانه فقال تعالى مخبراً عنه عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ

لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: 47].وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: 41].وقال تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: 71].

وكان يتعبد الله عز وجل بأسمائه الحسنى ويسأل الله بها: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾. ومن أوضح الأعمال الظاهرة التي قام بها نوح عليه السلام امتثاله لأمر ربه في بناء السفينة، وقد حقق نوح عليه السلام: عبودية القلب، وعبودية الجوارح، وعبودية اللسان. وعلّمها لأتباعه ومن آمن به، ودعا إليها على بصيرة وعلم من عند الله عز وجل.

44. اهتمَّ نوح عليه السلام بدعوة قومه إلى توحيد الله وإفراد العبودية له والحث على تقواه، لأن تقوى الله عز وجل هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على منهج الله، وعدم التفلت منه هنا أو هناك وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه.

45. إن الدين المشروع عند الله تعالى هو الإسلام وأن ما سواه من الأديان غير معتد به ولا صحيح، وهذا أمر لا شك فيه ولا غموض حيث ما سوى الإسلام من الأديان إنما هو من صنع البشر أصلاً.. كالوثنية بمختلف صورها أو بعد التحريف كاليهودية والنصرانية، وأما الدين الذي أرسل الله جل وعلا به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام فهو الإسلام الذي هو عبادة الله وحده.

46. ورد اسم نوح عليه السلام في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة، وذكر نوح عليه السلام في القرآن على حالتين: **الحالة الأولى**: ذكر اسمه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه ضمن الحديث عن قصته وذلك في إحدى عشرة مرة. **الحالة الثانية**: ذكر اسمه مجرداً، أو مضافاً إلى قومه لكن ليس ضمن الحديث عن قصته وإنما هي إشارة سريعة إليه أو

إلى رســالته أو إلى شــريعته أو إلى كفر قومه وتكذيبهم وذلك بما يتفق مع موضــوع السورة أو الوحدة التي وردت فيها الإشارة في اثنتين وعشرين مرة.

47. السور التي ورد اسم نوح عليه السلام فيها مجرداً أو مضافاً إلى قومه، لكن ليس ضمن قصــته هي: ســورة آل عمران، النســاء، الأنعام، الأعراف، التوبة، هود، إبراهيم، الإسراء، مريم، الحج، الفرقان، الأحزاب، ص، غافر، الشورى، ق، الذاريات، النجم، الحديد، والتحريم.

48. والســور التي وردت فيها مشــاهد ولقطات عن قصــة نوح عليه الســلام هي: ســورة الأعراف، يونس، هود، الأنبياء، المؤمنون، الشــعراء، العنكبوت، الصــافات، القمر، ونوح، ويتفاوت المقدار المعروض من قصـــته في هذه الســـور طولاً وقصـــراً، وتعرض المشــاهد واللقطات من القصــة بالمدار الذي يتفق مع موضــوع الســورة وســياقها وشخصيتها والعبرة المقصودة منها.

49. سورة «نوح» كلها في الحديث عن قصته مع قومه، وسورة «هود» عرضت مشاهد ولقطات طويلة من قصــته، وســورة «يونس» و«الشــعراء» عرضــت لقطات أقصــر، بينما وردت الإشــارة إلى القصــة في ســورة العنكبوت في آيتين اثنتين تضــمنتا معلومة هامة لم ترد في السور الأخرى.

50. تحدثت السور العشرة السابقة عن قصة نوح عليه السلام، واللافت للنظر أنها سور مكية، وهذا يتفق مع طبيعة القرآن المكي، الذي كان يوظف القصـــص لإثبات نبوة محمد ﷺ، وبيان أن القرآن كلام الله، وتقديم الدروس والعظات للمؤمنين المستضعفين في مكة.

51. بيَّن الدكتور طه وادي في كتابه «أولو العزم من الرسل» أن: 94.54 % من الآيات في قصة نوح عليه السلام في العهد المكي، و 5.46 % من الآيات في قصة نوح عليه السلام في العهد المدني.

52. إن عناية الذكر الحكيم لقصة نوح عليه السلام بهذا الشكل المفصل في مواضع عدة يوضح مدى الجهد والجهاد اللذين بذلهما هذا الرسول الكريم على المستويين – النفسي والمادي– من أجل إعلاء كلمة الله ونشر عبادته بين قوم مشركين، خاصة أنه أول رسول من ذرية آدم عليه السلام بعد أبيه آدم.

53. وردت قصة نوح في خمسة وعشرين آية من سورة هود (25– 49]. والمشاهد واللقطات المعروضة من القصة في هذه السورة من أطول المشاهد، وتكاد تكون أطول من المشاهد المعروضة في سورة نوح نفسها التي تحدثت بالحديث عن قصته.

54. تحدثت آيات سورة هود عن إرسال نوح إلى قومه، ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، ورد الملأ الكفار من قومه عليه، وإثارة الشبهات لهم حوله وحول دعوته، وحول أتباعه، ورد نوح عليه السلام ونقض تلك الشبهات، ورفض العرض الذي قدمه له كفار قومه بطرد أتباعه المؤمنين وطلب قومه إيقاع العذاب بهم، ورد على طلبهم بحجة منطق، ودليل على طلبهم.

55. تحدثت الآيات عن إخبار الله له بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن وأمره له بصنع السفينة، وعرضت الآيات بعض ما جرى بينه وبين قومه الكفار أثناء صنعه السفينة.

56. عرضت الآيات مشاهد بدء الطوفان، وفوران التنور بالماء، وتحميل نوح في سفينته زوجين من كل حي، والمؤمنين معه، وجريان السفينة في أمواج الطوفان باسم الله.

57. صوّرت الآيات ما جرى بين نوح وابنه الكافر وهلاك ذلك الكافر غرقاً، كما صوّرت الآيات انتهاء الطوفان وزوال الماء، واستقرار السفينة بركابها على جبل «الجودي».

58. سجلت الآيات الكريمة في سورة هود سؤال نوح لربة عن غرق ابنه، وعتاب الله له وبيانه أنه ليس من أهله لأنه عمل غير صالح، وتأدّب نوح مع ربه وطلب منه المغفرة والرحمة.

59. تحدث القرآن الكريم عن حوار نوح مع ابنه في وسط الأهوال الكونية والنفسية.

60. ختمت الآيات في سورة هود بمنظر نزول نوح وأتباعه المؤمنين من السفينة إلى الأرض واستئناف الحياة من جديد على وجه الأرض، ووظفت قصة نوح للدلالة على نبوة محمد ﷺ.

61. تحدثت سورة الأعراف على إرسال الله عز وجل نوح إلى قومه، ودعوته لهم إلى عبادة الله وحده، واتهام الملأ من قومه له بأنه ضالّ، وردّه لذلك الاتهام، وتقديمه نفسه ودعوته لهم وإزالة عجبهم من جعل رسول من البشر، وتكذيبهم له، تدميرهم ونجاة الذين آمنوا معه.

62. ذُكرت في سورة «المؤمنون» جوانب من حديث الملأ من قوم نوح عليه السلام لقومه لصد الناس عن دعوة التوحيد وإفراد العبادة لله وتقواه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ* إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ* قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ **[المؤمنون: 23- 26]**.

63. في سورة الشعراء كان الحديث عن قصة نوح عليه السلام، وجاءت الآيات مختصرة مع شمول قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ* قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ* وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ* إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ* قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ* قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ* فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ **[الشعراء: 105- 122]**.

64. كان نوح عليه السلام لما واجهه قومه بالأذى واتهموه بالجنون والضلال وسخروا منه وأساؤوا الأدب معه وتوعّدوه بالرجم وغير ذلك تحدّاهم أكبر التحدي حتى قال بعض أهل العلم: إن معجزة نوح صلوات الله وسلامه عليه تتمثل في ذلك التحدي الذي تحدّى به قومه، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ* فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ* فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ **[يونس: 71- 73]**.

65. ذكر القرآن الكريم صفات قوم نوح عليه السلام والتي من أهمها: «كانوا قوماً عمين»، ظالمون، قوم سوء، الكفر، فاسقون، الكذب، الطغيان.

66. تحدث القرآن الكريم عن سيرة قوم نوح عليه السلام وأبرز أمراضهم وآفاتهم وصفاتهم، كما تحدث عن المعوقات التي منعتهم للاستجابة لدعوة التوحيد وإفراد العبادة لله عز وجل التي نادى بها نوح عليه السلام، ومن أهم المعوقات التي ذكرها الله عز وجل: المعوق الأول: الكبر، المعوق الثاني: العناد، المعوق الثالث: التقليد الأعمى، المعوق الرابع: الوثنية، المعوق الخامس: الملأ، ومن أعمال الملأ: المكر، الترف.

67. اشتكى نوح عليه السلام (في سورة نوح عليه السلام) لربه من معصية قومه ورغبهم وحثهم على الاستغفار ودعاهم إلى التفكر والتدبر في عالم الأنفس والآفاق لكنهم أصروا على العناد والاستكبار، ودعا عليهم واستجاب الله دعاءه ونزل العقاب بهم.

68. أوحى الله إلى نوح بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأمره بصناعة سفينة النجاة.

69. وصف القرآن الكريم جهد نوح عليه السلام ومن آمن به في صناعة السفينة، وبيَّن بأنها كانت بوحي من الله وبعنايته سبحانه وتعالى.

70. تحدث القرآن الكريم عن ركوب السفينة، وماذا حمل نوح عليه السلام عليها، وانطلاقها باسم الله، وحمد الله على النجاة من القوم الظالمين، وسؤال الله النزول في أرض مباركة.

71. عرض الله عز وجل في سورة القمر مشهد التنكيل والتعذيب والطوفان العظيم الذي أصاب قوم نوح، وكيف أن أبواب السماء فتحت كأن الماء يصب منها صباً على خلاف المعهود في نزول المطر، وكيف تحولت الأرض كلها إلى عيون تتفجر منها المياه بشكل عنيف قوي، ولك أن تتصور من خلال الآيات الكريمة إلى الحد الذي وصلت المياه إليه من الارتفاع.

72. في غمرة الأحداث التي تصورها الآيات القرآنية، وبين صخب الأمواج التي تنحسر وتمتد في بحر هائج ينطوي هذا المشهد فجأة بالأمر الرباني بنهاية الطوفان لنرى من ورائه مباشرة عودة الهدوء إلى الدنيا ورجوع كل شيء إلى نظامه السابق، فقد هدأت الزمجرة وسكنت العاصفة وولدت الدنيا ما كانت من جديد، فلنتأمل اللوحة الإلهية التي رسمت هذا المشهد: قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ **[هود: 44]**.

إن هذه الجمل القرآنية العجيبة تصور لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله، بل القابض عليه كله، تتصرف فيه كما تشاء في سمائه وأرضه وبحاره وجباله وفي كل شيء، ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير، أو لعظيم وحقير، ألا ترى كيف علقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كانت عليه بعد أن التقت مياه السماء والأرض على طوفان هائل مخيف على كلمة صغيرة: «قيل» لتصور لك سهولة الأمر وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدنيا وزوالها.

73. «وقيل بعدا للقوم الظالمين»: فيه تعريض بأن سالكي مسالك هؤلاء في الظلم والتكذيب يستحقون مثل هذا البعد من الله والدعاء عليهم فأولى للظالمين والمكذبين أن يعتبروا ويرجعوا عن تكذيبهم وظلمهم حتى لا ينزل الله بهم ما أنزل بأمثالهم.

74. في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ **[التحريم: 10]**، هذه الآية صريحة في بيان موقف امرأة نوح التي ظلت

على كفرها، فلم ينفعها زواجها من نبي الله نوح وعليه الســــلام، والخيانة هنا: هي الخيانة في الدين، بمعنى الكفر وليس المقصــود بها الخيانة بمعنى الزنى، قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت خيانتهما في الدين.

75. إنَّ نوحاً عليه الســلام جاء في نهاية الحضــارة الإنســانية الأولى، والتي بدأت من آدم عليه الســـلام، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد العبادة للخالق العظيم، وتطورت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت وأخطأت السبيل في قيمها الروحية، ومعرفتها بخالقها ســبحانه وتعالى، فأرســل الله عز وجل نوحاً عليه الســلام فأقام على قومه الحجة والبرهان، ومضــت ســنة الله في زوالهم واســتئصــالهم وأمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطوفان العظيم.

76. إن من أسباب زوال ونهاية الحضارة الإنسـانية الأولى عوامل عديدة من أهمها: الكفر بالله تعالى، الشـرك بالله، الظلم، تكذيب الرسـول الكريم «نوح عليه السـلام»، إيذاء نوح عليه السـلام بأنواع الإيذاء ودعاؤه عليهم، اسـتعجال العذاب، الجدال بالباطل، الترف، البطر، الاســـتكبار، المكر، الخطايا والذنوب، الاشـــتغال بالدنيا ونســـيان الآخرة، سـنة الاسـتبدال، سـنة الأجل الجماعي، سـنة الهلاك، سـنة الخسـران، الغفلة من أسباب الهلاك.

77. علينا الحذر من الانحرافات والأساطير والإسرائيليات والموضوعات التي ألصقت بقصة نوح عليه السلام، قد لعبت الإسرائيليات دوراً عكّر صفاء قصة نوح عليه السلام في كثير من الأحايين، فيرون مثلاً أن الله أمر نوحاً أن يغرس شجراً ليصنع من السفينة، وأن النبي غرس هذا الشـــجر ثم انتظره مائة عام، ثم نجره مائة عام أخرى على رواية، وفي أربعين على أخرى.

78. وهناك روايات كثيرة عن دخول الحيوانات والطيور إلى السفينة في ذيل حمار وغير ذلك من الخرافات والخزعبلات.

79. ليس هناك باحث منصف يستطيع أن ينكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً، وإلى منافاتها العقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى، وإلى تعارض بعضها مع بعضها الآخر في أحايين كثيرة.

80. تأثرت كتب التاريخ وأيام الناس وتسربت إلى كتب التفاسير أخطاء وموضوعات وإسرائيليات مخالفة للمعقول والمنقول لذلك يجب تنقية كتب التراث من الخرافات والأساطير، والاعتماد على الرؤية الحضارية القرآنية التي قدمها القرآن الكريم في قصة نوح عليه السلام.

81. افترى بنو إسرائيل على نبي الله نوح عليه السلام، فقد زعموا أنه شرب الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه وغير ذلك، فما يكون لنوح وهو من أولي العزم من الرسل أن يشرب الخمر ويسكر ويتعرى وتُرى عورته، وإذا كان كذلك فما قيل عن حام كذب أيضاً.

82. تحدّث العلماء عن طوفان نوح عليه السلام هل عمّ الكرة الأرضية؟ واختلفوا في ذلك.

83. إن قصة الطوفان العظيم شغلت حيزاً كبيراً واسترعت اهتمام الكثير من الباحثين والمتخصصين في الحقول العلمية والمعرفية والإنسانية، كعلم الأديان أو علم مقارنة الأديان أو علم الاجتماع أو الانثروبولوجيا والتاريخ مما يدل على أن حادثة الطوفان بشقيها الأسطوري والديني قد تركت واقعاً كبيراً في نفوس وعقول ووجدان الأمم اللاحقة.

84. تضـاربت المصـادر والمراجع التاريخية في قصـة الطوفان، وانفرد القرآن الكريم بالحقيقة الكاملة لقصة نوح عليه السلام والطوفان العظيم، ولا يمكن أن تضاهيها أي مدرسة من المدارس الإنسانية التي اهتمت بالطوفان، فقد حفظ الله ما يفضح بني البشر من سيرة نبيه ورسوله نوح عليه السلام لن تجد ذلك في الآثار السومرية، ولا البابلية، ولا التوراتية المحرفة ولا غيرها، فالنص القرآني بين بوضـــوح ودقة متناهية لحقيقة دعوة نوح وقصته.

85. إنَّ النص القرآني هو النص الوحيد الذي تسامى عن مهاوي الشرك وضلال الوثنية، فهو يذكر في صـــراحةٍ تامة أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم وانصـــرفوا إلى عبادة الأوثان.

86. إنَّ النص القرآني لم يعتمد على غيره؛ لأنه وحي من عند الله، بعكس المصادر البشرية القديمة، فالســـومريون بعد أن كتبوا روايتهم عن الطوفان جاء البابليون من بعدهم وأخذوا منها ما أخذوا، ثم جاءت اليهود ونقلت ما نقلت عن الاثنين، وهكذا كانت كل رواية طوفانية تعتمد على رواية ســـبقت في التدوين، ولكن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى القصة القرآنية والتي هي وحي من رب العالمين.

87. لم يكن رسول الله ﷺ ولا قومه على دراية بقصة الطوفان هذه، وإلى هذا يشير القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ **[هود: 49]**.

88. يسـأل بعض الناس عن مصـير الأطفال وما ذنبهم حتى يعمهم الطوفان؟ وقد أجاب العلماء على ذلك: لقد جرى العادة أن النقمة إذا حلت بقوم عمتهم دون تمييز بين

صغير وكبير وبار وفاجر وفي ذلك يقول جل شأنه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ **[الأنفال: 25]**.

ولا شك أن أخذ الصبية والأطفال بعموم المحنة فيه زيادة تعذيب ونكال لآبائهم وأما هم فإنهم ماتوا بآجالهم وفي الوقت الذي حدده الله لهم، وليس عليهم بعد الموت مساءلة ولا أخذ بما فعل آباؤهم، على أننا نرى الأطفال يهلكون بمختلف الأمراض والآفات والابتلاءات، كالزلازل والفيضانات والحروب وليس ذلك عقاباً للأطفال على ذنوب ارتكبوها أو آثام اقترفوها، ولكن ذلك من باب الآجال وما قدره الله عليهم لحكم عديدة وفق علمه وحكمته ومشيئته وقضائه وقدره العادل «وما ربك بظلام للعبيد»، «إن الله لا يظلم مثقال ذرة» سبحانه وتعالى، وما قاله بعض العلماء: إن الله أعقم أرحام نساء قوم نوح أربعين سنة قبل الطوفان حتى كبر من كان صغيراً واشتركوا جميعاً في الإثم فحلّ بهم غضب الله ونقمته. إن هذه الإجابة مجرد دعوى ينقضها الدليل، فلا كلام في مثل هذه الموضوعات إلا بدليل.

89. بدأت الحضارة الإنسانية الثانية بنزول نوح عليه السلام من السفينة بعد نهاية الطوفان، وبدايتها وأبعادها الأممية يتضح في قول الله تعالى: ﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[هود: 48]**، فبدأت بالسلام والبركات.

90. كان نوح عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين حققوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة ودعوا إلى ذلك، وآمن بعض الناس برسالته وربّى الناس على أخلاق وصفات حميدة، كانت متجسدة في شخصه الكريم، وفاضت على من حوله من أتباعه، فقد كان كثير الشكر لربه مخلصاً له، طارقاً لأبوابه بالدعاء، والتضرع بين يديه، وشديد

الخوف من الجليل، ومتوكلاً على العزيز الرحيم، تائباً إلى الله، وطالباً للمغفرة منه، صابراً على تكاليف الدعوة، صادقاً في دعوته، شجاعاً لا يخاف إلا الله، باراً بوالديه وغير ذلك من الأخلاق والصفات الحميدة التي عاش بها في وسط الناس، ودعا إليها وعلمها لمن استجاب لدعوته، وعمل على غرس تلك الصفات النبيلة في قلوب أتباعه قبل الطوفان وبعده، وساهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي للحضارة الإنسانية الثانية.

91. إن قيادة الحضارات وتربية النفوس والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن ونواميس تتحكم في مسيرة الأفراد والمجتمعات والشعوب والأمم، وعند التأمل في سيرة نوح عليه السلام نراه قد تعامل مع السنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة وتوفيق من الله عظيم.

92. إن السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون وعلى الإنسان في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جداً، والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سنن الله تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها واستخراج العبر منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السعيد المستقيم على أمر الله.

93. إن حركة نوح عليه السلام نحو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والحث على تقواه وعمارة الأرض على شريعة رب العالمين، اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، وتعامل مع فقه السنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته وقصته: أهمية القيادة في صناعة الحضارة، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في عمارة الأرض وخلافتها، وأهمية الوحي الذي يبين المنهج

الرباني في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتصورات، وأهمية سنة التدرج وهي من سنن الله في خلقه وكونه، وهي من السنن الهامة التي يجب على الأمة أن تراعيها وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

94. تعامل نوح عليه السلام مع سنة الله في تغيير النفوس من خلال ما أوحى الله إليه من عقائد صحيحة وتصورات سليمة وأفكار رشيدة وأخلاق رفيعة وغير اتباعه الذين آمنوا بها نحو طريق الله المستقيم.

95. تعامل نوح عليه السلام مع سنة الأخذ الأسباب في أسلوب الدعوة، والاهتمام بمن آمن معه، وصناعة الفلك، وحمل بذور الحضارة الإنسانية الثانية معه في الفلك المشحون وغير ذلك.

96. تعامل نوح عليه السلام مع سنة التدافع في عالم العقائد والأفكار والتصورات والأخلاق، وقد ظهرت بينه وبين قومه جلية واضحة.

97. تعامل نوح عليه السلام مع سنة الله في النصر التمكين، وأخذ بشروطه وأسبابه، وتحقق قول الله تعالى فيه والذين آمنوا معه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[الروم: 47]**.وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ **[غافر: 51]**.

98. إنّ مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية يعتمد على تحليل عميق للقصص القرآني واستنباط فهماً حقيقياً لمفهوم الحضارة يعتمد على الازدهار الإنساني، بخصائصه الفكرية والروحية، والوحدانية، والسلوكية، تحقيقاً لعبودية الله في الأرض وعمارتها وفق مراد الله عز وجل على مستوى الأفراد والشعوب والأمة.

99. أفضل من رسم فقه الحضارة الربانية لمسيرة الإنسانية على مرّ تاريخها الطويل، هم الأنبياء والمرسلين وبالتالي هم قادة حضارات إنسانية عظيمة أصلت وبيَّنت مفهوم التوحيد والعبادة، والقيم والعمارة، والاستخلاف، والارتقاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والروحي النفسي والعمراني والمادي المنبعثة من قيم مستمدة من الوحي الرباني.

100. إنَّ الحضارة لا تكون ذات طابع إنساني لدى الحضاريين حتى تتصف بالرقي المادي والمعنوي على حد سواء، لأن الحضارة تقاس بالتقدم العلمي والصناعي أو الآلي والعمراني عندما تعبر عن مقاصد إنسانية صالحة وتجسيداً لمبادئ خلقية فاضلة، وقمة هذا الفهم الحضاري الإنساني الرفيع تجده في قيادة الأنبياء والمرسلين للأمم والشعوب، كالحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السلام.

101. إن توحيد الله عز وجل هو الذي يعطي الحضارة الإسلامية هويتها، وهو الذي يربط بين أجزائها، وهو الذي يطبع كل ما يدخل إليها من عناصر فيؤسلمها ويظهرها من عبورها في التوحيد متجانسة مع كل ما حولها.

102. من خصائص الحضارة الإنسانية الثانية: الوحدانية المطلقة، الإنسانية، الأخلاق، العلم، الحرية.

103. عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية، عديدة منها: العامل العقدي، العامل الصناعي والاقتصادي، عامل البيئة، العامل الاجتماعي، العامل الأخلاقي، العامل السياسي، عامل الجمال.

104. كانت دعوة نوح عليه السلام مهتمة بالتأمل والتفكر والتدبر في الطبيعة وهذا الكون، وهذه دعوة كل الأنبياء والمرسلين، ولم تكن دعوتهم تنصب على الجانب

التجريبي العملي من أجل إدراك عظمة الله واكتشـــاف كنوز الأرض فقط، بل رافق هذا التوجيه إلى الجانب الانفعالي الجمالي من أجل تهذيب الإحساس البشري، ورفعه إلى مستوى السمو الروحي والأخلاقي للإنسان.

105. عامل الجمال في الحضارة الإنسانية الثانية يظهر جلياً على مستوى صاحب الرسالة، ومكونات الطبيعة ومنها: جمال المنطق وسمو الروح، وصـــفاء النفس يظهر جلياً في دعوته وأسـاليبه وحرصـه على هداية قومه، جمال الأخلاق يتضـح في صـبره وتحمله ردود الأفعال الشنيعة من قومه، جمال عاطفة الأبوة الملتهبة تظهر في عرضه على نجاة ابنه، جمال صـــناعة الســفينة واتقانها يظهر في قوله تعالى: «وهي تجري بهم في موج كـالجبـال»، جمـال الاعتـذار يظهر في طلبـه للمغفرة والرحمـة من ربـه «إلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين»، جمال نزول المخلوقات من السفينة في أسرابها للانطلاق في هذا الكون الفسـيح ومراعيه الخصـبة، أشـجارها المثمرة، وغاباتها الكثيفة، جمال انكشـاف الغمة والكرب العظيم في المشـهد الكوني والنفسـي في قوله تعالى:«وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين»، فعامل الجمال له حضـوره وشـهوده على كل مكونات الحياة في الحضـارة الإنسـانية الثانية، وتعامل معها نوح على أعلى المستويات الذوقية الجمالية الإنسـانية الرفيعة.

106. اسـتطاعت الحضـارة الإنســانية الثانية أن تحقق: الإخاء والمحبة، التعاطف والتراحم، التسـاند والتعاون، التكافل والتضـامن، التواصي والتناصح، التطهر والترقي، العدالة الإنصـــاف، التقدم العقلي والمنطقي والروحي والنفســي والمادي. وحققت الأهداف

الأساسية للحياة الإنسانية من أبرزها: العبادة لله، خلافة الله في الأرض، عمارة الأرض .

107. قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ **[الحاقة: 11- 12]**، هذا خطاب من الله تعالى موجه إلى البشر من بعد نوح وحتى قيام الساعة باعتبار أن الذين حُملوا مع نوح عليه السلام في السفينة هم الأصول التي انحدر منها أهل الأرض من بعد نوح إلى اليوم.

108. قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ **[يس: 41]**، في عدد من الآيات الكونية المبهرة التي ساقتها سورة «يس» للاستدلال على حقيقة الألوهية وعلى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق وشهادة ذلك على إمكانية البعث وحتميته جاءت هذه الآية الكريمة والخطاب فيها موجه إلى كل الناس بأن ذريتهم جميعاً: من البلايين التي عاشت وماتت من بعد طوفان نوح إلى اليوم، والبلايين التي تملأ جنبات الأرض حالياً وممن سوف يخلفوننا إلى قيام الساعة، كل هؤلاء كانوا محمولين في الفلك المشحون.

109. مقاصد قصة نوح عليه السلام كثيرة منها: أن يشحذ القارئ عقله وفكره قال تعالى: «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» فمن هدف القصص القرآني تفكر الناس واتعاظهم؛ لأن الأصل أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لما يسمع من حوادث القصص القرآني، وأن يعتبروا بما جرى للهالكين، وأن يقتدوا بالصالحين، والتفكير واجب قرآني وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكر ويتعظ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب العقل البصيرة.

110. ومن أهداف قصة نوح عليه السلام الاعتبار بما جرى للسابقين والاستفادة من ذلك ولا يعتبر بهذا إلا أولوا الألباب والأبصار، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ **[يوسف: 111]**.

111. إن الله أراد من إيراد القصص القرآني تثبيت فؤاد النبي ﷺ وقلوب أصحابه وأتباعه، وقلوباً آمنه في كل زمان ومكان، وجاء هذا في صريح قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[هود: 120]**.

112. هذا الكتاب محاولة جادة للبحث في سير وقصص أولي العزم من المرسلين معتمداً بعد الله على ما جاء في كتاب الله العزيز مسترشداً بآراء وأقوال العلماء الراسخين من أهل التفسير والفقه والفكر والتاريخ.

113. كتب هذا الكتاب بطريقة فكرية حضارية يتماشى مع روح العصر والحوار الإنساني يعتمد في بيان حقيقة قصة نوح عليه السلام وقبل كل شيء على آيات الذكر الحكيم بأسلوب عقلاني وأساس منطقي ليصل إلى أعماق الوجدان الإنساني المتعطش لمعرفة حقيقة نوح عليه السلام والطوفان العظيم وميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، ويبقى هذا الكتاب محاولة جادة لتبيين وتوضيح سيرة وقصة نوح عليه السلام.

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

«سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»

المصادر والمراجع

1. فارق حمادة، آباء وأبناء ملامح تربوية، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1418هـ- 1997م.
2. علي محمد الصلابي، أبو بكر الصديق، دار الروضة، اسطنبول، الطبعة الأولى، 2017م.
3. عبد الرحمن السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان
4. وليد خالد الربيع، أثر القرآن الكريم في بناء الشخصية الإسلامية، الطبعة الأولى، 1439هـ- 2018م.
5. زاهية الدجاني، أحسن القصص، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1416هـ- 1995م.
6. أبو حامد محمد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين لحجة الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.
7. حمد بن محمد الوهيبي، الإخلاص في القرآن الكريم، دار التوحيد، الرياض، السعودية، 1437هـ- 2006.
8. عودة بن عودة عبد الله، أدب الكلام وأثره في بناء العلاقات الإنسانية في ضوء القرآن الكريم، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2004م.
9. أحمد عبد السلام أبو مزيريق، إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2011م.
10. ياسر حسن عارف، الأساليب التربوية في دعوة الرسل من خلال سورة الأعراف،

رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، 1429هـ.
11. سعيد محمد بابا سيلا، أسباب هلاك الأمم السالفة، دار ابن الجوزي، السعودية، دار الحكمة، بريطانيا، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000م.
12. محمود عباس العقاد، الإسلام دعوة عالمية، القاهرة، 1965م.
13. يوسف القرضاوي، الإسلام وحضارة الغد، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1995م.
14. محمد متولى شعراوي، أسماء الله الحسنى، دار أخبار اليوم، القاهرة، دون تاريخ.
15. للحسين بن محمد الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم للدامغاني، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1970م،
16. زغلول النجار، الإعجاز الإنبائي والتاريخي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1434هـ- 2013م.
17. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، مكتبة المؤيد، الرياض.
18. هدى جعفر صالح العبوسي، الأنبياء في القرآن قصص وعبر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 2014م.
19. محمد أديب الصالح، الإنسان والحياة في وقفات مع آيات الله، دار العبيكان، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1428هـ- 2007م.
20. عبد الله طاهري، الإنسان والعمران من خلال قصص القرآن دارسة في فقه القصص القرآن، دار الكلمة، القاهرة، الدار المغربية، المغرب، الطبعة 1438هـ- 2018م.
21. عبد الله محمد المعتاز، أولو العزم من الرسل نوح عليه السلام، دار السلام،

الرياض، السعودية.

22. محمد عبد الله السمان، أولو العزم من الرسل، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، طبعة 1401هـ- 1981م.

23. طه وادي، أولو العزم، دار النشر للجامعات، مصر، الطبعة الثانية، 1418هـ- 1998م.

24. علي محمد الصلابي، الإيمان بالقدر، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1435هـ- 2014م.

25. محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي، البحر المحيط في التفسير ، دار الفكر ، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ.

26. محمد بن إسماعيل، البخاري: صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، 1422هـ- 2002م.

27. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط1، 1408هـ- 1990م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط4، 1419هـ- 1998م.

28. محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

29. أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك المعروف تاريخ الطبري، دار سويدان، بيروت، لبنان، 1384هـ- 1964م.

30. محمد رسمي الدكر، تأصيل التاريخ في معرفة أصول بني إسرائيل، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2019م.

31. الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، 1983م.

32. فوز بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق العبودية لمعرفة الأسماء والصفات، دار طيبة، السعودية، الرياض، الطبعة الأولى، 1421هـ.

33. مصطفى العدوي، التسهيل لتأويل التنزيل، تفسير الفرقان، أبو عبد الله مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، 1428هـ- 2007م.

34. عقيد خالد الغراوي، عمر رغد البرزنجي، التصوير القرآني وسياقاته الدلالية، دار العصماء، دمشق، ط1، 1438هـ- 2008م.

35. الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار ابن كثير، 1434هـ- 2013م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1434هـ- 2013م.

36. أبو السعود محمد العمادي الحنفي، تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض، مطبعة السعادة، القاهرة.

37. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، 1991م.

38. البغوي، تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل)، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة،1416هـ.

39. ناصر الدين البيضاوي، تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1402هـ- 1982م.

40. حسن الترابي، التفسير التوحيدي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2011م.

41. علاء الدين علي بن محمد البغدادي، تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، دار الكتب العلمية، بيروت،

42. الإمام فخر الدين الرازي، تفسير الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1417هـ- 1997م.

43. الشيخ عبد الرحمن السعدي، صححه وحققه محمد زهدي النجار، تفسير السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الدمام: دار ابن الجوزي، ط4، 1435هـ.

44. عبد الله شحاته، تفسير القرآن، دار غريب، مصر، طبعة 2000م.

45. أبو عبد الله القرطبي، تفسير القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1965م.

46. أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، تفسير الماوردي، النكت والعيون، وزارة الشؤون الإسلامية والتراث، الكويت.

47. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، القاهرة، 1975م.

48. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ- 1991م.

49. التفسير الموضوعي مجموعة باحثين، إشراف د. مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات، طبعة 1431هـ- 2010م.

50. محمد راتب النابلسي، تفسير النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، الطبعة

الأولى، 2017م- 1438هـ.

51. الإمام النسفي، تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، دار الكتاب العربي، بيروت.

52. سيد طنطاوي ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م.

53. أحمد نوفل، تفسير سورة هود، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ، 1439هـ- 2018م.

54. أحمد نوفل، تفسير سورة يونس، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1440هـ، 2019م.

55. أورانج كاي، ترجمة عبد الرؤوف شلبي، التفكير الديني في العالم قبل الإسلام، دار الثقافة، الدوحة، قطر.

56. عباس محمود العقاد، التفكير فريضة إسلامية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، الطبعة الأولى، 2008م.

57. أحمد فريد، التقوى الغاية المنشودة، دار الهيعي، الطبعة الأولى، 1414هـ-1993م،

58. أحمد خليل جمعة، التقوى، دار اليمامة، دمشق، الطبعة الأولى، 1418هـ-1998م.

59. رجاء بنت صالح بن محمد البحر، تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المكي دراسة للأسلوب والموضوع، مكتبة المتنبي، الطبعة الأولى، 1437هـ- 2016م، السعودية.

60. آمال بنت صالح نصير، التوبة في ضوء القرآن الكريم، دار الأندلس الخضراء، السعودية، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1998م.

61. أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ابن تيمية.

62. عبد الوهاب عبد الرزاق الراوي، حديث القرآن العظيم، دار العلوم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2007م.

63. أبي الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها، دار الأنصار، القاهرة، بدون تاريخ.

64. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، الحق الواضح المبين، مطبوع ضمن الكاملة في مؤلفات الشيخ السعدي، جزء العقيدة الإسلامية، مركز صالح بن صالح الثقافي، عنيزة، السعودية، طبعة 1411هـ، 1990م.

65. محمد أحمد سعيد الأطرش، حقيقة التقوى، دار الإيمان، الإسكندرية.

66. صفاء مُوزة، حماية البيئة الطبيعية، دار النوادر، لبنان، سوريا، الكويت، الطبعة الأولى، 1431هـ- 2010م.

67. فضل حسن عباس، خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، دار الفرقان، الأردن، الطبعة الرابعة، 1427هـ- 2006م.

68. الإمام السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الناشر محمد أمين دمج، بيروت، لبنان.

69. أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق د محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، 1399هـ.

70. محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية في القرآن الكريم، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ- 1988م.
71. محمد قطب، دراسات قرآنية، دار الشروق، ط5، 1408هـ- 1988م.
72. عبد الهادي بن سعد الشمراني، الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الأولى، 2006.
73. محمد محمود أحمد، موسى الخطيب، دعاء الأنبياء والرسل، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1999م .
74. محمد إبراهيم الكتاني، الدعوة إلى استقلال الفكر في الإسلام، مكتبة نظام يعقوبي الخاصة، البحرين، دار الحديث الكتانية، الطبعة الأولى، 1435هـ- 2014م.
75. عبد الرحمن حللي، رسالات الأنبياء دين واحد وشرائع عدة، مركز نماء للبحوث والدراسات، الطبعة الأولى، بيروت، 2015م.
76. عمر أحمد عمر، رسالة الأنبياء، دار الحكمة، دمشق، الطبعة الأولى، 1997م، 1418هـ.
77. عبد العزيز الحميدي، الرسائل الشمولية، دار عيون المعرفة، دار الدعوة، الإسكندرية.
78. أبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم السبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1405هـ.
79. عبد الله محمد الأمين، الرؤيا الإسلامية والمسألة الحضارية، كتاب الأمة، العدد (153) السنة الثالثة والثلاثون، طبعة 1434هـ- 2012م.

80. محمد قطب، رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، 1411هـ- 1991م.
81. الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، 1407هـ- 1987م.
82. تحقيق شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثامنة والعشرون، 1415هـ.
83. محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.
84. سفر التكوين، الإصحاح التاسع.
85. عثمان نوري طوباش، سلسلة الأنبياء، ترجمة د.وسيم إبراهيم بكراكي، اسطنبول، طبعة 2016م.
86. الألباني، السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، 1415هـ - 1995 م.
87. رمضان خميس، سنة الله في القلة والكثرة في ضوء القرآن، دار المقاصد، القاهرة، طبعة 2014هـ
88. رمضان خميس، سنة الله في إهلاك الأمم، دار المقاصد، طبعة 2014م، القاهرة
89. سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، عزة الدعاس، ط1، 1388هـ، دار الحديث، حمص، سوريا
90. محمد أمحزون، السنن الاجتماعية، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، 1432هـ-2011م

91. مجدي محمد عاشــور، الســنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصــول وضوابط، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 1427هـ- 2006م

92. شــريف الخطيب، الســنن الإلهية في الحياة الإنســانية، مكتبة الرشــد، الدار العثمانية، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1425هـ- 2004م

93. عبد الحميد طهماز، السنن الإلهية في الخلق، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، 1421هـ-2000م

94. جمال نصــار، الســنن الإلهية ودورها في البناء الحضــاري للأمة، الطبعة الأولى، 1438هـ- 2017م، اسطنبول، دار الأصول العلمية

95. أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي المسمى (الجامع الصحيح)، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار عمران، بيروت

96. محمد هيثور، سنن القرآن في قيام الحضارات، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الأولى، 1417هـ- 1997م

97. علي محمد الصــلابي، الســيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية عشر، 1433هـ- 2012م

98. هدى عبد اللطيف عريان، الشخصية النسائية في القصة القرآنية، دار غار حراء، دمشق، الطبعة الأولى، 1426هـ- 2005م

99. محمد مصــطفى الزحيلي، شــرعة الله للأنبياء، دار ابن كثير، دمشــق، الطبعة الأولى، 2018م

100. أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1421هـ- 2000م

101. علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1414هـ
102. أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي السلفي الأثري، صحيح الأنباء المسند من صحيح الأنبياء، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، 1429هـ- 2008م
103. حامد البسيوني، صحيح قصص القرآن، القاهرة، دار الحديث، القاهرة، دار البصائر، الجزائر، طبعة 1426هـ- 2005م
104. عادل صالح أبو العلا، الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف، رسالة دكتوراة جامعة أم القرى، 1416هـ، فرع الكتاب والسنة
105. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير.
106. الصواعق المرسلة لابن القيم، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، 1408هـ
107. جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية، طوفان نوح بين الحقيقة والأوهام، دار كيوان، دمشق، الطبعة الأولى، 2009م
108. أحمد محمد نباتي، عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، دار القمة، دار الإيمان، الطبعة الأولى لدار الإيمان، الإسكندرية، 2008م
109. أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، العبودية لابن تيمية، دار المدني للطباعة والنشر، جدة، 1406هـ- 1986م
110. محمد عمر الرازي، عصمة الأنبياء، ط1، 1401هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
111. سعاد ميبر، عقيدة التوحيد.
112. عبد الرزاق أدهم جميلي، العقيدة في القرآن الكريم أولو العزم من الرسل، الطبعة

الأولى، 1439هـ- 2015م، دار السواقي العلمية، عمان، الأردن

113. فاضل السامرائي، على طريق التفسير البياني، دار الفكر، عمان، الأردن، طبعة 2010م

114. عثمان الخميس، فبهداهم اقتده، قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام، دار إيلاف الدولية، الكويت، الطبعة الأولى، 1431هـ- 2010م

115. تقديم محمد عبد الرزاق حمزة، الفتاوى الحموية، لابن تيمية، طبعة مطبعة المدني، القاهرة، مصر، 1403هـ

116. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1410هـ

117. محمد علي الشوكاني، فتح القدير في الجمع بين فني التفسير، دار الفكر، بيروت، نشر وتوزيع المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

118. أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية.

119. تحقيق محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمن عميرة، الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، 1405هـ، دار الجيل، بيروت

120. وفاء محمد سعيد طيب، فقه السنن الإلهية، دار الأمة، جدة، السعودية، الطبعة الأولى، 1437هـ- 2016م

121. علي محمد محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الخامسة، 1430هـ- 2009م

122. عبد اللطيف شرارة، الفكر التاريخي في الإسلام، دار الأندلس، لبنان، الطبعة

الثانية، 1983م

123. عباس محمود العقاد، فلسفة القرآن، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1369هـ- 1947م.

124. عبود الراضي، في رحاب قصص الأنبياء والرسل، الطبعة 1435هـ- 2017م، دار الكتب العلمية، العراق، بغداد، شارع المتنبي

125. السيد عبد المقصود عسكر، في صحبة الرسل الكرام، دار البشير، طنطا، مصر، طبعة 1420هـ- 2000م

126. سيد قطب، في ظلال القرآن، الطبعة الشرعية الثامنة والعشرون، 1430هـ- 2009م

127. عبد الستار المرسومي، الفئات المليحة للأمثال الصريحة في القرآن الكريم، دار المعراج، الطبعة الأولى، 1437هـ- 2016م، دمشق

128. محمد أبو زهرة، القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة.

129. وهبة الزحيلي، القصة القرآنية هداية وبيان، دار الخير، دمشق، الطبعة الأولى، 1413هـ- 1992م.

130. عمر إيمان أبو بكر، قصة نوح عليه السلام، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1428هـ- 2017م.

131. الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون، دار الرشاد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م.

132. الشيخ القاضي محمد دالي بلطة، قصص الأنبياء، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1418هـ- 1997م.

133. عبد الوهاب النجار، قصـــص الأنبياء، دار ابن كثير، دمشـــق، بيروت، الطبعة الرابعة، 1422هـ- 2002م.

134. محمد متولي شعراوي، قصص الأنبياء، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2011م.

135. مصـــطفى العدوي، قصـــص الأنبياء، مكتبة مكة، طنطا، مصـــر، الطبعة الأولى، 1436هـ- 2015م.

136. عمر الأشـــقر، قصـــص التوراة والإنجيل، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1432هـ- 2011م.

137. فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم.

138. صـــلاح الخالدي، القصـــص القرآني، دار القلم، دمشـــق، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1998م

139. عماد زهير حافظ، القصـــص القرآني، دار القلم، دمشـــق، الطبعة الأولى، 1410هـ- 1990م.

140. أبو بكر الجزائري، قصـــص المرســـلين في كلام رب العالمين، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، 1420هـ.

141. هشام محمد مياركي، قضية الطوفان بين الأسطورة والدين، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1436هـ- 2016م.

142. منصـور بن راشـد التميمي، القمة في ضـوء عقيدة أهل السـنة والجماعة، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1435هـ- 2014م.

143. جمع وتخريج ســـليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل ، خالد بن علي بن محمد

المشيقح، القول المفيد على كتاب التوحيد شرح محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، 1418هـ- 1997م.

144. تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية، كتاب النبوات، دار أصول السلف، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000م.

145. جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الكشاف للزمخشري، دار أفنان، طهران

146. محمد قطب، كيف نكتب التاريخ، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى، 1412هـ.

147. محمد مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

148. محمد علي البار، الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1432هـ- 2011م.

149. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، 1412هـ.

150. محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل للقاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1398هـ- 1978م.

151. محمد العزالي، المحاور الخمسة للقرآن، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م.

152. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حاكم قطر، الدوحة، الطبعة الأولى، رمضان، 1404هـ- 1984م.

153. الظاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس.

154. عقيل حسين عقيل، مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1431هـ- 2010م.

155. تحقيق محمد حامد الفضـــي، مدارج الســـالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1412هـ.
156. أحمد الشرقاوي، المرأة في القصص القرآني، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، 1421هـ- 2001م.
157. الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية- 1390هـ- 1970م.
158. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مسلم: صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م.
159. المسلمون والعصر، كتاب العصر، العدد (14).
160. أحمد بن حنبل، المسند، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
161. محمد أبو فارس، مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، عمان، الأردن، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 1436هـ- 2015م.
162. عفيف طبارة، مع الأنبياء في القرآن الكريم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
163. عبد الوهاب بن لطف الديلمي، معالم الدعوة في قصـــص القرآن الكريم، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، الطبعة الثانية، 1419هـ- 1998م.
164. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، 1404هـ- 1984م.
165. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الطبعة السادسة.
166. الراغب الأصـفهاني، تحقيق صـفوان عدنان داودي، مفردات ألفاظ القرآن، دار العلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1412هـ.
167. أحمد الكبيســـي، من أنباء القرى، برنامج أحســـن القصـــص، الإعداد للنشـــر

والمداخلات، فاطمة محمد ستون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1428هـ- 2007م .

168. محمد سعيد رمضان، من روائع القرآن - تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1420 هـ - 1999 م.

169. مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، دار القرآن، 1400هـ- 1980م

170. محمد سرور بن نايف زين العابدين، منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثالثة، 1409هـ- 1988م.

171. محمد قطب، منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، ط5، 1403هـ- 1983م.

172. أحمد سليمان الرقب، منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، دار المأمون، الأردن، طبعة 1431هـ- 2010م.

173. محمد دراز ، النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن ، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض. السعودية، الطبعة الأولى، 1417هـ – 1997م.

174. محمد ديب الجاجي، النسق القرآني دراسة أسلوبية، مؤسسة علوم القرآن، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1431 هـ - 2010م.

175. عبد الحميد الفراهي، نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1433هـ- 2012م.

176. محمد السيد الوكيل، نظرات في أحسن القصص، الدار الشامية، بيروت، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1994م.

177. برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات

والسور للبقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1415هـ- 1995م.

178. مجد الدين أبو السعادات المبارك الجزري، تحقيق محمود محمد الطناجي، طاهر الزاوي، النهاية لابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى.

179. عقيل حسين عقيل، نوح عليه السلام من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1432هـ- 2011م.

180. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نوح وقومه في القرآن المجيد، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ- 1990م.

181. ابن القيم الجوزية، نونية ابن القيم الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

182. عبد العزيز ناصر الجليل، وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، دار طيبة، السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، 1419هـ- 1998م.

183. عبد العزيز ناصر الجليل، ولله الأسماء الحسنى، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة، 1430هـ- 2009م.

184. علي محمد محمد الصلابي، المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام – الحقيقة الكاملة – ، دار ابن كثير ، بيروت ، لبنان ، 1440هـ – 2019م.

الفهرس

إهداء **2**

مقدمة 3

المبحث الأول: ما قبل نوح عليه السلام **24**

أولاً: المدَّة بين آدم ونوح عليهما السلام: 24

ثانياً: ليس بين آدم ونوح رسول: 28

ثالثاً: الأصل في الإنسان التوحيد: 35

رابعاً: علماء الآثار والباحثون في الأديان وأصل التوحيد: 49

خامساً: أول شرك وقع في بني آدم: 52

سادساً: القرآن الكريم مصدر تاريخي: 58

المبحث الثاني: دعوة نوح عليه السلام **67**

أولاً: النبي والرسول والنبوة والرسالة: 67

ثانياً: مضمون دعوة نوح عليه السلام: 100

المبحث الثالث: مواقف قوم نوح عليه السلام من دعوته **154**

أولاً: مواقف قوم نوح من دعوته في سورة هود: 156

ثانياً: موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الأعراف: 183

ثالثاً: موقف الملأ في "سورة المؤمنون": 194

رابعاً: موقف الملأ من قوم نوح من دعوته في سورة الشعراء: 205

خامساً: نوح التحدي الأكبر: 217

سادساً: صفات قوم نوح عليه السلام: 223

سابعاً: معوقات قبول دعوة نوح عليه السلام: 229

المبحث الرابع: بيان نوح لربه تجاه قومه وشكواه من معصيتهم له ودعاءه عليهم في سورة نوح **243**

أولاً: بيان نوح لربّه وما قام به تجاه قومه: 243

ثانياً: ترغيب نوح عليه السلام قومه وحثهم على الاستغفار: 249

ثالثاً: دعوة نوح عليه السلام إلى التفكر في آيات الله في الأنفس والسماوات والأرض وما فيهن: 260

رابعاً: شكوى نوح عليه السلام من معصية قومه له ودعاؤه عليهم: 271

المبحث الخامس: سفينة نوح والطوفان العظيم........ **281**

أولاً: أوحى الله لنوح بأن لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأمره ببناء الفلك. 281

ثانياً: ركوب سفينة النجاة: 291

ثالثاً: طريقة إغراق الأرض بالماء وحدوث الطوفان: 302

رابعاً: حوار نوح مع ابنه في وسط الأهوال الكونية والنفسية: 308

خامساً: الأمر الرباني بنهاية الطوفان: 313

سادساً: سؤال نوح عليه السلام ربه في شأن ابنه وطلبه المغفرة والرحمة من الله عز وجل: 323

سابعاً: زوجة نوح عليه السلام الكافرة: 330

ثامناً: أسباب هلاك قوم نوح الكافرين: 336

تاسعاً: الحذر من الإسرائيليات التي شوهت قصة نوح والطوفان العظيم 365

المبحث السادس: ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية **379**

أولاً: إسهام صفات نوح عليه السلام وأخلاقه في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية: 391

ثانياً: فقه نوح عليه السلام في التعامل مع السنن الربانية: 419

ثالثاً: عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية: 439

رابعاً: تفسير الآيات التي تحدثت عن الجارية والفلك المشحون: 465

خامساً: وصية نوح ووفاته: 476

الخلاصة **481**

المصادر والمراجع **507**

الفهرس........ **525**

كتب صدرت للمؤلف **527**

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.
19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23. الشيخ عمر المختار.

24.عبد الملك بن مروان وبنوه.

25.فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26.حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27.وسطية القرآن الكريم في العقائد.

28.فتنة مقتل عثمان.

29.السلطان عبد الحميد الثاني.

30.دولة المرابطين.

31.دولة الموحدين.

32.عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33.الدولة الفاطمية.

34.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39.المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41.الشورى في الإسلام.

42.الإيمان بالله جل جلاله.

43.الإيمان باليوم الاخر.

44.الإيمان بالقدر.

45.الإيمان بالرسل والرسالات.

46.الإيمان بالملائكة.

47.الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

48.فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

49.المعجزة الخالدة.

50.الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51.البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52.التداول على السلطة التنفيذية.

53.الشورى فريضة إسلامية.

54.الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55.العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56.المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57.العدل في التصور الإسلامي.

58.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59.الأمير عبد القادر الجزائري.

60.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61.سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63.أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».

64.المشروع الوطني للسلام والمصالحة

65.الجمهورية الطرابلسية (1918 ـ 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

66.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

67.المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ـ الحقيقة الكاملة ـ

68.نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

* * *



د. علي محمَّد محَّمد الصَّلاَّبي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

. زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
- سير الخلفاء الراشدين.
- الدولة الحديثة المسلمة.
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية.
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة.
- نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.